الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ثريا لاين
SORAYA LANE

# رحلة القلوب

## في عرض البحر

## Voyage of the Heart

رواية

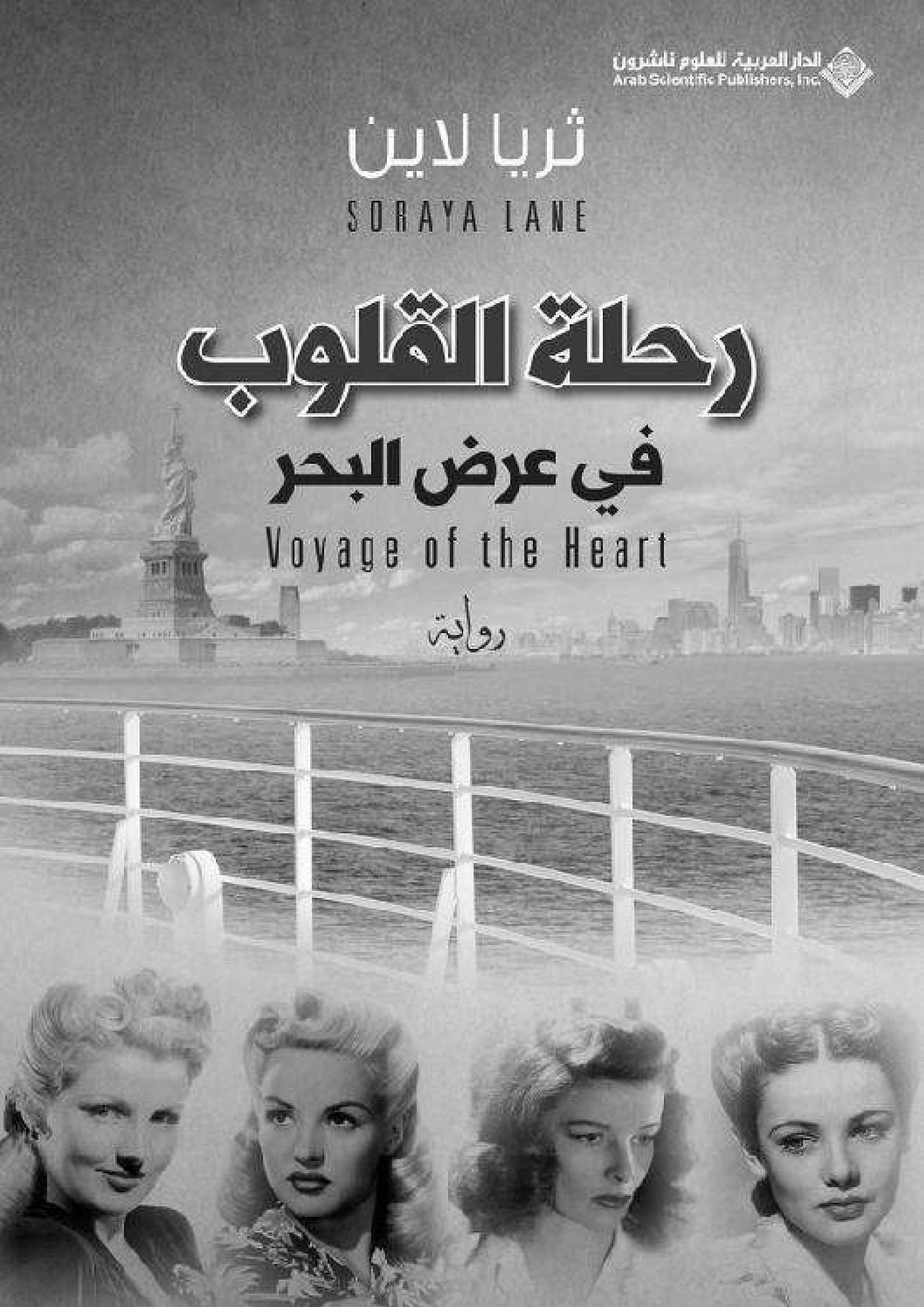

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ثريا لاين
SORAYA LANE

# رحلة القلوب

## في عرض البحر

## Voyage of the Heart

رواية

# رحلة القلوب

# في عرض البحر

**VOYAGE OF THE HEART**

# رحلة القلوب

# في عرض البحر

**VOYAGE OF THE HEART**

**رواية**

**ثريا لاين**

**Soraya lane**

**ترجمة**

**ربى خدام الجامع**

**مراجعة وتحرير**

**مركز التعريب والبرمجة**

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

**Voyage of the Heart**

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

LAKE UNION Publishing, Seattle

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2014 by Soraya Lane

This edition made possible under a license arrangement originating with Amazon Publishing.www.apub.com

All rights reserved

Arabic Copyright © 2016 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

**الطبعة الأولى: 2016 م - 1437 هـ**

**ردمك** 978-614-02-2823-8

**جميع الحقوق محفوظة للناشر**

**الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل
**Arab Scientific Publishers, Inc.** S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

# إهداء

**لكن لا شيء يضاهي إحساسي بالأمومة**
**الذي منحني إياه طفلاي الرائعان.**

# مقدمة المترجم

لا أعتقد أنها مجرد صدفة، ففي زمن الحرب قد لا تعني الصدفة شيئاً بالرغم من أنها قد تنقذ حياتك أو قد تودي بها، لكن من يعيش حالة حرب يدرك أنه يعيش في زمن اللامعقول، حيث يضحي كل شيء معقولاً.

أجل، ليست بصدفة تلك التي جعلت الكاتبة تختار هذا الموضوع لتنسج أحداث روايتها حوله في زمن تعم فيه الحروب كزمننا هذا، وليست بصدفة تلك التي جعلتني أترجم هذا الكتاب وأنا أعيش وسط حرب لم تهدأ منذ خمس سنوات. وبالتالي، لم يكن لقائي بعرائس حرب حقيقيات في بلادي وخارجها مجرد صدفة، بل إنه الواقع بكل ما فيه من تفاصيل مؤلمة.

لقد أصبحت أي فتاة في بلادي مشروع عروس حرب، وأصبح حلم الفستان الأبيض بعيد المنال بسبب الظروف التي لم تترك أي مساحة للفرح، وتحولت حفلات الزفاف إلى حفلات وداع للعرائس اللواتي قدر لهن أن يسافرن ويتخلين عن أبسط حقوقهن مقابل تكوين أسرة في كنف رجل. ولهذا، فإنني إن أنسَ فلن أنسى تلك الفتاة التي لم يتجاوز عمرها 19 عاماً التي التقيتها أثناء سفري بعدما فقدت زوجها أثناء الحرب، وكان قد ترك لها طفلين، لكنها آثرت أن تتزوج من شخص بالكاد تعرفه بعدما حرمها أهل زوجها من طفليها. كما لن أنسى تلك الفتاة الجميلة التي تركت أهلها ووظيفتها، وسافرت لتلتحق بخطيبها في دولة أجنبية، وكذلك تلك الصبية التي لم يكف طفلها عن البكاء طيلة الرحلة فأخذت تندب حظها لأن زوجها اضطر للسفر قبلها بسبب استدعائه للخدمة العسكرية. وأخيراً، أتذكر ما قالته لي صديقتي يوماً، تلك الجذابة التي أصبح وجوم الأرامل وشحوبهن يعتريها غداة سفر خطيبها المفاجئ، لكنها بقيت تقف إلى جانبه طيلة تلك الفترة العصيبة، ومازالت تقوم برحلات مكوكية بين دمشق وبيروت لترتب أمور لم الشمل في السفارة هناك؛ بعدما أصبح خطيبها لاجئاً في دولة أوروبية، إذ قالت لي حينها والدموع تملأ عينيها: «كل ما كنت أحلم به هو رجل يحبني وشقة صغيرة متواضعة في أي مكان في بلدنا».

وتصبح فرص المرأة في تكوين أسرة أقل وأضعف في حال كانت هي من يضطر للسفر؛ خاصة إن كانت ترغب بالزواج من ابن بلدها في دولة أجنبية، وفي كثير من الأحيان لا تجد أمامها سوى خيار الزواج من أجنبي، لتبدأ حينها معاناتها من الغربة الحقيقية التي وصفتها الكاتبة بشكل دقيق في هذه الرواية.

والسؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن أي شخص هنا – والذي أوردته الكاتبة على لسان شخصية مادلين في هذه الرواية – هو بماذا يجب على المرأة أن تضحي أكثر من ذلك حتى تكون أسرة وتعيش في كنف رجل حقيقي؟ ومن الذي سيعوضها عن خسائرها في حال فشل زواجها؟ وجوابي: لا أحد يستطيع أن يعوضها، فالزواج وقت الحرب أشبه بلعبة قمار: إما أن تربح كل شيء أو تخسر كل شيء؛ وعليك في كلتا الحالتين أن ترضى بنصيبك.

قد تكون النساء الإنكليزيات اللواتي سافرن ليلتحقن بأزواجهن في أمريكا أوفر حظاً من السوريات، نظراً إلى كونهن وجدن من يستقبلهن بحفاوة على إيقاع لحن: «ها قد وصلت العروس» الشهير، أما السوريات فقد اضطررن للسفر بطرق غير شرعية في معظم الأحيان، وسلكن طريق الهجرة بلا عودة، فقط لتبقى كل منهن بجوار من أحبته واختاره قلبها في زمن عز فيه كل شيء، حتى الرجولة الحقيقية. وقد تكون وسائل التواصل الاجتماعي قد حافظت على الكثير من العلاقات في هذا الزمن، كما خلقت نوعاً جديداً من العلاقات لم يعرفه البشر في القرن الماضي، إلاّ أن مأساة الزواج في الغربة مازالت مستمرة، ومازالت المرأة هي من تدفع الثمن الأكبر في تلك المعادلة.

**وأخيراَ، لا بد لي أن أعبر عن مدى إعجابي الكبير بالكاتبة ثريا لين التي سلطت الضوء بكل حنكة وبإحساس فريد على هذه المشكلة التي تعاني منها المرأة في كل مكان، والتي لا يستطيع أي رجل وصفها ووضع يده على الجرح تماماً بتلك الدقة والإحساس العالي كما فعلت هي، لتصبح هذه الرواية فاتحة لنوع أدبي جديد برأيي؛ ألا وهو الأدب الواقعي النسوي الذي لا يتطرق فقط إلى مشاعر المرأة وعواطفها ويسعى إلى مساواتها مع الرجل فحسب، بل يحاول أن يسلط الضوء على مشكلاتها مع إيجاد الحلول لها بطريقة مميزة.**

**المترجمة**

**ربى خدام الجامع**

**دمشق في 2016/02/26**

# تصدير

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، تجاوز عدد النساء البريطانيات اللواتي تزوجن من جنود أمريكان مئة ألف امرأة. وقد سعت أولئك النسوة– وبعضهن قد أنجبن أطفالاً– جاهدات للسفر إلى أمريكا ليلتحقن بأزواجهن. وفي عام 1945، أخذت النساء اللواتي تزوجن خلال الحرب يرابطن أمام مبنى سفارة الولايات المتحدة في لندن للمطالبة بسفن تنقلهن إلى هناك.

وفي التاسع والعشرين من شهر كانون الأول من العام 1945، أصدر الكونغرس الأمريكي قانون «عرائس الحرب»، والذي سمح للنساء اللواتي تزوجن خلال الحرب ولأولادهن القاصرين الذين أنجبنهن من مواطنين أمريكيين بدخول أمريكا.

هذا وقد أطلقت وزارة الدفاع بعد ذلك مشروع «جولة فوط الأطفال»؛ وهي عملية كانت ترمي للم شمل الأزواج مع زوجاتهم الأجنبيات وأولادهم في أمريكا. وهكذا، أبحرت أولى السفن باتجاه أمريكا في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني من العام 1946، ووصلت إلى ميناء نيويورك، حيث تم استقبالها على أنغام لحن: «ها قد وصلت العروس».

# القسم الأول

# الفصل الأول

**شباط 1946**

أمسكت مادلين باركر بقبعتها، وضمتها إلى صدرها بقوة، وأخذت تلوّح مودعة والديها، ثم أخذت السفينة تئن وتميد تحت قدميها؛ وكأن ثقل كل أولئك النسوة قد أرهق كاهلها. وهنا، تدفقت نساء ينتعلن أحذية ذات كعوب عالية فوق خشب السفينة، وسكنت أصواتهن الرفيعة طبلتَي أذنيها. إلاّ أن كل ذلك لم يمنع إحساسها بالإثارة والحماسة اللتين نتجتا جراء تلك الضربات المنتظمة داخل معدتها. أجل، كان ذلك هو السبب.

كانت تلك السفينة التي سبق لها أن نقلت جنوداً لخوض الحرب تقلهنّ الآن وتأخذهنّ في رحلة في عرض البحر ليلتحقن بأزواجهن؛ حيث ستستقبلهن حياة جديدة بعيداً عن لندن، وكأنهن كن يسافرن إلى عالم آخر.

سمعت مادلين صرخة دفعتها للالتفات، فرأت شابة وقعت على ركبتيها، وأخذت تبكي وتنتحب حالما ابتعدت السفينة. أشاحت مادلين بنظرها عنها لتحظى بنظرة أخيرة إلى والدتها، ووالدها الذي أمسك بزوجته وضمها إليه بكل شجاعة، فانهمرت الدموع على وجنتيها، لكنها رفعت رأسها عالياً، وأخذت تناجي نفسها في سرها. لقد تركت وطنها من أجل الرجل الذي تحبه، وقد حان الوقت لتبدأ بمغامرتها. كان عليها أن تبدأ بتعداد النعم التي حظيت بها، وأن ترضى بما كُتِب لها.

كانت النسوة من حولها يبكين أو يضحكن أو يصرخن أو يثرثرن، فبدا لها الوضع غير معقول. إذ كانت كل أولئك الفتيات قد تركن عائلاتهن وكل شيء اعتدن عليه في حياتهن من أجل أن يلتحقن بمجندين يتصفون بالوسامة والجمال.

وهنا همست مادلين في سرها: «أمريكا»، فبدت لها تلك الكلمة عجيبة للغاية، ومجهولة للغاية ومنحطة للغاية.

إلا أن قلبها خفق بشدة حينما خطر زوجها ببالها، وتبع ذلك مزيج من المحبة والإثارة خالطه خوف من نوع غريب. لذا، حاولت أن تتجاهل ذلك الخوف قدر المستطاع. ثلاثة أسابيع كانت مدة تعارفهما. أجل، كانت فقط ثلاثة أسابيع مبهجة ومثيرة قضياها معاً، وشكلت مدة تعارفهما الكاملة. والآن، إنها في طريقها لتكون بصحبته أخيراً. لقد مضت كل تلك الشهور التي قضتها وهي تنتظر وتتأمل، وأخيراً أتى اليوم الموعود. وهنا ابتلعت مادلين ريقها بصعوبة، لأنها كانت تحس بغصة في حلقها. أجل، لقد كان تركها لأسرتها أمراً صعباً جداً عليها، لكن التجربة كانت تستحق ذلك، بل كان لا بد لها أن تفعل ذلك.

حملت مادلين حقيبتها وابتعدت عن طرف السفينة، بعدما تحوّل الناس الذين تجمهروا على رصيف الميناء إلى مجرد نقط صغيرة من تلك المسافة، ثم قامت بمسح الدموع التي اغرورقت بها عيناها بحركات سريعة وحازمة. لم يعد هنالك أي مجال للعودة، لذا عليها أن ترضى بما يحمله المستقبل لها في الأيام القادمة.

كانت النسوة يحطن بها. وبالرغم من أنها لم تكن تعرف أية واحدة منهن، إلاّ أنها لم تكن تشعر بالوحدة، فجميعهن قد غادرن إنكلترا للهدف ذاته؛ إذ كن جميعهن زوجات طال انتظار قرار ترحيلهن إلى وطنهن الجديد.

كان العمل على تثبيت اللافتات على اللوحات قد بدأ لتوه. حيث قام البعض بخربشة أسماء ولايات مختلفة فوق تلك اللافتات. وهنا أخذت مادلين تراقب مجموعة من النساء اللواتي تزاحمن

لإضافة أسمائهن إلى القائمة. كانت لوحة ضخمة قد علقت عند مدخل صالة السفينة، وهي عبارة عن خارطة للولايات المتحدة الأمريكية، لذا كان بوسع مادلين أن ترى الأظافر المطلية وهي تتعقب كل سنتمتر على تلك الخارطة؛ إذ أخذت صاحبات تلك الأظافر يحاولن أن يتأكدن من الأماكن التي سيذهبن إليها بالضبط.

غير أن أصوات رفرفة البطاقات الشخصية المثبتة إلى الستر جعلها تنظر إلى الأسفل لتتحسس بطاقتها. كان كل لون في تلك البطاقات يمثل الولاية التي يتعين على المرأة أن تعيش فيها. غير أن بطاقتها جعلتها تشعر في ذلك الحين وكأنها أصبحت لاجئة، أو وكأنها مجرد بضاعة يتم شحنها إلى الجانب الآخر من هذا العالم.

«فكرة عظيمة، أليست كذلك؟».

وهنا التفتت مادلين لترى صاحبة الصوت فطالعتها فاتنة شقراء، ذات شعر لامع تناثرت خصلاته المجعدة القصيرة مقتربة من كتفيها، وثمة مسحة من أحمر شفاه قد زينت شفتيها المكتنزتين اللتين افترتا عن ابتسامة واسعة.

ردت: «آه، أجل، إنها فكرة ذكية».

هتفت الفتاة الأخرى وهي تمد يدها الصغيرة: «أليس جونز». ثم أبعدت كتفها لتظهر امرأة أخرى كانت تقف وراءها، ونظرت إلى مادلين قائلة: «وهذه جون ويست».

ردت مادلين: «وأنا مادلين».

وبعدها، صافحت مادلين أليس، قبل أن تتقدم نحوهما جون الخجولة التي كان شعرها قد صفف على شكل موجات ناعمة، أما عيناها العسليتان فكانت تخفيهما أهداب داكنة وهما تسترقان النظر إلى الفتاتين.

سألت أليس: «ما هي وجهتك بالإضافة إلى حضن زوجك بكل تأكيد؟».

وهنا، لم تستطع مادلين إخفاء تلك الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها رغماً عنها، فما كان منها إلاّ أن رفعت بطاقتها الحمراء وهي تقول:

«نيويورك».

ردت أليس: «يا إلهي! ونحن أيضاً».

ثم أمسكت أليس بيد مادلين، وتأبطت ذراع جون قبل أن تسير بهما نحو القوائم.

وقالت وهي تجرهما معها: «علينا أن نسجل أسماءنا الآن. ولكما أن تتخيلا من يمكننا أن نلتقي أيضاً!».

سألتها مادلين: «هل تم تحديد غرفنا؟».

فهزت أليس كتفيها وقالت: «لست أدري. لكن، علينا أن نقوم برشوة أي شخص يساعدنا في ذلك، حيث نحصل على غرفة لنا جميعاً، ما رأيكما؟».

هزت مادلين رأسها وأسرعت لتبقى بصحبة صديقتيها الجديدتين.

ومن خلال تعابير وجه جون التي كانت لا تزال تنم عن شيء من الخجل؛ أدركت مادلين أنها صديقة جديدة لأليس أيضاً.

وهنا شعرت بالراحة؛ إذ لا بد للرحلة أن تستغرق وقتاً طويلاً، وهي بالفعل بحاجة إلى

صحبة أي شخص يتمتع بروح مرحة لتمضي وقتها معه؛ إذ لن يفيدها بقاؤها وحيدة لفترة طويلة برفقة أفكارها، ثم إن أليس فتاة جميلة وواثقة من نفسها. وبالرغم من أن ذلك كان يرعب مادلين حين كانت في بلادها، إلاّ أن بقاءها الآن تحت جناح أليس على ظهر سفينة تعج بالغرباء يمنحها إحساساً غريباً بالارتياح.

***

كان صوت قرع الأحذية ذات الكعوب فوق سطح السفينة الخشبي يصم الآذان، كما كان تأرجح السفينة أثناء خوضها غمار المحيط يسبب تشنجات مزعجة في معدة بيتي أوليفر، وهذا ما جعلها تضغط بيدها فوق بطنها، وهي تحاول أن تركز على تنفسها وتذكّر نفسها إن كان عليها أن تستنشق الهواء أم تزفره. إلاّ أن الأمر لم يكن بتلك السهولة، إذ كانت قد حشرت بطنها الذي تضخم تحت قميصها– وذلك بفضل مشد للخصر– مخافة أن تكتشف السلطات أمر حملها. وفي الوقت الذي كانت فيه على يقين من أن حيلتها ستمر دون أن يكتشفها أحد، كان ذلك يشعرها في الوقت ذاته بأنها على وشك الإغماء، كما كان ينتابها إحساس ضعيف بأنها على وشك السقوط عن سطح السفينة.

أمسكت بيتي بحاجز السفينة القريب منها، وأخذت تتمنى لو كان بوسعها أن تحرر خصرها من قيوده. لكنها قررت ألا تطيل بقاءها في بلادها، وألا تضع مولودها إن لم يكن زوجها إلى جانبها، إلاّ أن أحاسيس أخرى بدأت تنتابها الآن، بل كانت أحاسيس مختلفة بالفعل.

حينما وصلتها الرسالة التي علمت من خلالها أن ساعة الرحيل قد أزفت، لم تكن أمامها أية فرصة لتضيعها بالبقاء في البلاد، لكن الآن...

«عزيزتي، هل أنت بخير؟».

نظرت إلى الأعلى فطالعتها ألطف عينين زرقاوين رأتهما في حياتها، لكنها اكتفت بهز رأسها، ثم أغمضت عينيها بشدة لبرهة؛ وكأن ذلك يمكن أن يمنحها شيئاً من القوة.

عندها، هتفت صاحبة الصوت الواثق من نفسه مرة أخرى: «أوه... كلا، إنك لست كذلك! سأستدعي أحد الموظفين المسؤولين ليأتي إلى هنا». كان أسلوب تلك المرأة ولهجتها بغاية الوضوح والثقة بالنفس، لدرجة جعلت بيتي تتيقن من أنها ستفعل ما قالته بالضبط.

«لا». تلفظت بيتي بالكلمة بكل ما أوتيت من قوة وهي تمد يدها لتمسك بمعصم المرأة، ثم كررت: «لا».

عندها، حل الشك محل اللطف في تينك العينين الزرقاوين، فحررت بيتي يد المرأة، ثم لاحظت وجود امرأتين أخريين كانتا تقفان إلى يسارها، فتمنت لو أنها لم تنطق كلمتها بكل تلك الوقاحة.

وهنا، ما كان منها إلاّ أن أخفضت صوتها قليلاً ثم هتفت: «آسفة، إنني فقط... حسناً... إنني في القسم العائلي».

أخذت النساء الثلاث يتبادلن النظرات، فشعرت بيتي برعشة مخيفة تسللت حتى أسفل ظهرها، وأخذت تسأل نفسها: ترى، هل تسرعت في التصريح عن وضعي؟ وهل وثقت بهن زيادة عن اللزوم؟

عند ذلك، هتفت المرأة الأولى بعدما تغيرت تعابير وجهها من الجدية وعادت إلى لطفها السابق: «اسمي أليس، وهذه مادلين وتلك جون».

فابتسمت بيتي لهن، وهي تشعر بالامتنان لأنهن كن بغاية اللطف معها.

عندها، ابتسمت جون ابتسامة عريضة، إذ كانت الشفقة بادية بكل وضوح وصدق عليها وهي تحرك شفتها السفلى تحت أسنانها العلوية، فأخذت مادلين تهز برأسها لها.

كانت جون أكثر تحفظاً من الاثنتين، وقد شعرت بيتي بأن جون كانت تتفحصها بنظرتها، بالرغم من ذلك الدفء الذي يشع من عينيها البنيتين بلا أدنى ريب. وبالرغم من أن ثلاثتهن كن غريبات، إلاّ أنهم كن ينظرن إليها وكأنهن صديقات لها منذ زمن.

وهنا، استجمعت بيتي رباطة جأشها ورفعت كتفيها وهي تقول: «اسمي بيتي أوليفر، وسأكون على ما يرام بعد قليل».

«أترغبين بالجلوس؟».

لم تكن بيتي بحاجة لإطالة التفكير في هذا الموضوع، إذ إنها لم تكن بحياتها بحاجة للجلوس كما كانت تحس في تلك اللحظة، لذا هتفت: «أجل، أوه نعم».

فأحاطتها أليس بذراعها، وسمحت لها بأن تلقي بثقلها عليها، ورغم أن بيتي لم تكن تريد أن تتحول إلى حالة مثيرة للشفقة، لكن لم يسعها إلاّ أن تعترف بأنها كانت بحاجة للمساعدة.

وأخيراً، وجدت بيتي ما تقوله فهمست: «إنني مدينة لك بالكثير». وهي تحس بألم حاد يعتصرها مع كل خطوة تخطوها؛ بالرغم من المساعدة التي قدمت لها، فحاولت أن تقول: «إنني...»

لكن مادلين همست قائلة: «أترتدين مشداً تحت ثيابك؟». ثم أخذت تشد الجزء الخلفي من قميص بيتي الصوفي، وهنا هتفت: «أووه إنك ترتدينه، أليس كذلك؟». ثم ضيّقت عينيها، ووضعت يديها على خصرها وهي تنظر إلى بيتي نظرة توبيخ ولوم.

عند ذلك توقفن جميعاً، وعرفت بيتي أنها مذنبة في نظرهن، ولكن ما الذي بوسعها قوله؟ كان أمامها خياران؛ إما أن تنتظر لوحدها حتى تضع مولودها، أو أن تستقل أول سفينة توصلها إلى زوجها. ولم تكن الخطة الأولى خياراً قد فكرت به أصلاً؛ خاصة مع عدم وجود أسرة لها في لندن. ولكن، بطريقة ما كانت مادلين محقة حينما غضبت منها، إذ يجب على النساء الحوامل في شهورهن الأخيرة ألا يسافرن؛ إلاّ أنها كانت تعرف أنها لن تندم على اتخاذها هذا القرار.

وهنا هتفت مادلين التي بدت غاضبة وقد توردت وجنتاها من جراء انتقادها لبيتي بعنف وقالت: «ربما أنا لا أعرف الكثير، إلاّ أنني مطلعة على المسائل الطبية نوعاً ما. إن ذلك يضرّ بالجنين، ويضرّ بك أيضاً. فماذا ستفعلين لو حرّض سفرك حالة المخاض قبل أوانها؟».

غير أن بيتي لم تكن ترغب بالشجار معها. إذ ربما كانت خطتها سخيفة، لكنها أصبحت على متن السفينة الآن ولا يمكنها أن تتراجع.

وهنا، أحاطتها مادلين بذراعها، وساعدتها في إخفاء شكلها عن الناظرين وهي تقول: «لنقم بفك تلك الشرائط بسرعة، وتدثري أنت بهذا الشال، ولا تخشي شيئاً؛ إذ لن يلاحظ أحد أي شيء وخاصة مع كل ما يجري حولنا». كانت نبرتها لطيفة وهي تتحدث، وقد حل اللين محل غضبها؛ الأمر الذي أثار موجة من الارتياح في نفس بيتي. إلاّ أنها كانت تتكلم بطريقة فيها الكثير من التسلط، ربما لأنها كانت تعرف عن مسائل الحمل أكثر مما تعرفه بيتي.

لم يكن بمقدور بيتي سوى أن تقول لها: «أشكرك، شكراً لك، شكراً جزيلاً لك».

أخذت مادلين تطرح الأسئلة، بينما اكتفت أليس بالابتسام بلطف، وكذلك فعلت جون، غير أن بيتي كانت على وشك أن تنفجر باكية؛ إذ إن الشعور الذي ينتاب المرء حينما تتبدد وحدته شعور رائع، ولاسيما حينما يكون بصحبة أشخاص آخرين بعدما حُرم من ذلك لفترة طويلة. وقد تكون

مادلين متسلطة، إلاّ أن لطفها والقدرات التي أبدتها جعلت قلب بيتي الذي كان يدق بسرعة يستقر ويهدأ. وهنا همست جون بصوت ناعم: «هنالك مسعفون على ظهر السفينة، وإن حدث لك أي مكروه فهنالك أشخاص يمكنهم أن يعتنوا بك».

هتفت أليس وهي تمد يدها: «تعالي لنبحث لك عن حجرة، فقد سمعت أن في كل حجرة ثمانية أسرّة شبكية، وبما أن السفينة لم تمتلئ بالركاب بعد فأنا على يقين من أنه بوسعنا أن نجد لنا حجرة مشتركة لنا معاً».

***

تحلقت الفتيات حول بيتي حينما وصلن إلى الحجرة، بينما كانت هي تحاول أن تلتقط أنفاسها. وقد ساعدها التمدد على الفراش بعد خلع المشد في تحسين وضعها، إلاّ أنها بقيت تحس بانتفاخ في رئتيها. لكن تنفسها أخذ يتباطأ بعد ذلك، فكانت ممتنة لهن على مساعدتهن؛ إذ كانت قد فقدت والديها، ولم يكن لديها إخوة ولا أخوات، كما كان زوجها بعيداً عنها، لذا بقيت وحيدة طيلة فترة حملها. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تشعر فيها بحلاوة وجود من يهتم بها في تلك الفترة.

سألتها مادلين: «في أي شهر أنت؟».

ازدردت بيتي ريقها بصعوبة، إذ لم تكن ترغب بالإجابة عن هذا السؤال، وقد بدا لها أن مادلين كانت تعرف الكثير عن موضوع الحمل، أي من المحتمل ألا تهتم لأمرها حالما تطلع على سرها.

فهتفت أليس: «حسناً، لن نطلع أحداً على سرك».

وعندها، ابتسمت بيتي لأليس التي رأت فيها أجمل فتاة صادفتها في حياتها. فمع كل تلك الابتسامات والملامح الجميلة، لا يمكن أن ترى في ذلك الوجه سوى الجمال.

وفجأة، لاحظت أن مادلين كانت تزم شفتيها، فراودها إحساس بأنها الوحيدة التي يمكنها أن تفشي سرها، لكنها ربما تظلمها؛ إذ قد تكون أكثرهنّ معرفة واطلاعاً على أمور الأطفال الرضع، والمخاطر التي تتربص بهم.

شعرت بيتي بأن كل الأعين تحدق إليها. وكانت قد مرت عليها لحظات سألت فيها نفسها عن كيفية شعور المرء حينما يتم استجوابه، وذلك حينما يتحول إلى أسير حرب؛ ذلك الوضع الذي لطالما خشيت على زوجها من الوقوع فيه. أما الآن، فقد اختبرت ذلك الإحساس بدقة.

سألتها مادلين مرة أخرى: «بيتي؟».

كانت تعرف أنهن جديرات بإطلاعهن على سرها، فلقد أظهرن لطفاً تجاهها، وقدّمن لها المعونة حينما كانت في أمس الحاجة إليها، ولكن هل بوسعها أن تغامر وتكشف لهنّ سرها؟

كانت الوجوه تبتسم حولها، لكن بدا على تلك الوجوه أيضاً القلق والتوتر.

وهنا، زفرت زفرة خرجت من أعماقها؛ إذ لم تكن هناك أية طريقة سهلة لإفشاء ذلك السر، ومع ذلك هتفت: «ثمانية أشهر».

صرخت مادلين: «يا إلهي! وتحاولين أن ترتدي مشداً!».

تشرَّب وجه بيتي بحمرة داكنة، وتقطّعت أنفاسها، فامتدت يد دافئة نحو يدها وساعدتها على الثبات. كان وجه أليس هو الوجه الوحيد الذي تجرأت على النظر إليه أولاً، ثم انتقلت إلى جون التي كان يبدو عليها الانزعاج لا الغضب، وأخيراً نظرت إلى مادلين. كانت في قرارة نفسها تعرف

بأنها تحاول أن تمد لها يد العون، إلاّ أن شيئاً ما حيال موقف مادلين المتسلط جعلها ترغب بمواجهتها وإقناعها بأنه لم يكن أمامها أي خيار سوى أن تركب السفينة وهي حامل.

وهكذا، كتمت بيتي مشاعرها، ورفعت رأسها ونظرت إلى عيني مادلين أولاً، ثم نظرت إلى الأخريين وهي تقول:

«كل ما أردته هو ألا أضع مولودي وأنا وحيدة، ولهذا رغبت في أن أكون مع زوجي؛ إذ ليس لديّ أي أحد سواه».

إلا أن الرؤوس التي كانت تتحرك بإيماءات حولها جعلتها تدرك أنها لم تكن وحيدة.

وسألتها جون التي كانت أكثر من تهز برأسها بينهن قائلة: «وهل تعتقدين أنك انتظرت بما فيه الكفاية؟».

عندها، ردت مادلين بصوت أنعم من ذي قبل: «حسناً، أعتقد أنه ثمة الكثير من الحوامل على ظهر السفينة؛ فالحمل والإنجاب ليسا بالأمرين المحرمين».

هزت بيتي كتفيها، وألقت نظرة على الفتيات وقالت: «سيحتاجون لطبيب ليقوم بفحصي أولاً. فأنا قد تجاوزت الفترة التي تسمح لي بالصعود على ظهر السفينة منذ مدة طويلة». ثم فركت بطنها وتابعت: «أعتقد أنني على الأغلب سأضع مولودي على ظهر السفينة. وطالما أننا أصبحنا في عرض البحر فهذا يعني أنه لم يعد بمقدورهم القيام بأي شيء الآن. لكن، كان بإمكانهم أن يمنعوني من الصعود قبل ذلك».

أخذن ينظرن إليها وهناك مزيج من التعابير المبتسمة والمكفهرة على وجوههن، فاعتقدت أنهن فهمن جميعاً ما كانت تريده بطريقة أو بأخرى. وبما أنه قد تم فرز النساء في الجانب الآخر من السفينة مع أولادهن، إذاً ما الذي ستطلقه الصحف على ذلك القسم؟ الحضانة العائمة؟

كان ذلك إحساساً قد اختبرنه جميعاً؛ وهو الرغبة العارمة بالالتحاق برجالهن. ثم إن الفرصة لا تتيح للمرأة دوماً أن تحاط بنساء يشعرن بشعورها؛ أي أن يكن عاشقات ولديهن رغبة عارمة لرؤية أزواجهن ولمسهم واحتضانهم من جديد.

قطعت بيتي كل تلك الأفكار بسؤالهن: «كيف التقيتن أزواجكن؟».

فضحكت أليس ضحكة لطيفة ومتألقة جعلتهن جميعاً يبتسمن؛ بمن فيهن بيتي التي كانت لا تزال تشعر بألم في بطنها، ثم أجابت: «إنك تعرفين بأن لكل واحدة منا جواباً مختلفاً على هذا السؤال».

فوافقتها جون بالقول: «وقد تكون إجاباتنا طويلة على هذا السؤال».

ردت بيتي ساخرة: «وهذا ما سيحدث؛ إذ أمامي الليل بطوله».

هتفت مادلين بطريقتها الواقعية العملية: «أعتقد أن ما نحن بحاجة إليه الآن هو أن نتناول بعض الطعام، ثم يمكننا أن نثرثر طيلة فترة ما بعد الظهيرة».

فابتسمت بيتي لمادلين وقالت: «إنني على استعداد لتناول الطعام». ثم تابعت وهي تفرك بطنها: «لكنني أعتقد أنني سأبقى هنا لفترة أطول».

فنهضت مادلين وقالت: «سأذهب وأفتش عن شيء لنأكله، فمن تريد أن تأتي معي؟».

عندها، قفزت أليس من مكانها لتنضم إلى مادلين وتترك بيتي مستلقية وإلى جانبها جون وقد تلفعت بدثار على السرير الشبكي المجاور، وذلك لئلا تتركها وحدها. ولعل جون كانت أكثرهن

صمتاً، إلاّ أن في صحبتها ما يبث في النفس إحساساً بالراحة والطمأنينة.

أخذت بيتي تنظر إلى جون وهي تمسد شعرها، وتدفع بضع خصلات إلى خلف أذنها دون اكتراث. كانت بشرتها شاحبة بلون الخزف الصيني، أما شفتاها فقد طليتا بمسحة ناعمة من اللون الزهري. وحينما رفعت بصرها وابتسمت، كانت نظرتها تنم عن خجل، لكنها كانت صافية وصادقة في الوقت ذاته. كان جسد جون متناسقاً؛ إذ لم يكن فيه ما يعيبه، أما اللطف البادي في ابتسامتها فكان أشبه بيد حانية تتلمس بشرة بيتي.

***

أخذت جون تفكر في أنه شعور غريب أن تستلقي بجانب امرأة حامل تعرفت عليها منذ ساعة فقط، غير أنها شعرت بأنها مرتاحة بشكل أو بآخر. إذ كانتا متمددتين دون أن تنبس إحداهما ببنت شفة؛ إلاّ أن ذلك الصمت لم يكن من النوع الأجوف، إذ لم يكن بحاجة لما يملأه.

خرقت جون الصمت بسؤالها: «كم مضى على زواجك؟».

فابتسمت بيتي وقالت: «كم برأيك؟».

فردت جون: «لا تقولي لي... ثمانية أشهر؟».

وضحكتا معاً.

ثم ردت بيتي: «حملت خلال شهر عسلنا. فقد أمضينا عطلة الأسبوع معاً في فندق صغير، ثم التقينا مرة واحدة بعد ذلك».

فهزت جون رأسها وقالت: «لم ألتقِ زوجي منذ أن غادر بعد زفافنا. فقد تزوجنا في شهر تموز، ممّا يعني أنني لم أرَه منذ أشهر طويلة».

سألتها بيتي: «أتشعرين بالتوتر والحماسة للقائه من جديد؟ إنّ كل ما وصلني عن حبيبي شارلي كان عبر الرسائل والتلغرافات التي كانت تصلني متأخرة في أغلب الأحيان. ولكنه وعدني أن يلقاني عند حوض السفن، ولذلك أرسلت له خطاباً عندما عرفت اسم السفينة التي ستقلني، ولا يسعني سوى أن أتمنى وصولها إليه. أوه، إن مجرد فكرة رؤيته من جديد بعد كل هذه الشهور الطويلة تجعل قلبي يخفق بشدة!».

وهنا التقت نظراتهما التي كانت حذرة في بداية الأمر، غير أن جون أدركت أن أحاسيسها كانت منعكسة في عينَي صديقتها. كان من الصعب وصف ذلك الإحساس الذي لا يمكن أن تشاركها إياه سوى عروس أخرى من عرائس الحرب. إلاّ أن ما بقي يقلق جون هو أنها الوحيدة التي كانت متحمسة للقاء زوجها مرة أخرى، فقد التقيا وأغرما ببعضهما بسرعة فائقة؛ أسرع مما يمكن أن يحدث لو لم تدفعهما الحرب إلى ذلك. ولكنها وقعت بالحب، وها هي قد تركت كل ما لديها ورحلت للأبد.

سألت جون: «أخبريني عن زوجك. كيف هو؟».

كان التعب والإرهاق باديين على بيتي، إلاّ أن السؤال عن زوجها جعلها تشعر بالحيوية، فأجابت وهي تبتسم وتغيّر وضعيتها: «إنني بحاجة لبضع دقائق حتى ألتقط أنفاسي. لذا، أفضّل أن تشرعي أنت بسرد قصتك».

تناولت جون وسادتين ووضعتهما خلف ظهر بيتي، ثم لوت ساقيها لتجلس متربعة على السرير بجانبها، وهي تشعر بالامتنان لأن السرير أكثر متانة مما يبدو عليه. كانت تلك الجلسة أشبه بجلساتها مع شقيقتها؛ حينما كانتا تسهران الليل معاً كل يوم، لتثرثرا حول ما صادفهما أثناء النهار،

**ومع من تحدثتا، وبمن أغرمتا طبعاً.**

**إلا أن مسحة من الحزن جعلت جون تتوجع، لكنها بذلت جهدها لتتجاهل كل ذلك، إذ مضت شهور طويلة عليها وهي تتعذب نتيجة تركها لأسرتها، ولأنها لن ترى أختها أو والدتها أو والدها مرة ثانية. فطوال السنوات الإحدى والعشرين من عمرها كانت أسرتها تعني لها كل شيء في الوجود، لكنها تركتها من غير رجعة لتلتحق بجندي وسيم لا تعرف عنه سوى القليل. لكنها عندما تزوجته كانت تعرف أنه لا بد لها أن تسافر لتلتحق به إذا خرج من الحرب سليماً، وقد قطعت عهداً أمام الله على القيام بذلك.**

**وهنا سألت جون: «أتريدين أن أقصّ عليك القصة القصيرة أم الطويلة؟».**

**ففركت بيتي يديها ببعضهما، وابتسمت وهي تقول: «أريد أن أعرف كل التفاصيل». ثم وضعت يديها على بطنها وهتفت: «إنني إنسانة عاطفية للغاية، هذا إن لم تتمكني من اكتشاف ذلك بنفسك».**

**بيد أن الجلبة التي أحدثتها الأحذية ذات الكعوب جعلتهما تلتفتان عندما وصلت أليس ومادلين إلى عتبة الباب بعدما تمكنتا من تهريب أربعة فناجين تحتوي على سائل يتصاعد منه البخار، وتبين لهما أنهما كانتا تحملان بعض شطائر الطماطم أيضاً.**

**وهنا هتفت بيتي: «لقد وصلتما في الموعد المحدد».**

**فبادرتها مادلين بالسؤال: «موعد ماذا؟».**

**ثم مرّرت فنجانين لبيتي، وبعدها صعدت إلى طرف السرير الشبكي المقابل، وكذلك فعلت أليس مع جون.**

**قطعت بيتي الصمت بقولها: «كانت جون على وشك أن تخبرني كيف التقت زوجها».**

**والتفتن جميعهن إلى جون التي لم تعد واثقة فجأة بأن قصتها ستكون ممتعة عند سردها على ثلاث نسوة. وكل ذلك الاهتمام الذي انصب عليها جعلها تشعر بالحرارة التي أخذت تتصاعد ببطء لتصل إلى رقبتها ولتمر عبر وجنتيها.**

**وهنا هتفت: «إنها ليست بالقصة الممتعة كثيراً».**

**فصاحت بها مادلين بعدما شبكت يديها ببعضهما؛ وكأنها لم تكن تطيق صبراً حتى تبدأ بسماع القصة: «لا تكوني سخيفة!».**

**وألحّت عليها بيتي في الوقت ذاته بقولها: «هراء! والآن، اجلسن في أماكنكن ولنبدأ الحديث».**

**قد تكون خبرات أليس أكبر من هذا العالم، إلاّ أن النظرة المتلهفة التي بدت في عينيها عندما انحنت نحو الأمام لتصغي إلى جون جعلت الأخيرة تشعر أن لديها رغبة حقيقية بسماع قصتها.**

**لذا، شرعت بالكلام. وهكذا، بوجود ست أعين أخذت تراقبها، وفنجان من الشاي المحلى بين يديها، سمحت جون لعقلها بأن يعود بالذاكرة إلى الوراء لمدة سنة ونصف السنة، وذلك حينما التقت فارس أحلامها لأول مرة.**

# الفصل الثاني

**نيسان 1945**

**كانت الريح تعوي بين الأشجار وتدفعها لتحيط بها من كل الجوانب، لكنّ جون في ذلك اليوم كانت تشعر بأنها محظوظة؛ إذ لم تكن هناك أية قنابل أو تفجيرات تمنع وصول دفء الشمس التي سطعت في كبد السماء دون أن تحجبها سحب كدرة اللون من الدخان الذي ملأ الأجواء.**

**كان ذلك في اليوم الذي رأته فيه جالساً على مقعد في الحديقة، وقد دفع برأسه للوراء وكأنه بوسع رقبته أن تتحمل ثقل رأسه. لم تشعر يومها بأنه أول جندي تراه في حياتها؛ وذلك لأن معظم الشبان الذين كبرت معهم أو الذين كانوا يقيمون في الحي الذي تسكنه كانوا قد غادروا للقتال في الحرب. لذا، فالحق يقال، وهو أن الشبان الذين كانت تراهم خلال تلك الفترة كانوا جميعاً من الجنود؛ إلاّ أنّ هذا الشاب كان مختلفاً عنهم.**

**كانت جون قد سمعت الكثير عن الجنود الأمريكيين، كما رأت بعضهم، أو سمعت شيئاً عن الصفير الذي كانوا يطلقونه– والذي كان يشبه صفير الذئب– حينما تمر الفتيات قربهم. كانوا يرتدون بزات عسكرية موحدة نظيفة ومموهة، لم تغسل منذ فترة قريبة، ولكنها كانت نظيفة نوعاً ما. كان بعضهم يقفون عند زاوية الشارع وهم يمضغون العلكة، ويتحدثون بلهجتهم المتشدقة.**

**وقد بدا هذا الشاب مثلهم. وهو يرتدي سترة عسكرية فيها خمسة أزرار، لكنه لم يتحرك قيد أنملة، ثم إنه كان وحيداً.**

**عندها، لم تعرف جون كيف تتصرف. إذ كان بيتها على مسافة بضع دقائق سيراً على الأقدام، إلاّ أنها لم تكن لتترك ذلك الشاب هكذا، بل لم تستطع أن تتركه على تلك الحال؛ فهو جندي من دولة حليفة، لذا من غير اللائق تجاهله بهذا الشكل، أليس كذلك؟**

**لذا، تنحنحت جون بأقوى ما لديها من صوت، لتبدأ نوبة من السعال، ثم قالت: «عفواً سيدي».**

**كانت تريد أن تعرف إن كان جريحاً، لكنها لم ترَ أي أثر لدم أو لجرح، إلاّ أنه كان يبدو عليه أنه مستغرق في النوم.**

**تقدمت منه خطوة، ثم خطوة أخرى، وأخذت تقترب منه ببطء شديد، ثم حاولت أن تفتح فمها، ولكن سرعان ما ابتلعت ذلك الهواء الذي خرج من رئتيها لتوه؛ إذ فاحت من ذلك الجندي رائحة كريهة، وكانت تلك الرائحة النتنة واللاذعة التي يخلفها الشراب.**

**وهنا تمتمت: «هيه!». وحينما لم يظهر أي استجابة ركلته بظاهر قدمها بحزم وهي تقول: «استيقظ أيها الجندي!».**

**فصدر منه صوت شخير، ثم تحرك رأسه واستقام، فقفزت جون مبتعدة عنه خطوة نحو الوراء، وأخذت تحدق فيه بحذر، ثم قالت له:**

**«لا بد أنك قد غفوت أيها الجندي». وهنا فاجأتها الثقة البادية في صوتها في وقت لم تكن فيه تتحلى بكل هذه الشجاعة عادة.**

**أخذ ذلك الشاب يرمش بعينيه بضع مرات، وذلك قبل أن يهوي برأسه نحو راحتيه المبسوطتين ويقوم بفرك وجهه.**

أخذت جون تنتظره، ثم مسدت شعرها بسرعة، وشبكت ذراعيها أمامها ثم سألته:

«هل أنت على ما يرام؟».

هز الجندي رأسه، ونظر إليها بعين واحدة؛ وكأن سطوع الشمس كان يؤذي عينيه، ثم تنحنح وقال:

«أعتقد أنني ثمل».

عندها، حاولت جين أن تكتم ضحكتها؛ إذ كانت لهجته وحدها تكفي لإضحاكها، فكيف مع ثقل لسانه بتأثير الشراب؟

قالت له: «أعتقد أنك على صواب».

حاول أن يقف، لكنه عاد ليسقط في مكانه مع صوت ارتطام.

ثم سمعته يقول وهو يشهق: «نعم».

وبالرغم من أن جون كانت تحس بأن تصرفها سيكون خاطئاً، إلاّ أنها حملت كيس البقالة بإحدى يديها، ومدت له اليد الأخرى.

يا له من أمر عجيب أن ينتهي مشوار بسيط إلى السوق بعملية إنقاذ لشخص غريب!

شعرت بأنها تمثل دوراً أمام ذلك الجندي الوسيم وهي تقول له بثقة فاجأتها: «أمسك بذراعي! هل بوسعي أن أوصلك إلى مكان إقامتك؟».

فتمتم قائلاً: «لا أستطيع أن أعود، خاصة وأنا بهذه الحالة».

فما كان منها إلّا أن زمّت شفتيها، وعاجلها القلق والتذمر وهي تحاول أن تفكر بما عليها فعله.

عندها سألها: «هل بوسعك أن تصطحبيني معك إلى بيتك؟».

صاحت به: «أصطحبك معي إلى بيتي!!».

ردّ عليها: «أرجوك!». وكانت عيناه تتوسلان إليها، أما ابتسامته فقد جعلت قلبها يخفق بشدة.

هتفت: «إنني... حسناً». ثم ترددت، وبدأ الشك يساورها، وبعد ذلك قالت: «أعتقد أنه بوسعي أن أوصلك إلى بيتي، فقط لتغتسل ومن ثم تنطلق إلى وجهتك».

سألها: «هل ستفعلين ذلك؟».

أخذ ذلك الشاب يترنح وهي تساعده على الوقوف. أما وجهه فكان لا يفصله عن وجهها سوى بضعة سنتمترات. وبالرغم من أن رائحته كانت كريهة، وبالرغم من عدم قدرته على الوقوف على قدميه، إلاّ أن جون لم تستطع منع نفسها من ملاحظة مدى وسامة الشاب صاحب الشعر البني الداكن الذي كان قصيراً عند فوديه، لكنه كان ينسدل فوق جبهته قليلاً عند ناصية رأسه. كانت عيناه العسليتان تتأملانها أيضاً. وبالرغم من أنهما كانتا جامدتين بعض الشيء وأثر الشراب بادٍ عليهما، إلاّ أنهما كانتا أصدق وأعمق عينين رأتهما في حياتها، ولعل ذلك هو السبب الذي دفعها للتصرف بطريقة بعيدة عن شخصيتها؛ إذ شعرت على الفور بوجود رابط يجمعها بذلك الرجل بطريقة أو بأخرى.

سمعته يهتف: «مرحباَ». وقد بدا كجرو صغير وهو يتأملها حينما كانت تتأمله.

عندها، هتفت جون: «تعال». وأشاحت بنظرها رغماً عنها، وقد شعرت بحرارة وجنتيها ترتفع، ثم قالت له: «ضع قدماً أمام الأخرى فقط».

وهكذا سارا معاً. كانت تساعد ذلك الجندي، فيما كان يتأملها كما كانت تتأمله؛ وكأنه لم يرَ امرأة في حياته من قبل.

***

أخذت جون نفساً عميقاً من الهواء قبل أن تفتح باب بيتها.

ثم نادت عند الممر: «مرحباً، أما من أحد هنا؟».

فلم يصلها أي رد. لكنها لم تكن تريد أن تبقى بمفردها بصحبة رجل غريب، ولم يسبق لها أن أثارت رعب والديها، ولم تكن لديها أية رغبة في إثارة رعبهما في ذلك اليوم. ومع ذلك، ثمة شيء في داخلها كان لا يرغب بشيء بقدر ما كان يريد المزيد من الوقت بصحبة هذا الشخص وهما بمفردهما.

لكنها صرخت وقالت: «ماما!».

وحينما لم يصلها أي ردّ، قاومت جون نفسها، وجرَّت الجندي ليدخل معها. إلاّ أنها بقيت غير مصدقة أنها كانت تتصرف على تلك الشاكلة، لكنها كانت مأخوذة بالتأثير الذي تركه فيها؛ بالرغم من أنه لم ينبس بكلمة طيلة الطريق برفقتها، باستثناء تلك الشهقات الغريبة واعتذاراته حينما كان يتعثر.

أخذت تملي عليه ما يفعله بقولها: «تعال واجلس هنا الآن».

ففعل الجندي ما طلبته منه، حيث سقط فوق مقعد بالقرب من الطاولة. عندها، نظرت جون من النافذة، ورأت أمها وهي تتصارع مع الغسيل الذي كان على الحبل؛ ممّا منحها بعض الوقت لتهدئ نفسها قبل أن تخرج إليها لتخبرها بأن لديهم ضيفاً. كان بيتهم مرتباً ولكنه متواضع، فقد كانت والدتها تحافظ على نظافة كل شيء؛ لدرجة أن كل ما في البيت كان يبدو نقياً وطاهراً، سواء أكانوا يتوقعون زيارة من أحد أم لا. ألقت جون نظرة على الجندي وهي تسأل نفسها إن كان معتاداً على العيش في بيت كبيتها أم في منزل أكثر فخامة هناك في أمريكا.

بادرته بالسؤال وهي تشغل نفسها بوضع القدر لتغلي على النار: «ما اسمك؟».

فنظر إليها، وارتسمت ابتسامة حمقاء على وجهه وهو يقول لها:

«إدوارد ويست، وينادوني أصدقائي بإيدي».

فابتسمت له وهي تصب فنجاناً من الشاي من أجله وقالت: «حسناً. سررت بلقائك يا إدوارد. أما أنا فاسمي جون».

تناول منها الفنجان بسعادة، وأمسك به بينما كانت تضع فيه ملعقة من السكر وتقوم بتحريك السائل الموجود داخله.

قطعت الصمت بقولها: «والآن يا إدوارد».

فقاطعها قائلاً: «إيدي». وهو يحاول بصعوبة منع أي نقطة من الشاي من السقوط على الأرضية، ثم تابع: «بإمكانك أن تناديني إيدي».

فقالت له: «إيدي، ستدخل أمي البيت بعد قليل، لذا أريد منك أن تكون في غاية الرصانة؛ لأنها لا تتقبل الرجال الذين يثملون».

فردّ قائلاً: «إنني لا أحتسي الشراب عادة». وكان الصدق بادياً في عينيه القاتمتين، ثم تابع: «إلا أن أصدقائي دفعوني للشرب حتى الثمالة، فقد سهرنا خارج مقرنا طيلة الليل، وبعدها تركوني ومضوا».

أطرقت جون، ولسبب خفي شعرت بأنها تصدقه، ولكن عليه أن يقنع والديها بذلك.

قطعت أفكارها بالقول: «على أية حال، ما عليك إلاّ أن تشرب هذا الشاي، وبعدها سأدلك على المكان الذي يمكنك أن تغتسل فيه».

تناول إيدي ما تبقى من الشاي الساخن، وقد ضاع الفنجان في يده الضخمة. وبعد ذلك وقف، فلاحظت جون أنه حتى هذه اللحظة لم يتمكن بعد من المحافظة على توازنه، إلاّ أنه كان أحسن من ذي قبل.

وهنا هتفت به: «هيا، بسرعة». وهي تراقب أمها التي كانت تعبر الممر الخلفي حاملة معها الثياب التي جفت.

قامت جون بإرشاد الشاب إلى الحمام، وقدمت له منشفة ومنديلاً للوجه، ثم أغلقت الباب.

وعندها، سمعت صوت أمها وهي تقول: «أعدتِ إلى البيت يا عزيزتي؟».

فاتكأت جون على إطار الباب الخشبي، وأخذت تعد حتى الرقم عشرة؛ فقد تغضب والدتها منها إن علمت أنها أمضت بعض الوقت لوحدها بصحبة شاب، إلاّ أنها لم تكن لتطرده قطّ. ولو كان والدها مكانها لفعل الشيء ذاته؛ إذ كان الأمريكيون يدعمونهم للانتصار في تلك الحرب، وهذا يعني أنه يتوجب عليهم أن يظهروا الامتنان والعطف تجاههم قدر المستطاع. ولكن، لمَ كانت تشعر بكل هذا القلق حينما تفكر بمواجهة والدتها بهذا الأمر؟

سمعت أمها تنادي: «جون؟».

فردت: «إنني قادمة يا أمي».

إلا أن ضربة عنيفة أتت من الباب خلفها جعلت قلبها يقفز من مكانه، لكنها تجاهلت ذلك، إذ كان بوسعه أن يحدث أي قدر من الضجيج طالما أنه سيخرج ورائحته تفوح بعطر الصابون، وشعره مرتب.

سألتها أمها حينما دخلت المطبخ: «هل أنت بخير يا حبيبتي؟ وجنتاك متوردتان كثيراً».

عندها، سمعتا صوت ضربة عنيفة أخرى على الباب، وكانت تلك الضربة أعلى من سابقتها.

سألت الأم: «هل عاد والدك إلى البيت باكراً اليوم؟».

عندها، أحست جون بأن وجنتيها توردتا أكثر، ثم هتفت: «آه، لا. إنه ليس أبي».

فزمت الأم شفتيها، وعقدت حاجبيها وهي تقول: «إذاً، ما سبب كل هذه الضجة؟».

ترددت جون وهي تقول: «سأعد لك فنجاناً من الشاي ثم سأخبرك بكل شيء».

***

إذا قلنا إن الأم صدمت من هول المفاجأة عندها سنكون مجافين للحقيقة. ولكن، بما أنها امرأة من ذلك الطراز فقد تعاملت مع موضوع وجود أمريكي غريب في بيتها بكل بساطة، وسارعت لإعداد وجبة غداء بكمية أكبر من المعتاد؛ بالرغم من أنها لم تكن قد اقتنعت بعد بالصدفة التي جمعت بين الاثنين.

سألت الأم: «هل أنت واثقة من أنك لم تلتقيه من قبل؟».

حملقت جون بأمها وهي تقول: «سبق لي أن أخبرتك أن عينيّ لم تقعا عليه من قبل، مطلقاً».

عندها، رفعت أمها أحد حاجبيها مرة أخرى، ونظرت إليها تلك النظرة.

فعاجلتها جون بالقول: «أمي، إنني لم ألتقِ الأمريكي من قبل!».

عند ذلك، سمعتا صوت باب يغلق في الردهة، فابتلعت جون ريقها، ووضعت الأم الملعقة الخشبية التي كانت تحرك بها الطعام المطبوخ جانباً، ثم جففت يديها بمئزرها.

دخل إيدي المطبخ، عندها كادت جون تفقد توازنها، فأمسكت بالكرسي الخشبي القديم. إذ كانت قد توقعت أن يخرج من الحمام بشكل لا يقل سوءاً عن الشكل الذي تركته فيه هناك.

ولكن، كم كانت مخطئة بتوقعاتها!

إذ كان إيدي قد سرح شعره وأبعده عن وجهه، وفرك بشرته حتى أصبحت نظيفة، وأصبح خداه ناعمين بعد الحلاقة؛ وهذا ما جعلها تظن أنه قد وجد موسى الحلاقة التي تعود لوالدها. إلاّ أن عينيه بقيتا محمرتين، ومع ذلك كان أكثر الرجال الذين صادفتهم في حياتها وسامة.

هتفت أمها: «حسناً، وهل علي أن أقتنع أنك الجندي الذي يدافع عن بلادنا؟».

طرحت الأم ذلك السؤال وكأن ابنتها قد أتت بقط أو كلب إلى البيت ولم تأتِ برجل يخدم بلاده.

لكنه أجابها: «أجل يا سيدتي». غير أن صوته كانت تنقصه مسحة السخرية التي كانت موجودة قبل ذلك.

أخذت جون تفكر بكمية الماء الهائلة التي غسل وجهه بها.

وهنا مد يده وقال: «اسمي إدوارد ويست».

فهزت والدة جون رأسها، وبدا عليها الارتباك بعض الشيء، ثم أمسكت يد إيدي وصافحته وهي محرجة، وبعدها قالت:

«حسناً يا إدوارد ويست. لقد حالفك الحظ كثيراً حينما وجدتك جون». ثم عادت لتحريك الطعام وتابعت قائلة: «آمل أن يعجبك طعامنا؛ فأنا سأجهز الغداء بعد قليل».

نظرت جون إلى إيدي فغمزها، وعندها شعرت بدفقة من الحرارة امتدت من أصابع قدميها، وبدأت تصعد لتتغلغل في كل سنتمتر مربع في جسدها.

لكنه هتف بالأم قائلاً: «هل بوسعي أن أساعدك بأي شيء يا سيدة...»

ردت الأم: «سيدة سميث».

فردد وراءها: «سيدة سميث، هل بوسعي أن أساعدك بأي شيء؟». ثم ابتسم لجون بينما

بقيت الأم تتظاهر بأنها مشغولة.

عند ذلك، استدارت مادج سميث إلى الخلف ولوّحت له بملعقتها وهتفت:

«ولمَ أسمح لضيف بمساعدتي في المطبخ؟! خاصة إن كان رجلاً».

هز الشاب كتفيه بلا مبالاة، ثم قال: «كانت أمي تقول لي دوماً إنه يجب عليّ أن أساعد الآخرين، كما كانت تلطمني على وجهي حينما أتمادى مع الناس».

عندها، حاولت جون أن تكتم ضحكتها، بينما أخذت أمها تتمتم لنفسها بكلمات حول تواجد الرجال في المطبخ، وذلك قبل أن تلتقي عيناها عيني إيدي مرة أخرى.

وهنا اقترح عليها إيدي: «لمَ لا تعرفينني على بيتكم؟».

نظرت إلى أمها التي لم تبدِ أي إجابة، فأمسكت بشالها الذي كان موضوعاً على الطاولة، وصاحت:

«حسناً».

وأخيراً، سألته جون: «من أين أنت يا إيدي؟». وذلك بعدما أثنى على منزلها عقب الجولة التي قام بها فيه. وعندها، شعرت جون بالفخر؛ إذ قد لا يكون بيتها مبهرجاً، لكنه بيتها الذي تحبه في نهاية الأمر.

أسند إيدي ظهره على المقعد الموجود خارج البيت، وصالب ساقيه عند الكاحلين، بينما كانت جون تحاول جاهدة ألا تنظر إليه. إلاّ أن الأمر لم يكن بتلك السهولة، فبشرته الحنطية عند الخدين، وأهدابه الداكنة التي تحيط بعينيه العسليتين، بل وحتى الطريقة التي يحرك بها يديه ليعبر بهما عما يتحدث عنه، جميعها جعلتها تُفتَن به.

رد عليها وهو يرفع وجهه نحو السماء: «وطني بعيد جداً. لقد أتيت من مكان يعرف باسم نيويورك. لدينا مزرعة هناك فيها حقول تمتد لأميال، وهناك أبقار ترعى، بالإضافة إلى بعض الخيول، وبناء خشبي يستعمل كإسطبل بجانب البيت».

ثم نظر إليها نظرة كان يبحث من خلالها عن عينيها؛ وكأنه يخاف من أن يكون أمر بلاده لا يعنيها، فارتسمت بسمة على شفتيها.

عندها، اعتبر ابتسامتها بمثابة دعوة له لمواصلة الحديث، فتابع بالقول: «لقد عشت هناك كل عمري. بيتنا مؤلف من طابقين، وكان والدي وجدي قد بنياه من الخشب بأيديهما. ولدينا أيضاً شرفة كبيرة نتناول فيها طعامنا صيفاً، ولدينا ممرات للخيول بالقرب من بيتنا؛ وذلك لنخرج على صهوة الخيول، كما لدينا بحيرة نصطاد منها السمك أنا ووالدي. أسرتي مؤلفة من أبي وأمي وشقيقتي وأنا فقط، إلى جانب مجموعة كبيرة من الحيوانات».

هتفت به جون وهي تتخيل الصورة: «يبدو ذلك مدهشاً». فقد كان يتحدث بحماسة ومحبة يصعب على المرء إزاءها ألا يتخيل المشهد أثناء حديثه.

رد عليها وهو يدير وجهه نحوها: «إنه كذلك. كم أشتاق إلى بيتي وأسرتي. وقد تحبك أختي».

وهنا تساءلت في سرها عن كيفية تمكنه من معرفة ذلك، خاصة أنه لم تمضِ على تعارفهما أكثر من ساعتين، لكنها صدقته. إلاّ أن ما كان يقلقها هو أن شقيقتها قد تحبه أيضاً، غير أنها كانت تود طرد تلك الفكرة من بالها.

أخذ يراقبها، ثم تعلقت عيناه بعينيها. أما هي، فلم يسبق لها أن انجذبت إلى رجل قبله؛ وإن كان ذلك قد حصل فليس على هذا النحو؛ إذ كانت لا تزال في التاسعة عشرة من عمرها.

لم تعش جون أي قصة حب في حياتها قبل الحرب. وخلال العامين الأخيرين، كان جميع الشبان الذين كانت قد التقتهم قد ذهبوا للقتال. أما الآن فقد ظهر إيدي؛ ذلك الجندي المفعم بالحياة الذي يرتدي بزة عسكرية أمريكية، وأخذ ينظر إليها كما يفعل الحبيب مع حبيبته في خيالها. كانت عيناه تنظران إلى عينيها، وكان جسده ملاصقاً لجسدها. وعندها، أخذت أنفاسها تتقطع وكأنها قد قطعت ميلاً وهي تجري.

«الغداء جاهز!».

هكذا أيقظها صوت أمها من حلم اليقظة القصير الذي كانت غارقة فيه، فلم تصدق كيف مضى الوقت وحان موعد الغداء عند الخامسة؛ لأنها صادفت ذلك الشاب في ساعة مبكرة من فترة ما بعد الظهيرة، ومعه مضى الوقت بسرعة.

وقف إيدي ومد يده ثم قال وهو يبتسم:

«إنني أتضور جوعاً. وقد مضت فترة طويلة منذ أن أكلت لحماً مطبوخاً في المنزل».

أمسكت جون بيده لتنهض من مكانها، ثم سارت أمامه وهي تستشعر بحذر وجوده خلفها. وهنا، أخذت تسأل نفسها إن كان بإمكانها أن تغرم بشخص بهذه السرعة، بالرغم من أنها كانت تعرف أنها فكرة سخيفة. لعلها قد عاشت حياة هانئة، إلاّ أنها لم تشعر بذلك الإحساس من قبل، مطلقاً.

تقدّم إيدي أمامها ليفتح لها الباب فدخلت، ولكنّ ذلك لم يمضِ دون أن يحتك جسدها بذراعه أثناء مرورها. حينها، لم تجرؤ على النظر إليه؛ لأنها كانت متأكدةً من أنه لا بد أنه يسمع خفقات قلبها المرتعشة.

غير أنّ سلسلة خيالاتها انقطعت فجأة حينما رأت والدها جالساً إلى طاولة الغداء، فما كان منها إلاّ أن تنحنحت لتهدئ من روعها، ثم خطت خطوة ابتعدت بها عن إيدي.

إلّا أن والدها وقف وأخذ يقول وهو يبتسم: «لقد علمت أننا في حضرة جندي».

عند ذلك، انسلت جون بضع خطوات لتصل إلى والدها وتطبع قبلة على وجنته.

ثم قالت: «إننا كذلك يا أبي. أعرفك على إدوارد أو إيدي ويست».

فبادر إيدي بالقول وهو يمسك بيد والدها بعدما مدّها إليه هذا الأخير: «كيف حالك يا سيدي؟ إنه لشرف لي أن أكون في بيتكم».

فهز والدها رأسه وقال: «يسعدنا أن نستقبل جندياً على الغداء، وخاصة إن كان من دولة حليفة».

غير أن إيدي سارع لمساعدة والدتها التي أمسكت بقدر كبيرة تحتوي على كمية هائلة من الطعام المطبوخ، حيث تناول القدر منها، ونقلها إلى الطاولة بأمان.

سأله الأب: «لكنك لم تهرب من الجندية، أليس كذلك يا بني؟».

عندها، لم تتمالك جون نفسها، وضحكت مما قاله والدها. إذ لا بد أنه قال ذلك رغماً عنه، لأنه كان يخشى أن يأوي في بيته أحد الجبناء.

فردّ عليه إيدي الذي لم يبدُ عليه أي انزعاج بسبب ذلك السؤال: «لدي إجازة لمدة أربعة أيام، وبعدها سألتحق بوحدتي».

فاعتدل والدها في جلسته وقال: «جيد جداً».

ابتسمت جون بخجل لإيدي الذي كان يراقبها وهو يجلس قبالتها إلى الطاولة، ثم حاولت أن تركز على غدائها. وهنا انتقلت مشاعرها من الإحساس بأن يومها كان يوم نحس لأنها صادفته في الشارع، إلى الإحساس بأنها محظوظة للغاية. لكنها لم تكن المرة الأولى التي شعرت فيها منذ بداية الحرب بأن وجودها في المكان والوقت المناسبين يعني كل شيء في هذا الوجود.

ولحسن حظّها، كانت شقيقتها في اجتماع للممرضات. إذ لا بد أنها كانت ستخسر فرصتها لو كانت ليلي موجودة.

وهنا ابتسم لها إيدي فحاولت أن تتجنب نظراته.

أو لعلها كانت ستحظى بفرصة، حتى لو كانت شقيقتها موجودة، ربما.

***

«ما رأيك في أن تذهبي معي إلى حفلة راقصة ليلة الغد؟».

حاولت جون ألا تبتسم ابتسامة عريضة، لذا قامت عوضاً عن ذلك بوضع إحدى يديها فوق الأخرى ثم شدت عليهما بقوة؛ لأنها لم تكن تريد أن يظهر عليها كم تتوق لذلك. كانا يجلسان خارج البيت لوحدهما، وكانت تحاول أن تتصرف بالطريقة التي كانت شقيقتها ستعتمدها برأيها.

ردت عليه بالقول: «سيكون ذلك رائعاً».

فابتسم لها إيدي، وعندها بدا شريراً تحت جنح الظلام، لكن شعاع نور كان ينير جزءاً من وجهه، وهذا ما جعل فمه يبدو مائلاً، وأظهر بياض أسنانه أيضاً.

قال لها: «وفي الليلة التالية سنذهب للسينما».

لم تستطع جون أن تمنع نفسها من الابتسام هذه المرة. إذ كانت آثار الثمالة قد زالت، أليس كذلك؟ هل يمكن أن يكون منجذباً لها كما كانت منجذبة له؟

«ما رأيك؟».

وهنا أخفت عنه مخاوفها ونظرت إليه ثم قالت:

«أرى أنها فكرة لطيفة».

عند ذلك، أمسك يدها بيده، فشعرت بملمس بشرته الخشنة على بشرتها الناعمة؛ إذ كانت يداه تحملان كل معاني الرجولة، كيدي أي رجل اعتاد على العمل الشاق.

عاجلها بالقول: «إنكن أيتها الفتيات الإنكليزيات مكبوتات للغاية».

دفعها ذلك إلى سحب يدها من يده؛ فما الذي كان يقصده بذلك؟

فردّ عليها بقبلة مفعمة بالضحك طبعها على راحة يدها.

ثم كرر قوله: «لطيفة؟! كنت أتمنى أن تقولي لي إن قضاء ليلة أو اثنتين بصحبتي يبدو بالنسبة لك أمراً مذهلاً، لكنك اكتفيت بالقول إنها فكرة لطيفة».

عندها، قهقهت ضاحكة من قوله، ثم ضربته بعنف وقالت:

«إيدي...»

فردّ عليها وقد بدا لها بريق في عينيه: «ماذا؟».

إلا أن الضجة التي سمعتها جون والتي بدت قريبة منهما جعلتها تقفز مبتعدة عنه.

فهمس لها: «أهذه أمك؟».

فهزت جون رأسها وهي تقول: «امممممم».

فما كان منه إلاّ أن قال: «كانت أمسية جميلة، لكن علي أن أذهب الآن». غير أن صوته العالي لم يكن منسجماً مع تعابير المرح والسخرية التي يعكسها وجهه.

لم يكن بوسعها سوى أن تهز برأسها؛ لأنها تعرف أن والدتها لا بد أنها تصغي لكلامه، ويبدو أن إيدي قد أدرك ذلك أيضاً.

ثم تابع قائلاً: «سأتقدم بشكري لوالدتك على الشاي، وسأطلب إذن والدك لأرافقك إلى حفلة الرقص مساء الغد، وبعدها من الأفضل أن أغادر».

استدلا من خفقة الباب اللطيفة بأن والدتها قد دخلت البيت. ولعلها دخلت لتجلس وترفع قدميها متظاهرة بأنها بقيت على تلك الحالة طيلة الوقت.

وقف إيدي أولاً، ثم سحبها لتقف. وبعد ذلك، مال نحوها وسرق قبلة من خدها. كانت مجرد ضغطة قوية من شفتيه استمرت لفترة طويلة أكثر من المعتاد؛ مما جعل الدم يتدفق في عروقها بسرعة كبيرة، لدرجة جعلتها تتهاوى في مكانها بالضبط.

لم تكن قبلة على الشفتين، إلاّ أنها بدت كأول قبلة حقيقية بالنسبة لها.

***

بقيت جون تنتظر، وقد تصاعدت أنفاسها نحو وجهها بينما كانت مستلقية على فراشها وقد رفعت البطانيات حتى جبهتها. بدا عليها وكأنها كانت تستلقي هناك منذ الأزل، وهي تصغي لشقيقتها التي أصدرت ضجيجاً عند دخولها، ثم تحدثت إلى والدتهما وهي تتناول ما تبقى من الطعام، ثم تمشّت في الردهة التي تصل إلى غرفتهما.

غير أنها بقيت ساكنة وصامتة حينما دخل شعاع فضي الغرفة من الممر.

ثم همست بصوت منخفض وهي ترمي الأغطية عنها حينما دخلت أختها الغرفة: «ليلي!». مما جعل الأخيرة تقفز ذعراً.

ردت عليها ليلي موبخة وهي ترمي سترتها الصوفية عليها: «جون! كدت أموت رعباً!!».

قالت جون: «هلّا جلست هنا».

تجاهلت ليلي طلبها للحظة، ثم أخذت تنزع ثيابها وترتدي ثياب النوم الرقيقة. وهنا بدأت جون تتلوى في سريرها الصغير لتترك مساحة كافية بجانبها لتملأها شقيقتها. كان لكل واحدة منهما سريرها الخاص، إلاّ أنهما كانتا تندسان بجانب بعضهما منذ أن كانتا فتاتين صغيرتين لتتبادلا الأحاديث. وفي بعض الأحيان، كان الحديث يمتد حتى ساعة متأخرة من الليل، وذلك قبل أن تفترقا لتناما بضع ساعات كل واحدة في فراشها.

«هاتِ ما لديك!». هتفت ليلي وهي تتغطى بالأغطية، ثم بدأت كلتاهما تتلويان طلباً للدفء. وهنا، بدأت ليلي بالحديث قائلة: «سمعت أنك تستضيفين الجنود في غيابي».

فاحمر وجه جون خجلاً، وأصبحت وجنتاها حمراوين وكأن قبلة من نار قد طبعت عليهما، وشعرت بالسعادة لأن العتمة كانت تخفي حماستها؛ حيث لا يمكن لشقيقتها مضايقتها لسذاجتها وضعف خبرتها مع الشبان.

قالت لها ليلي: «قبل أن تقولي أي شيء، أليست لديك أية أفكار رائعة من أجل موعدك ليلة غد؟». ثم ضربتها ليلي على صدرها بمرفقها الصلب وهي تضايقها وتقول لها: «لقد عيّنتني أمي وصية عليك، لذا سيكون لديه أصدقاء رائعون».

بقيت جون صامتة؛ ليس لأنها شعرت بخيبة أمل لأنها لن تذهب معه بمفردها، بل لأن شقيقتها كانت تكبرها بعامين، وتعرف الكثير من الأمور حول الرقص والشبان وكيف تترك انطباعاً مؤثراً عليهم. وقد اعتادت جون على تجاهل الشباب لها حينما تكون برفقة شقيقتها.

هتفت ليلي: «إذاً، أخبريني، كيف شكله؟ وكيف التقيته؟ وكيف حدث أن طلب منك أن تخرجي بصحبته؟».

***

لم يساعد الضوء الخافت المنبعث من غرفة الجلوس جون على التخفيف من توترها؛ بالرغم من أنهم كانوا يغطون النوافذ بستائر قاتمة، وكان والدها يفضل الضوء الخافت ليجلس ويتحدث معهن، إلاّ أنها كانت بحاجة إلى ضوء ساطع لتتفحص شكلها ومظهرها.

هتفت ليلي التي كانت تزين الغرفة بحضورها وتبدو مذهلة كالعادة: «تبدين رائعة يا جون».

ثم أخذت تدور بشكل مرتجل، بشكل جعل ثوبها الذي كان يغطي ركبتيها يصل إلى منتصف ساقيها ويرفرف حول جسدها. أما شعرها الأشقر فكانت قد ربطت نصفه ورفعته للأعلى بعيداً عن وجهها، وقد وضعت على عينيها الكحل والظلال، وصبغت شفتيها بلون زهري من الصعب لأي امرأة أن تجد مثله في السوق. كانت شقيقة جون قد واعدت الكثير من الشبان، لذا اعتقدت جون أن أحدهم لا بد أن يكون أمريكياً، لأن الحال انتهى بشقيقتها مع هذا اللون المزري لأحمر الشفاه الجديد.

كانت جون تشعر بأن الثوب الذي ترتديه غير مناسب؛ فهو يضج بالأنوثة للغاية، فسألتها: «هل أنت واثقة من أنه مناسب؟». ثم ألقت نظرة على الثوب الأخضر المنقط بالأسود الذي استعارته من شقيقتها وهي تشعر بالقلق؛ لأن شكلها لم يكن رائعاً كشكل ليلي حينما ترتديه، إذ كان خصره ضيقاً ومشدوداً عليها، وكان يظهر ساقيها من تحت الركبة.

فما كان من ليلي إلاّ أن جذبتها وجعلتها تدور ثم قالت لها: «تبدين رائعة يا أختي الصغيرة، رائعة بالفعل».

فنظر والدهما إليهما، ثم ضحك قبل أن يقف ويقبل كلاً منهما على وجنتها.

ثم قال وهو يقبل الكبرى: «ليلي جميلة كالعادة، ولكنك يا جون تبدين رائعة الليلة، وستكونين فاتنة الحفلة».

عند ذلك، انتاب جون إحساس بأن والدها كان يحاول أن يرفع من معنوياتها، لكن والدتها كانت تهز برأسها إيجاباً أيضاً وهي تمسح دموع عينيها.

يا إلهي! يبدو تصرف والدتها وكأنها ستغادر لتمضي شهر عسلها، وليست فقط ستحضر حفلة راقصة بصحبة شقيقتها.

إلا أن نقرة على الباب جعلت جون تتجمد في مكانها. ولو لم تمسك ليلي بيدها وتجرها

لكانت قد ركضت إلى غرفة نومها وأقفلت الباب على نفسها.

أخذت شقيقتها توبخها قائلة: «يا ويلي! إنك في التاسعة عشرة من عمرك! ستكون أمورك بخير». ثم تابعت وهي تهمس لها وتجرها للأمام: «إن أحبك البارحة فسيعشقك الليلة».

كانت جون تأمل أن يحدث ذلك. أوه... لكم تمنت ذلك!

أخذت جون نفساً عميقاً ثم فتحت الباب، وكانت ليلي تقف خلفها؛ نظراً إلى كونها متلهفة لتلقي نظرة على ذلك الشاب الذي هتف:

«مرحباً يا جون». ثم قدم لها باقة من أزهار الأقحوان، وطبع قبلة خرقاء على وجنتها.

ردت جون بنعومة: «أوه. أشكرك».

إلا أن ليلي اختطفت الأزهار منها وأعطتها لوالدتها.

فنظرت جون إليهما، ثم عاودت النظر إليه وهي تقول: «إنها باقة جميلة يا إيدي.. إنها...»

فردّ عليها وقد ارتسمت على وجهه أمارات الندم: «إنها من حديقة جاركم». فسعدت جون بصدقه على الأقل.

لكن أكثر ما سرها هو أنه لم يطل النظر إلى شقيقتها.

وهنا هتفت به وهي تلوّح باتجاه أختها: «أعرفك على ليلي؛ شقيقتي».

فردّ بالقول: «إيدي». وأمسك بيد ليلي هنيهة بكل أدب، قبل أن يلمس مرفق جون ويقودها عبر الباب.

وعندها، سمعت ليلي تضحك وتقول لأمها قبل أن تتبعهما إلى الشارع: «يبدو هذا الفتى كجرو ولهان».

إلا أنها لم تعد تهتم بكل ذلك، إذ كانت حينها أسعد فتاة على وجه الأرض، وكان ذلك كل ما يهمها في ذلك الحين.

***

شعرت جون بالامتنان لشقيقتها لأنها سارت معهما. فبعيداً عن الترحيب الذي تقدم به إيدي في البداية، كان يبدو عليه الخجل أكثر منها. وبالرغم من أنها وجدت في ذلك ما بعث الطمأنينة في نفسها بشكل غريب، إلاّ أنها كانت سعيدة لوجود شقيقتها معها؛ وذلك لأنها كسرت حاجز الصمت. كان إيدي وجون يسيران جنباً إلى جنب، وكانت ذراعاهما تلتقيان كلما سارا بضع خطوات، وهذا ما جعل جون تستشعر كل لمسة، بل كانت أنفاسها تتقطع كلما نظر إليها، فلم تعد تدري كيف يمكنها أن تتدبر أمرها حينما تراقصه ويحتويها بين ذراعيه.

«حسناً يا إيدي، لقد أخبرتني جون أنك تعيش في مزرعة».

وهنا غمزت ليلي جون، فتمنت الأخيرة لو كان الظلام قد خيم، ولكن لا بد لليل أن يبدأ وأن يخفي وجهها عنه.

فردّ عليها: «لقد ولدت وترعرعت في الريف».

سألته: «ألم تتزوج أو تعِدَ حبيبة لك بالزواج حينما تعود لبلادك؟».

عندها، صرخت بها جون: «ليلي!». إذ لم تتوقع أن تفكر ليلي حتى بطرح ذلك السؤال.

**غير أن إيدي ردّ عليها بالقول: «كلا يا آنستي». وقاطع بذلك صوت جون وهي تصرخ بشقيقتها.**

**ثم توقف عن السير ووقف قبالة شقيقتها. تُرى، هل شعر بإهانة كبيرة بسبب ذلك السؤال؟ وهل هو على وشك أن ينهي موعدهما الليلة في ذلك الوقت والمكان؟ كل تلك الأفكار جعلت جون تعض على شفتها من الداخل بقوة.**

**لكنه اكتفى بالرد: «لم أكن لأطلب من شقيقتك أن تخرج برفقتي لو كنت قد وعدت إحداهن بالزواج».**

**كانت تعابير وجهه في منتهى الجدية؛ لدرجة أن جون كانت ستضحك لولا أنها شعرت بارتباك كبير.**

**هزت ليلي برأسها وقالت: «إنك عادل في ذلك بما فيه الكفاية».**

**فما كان منه إلاّ أن قال دون تفكير: «إنني أحبها؛ فلقد عشقتها من أول لحظة رأيتها فيها».**

**وهنا أخذت الحرارة تسري في جسد جون. أوَيحبها فعلاً؟**

**عند ذلك، كررت ليلي الكلمة وهي تلوح بيدها باستخفاف في الهواء: «تحبها!».**

**ثم تابعت: «إن الأمريكي وحده هو من يثرثر حول موضوع الحب؛ إذ لم يمضِ سوى يوم واحد على معرفتك بها!».**

**ولكن، بالرغم من أن جون لم تكن قادرة على أن تستجمع قواها لتنظر إليه، وكانت تشعر بإحراج كبير لتفكر حتى بالرد عليه، إلاّ أن إحساساً بالدفء تعجز عن وصفه أخذ يملأ قلبها في تلك اللحظات.**

**فما كان من إيدي إلاّ أن أمسك بيدها وأخذ يضغط عليها بشدة، فعاملته بالمثل. وأثناء مسيرهما، كان كل منهما يشد على راحة يد الآخر. ولأول مرة في حياتها، بدأت تصدق فكرة الحب من أول نظرة. وكانت قد يئست من البحث عنه حينما وقعت عيناها على ذلك الشاب لأول مرة، غير أن نظرة واحدة إلى عينيه العسليتين كانت تكفيها. وإدراكها لتلك الحالة كان يستهلك كل الأوكسجين الموجود في رئتيها. كما علمت منذ ذلك اليوم أنها سوف تلحق بإيدي حتى آخر بقاع الأرض، إن كان ذلك يعني أنها لن تترك يده أبداً.**

# الفصل الثالث

مسحت جون دمعة سالت على خدها. كان مجرد التفكير في إيدي يجعل قلبها يخفق بشدة، وكانت تسأل نفسها: هل سيكون الوضع كما عهدته معه؟ وهل سيكون بانتظاري كما وعد؟ ثم ماذا عن شقيقتها؟ وماذا عن أمها وأبيها؟ هل ستعيش حياة سعيدة بالفعل بدونهم؟ كانت مرحلة كتابة الرسائل ممتعة، لكنها لا تشبه وجوده وبقاءها قربه. كانا قد أمضيا أسبوعاً واحداً فقط معاً منذ زواجهما، وخلال الأشهر التي تلت ذلك كان القلق يساورها مع كل رسالة تصلها منه حيال مشاعره تجاهها.

«سيكون كل شيء على ما يرام يا حبيبتي. ستكون كل الأمور بخير». هتفت بيتي بلطف لتوقظ جون من استغراقها بتلك الأفكار.

شدت جون على يد بيتي والتفتت إليها. كانت الفتاتان الأخريان قد نامتا كل واحدة على سريرها أثناء سرد جون لقصتها؛ إذ كانتا قد تعبتا من الانفعال طيلة اليوم، لكن حركات السفينة هدأت من تلك المشاعر. غير أن جون قررت أن تسهر مع بيتي التي كانت تسعى جاهدة لتحظى بالراحة، لكنها ظلت تحس بمغص في بطنها.

وهنا هتفت: «جون؟».

مدت جون يدها لتغطي نفسها بالملاءة ولتتفحص وجه بيتي تحت الضوء الخافت، وقد بدا عليها الاهتمام، فأدركت أنها لم ترد عليها حتى تلك اللحظة.

عندها، تنهدت جون وقالت: «إنك على حق، سيكون كل شيء على ما يرام. لكن يبدو أن الطريق أمامنا طويل».

فسألتها بيتي: «لم تخبريني، ماذا حدث مع شقيقتك؟ هل وجدت أميرها الوسيم؟».

فضحكت جون من ذلك السؤال وردت: «لقد تقدم شبان كثيرون لخطبة بيتي، إلاّ أنها لم تقع إلا بغرام أمريكي هي أيضاً».

فاعتدلت بيتي في جلستها فجأة وهتفت: «أووه! يجب عليك أن تحكي لي قصتها، أرجوك!».

فهزت جون رأسها موافقة وقالت: «لقد تحدثت بما فيه الكفاية اليوم، لكنني سأخبرك بأن ليلي التقت رجلاً في تلك الليلة أثناء الحفلة الراقصة، فجعلها تعجب به وتكف عن سخريتها. لكنها لم توافق على الرحيل إلى أمريكا».

عند ذلك، مدت بيتي يدها لجون بينما كانت اليد الأخرى تفرك بطنها بحركات دائرية كبيرة.

ثم سألتها: «هل تزوجا؟».

فردت: «نعم. لكن ذلك لم يتم إلا بعدما جعلته يقسم ألا يطلب منها الانتقال معه إلى مقاطعة بيغ سكاي. وبعدما وضعت الحرب أوزارها، أتى إليها واستأجرا بيتاً صغيراً في الشارع الذي يضم بيت أهلي».

قالت بيتي: «ستشتاقين إليها كثيراً. أنا متأكدة من أنك تدركين هذا، أليس كذلك؟».

أخذت جون ترمش بعينيها حينما اغرورقتا بالدموع مرة أخرى وقالت: «أرى أن نضع أملنا

في أن يكون هؤلاء الرجال جديرين بهذه التضحيات، ما رأيك؟».

فردت بيتي: «إنهم جديرون بها بالفعل، أليس كذلك؟».

كان بوسع جون أن تسمع نبرة الإخلاص والصدق في صوت بيتي، ولم يكن هنالك أي شك بأن لبيتي قلباً عطوفاً؛ فقد تلقت جرعة من الأمان حينما أخبرتهن بأمر حملها، ثم أخذت تصغي إلى قصة جون باهتمام بالغ، وقد ترقرقت الدموع في عينيها البنيّتين حينما تحدثت جون عن الرقص.

من الصعب أن يترك الإنسان العالم الذي يعرفه ليعيش على سطح القمر. وكان ذلك بالضبط يمثل المسافة التي ستفصلهن عن أهاليهن؛ إذ أتت أولئك الفتيات من عائلات محترمة لها أعمالها التي كانت تمارسها بجد. إلاّ أنه من غير المحتمل أن تتمكن أسرهن من تحمل نفقات السفر لزيارة بناتهن اللواتي سيعشن خارج بلادهن.

هتفت جون وهي تحاول أن تبدو أكثر شجاعة مما كانت تحس به: «حتى لو لم يكن رجالنا يستحقون تلك التضحيات يا بيتي، فعلينا أن نستفيد من تجربتنا هذه إلى أقصى حد».

كانت تبذل كل ما بوسعها لتتجاهل حالة البكاء التي كانت تتربص بها وتخنقها، فشدت بيتي على يدها بقوة أكبر، وعندها شعرت جون بالارتياح.

فعلى الأقل، أصبح لدى جون شخص يتفهمها ووضعه مثل وضعها، ويمكنها أن تصادقه الآن وفي أمريكا أيضاً؛ تلك كانت جل آمالها في ذلك الحين.

***

سألت مادلين: «ما الذي تعرفينه عن نيويورك؟».

فابتسمت أليس ووضعت يدها بشكل مؤثر على جبهتها وردت: «إنها المكان الذي يقيم فيه نجوم السينما وكبار رجال الأعمال المتنفذين، أليست كذلك؟».

وهنا تمكنت اللهجة الأمريكية من إضحاك الجميع.

إلا أن جون صححت لها فكرتها بالقول: «أعتقد أنك تتحدثين عن هوليوود».

أخذت بيتي تتلوى تحت غطاء صوفي، بينما جلست مادلين وجون وبينهما كيس ورقي مملوء بحلوى تغطيها رقائق الشوكولا. كن جميعهن قد حاولن أن ينمن جيداً خلال الليلة الفائتة، كما كن جميعاً يرغبن بالخروج من الحجرة بالرغم من برودة الجو، وذلك لأن صحبتهن أشعرتهن بالدفء والحماية، لأنهن كن بحاجة لهواء منعش. كان الهواء على ظهر السفينة مالحاً، وكانت الرياح تهب من كل صوب، إلاّ أن ذلك لم يمنع الكثير من الركاب من الخروج إلى القسم المكشوف.

«من أين أتيت بهذا؟».

أخذت أليس تلوي أصابعها في بهجة بينما ابتسمت بيتي.

ردت جون: «في المقصف أطعمة لم ترَها عيناك من قبل». ثم قامت بتمرير الصرة بينهن، وتابعت: «هذا إلى جانب الأكياس والأوراق والأقلام الجميلة».

عندها، ضحكت بيتي قبل أن تتناول قطعة من البسكويت، ثم قالت وهي تفرك بطنها: «لقد جذب حديثكن عن الطعام اهتمامي أكثر، لكنني لا أستطيع تصديق كل ذلك».

سألتها مادلين: «كم معك من المال؟».

فاحمرت وجنتا جون قبل أن تهمس وتقول: «لقد أخفيت بعض المال الفائض عن حاجتي

في سروالي التحتي».

مدت أليس يدها للحصول على قطعة أخرى وقالت: «إذاً، ما عليك إلاّ أن تعطي كل واحدة منا قطعة أخرى، ومن بعدها عليك أن تلتزمي الصمت».

عند ذلك، هتفت مادلين بعدما قطبت جبينها وبدا عليها القلق جلياً: «إن عشرة جينيهات استرلينية لن تستمر معنا لفترة طويلة. أعتقد أن هذا المبلغ ضئيل بعض الشيء، ولن يسمح لنا بشراء المزيد. ولكن، ماذا لو تعيّن علينا أن نعيش على مدخراتنا الخاصة لفترة من الزمن؟».

عند ذلك، جلست الفتيات وأخذن يتناولن طعامهن؛ حيث كن يقضمن الشوكولا ويلعقن أصابعهن بعد ذلك. لم تكن اليابسة تلوح في الأفق حينها، بل كان الماء وحده يمتد لأميال وأميال حولهن من كل الجوانب، أما الشمس فكانت تتلألأ فوق سطح المحيط الأزرق.

قطعت أليس الصمت بسؤالها: «هل تعتقدن أنهم سيسمحون لكن بأن تقمن بذلك في أمريكا؟».

فضحكت بيتي عليها وردت بالسؤال: «أتقصدين لعق أصابعنا أم ماذا؟».

فهزت أليس برأسها إيجاباً.

عندها، مدت جون يدها إلى الكيس وأخرجت منه مجلة، ثم قالت: «ألم تقرأن أيتها الفتيات عن بلادنا الجديدة؟».

فبدأن جميعاً بالضحك.

أخذت جون تحكي لهن: «لقد قامت أمي بشراء هذه المجلة من أجلي قبل سفري بأسبوع؛ ظناً منها أن ذلك يمكنه أن يهيئني نفسياً». كان إحساس جون بالخجل عند لقائها الفتيات الأخريات لأول مرة قد اختفى في تلك الأثناء بعدما حكت لهن عن إيدي.

مسحت مادلين أصابعها بمنديل، ثم عادت لتجلس تحت أشعة الشمس وهي تقول: «من الأفضل لنا أن نبدأ بمشاركة تلك الأمور مع بعضنا».

فأخذت جون ترفع حاجبها وهي تقول: «ما رأيكن بخوض مسابقة؟».

ردت بيتي: «أووه! إنني أعشق هذه اللعبة».

انتظرت جون لتسمع ردّ الفتاتين الأخريين، فهزتا برأسيهما إيجاباً ولكن على مضض.

عندها، أخذت أليس تتذمر وتقول: «لكن، لا تصعبيها علينا».

ردت جون وقد بدأت تشعر بالتسلية: «لنبدأ بالأسماء».

فرددن جميعاً بصوت واحد: «الأسماء؟».

أجابتهن: «كأن نقول ما هي الكلمة الأمريكية التي تستخدم لتدل على شيء معين».

فتململت أليس وهي تقول: «أعتقد أنهم يتحدثون الإنكليزية».

فما كان من جون إلاّ أن مالت على أليس ووضعت ذراعها حول كتفيها وهي تقول: «حسناً، إنهم لا يتكلمون الصينية، إلاّ أن هنالك اختلافات كثيرة بيننا وبينهم».

أخذت جون تضحك حينما جلست الفتيات كما لو أنهن أطفال في المدرسة وتحلقن حولها، وأخذت تملي عليهن تعليماتها بالقول: «الغش ممنوع». ثم رفعت المجلة ووضعتها على صدرها

وقالت: «حسناً، لنبدأ بكلمة سهلة. ما اسم البسكويت الحلو بالأمريكية؟».

رفعت بيتي يدها في الهواء وقالت: «الكعك المحلى».

فردت: «أحسنت يا آنسة بيتي»

تململت أليس مرة أخرى وأغمضت عينيها، فيما صفقت الفتاتان بكل أدب.

سألت جون: «وماذا عن المرحاض؟».

ردت أليس بوقاحة: «كأن يقال إنني في المرحاض الآن؟».

أجابتها جون: «كلا يا أليس! إنني أسأل عن الكلمة المرادفة لهذه الكلمة بالأمريكية. إذ لن يفهم أحد ما تقصدينه إن سألت أين المرحاض؟».

عندها، أخذن جميعاً ينظرن إليها وكأنه لم تكن لديهن أدنى فكرة حول ما كانت تتحدث عنه.

وهنا هتفت جون: «يُقال عن المرحاض هناك دورة مياه».

فاعتدلت بيتي في جلستها وهي تقول: «أوه! إنني أعرف ذلك. لذا، تابعي عملك وعرفينا على المزيد».

سألت جون: «وماذا يقولون عن الكعكة المستديرة؟».

صاحت مادلين: «بسكويت!».

إلا أن نظرة حادة من أحد المسؤولين في السفينة جعلتهن يخفضن أصواتهن.

سألت جون: «والفرندة؟».

فبقين جميعاً صامتات.

وهنا همست مادلين: «شرفة».

بعدها اقترحت مادلين وهي تحني ظهرها للخلف وتصالب كاحليها بطريقة أنيقة، وتتجه ببصرها نحو المحيط: «ما رأيك بأن تقرئي لنا ونكتفي نحن بالاستماع إليك؟».

أخذت جون تفتح الصفحات بسرعة، ثم رمت المجلة فوق الطاولة وقالت: «أعتقد أنه يتعين عليكن جميعاً أن تقرأنها بأية حال، فلقد تكلمت كثيراً اليوم».

عندها، وقعت نقطة من المطر على جبهة أليس فصرخت قائلة: «أسرعن إلى الحجرة!».

ساعدت جون بيتي على النهوض، ثم شبكت ذراعها بإحدى ذراعَي بيتي وسمحت لمادلين بأن تشبك ذراعها بذراع بيتي الثانية، وأخذتا تتبعان أليس إلى حيث انطلقت، فيما بدأت الأحذية ذات الكعوب بالانزلاق على سطح السفينة مع هطول المطر وتدافع الغيوم في السماء.

***

أخذت أليس تكشر وهي تخلع سترتها الصوفية المبللة عن جسدها وترمي بها فوق الحبل الذي امتد داخل الغرفة. ثم طوت قميصها القصير مرة أخرى وشرعت بالبحث عن رداء صوفي.

«أعتقد أننا سنبقى هنا حتى فترة العشاء».

عند ذلك، نظرت أليس إلى بيتي وهي تتكلم، ثم اقترحت عليها:

«بوسعنا أن نخرج إلى الصالة».

فما كان من جون إلاّ أن هزت برأسها واندست تحت الأغطية وهي تقول: «برأيي، يجب علينا أن نبقى في مكاننا».

فأخذت مادلين تغيظها بالقول: «وهل سنقضي وقتنا بالاستماع إليك وأنت تقرئين لنا مقاطع من مجلة التدبير المنزلي المتميز؟».

فأجابتها: «كلا، بل بالاستماع إلى واحدة منكن وهي تحكي لنا قصتها».

عندها، أخذت كل واحدة منهن تنظر باتجاه الأخرى.

فصاحت جون وهي تمعن النظر بكل واحدة منهن: «هيا، فلقد دفعتنني لأحكي لكنّ قصتي، والآن حان دور إحداكن».

عند ذلك، أشارت بيتي إلى أليس وهي تقول: «قولي لها أن تفعل ذلك، إذ إنني حدثتكن عن قصتي العاطفية مع حبيبي شارلي». وأخذت بعد ذلك تفرك بطنها ثم أسبلت جفنيها.

رفعت أليس كتفيها وشدت ظهرها، وذلك قبل أن تلف رقبتها بوشاح اتقاء للبرد، ثم جلست وسط سريرها. كانت الأشياء المحيطة بهن قليلة، إذ لم يكن هنالك شيء يذكر في تلك الغرفة سوى تلك الأسرة المعلقة فيها، باستثناء ثيابهن الملونة وأشيائهن المبعثرة في كل مكان، وهذا ما منع الغرفة من التحول إلى مكان كئيب في أحسن الأحوال. وهنا هتفت أليس: «أترغبن بسماع قصتي حقاً؟».

فأكدت لها جون: «أجل».

فسألتها أليس: «كم معي من الوقت؟».

وردت بيتي: «حتى فترة العشاء».

اتخذت أليس وضعية مؤثرة، وذلك حينما مدت ذراعيها على اتساعهما، ثم استلقت على بطنها، مستندة إلى مرفقيها، فحجبت بذلك الجدران المصفرة والدهان المتقشر فوقها، وسمحت لعقلها بالتحليق بعيداً. بيد أن الأمر لم يكن صعباً عليها؛ لأنها كانت تفكر بزوجها باستمرار، ولا تفتأ تتذكر كل شيء عنه، وكل لحظة قضياها معاً. ثم إن كتابة الرسائل له خلال الشهور الخمسة الماضية لا يمكن أن تقارن بقربها منه، لكنها كانت تدرك كم كانت محظوظة لأنها ستلتقيه بعدما وضعت الحرب أوزارها، في الوقت الذي لم ترَ فيه أخريات أزواجهن لمدة دامت سنة أو أكثر.

بدأت أليس قصتها بصوتها الجهوري الذي يحمل كل معاني الثقة بالنفس وهي تقول: «كان أبي يقول لنا دوماً إن بقاء المرء مكتوف اليدين أثناء الحرب يعني عدم القيام بأي جهد على الإطلاق. فإذا كان المرء يحب وطنه– مهما كان عمره أو مكانته– عندها يترتب عليه أن يقوم بشيء ما. ولهذا انضممت للصليب الأحمر، حيث تلقيت تدريباً وتحولت إلى ممرضة، وشرعت بالاعتناء برجالنا حال عودتهم إلى أرض الوطن، أو لنقل إنني كنت أعتني بأي رجل وأي جندي يحتاج لمساعدة طبية».

وهنا، وضعت راحتي يديها تحت ذقنها وأغمضت عينيها، فشعرت بأن كل ما حدث قد جرى البارحة بالضبط...

***

إن نسيت أليس فلن تنسى ذلك اليوم الذي أمسكها فيه رالف جونز من معصمها، وذلك حينما كانت تسير بين الأسرة، وتقوم بملء الأكواب بالماء ومراقبة درجة حرارة المرضى. عندها،

أحست بيد قوية تطبق على يدها ولم تتركها، ثم سمعت صوتاً أجشّ يقول لها بلهجة أمريكية: «لا تتركيني». وكان ذلك الصوت صارخاً وذا بحة؛ وكأن صاحبه قد أمسك عن الكلام منذ عدة أيام.

فما كان منها إلاّ أن قالت له: «حسناً أيها الجندي، إنك لست وحدك هنا».

لكنه بقي متشبثاً بمعصمها.

فقالت له: «أرجوك!».

أخذت أليس تنظر في أرجاء الغرفة، فلم ترَ تلك الفأس التي تستخدم في المعارك والتي تم تقديمها لكبيرة الممرضات.

عندها سألته: «أتريد بعض الماء؟».

فتحرك رأسه قليلاً من جانب إلى آخر وهو يقول: «كلا».

نظرت أليس في الغرفة مرة أخرى فلم ترَ أحداً، فقالت له: «إن تركت معصمي فسأحضر كرسياً وسأجلس معك».

سألها: «أهذا وعد؟».

ردت: «إنه وعد».

وعندما فعل ذلك، انحنت تحت السرير وسحبت كرسياً؛ إذ كانت تعرف بوجوده هناك، وذلك لأنها كانت قد وضعته في ذلك المكان قبل أن يشغل هذا النزيل السرير. بعد ذلك، مالت أليس فوق السرير لتأتي بالجداول المخصصة للمريض لتلقي عليها نظرة سريعة.

ثم هتفت: «حسناً أيها النقيب جونز، يبدو أن الحظ قد حالفك بوصولك إلى هنا».

لكنه لم يرد على كلامها بأي حرف، بل بقيت عيناه مغمضتين. لذا، أعادت الجدول إلى مكانه، وأبعدت الكرسي لتقف.

عندها، أمسك بمعصمها من جديد، ولكن بلطف هذه المرة، فأحست بعرقه على جلدها، وهنا توقفت وهتفت: «أرجوك!».

ثم جلست مرة أخرى، إذ كانت قد فقدت الكثير من الجنود منذ بداية عملها كممرضة، حيث مات رجال كثيرون اعتنت بهم أشد الاعتناء حينما وصلوا جرحى إلى المشفى، إلاّ أنهم فارقوا الحياة في نهاية المطاف. كما أن بعضهم طلبوا يدها، لدرجة باتت معها تتوقع ذلك من أشخاص لا يناسبونها على الإطلاق. إلاّ أن هذا الرجل كان مختلفاً عن كل الرجال الذين صادفتهم من قبل؛ إذ بالرغم من الضماد الذي كان يغطي نصف وجهه، والجبيرة التي علقت ساقه فيها، والملاءات التي تغطي سائر جسده تقريباً، كان فيه شيء مميز؛ لعله تلك القوة والسلطة اللتان لم تستطع جراحه إخفاءهما.

انحنى ذلك النقيب نحو الأمام، وافترت شفتاه بنعومة حينما أمالت أليس كأس الماء ليشرب منه، ثم قال لها:

«أشكرك».

عندها، أحست أليس بلمسة غريبة فوق ذراعها، فأعادت الكوب إلى طرف الطاولة، وجلست على مقعدها من جديد. غير أن الجندي أبقى يده فوق يدها، كما بقيت أصابعه ممسكة بأصابعها، فأخذ ذلك الإحساس يزحف ببطء فوق جلدها، ثم بدأ يدغدغها، مما جعلها تستشعر وجوده.

فتح الجندي عينيه، وأدار رأسه قليلاً، ثم نظر إليها مباشرة، فابتلعت ريقها دون أن تحوِّل نظرها عنه.

قال لها: «بإمكانك أن تناديني رالف».

فهمست: «وأنا أليس».

فكرر وراءها: «أليس... أشكرك يا أليس». ثم استرخى في مكانه على الوسادة وأغمض عينيه.

عند ذلك، وقفت أليس لأنها خشيت أن يراها أحد، وبدأت تراقبه لفترة من الزمن، وتصغي لأنفاسه، ثم تأكدت من أنه استغرق في النوم.

أخذت أليس تمرر أصابعها فوق راحة يده، وهي تتلو دعاء قصيراً. دعت لكي يبقى على قيد الحياة إلى أن يحين موعد فترة مناوبتها في الصباح، ثم غادرته.

***

كان كل يوم ترى فيه أليس رالف جونز يوماً جميلاً بالنسبة لها، حتى لو لم يتم تعيينها للعناية به. إذ كانت تجد مبرراً لزيارته، وللجلوس بجانب سريره والقراءة له. كانت تقرأ له الجرائد أو القصائد أو أي شيء آخر فقط لتتمكن من قضاء الوقت بصحبته. أخذ ذلك الجندي يقص عليها قصصاً حول أمريكا، كما أخذ يحدثها عن أصدقاء كان يتمنى أن يلتقيهم يوماً ما من جديد. وكان يقول لها في كل يوم يلقاها فيه إنه حينما يتمكن من المشي مرة أخرى فسيدعوها للرقص.

ولكن، حينما طلب منها الخروج بصحبته ردت عليه بالقول: «لكن هذا غير لائق نظراً إلى كوني ممرضتك».

فقال لها: «حبيبتي، إنني نقيب في جيش الولايات المتحدة، لذا لن يستدعيني أحد إن أخذتك في جولة».

قالت له: «وماذا عن حبيبتك في بلادك؟ أراهن أن الموضوع لا بد أن يقلقها!».

فردّ عليها: «ليست لدي حبيبة في بلادي يا أليس. وهل تعتقدين أنني كنت سأتكلم معك كما أفعل الآن لو كانت لدي حبيبة؟».

عند ذلك، قامت أليس بما كانت تقوم به كل يوم، فطبعت قبلة على جبينه، ثم أمسكت يده بقوة وخرجا معاً. لكنها لم تكن تريد أن تتعلق به؛ بالرغم من أنها كان ترغب بوجود رجل في حياتها. كان كل الأمر يدور حول تلك الإثارة المتمثلة في ملاحقتها، وذلك السحر المتمثل بلقاء رجل كان يرغب باحتساء الشراب وتناول العشاء معها، أي لم تكن لديها أية نية للاستقرار مع أي رجل.

ولكن، في اليوم الذي وصلت فيه إلى العمل وانطلقت فوراً لتقضي بعض الوقت بصحبة رالف قبل أن يبدأ دوامها ولم تجده ندمت على تظاهرها بأنها لم تكن مهتمة به. وكل ما كان بوسعها القيام به حينئذ هو أن تمنع نفسها من البكاء والعويل والزحف باتجاه الكومة الموجودة على سريره. ولعلها كانت ستفعل كل ذلك لو لم يكن في سريره نزيل جديد.

حينها، هرعت فوراً إلى قسم الممرضات ويداها ترتجفان، فوجدت رسالة معلقة على اللوحة، وقد كتب على غلافها اسم أليس بشكل فوضوي.

مدت أليس إصبعها لتتابع ما كُتِب بخط عشوائي، وذلك قبل أن تقوم بسحب الرسالة عن اللوحة. لم يكن في الرسالة كلام كثير، إذ كانت خالية من كلمات العشق أو الشفقة، ولكنها إن نسيت

يوماَ كل شيء فلن تنسى ما كتبه لها رالف فيها طيلة حياتها.

سأجدك

وهكذا، بقيت أليس بعد استلامها تلك الرسالة بشهرين تتمنى كل يوم أن يتحقق ذلك الوعد.

***

كانت أليس متعبة للغاية، وكانت تحس أن رأسها بات ثقيلاً جداً وكأنه رأس عملاق، وكانت في داخلها ترغب بتجاهل تلك الطرقات على الباب بعدما وصلت لتوها إلى البيت أخيراً؛ لأنها كانت تتوق كثيراً للتوجه إلى فراشها. غير أن أدبها الجم منعها من الاختباء، فقد كان دوامها قد امتد لساعات أطول مما هو متوقع، ورأت في ذلك اليوم كميات كبيرة من الدماء؛ أكثر مما تخيلت أن تراه في حياتها قبل الحرب، حينما كان كل يوم يمر عليها ببساطة ويسر، وليس كتلك الساعات اللامتناهية التي تقتضيها في عملها كممرضة. لقد كانت مدللة قبل الحرب، إذ كان والدها يشبع رغباتها وكأنه كان يريد من ابنته أن تقدِّم أفضل ما لديها. وبالرغم من أن عائلتها لم تكن ثرية للغاية، إلاّ أن والدها كان دوماً يجد شيئاً إضافياً– ولو بقدر يسير– كي يقدمه لها. لكن كل ذلك قد تغير، وأصبح عليها أن تعتاد على الحياة بدون كل ذلك الدلال.

سمعت طرقة أخرى قوية آتية من الردهة، فانكمشت على ذاتها، إذ لم تخطط للقاء أي أحد، وكان المنزل وهو خاوٍ مناسباً لمزاجها تماماً في ذلك الحين.

سارت نحو الباب الخشبي.

وهناك جمدت عيناها حينما شاهدت جسداً يرتدي زياً عسكرياً، ورأت عينين رماديتين ثاقبتين لم ترمشا نهائياً. لا يمكن لذلك أن يحدث، أليس كذلك؟

أخذت أليس تتأمله من الأعلى إلى الأسفل، وذلك قبل أن تتجرأ على إلقاء نظرة أخرى خاطفة على وجهه.

سألها: «أتتذكرينني؟».

فلم تستطع أن تخفي ابتسامتها؛ حتى وإن حاولت.

ثم هتفت: «رالف». وأحاطت كتفيه بذراعيها وهي تقول: «أوه يا رالف».

فردّ عليها: «قلت لك إنني سأجدك، أليس كذلك؟».

كانت شهور قد مرت على اختفائه؛ منذ أن أمسكت بيده لآخر مرة، وطبعت قبلة على خده، وراقبته وهو يخلد للنوم.

ها قد وجدها الآن.

سألها: «أتسمحين لي بالدخول؟».

فابتعدت أليس وسمحت له بالدخول، ولم تكلف نفسها عناء إغلاق الباب، بل أخذت تتلمس أصابعه بأصابعها، ثم أمسكت بيده التي مدها إليها.

لقد عاد رالف، كان ذلك كل ما يهمها.

كان بوسعها أن تعاين جروحه القديمة لاحقاً، فقد كان عندها.

«لقد تم استدعائي يا حبيبتي بمجرد خروجي من المشفى، لكنني كنت أعرف دوماً أنني

سأجدك».

وكانت أليس تعرف ذلك أيضاً في أعماق قلبها.

قبل الحرب، كانت أليس قد اعتادت على الحياة الباذخة، وحتى حينما ساءت الأحوال كانت تتدبر أمرها دوماً عبر التعرف على شبان رائعين كانوا يرغبون بتدليلها، وكان لديهم ما يساعدهم على القيامِ بذلك. كانت تحب أن تثار حولها ضجة، لذا كانت إذا دُعِيت إلى العشاء من قبل أحدهم توافق دوماً وعلى الفور.

أما رالف فقد كان شخصية تتميز عن كل شبان لندن الذين تركوا لديها انطباعاً جميلاً يوماً ما. أما وقد عاد الآن، فهذا يعني أنه قرر أن يعوّض عمّا فات من أيام؛ حيث أخذ يغرقها بالهدايا، ويبحث عن مبررات لذلك بصرف النظر عن فترة التقنين التي تعيشها البلاد أثناء الحرب، وهذا ما جعل دقات قلبها تتسارع؛ إذ لم يسبقه إلى ذلك أي رجل آخر.

كانت أكياس الهدايا وألواح الشوكولا، بل وحتى الكماليات السخيفة تدفعها لحبه أكثر فأكثر.

أما بزته الرسمية المرتبة والمميزة، بل وحتى الطريقة التي كانت كبيرة الممرضات المشرفة عليها تقوم من خلالها بتحويل نظرها عن رالف إن أتى لرؤيتها أثناء عملها، فكانت تجعلها تشعر بالحماسة والإثارة. كانت روحه السلطوية تدوخها؛ بالرغم من أنها لم تكن لتنقاد له وتتبع أوامره كما يفعل رجاله.

لكنها لم تكن تعرف حينها إلى متى سيبقى بصحبتها، أو ما ستثمر عنه هذه العلاقة. إذ يمكن أن يتم استدعاؤه عبر إشعار يتم إرساله قبل فترة قصيرة جداً، وذلك من النقطة التي يتبع لها في لندن. وكان دوماً يحدثها بأن ذلك اليوم لا بد أن يأتي، ولا بد أن يطلب للخدمة في مكان آخر.

وبمرور بضعة أسابيع أخرى، أصبحت مخاوفها حقيقة. فأخذت تواجه العالم بمفردها مرة أخرى، دون وجوده إلى جانبها؛ بما أنه قد استُدعِي للخدمة من جديد. ولكن، هل سيعود إليها؟ وهل سيجدد العهد الذي قطعه مرة أخرى وسيكون على يقين من قدرته على الوفاء بوعده؟ كانت دفقة جديدة من الدموع على وشك أن تنهمر مرة أخرى، لكنها مسحت عينيها، لأنها لم تكن تريد أن تفسد زينتها قبل بدء مناوبتها في التمريض. ثمة فرق كبير بين التخطيط للمستقبل قبل الحرب وبعدها؛ إذ يمكن أن يموت حبيبها خلال الحرب بكل بساطة فور مغادرته للندن. ولكن، ماذا سيحدث إن لم يطلب يدها؟ وإن لم تسنح لهما الفرصة للزواج؟

سألها: «أليس؟».

أتى صوت رالف عالياً في أجواء لندن المتقلبة. كانت أليس قد تعمدت اختيار مكان هادئ ليجلسا فيه، حيث اختارت مقعداً يخفيه جذع شجرة بلوط ضخمة، وذلك ضمن المساحة الخضراء الخالية القريبة من المشفى، والتي كانت في ما مضى حديقة خاصة، ثم تحولت إلى حديقة مخصصة لمختلف حالات الرجال المصابين وذلك ليتجولوا فيها بكراسيهم المتحركة.

وقفت أليس عند سماعها صوته ليتمكن من رؤيتها، إلاّ أن عينيها تعلقتا بمعالم جسده الخارجية، وشكل بزته العسكرية.

هتف بها: «أليس!».

ثم أخذ يخطو بخطى واسعة إلى أن وصل إليها. وبعد ذلك، لمس خده الحليق خدها أثناء قبلة امتدت لفترة أطول من المعتاد.

سألته: «سترحل اليوم، أليس كذلك؟».

أخبرها ذلك العمق المهيب في عينيه بأنها كانت محقة، فعضت على شفتها إلى أن جفت دموعها، ثم تنحنحت وقالت:

«كم من الوقت بقي أمامنا؟».

فجذبها رالف إليه. عندها، أخذت تستنشق رائحته، وتتحسس ملمس جسده بيديها. لقد كانت مغرمة به، مغرمة إلى أبعد الحدود، إذ كيف يمكنها أن تعيش بدونه؟

رد عليها: «سأسافر عند الساعة العاشرة ليلاً».

كان النهار في بدايته، أي قبل الظهر بقليل، وهذا يعني أنه كان أمامهما أقل من اثنتي عشرة ساعة، وكان عليها أن تجد ممرضة أخرى لتحل محلها أثناء فترة مناوبتها.

أخذت أليس تقول لنفسها: سيعود، ولن يتم فرزه على الجبهة. ولا بد أن يكون بخيرٍ، وهذه ليست نهاية القصة. إذ لم يصل إلى رتبة نقيب دون أن يبلي بلاء حسناً في كل مهمة كان قد كُلف بها.

هتف بها: «إنك تعرفين يا أليس أنني لا أريد أن أكون شخصاً مجرداً من العواطف وبعيداً عن الرومانسية، ولكن...»

عند ذلك، أخذ قلبها يخفق بشدة.

فتابع حديثه بالقول: «علينا أن نتزوج اليوم».

أغمضت أليس عينيها بقوة، وذلك لأن زواجها في زمن الحرب لن يسمح لها بإقامة حفلة الزفاف التي كانت تحلم بها حينما كانت فتاة صغيرة. ولكن، إذا كان ذلك يعني الاعتراف بعلاقتهما بشكل رسمي، وأنها ستصبح زوجته بشكل قانوني، فلن ترفض ذلك العرض.

بدأ يقول: «لقد رتبت الأمور مع رجل الدين».

كان يحبّ أن يتحلى بالروح القيادية في كل شيء، وهذا ما جعله محط احترام وتقدير كبيرين.

بالطبع كان لديه رجل دين.

سألها: «أليس؟».

فهزت رأسها إيجاباً؛ إذ كان ذلك كل ما استطاعت القيام به. لا بد لها أن تتزوجه؛ فإذا كانت هذه هي فرصتهما الوحيدة، فما هي الخيارات الأخرى المطروحة أمامها؟

جذبها رالف لتجلس على المقعد من جديد، فأذعنت له؛ إذ لم يكن هناك أي شيء في الوجود يمكنه أن يطلبه منها في ذلك الحين وهو بصحبتها قبل رحيله ولا يمكنها أن تقوم به.

قال لها: «لديّ شيء لك».

ثم مد يده إلى الجيب الموجود في صدره، فحبست أليس أنفاسها، وبعدها سمعته يقول:

«إليك هذا».

ثم فتح راحة يده ليقدم لها قلباً ذهبياً معلقاً بسلسلة رفيعة. عندها، عضت أليس على شفتها مرة أخرى.

سألها: «أأعجبك؟».

ردت: «جداً».

**عند ذلك، أمسكها رالف من كتفها، فاستدارت قليلاً ليقوم بتعليق العقد حول جيدها، إلاّ أن لمسته الخفيفة على بشرتها كانت باردة ومريحة.**

**همس لها: «يبدو جميلاً عليك».**

**فابتسمت، ثم اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها لم تستسلم لدموعها؛ إذ بوسعها أن تسمح لدموعها بأن تسيل في الغد، ولكن اليوم لا بد لها أن تكرسه للبقاء قربه وللتمتع بالسعادة معه؛ فهي تريد أن تمنحه ذكريات جميلة ليحملها معه أثناء سفره.**

**قال لها: «لن أنسى ذلك اليوم الذي رأيتك فيه في المشفى يا أليس، لقد فعلت بي فعلتك، لقد أسرتني».**

**أخذت تتلمس القلب بأصابعها، وتمنت أن تخبره ما يعنيه لها هذا القلب، لكن الكلمات خانتها.**

**وأخيراً، همست بصوت متهدج: «رالف، إنني...»**

**فقال لها: «هلمّي يا قطتي، لنذهب إلى بيتكم كي نخبر والديك».**

**حاولت أليس أن تطبع في ذاكرتها حجم يده حينما أمسكت بيدها، وأخذت تضغط عليها لتتأكد من أن ما تراه كان واقعاً.**

**كان الرجل الذي لطالما حلمت به، إلاّ أن كل أملها كان ينصب في ذلك الحين على أن يلحق بها فور وصولها إلى أمريكا، أو أن يسبقها إلى هناك. في الحقيقة، لا يهم أيهما يصل أولاً، طالما أن لا أحد من جماعة الصليب الأبيض يعرفه ليدفع به إلى أقاصي الأرض في ناحية ما من نواحي أوروبا.**

# الفصل الرابع

نبّه صوت الصفير الفتيات إلى أن وقت النهوض قد حان، فتمددت مادلين وأخذت تفرك عينيها، إذ شعرت بأنها أشبه بجندي كان يتوجب عليه أن يلتزم ببرنامج دائم، لكنها لم تكن لتتذمر؛ إذ لم يعد هناك أي مجال للتكاسل وللحلم بالعودة إلى الوطن، كما لم يعد هناك أي وقت يكفي لتعبر كل واحدة منهن عن مخاوفها حيال ما يمكن أن يحدث لهن حين يصلن إلى أمريكا. كان ذلك اليوم هو الخامس على ظهر السفينة، أي كانت أمامهن عشرة أيام أخرى يقضينها هناك.

كان ما يجب أن تقلق مادلين حياله في تلك الأثناء هو كيف أنها ستصبح سيدة منزل صالحة في أمريكا، أي من أولئك السيدات اللواتي يجعلن من بيتهن يرحب بقدوم الزوج دوماً، ويحوّلن المنزل إلى مكان سعيد وهانئ يمكن للأطفال أن يترعرعوا فيه. كانت هنالك قائمة تعليمات غريبة يتم توزيعها على النساء، وقد سمعت بأن العائلات والأسر الجديدة ستتلقى الكثير من الرسائل والإشعارات لتتهيأ للعيش في تلك البلاد، ولعل تلك كانت مجرد إشاعة سخيفة، إلاّ أن مجلة التدبير المنزلي المتميز كانت قد خصصت أعداداً بكاملها للعرائس الأجنبيات، وكأن جميع الأمريكيين كانوا يتوقعون أن تستقبل بلادهم نساء ساذجات لم يتلقين أي تدريب في أي مجال.

لا بد أن صفات الزوجة الصالحة في أمريكا هي نفسها الصفات التي تميّز الزوجة الصالحة في بلادها؛ إذ ألا يكفي أن تتقن المرأة فن الطهي والحياكة وإدارة شؤون البيت لتكون كذلك؟ وما الذي ينقصها بعد كل هذا؟

إلا أنّ صوت بيتي وهي تقول لها: «هلمي يا مادز! لا أريد أن يفوتني الفطور» قطع حبل أفكارها.

عندها، ابتسمت مادلين لبيتي التي وقفت ثم وضعت إحدى يديها حول بطنها، بينما أخذت يدها الأخرى تفرك ظهرها. وفي تلك اللحظة، تأكدت أن صديقتها تتناول الطعام عن شخصين بلا ريب.

ردت عليها مادلين: «انطلقي! فأنا بحاجة لبعض الوقت».

قد تعتبرها الفتيات الأخريات سخيفة، لأنه لا يوجد على ظهر السفينة سوى نساء، لكنها لم تكن تريد أن تنزل دون أن تهتم بشكلها قليلاً، وذلك لأن أناقتها كانت مهمة بالنسبة لها دوماً، إذ كانت والدتها تصرّ عليها منذ أن كانت فتاة صغيرة لتعتني بأناقتها، ولم يكن ذلك يتعلق بوضع كميات كبيرة من المساحيق ومواد التجميل، بل يتعلق بحضورها وإطلالتها المميزة وشعورها بالفخر والزهو حيال ذلك.

كانت والدتها أكثر امرأة تعتني بنفسها وتحافظ على شكلها في الحي الذي يقيمون فيه؛ إذ لم تكن تخرج من البيت دون مسحة من أحمر الشفاه، وتسريحة للشعر تم تصفيفها بعناية، بالإضافة إلى الملابس الضيقة. لم تكن عائلتها ثرية، لكنّ أمها كانت تحب أن تبدو عائلتها كذلك بكل تأكيد. كانت أمها تقول لها: لتحققي النجاح في حياتك عليك أن تثقي بنفسك يا مادلين، وعليك أن تظهري بمظهر لائق بحسب المناسبة والحال أيضاً. كانت تلك كلمات أمها التي لا يمكنها أن تنساها مهما مر عليها من وقت بعيداً عن أسرتها التي لم تكن تملك الكثير، لكنها كانت تعتز بأصلها دوماً.

هتفت أليس أثناء مرورها بمادلين: «هل أنت جاهزة يا مادلين؟». فهزت مادلين برأسها.

ثم وضعت الدبوس الأخير في شعرها، وتأكدت من خلو تنورتها من الثنيات، ثم تبعت صديقتها.

وهناك هتفت وهي تحاول اللحاق بها: «أليس!».

فتوقفت أليس، وأخذت تنتظرها.

عندها سألتها مادلين: «سنبقى على تواصل حينما نصل إلى أمريكا، أليس كذلك؟».

فأمسكتها أليس من ذراعها، وشدت عليها وهي تقول: «لن أتخلى عنك يا صديقتي مهما كان حينما نترجل من هذا المركب الملعون».

سألتها مادلين: «أهذا وعد؟».

فهتفت أليس: «إنه وعد!».

عند ذلك، تنهدت مادلين ووضعت رأسها على كتف أليس قبل أن تسيرا معاً بذراعين متشابكتين.

ثم همست مادلين بصوت ناعم للغاية لدرجة أنها شكت في أنها نطقت بذلك الكلام أصلاً: «إنني سعيدة لأننا وجدنا بعضنا». لكن، لم يكن من عادة مادلين أن تكون عاطفية لهذه الدرجة، غير أن هؤلاء النسوة كن يعشن وضعاً غريباً.

فما كان من أليس سوى أن أكدت على كلامها بالقول: «وأنا كذلك يا مادز، وأنا كذلك».

***

كانت غرفة الطعام تعج بالنساء. لذا، زادت روائح العطورات والأطعمة الدسمة المطبوخة من إحساس مادلين بالغثيان الذي بدأت تشعر به حينما أخذت السفينة تهتز إلى الأمام والخلف، غير أن الطاقم كان صارماً حيال تناول الفتيات لوجباتهن، إذ كان عليهن أن يعدن بأطباق فارغة!

أخذت مادلين تضحك وهي تفكر بآخر رسالة حدثتهن أليس عنها لتمضية الوقت؛ إذ كانت الأخيرة تكتب رسائل لأسرتها كل يوم تقريباً، وهي رسائل كانت تنوي إرسالها ضمن رزمة كبيرة واحدة لعائلتها وذلك بمجرد وصولهن إلى أمريكا.

كان لا يزال بوسع مادلين أن تسمع أليس وهي تتلو ما كتبته في رسالتها تلك؛ مما جعل جميع الفتيات ينفجرن بالضحك بعد حلول الظلام، إذ أنشأت تقول: إننا نتناول أربع وجبات في اليوم، أعني نحن الفتيات، اثنتان منهما في الطابق السفلي، وواحدة في الطابق العلوي. كما أننا نتناول وجبة دسمة، ثم يدفعنا كرمنا الجم لرميها في المحيط ليستمتع بها كطبق حلوى لذيذ.

كان الطعام صدمة بالنسبة لهن بعدما اعتدن على نظام معين؛ إذ كان هنالك البيض واللحم والجبن وسائر الأطعمة اللذيذة والرائعة التي اشتقن إليها بعدما تم التقنين في كل أنواع الأطعمة في لندن. كانت مادلين على يقين من أنها لن تتذوق البيض المخفوق مرة أخرى. إلاّ أن تأرجح السفينة في عرض البحر، لم يكن يساعد على هضم تلك الأطعمة الدسمة بسهولة. لكن وضع مادلين لم يكن سيئاً لتلك الدرجة مقارنة ببعض الفتيات اللواتي اعتدن على ارتداء أحزمة ضخمة حول تنانيرهن وذلك ليرفعنها حول خصورهن النحيلة.

وهكذا، فإن عمليات إخفاء الطعام وتخبئته تحولت إلى موضوع أساسي للنقاش بين الفتيات، بالإضافة إلى الحديث عن أزواجهن.

كان صخب النساء الكثيرات وهن يتناولن طعامهن شيئاً لم تتمكن مادلين من تحمله في بداية الأمر، ولكنها وجدت فيه بعض السلوان في ما بعد، وخاصة بعدما رأت أنهن كن يبذلن أقصى ما بوسعهن رغم ظروفهن القاسية. غير أنها كانت عصبية ومتقلبة المزاج، ولم تستطع منع نفسها

من الشعور بذلك. بدا على الأخريات أنهن كن واثقات تمام الثقة بأزواجهن، لكنها لم تستطع أن تتخلص من الشك المزعج الذي كانت تحس بآثاره على معدتها في بعض الأحيان؛ إذ لم يكن من عادتها أن تثق ثقة مطلقة حينما تكون حذرة كل هذا الحذر، كما أنها لم تعتد على ترك عائلتها لتقلق عليها كل هذا القلق.

وهنا، هتفت أليس وهي تضع البيض المخفوق فوق قطعة من الخبز المحمص القاسي: «صدر أول عدد من مجلة زوجات يقطعن البحار، ألا تعتقدن أن هذا العدد قد يحتوي على بعض النصائح المفيدة بالنسبة لنا». قالت ذلك وهي ترفع حاجبيها بمكر، مما أثار ضحك الأخريات.

فردت جون وهي تقلد الصوت المبحوح لأحد المسؤولين على ظهر السفينة: «إنها المجلة المطبوعة الرسمية المخصصة لعرائس الأمريكيين اللواتي أبحرن إليهم».

عند ذلك، هتفت بيتي بصوت حاد فيه شيء من التقليد: «في أمريكا، يتوقع منك زوجك أن تغني له النشيد الوطني كل صباح قبل أن تنهضي من سرير الزوجية».

فانتابتهن موجة من الضحك إثر ذلك، لدرجة أن دموع مادلين أخذت تسيل على وجهها من شدة الضحك.

تابعت بيتي: «كما يتوقع منك زوجك أن تتخلي عن عادة شرب الشاي، وأن تتناولي القهوة عوضاً عنها، وأن تقومي برسم صور للعلم الأمريكي وتعلقيها في مختلف أرجاء البيت».

وهكذا، كن يضحكن وهن يخترن طعامهن.

ثم همست أليس بصوتها الذي أخفضته حينما مر بهم المسؤول في السفينة: «أعتقد أنه علينا أن نتحلى بالجرأة ونخرج متبخترات على سطح السفينة بثياب السباحة».

فردّت بيتي وهي تحاول إخفاء بطنها بيديها: «ماذا؟! لا أعتقد أنهم سيسمحون للفيلة بأن تخرج بملابس السباحة».

كانت بيتي تحاول أن تخفي موضوع حملها قدر المستطاع، حيث لفت شالاً حول بطنها لتبعد عنها أعين الفضوليين، غير أنه ثمة الكثير من النساء الحوامل على ظهر السفينة، إلاّ أن أياً منهن لم تكن في شهورها الأخيرة كما هي حال بيتي التي كان وضعها غريباً حينها.

سألت أليس موجِّهة السؤال لجون ومادلين: «ما رأيكما؟».

فهزت مادلين رأسها، وكذلك فعلت جون ثم قالت: «لا مجال لذلك! تخيلن أن يقوموا بإرسالكن إلى بلادكن فقط لتنعمن بحمام شمسي».

سألت أليس: «وهل بإمكانهم أن يعيدونا إلى بلادنا لأننا تخلينا عن الحشمة فقط؟».

عند ذلك، قامت مادلين التي كان صحنها لا يزال ممتلئاً حتى نصفه وهتفت قائلة: «ما رأيكن بلعب الورق عوضاً عن ذلك؟ سأعود إلى الغرفة وأحضر الورق، وعندها يمكننا أن نستعرض أرجلنا ونعرضها للشمس دون أن نتعرض للمشاكل».

سألتها أليس: «ولكن، ما هو الرهان الذي سيترتب على اللعبة؟».

فنظرت مادلين إلى أليس نظرة كلها ضيق وتبرم، إلاّ أن الشيء الوحيد الذي كن جميعاً متيقنات منه هو أن أليس ستواصل إمتاعهن وتسليتهن إلى أن تصل هذه السفينة اللعينة إلى وجهتها. وبالإضافة إلى ذلك، لا شيء يضاهي الاستمتاع بيوم مشمس على ظهر السفينة، وليس هناك ما هو أجمل من مياه البحر وهي تعكس ضوء الشمس عليهن أثناء تبادلهن الأحاديث

والضحكات.

وهنا هتفت بيتي: «أوه! لقد عرفت!».

فدفع صوت بيتي المفعم بالحماسة الجميع إلى التحديق فيها.

فهتفت أليس وهي تستلقي على ظهرها وتصالب ساقيها عند الكاحلين حينما اتخذت وضعيتها: «أعرف ما الذي ستقولينه... تريدين جوارب حريرية من المتجر».

فانفجرت بيتي بالضحك قبل أن تكشف عن قدميها وهي تقول:

«لا توجد جوارب حريرية تناسب هاتين الساقين حالياً».

أظهرت جون مدى الضيق الذي تحس به قبل أن ترمي ورق اللعب الخاص بها في الهواء ثم تكشف أوراقها على الطاولة.

ثم هتفت: «لقد فزت يا سيدات! أخبرنني، ما هي جائزتي؟».

ردت بيتي بصوتها المفعم بالحياة: «شوكولا... شوكولا من المتجر».

كانت مادلين تحتفظ بالكثير من المال، لكنها كانت تنفق منه بحذر منذ أن تركت بلادها، ولهذا لم تكن أية كمية من الحلويات أو العلكة أو الجوارب أو أي شيء آخر قد حُرِمت منه أثناء الحرب لتغريها بإنفاق ما معها من مال، فماذا لو احتاجت إليه في تنقلاتها أو لشراء طعامها؟ وماذا إن لم يحضر أحد لاستقبالها وأصبح يتعين عليها أن تنفق على نفسها إلى أن تجد لنفسها أسرة جديدة تحتضنها؟ كانت مادلين قد علمت بأمر السفينة وموعد مغادرتها قبل أيام قليلة من إبحارها، لذا لم يتسنَّ لها الوقت الكافي للتحقق من سائر التفاصيل المتعلقة بأسرتها الجديدة التي كانت قد أرسلت لها خطاباً، ولم تكن لديها أدنى فكرة حول من سيكون بانتظارها، أو إن كان هنالك من سيستقبلها أم لا، وإن كان يتعين عليها أن تتدبر أمرها لتصل إلى عنوان عائلتها الجديدة أو سيكون هناك من يساعدها في ذلك. لقد كانت الرسائل التي تبادلتها مع روي مختصرة ومتقطعة، لكنها كانت تعتقد أن السبب وراء ذلك يكمن في انشغاله بعدما عاد إلى بلده.

كانت الأسئلة التي تبدأ «بماذا لو» تقض مضجعها ليلاً. فبالرغم من طبيعتها التي تميل للاستقلالية، إلاّ أنها لم تحظ بفرصة الاعتماد على نفسها بشكل حقيقي. لكنها باتت الآن بمفردها، وينبغي لها الاعتماد على نفسها. كانت قريبة من أسرتها على الدوام، وكان والدها وشقيقاتها كل من لديها في الوجود، لذا ففكرة العيش بدونهم لوحدها كانت تدفعها لتنفجر بالبكاء، كما أن قيامها بكل ما كانت تقوم به دون مساعدة منهم بدا لها من المستحيلات.

هتفت أليس: «مادلين؟».

فرفعت مادلين بصرها، عندها صاحت بها أليس:

«ألا تغريك الممنوعات؟».

فابتسمت مادلين وقالت: «كلا يا أليس، لا تغريني هذه الأمور إطلاقاً».

إلا أن أليس لم تكن لتدعها وشأنها، وهذا ما لاحظته مادلين من خلال الابتسامة المتكلفة التي رسمتها أليس على شفتيها.

وهنا صاحت بيتي التي بدأ لعابها يسيل: «أوه فلنتابع اللعب، ولنلعب مقابل الشوكولا!».

عندها، تكلمت أليس من جديد وقالت: «عندي فكرة أفضل، ولن تكلفنا مالاً؛ وهي أنّ من

تخسر لا بد لها أن تكشف أحد أسرارها أمامنا».

وهنا أتى الرد: «أعتقد أنكن يا فتيات من سيفشين أسرارهن لأنني قد فزت عليكن».

كانت تلك جون التي عادت إلى مجلسها، ورفعت يدها لتحمي وجهها من أشعة الشمس.

هتفت مادلين التي لم تكن مقتنعة بذلك: «لا أعرف...»

فعرضت عليها بيتي: «سأكون أول من تكشف سراً».

عندها، وضعت كل واحدة منهن أوراقها على الطاولة.

وهنا صاحت أليس مسرورة بما قالته بيتي:

«لكنّ سرك سيكون بذيئاً».

فهمست مادلين قائلة: «اهدئي وإلا فسيعيدوننا للطابق السفلي».

فردت عليها بيتي بعينين ترقصان فرحاً: «سيكون لدينا صبي».

ردت أليس دونما اهتمام: «هذا ليس بالسر الخطير. ثم إن الصبي لن يكون حجمه بحجم بطنك».

فضحكت بيتي وهي تقول: «أوه بلى سيكون كذلك. ألا تريدين أن تعرفي كيف عرفت؟».

وهنا بقيت أليس صامتة بانتظار الجواب.

عندها قطعت بيتي الصمت بالقول: «كانت الليلة التي حملت فيها إحدى ليالي شهر عسلنا. ثم إنهم يقولون إنك لا بد أن تنجبي ذكراً إذا كنت فوقه». ثم أمسكت عن الكلام بعدما توردت وجنتاها خجلا، لكنها تابعت بالرغم من ذلك قائلة: «كل ما أتذكره هو أنني كنت فوق زوجي معظم الوقت في تلك الليلة، لذا أنا لا أرجِّح أن أنجب بنتاً على الإطلاق».

عندها، احمر وجه مادلين خجلاً، وضحكت جون، أما أليس فقد أخذت تدوس الأرض بقدميها مبتهجة كطفلة صغيرة تذوقت الحلوى لأول مرة، وبدا على بيتي الارتباك غير أنه كان هنالك بريق في عينيها.

وهنا صاحت: «لقد حان دورك يا أليس. هذا إن كنت تعتقدين أنه بوسعك أن تتفوقي عليّ في ذلك».

أخذت أليس تدور بينهن قبل أن تبتسم ابتسامة ماكرة ثم تقول: «أتردن مني أن أقص عليكن قصص العجائز من الزوجات؟ بالطبع يمكنني أن أقوم بذلك. والآن، عليكن الاستعداد جيداً أيتها السيدات لأن قصتي لا بد أن تقطع أنفاسكن».

عند ذلك حبست مادلين أنفاسها.

ثم تابعت أليس: «لكن قصتي لن تكون أكثر بذاءة مما روته بيتي».

فضحكت بيتي التي بقي خداها متوردين من شدة الخجل وهي تقول: «جميعنا متزوجات، لذا لا ضير في سرد بعض الترهات».

مسحت أليس على جفنيها بشكل مؤثر، ثم انحنت إلى الأمام وهي تقول:

«قبل الحرب قام رجل متزوج بمداعبتي». فشهقن جميعاً، مما جعل أليس تخفض من صوتها قليلاً وتتابع قائلة: «كانت لديه سيارة رولز رويس وشارب وبزة رسمية فصلها عند

الخياط».

ثم أتى صوت جون على شكل شهقة وهي تسأل: «وهل سمحت له بذلك؟».

فهزت أليس برأسها وقالت: «لقد كنت صغيرة، وكان في غاية الوسامة». ثم توقفت ونظرت إلى يديها وبعدها تابعت: «لذا خرجت معه لتناول العشاء، فقبّلني أيضاً». وبعد ذلك ضحكت وقالت: «لقد كان شاربه يدغدغ شفتي».

عند ذلك، جلست جميع الفتيات صامتات بانتظار سماع ما حدث بعد ذلك، وذلك لأن حياة أليس قبل الزواج لم تكن تشبه حياة أيٍّ منهن.

وهنا أخذت أليس تحدثهن: «لقد عرض عليّ أن أعيش معه كعشيقته، وأن يغرقني بالمال، وأن يخصص لي شقة، لكنني كنت كلما نظرت إليه تذكرت زوجته، وكنت أشعر بأن خاتم زواجه يلمع أمام ناظريّ تحت الضوء».

سألنها: «إذاً، ماذا فعلت؟».

فابتسمت أليس وقالت: «كنت ثملة قليلاً بفعل الشراب، لكنني أوجدت لنفسي مبرراً للذهاب إلى الحمام، ومن ثم انسللت من الباب الخلفي ووجدت طريقي إلى بيتي».

عند ذلك، دفعت مادلين أليس بيدها، ولكن تبيّن لها من التعابير الجدية التي كانت على وجهها أن القصة التي حكتها كانت حقيقية.

سألتها مادلين: «أتركته هناك بتلك البساطة؟». لأنها كانت تعرف أنه لو لم تكن لديها الجرأة على القيام بذلك، لما كانت لديها الجرأة على لقائه في بداية الأمر.

إلا أن أليس هزت كتفيها بلا مبالاة وقالت: «كان رجلاً ثرياً. وكما تعرفن، من الصعب على الرجال الأثرياء أن يقابلوا بالرفض». عندها، تنهدت الفتيات وضحكن، إذ كانت مشاعرهن تتراوح ما بين الصدمة والاستمتاع بما كن يسمعنه منها.

وبما أن أليس كانت تتوق لصرف الانتباه عنها، لذا التفتت لتراقب مادلين، وكذلك فعلت الفتاتان الأخريان.

عندها، شعرت مادلين بالانزعاج لأن دورها قد حان، لكنها لم تجد ما تقوله، أو لعلها وجدت ولكنها لم تكن ترغب بالتصريح بذلك.

إلى أن صاحت أليس: «هيا يا مادز!».

فردت مادلين: «أتريدين أن تعرفي سري؟». وهي تبتلع غصة بسبب... ماذا؟ أهو خوفها؟ تابعت: «ليس لدي ما يمكن أن أسميه سراً، ولكن، حسناً، أعتقد أن لدي شيئاً أحتفظ به لنفسي في الوقت الراهن، إن كان ذلك ما يهمكن».

ثم رفعت مادلين بصرها حينما شعرت بالصمت يلفها، فوجدت على وجوه صديقاتها ابتسامات مرتعشة، لأنهن لم يكن متيقنات من أنها ستخبرهن بشيء، لذا كان بوسعها أن تقطع الصمت بواسطة سكين الجبن التي تعود لأمها.

وهنا تكلمت مادلين: «أنا خائفة من أنني حين أترجل من السفينة ستهرعن كلكن لأحضان أزواجكن، فيما لا أجد من ينتظرني». وهنا تنهدت وأخذت تلعب بقماش فستانها بإبهامها، ثم تابعت: «لقد مضى وقت طويل على آخر مرة رأيته فيها، ولهذا بتّ أسأل نفسي عما سيحدث إن لم يعد يريدني بعد مرور أشهر طويلة دون أن يراني».

عند ذلك هتفت أليس: «أوه مادلين! لا تقولي هذا!». ثم غيّرت مقعدها لتحيط مادلين بذراعها، كما هرعت جون لمساعدة مادلين أيضاً.

قالت أليس: «سيكون بانتظارك يا مادز، لذا لا تفكري بذلك أصلاً. ثم إن أزواجنا جميعاً سيكونون بانتظارنا بالرغم من أننا لم نرهم منذ أشهر. فلو كانت تلك مشكلة بحق، عندها لن تجد أي واحدة منا أحداً بانتظارها».

ردت مادلين: «كل ما هنالك أنني لم أستوضح منه عمّا إذا كان سينتظرني أم لا، وهذا ما يجعلني قلقة على الدوام».

هتفت بيتي وهي تضع يديها على بطنها: «هنا، هنا! أود أن أعانقك أنا أيضاً، لكن قدميّ متورمتان وهذا يمنعني من الوقوف. وأنا أيضاً لم تصلني أية أخبار عن شارلي منذ شهر من الآن، إلاّ أن ذلك لا يعني لي شيئاً. كما أن تلك الرسائل قد تضل طريقها في بعض الأحيان أو قد تصل متأخرة. وهنا، ما عليك إلّا أن تتذكري أننا نعرف أهم شيء، ألا وهو أننا جميعاً نجونا من الحرب وسنصل إلى وطننا الثاني بسلام».

صاحت أليس وهي تداعب ذراع مادلين: «أعرف. ولكن، ما رأيك بأن تحدثينا عن زوجك يا سيدة الأسرار لنساعدك في معرفة ما إذا كان سينتظرك أم لا؟».

كانت مادلين ترغب بأن تفتح قلبها للفتيات، وأن تتحدث إليهن بصدق كما كن معها، إلاّ أن ثمة شيئاً ما داخلها كان يشعرها بالقلق والتوتر؛ وهو شيء لم تستطع أن تكتشف ما هو بالرغم من أنه كان يصيب معدتها بالاضطراب والتشنج.

***

كان هنالك سبب جعل مادلين تنجذب إلى روي. إذ لم يكن أكثر الرجال وسامة أو سحراً، بل كان أول شاب دعاها للرقص، وأول شاب أتى لبيتها وهو يحمل أزهاراً، وأول شاب طلب إذن والدها للخروج في موعد معها. وأخيراً، كان أول شاب يطلب يدها للزواج.

كانت مادلين تعرف أنها جذابة؛ إذ كانت الابتسامات والاهتمام تتجه صوبها حين كانت تذهب إلى دار العبادة كل يوم أحد. إلاّ أن أحداً لم يجرؤ على أن يطلب منها الخروج بصحبته، ولم يكن سبب ذلك أن والدها جزار الحي، بل لأن البعض– كما تعرف– قد يجدونها متسلطة في بعض الأحيان، ولعل الرجال لا يحبون ذلك في المرأة، أو ربما لم يفكر أحد في القرية بها بتلك الطريقة؛ إذ كانت لا تزال في السابعة عشرة من عمرها، لذا لم يبدُ عليها أنها ستبقى بلا رجل لفترة طويلة.

ولكن، حينما أبدى روي اهتمامه بها بكل وضوح، شعرت بتوتر في معدتها لم تشعر به من قبل، ثم أخذ ذلك التوتر يجتاح معدتها بكل عنف.

كانت تحب أسرتها، إلاّ أن لمسة روي والارتياح والاسترخاء اللذين كانت تحس بهما حينما يقبلها، جعلتها تفتتن به. لذا، بالرغم من أنها رأت الدموع في عينَي أبيها عندما علم بأنها ستوافق على الزواج من روي إلاّ أنها لم تغير رأيها. أجل، إنه والدها صاحب الشخصية الرجولية القوية الذي لم يبدُ عليه الحزن أو الخوف يوماً، بل الفرح والسعادة دائماً.

في بعض الأحيان، كانت تسأل نفسها إن كانت واقعة تحت تأثير مخدر ما؛ وذلك لأن موافقتها على ترك أبويها وأخواتها، بل وبنات أخواتها وأبنائهن كانت بالنسبة لها قراراً مصيرياً، ومن العجيب أنها تمكنت من اتخاذه.

وكانت في أحيانٍ أخرى تحس بأنها لم تكن واثقة من قرارها. وأحياناً، كانت تقول لنفسها إن كل ما كانت تريده هو الزواج من فتى وسيم من أبناء الحي، حيث يمكنها أن تنتقل للعيش في بيت

قريب، وأن تكوّن أسرة كما فعلت شقيقاتها، وأن تكبر مثلهن حيث لا تبقى تلك الأخت الصغرى في عيونهن. إلاّ أنه حينما طلبها، نسيت كل ذلك بفعل شعورها بالإثارة والحماسة؛ لأن شاباً مثل روي أبدى اهتمامه بها. ثم تزوجا فجأة، ولم يعد هنالك أي مجال للتراجع، حتى بعدما استوعبت حقيقة ما اقترفته يداها؛ وذلك عندما تركها ليعود إلى الحرب بعد زفافهما، فلم ترَه سوى مرة واحدة منذ أن وضعت الحرب أوزارها، وكان ذلك اللقاء قبل خمسة أشهر، وهذا ما جعلها تشعر بأن عمراً بكامله قد مضى وانقضى منذ ذلك الحين.

***

أثارت موجة الرياح التي هبّت ليلاً برودة على كتفي مادلين التي تمنت لو تضع فوقهما معطف روي الدافئ، وذلك لأنها كانت ترتدي قميصاً صوفياً تبدأ أزراره من تحت صدرها، لكنه لم يكن مناسباً للبرودة التي هبطت مع حلول الظلام، وذلك حينما جلسا خارج بيتها على الكرسي الكبير الذي كان والدها قد صنعه قبل الحرب.

سألت روي: «لم تخبرني عن بلادك بعد». بالرغم من أنه كان بوسع مادلين أن تعد المرات التي سألت فيها روي عن أمريكا، إلاّ أنه لم يكن يرغب بالحديث عنها.

رد عليها: «لقد أخبرتك يا مادي بأنني أتيت من مزرعة في نيويورك».

كانت مادلين تحاول جاهدة أن تشد القميص الصوفي حول جسدها، إلاّ أن تكتمه حيال الحديث عن حياته في وطنه كان أشبه بذبابة صغيرة ظلت تحط على ساقها باستمرار، بل كان ذلك مصدر إزعاج بقي يقض مضجعها ويلح عليها. كانا في كل مرة تستحضر فيها مادلين فكرة وطنه تنقلب الأجواء من الارتياح والمزاح إلى الصمت المطبق. أجل، لقد كان يصمت. ولكن، هل كان يزعجه أن يتذكر الوطن الذي أتى منه؟

هتفت مادلين: «حدِّثني عن وطنك، وعن بيتك وعن أسرتك».

عندها، علت وجهه نظرة لم تستطع فهمها، ثم اختفت تلك النظرة سريعاً؛ لدرجة أخذت معها تسأل نفسها إن كانت تلك النظرة قد ظهرت في عينيه أصلاً أم لا.

لكنه أمسك بيدها وطبع قبلة عليها وقال: «ما الذي تريدين أن تعرفيه يا حبيبتي؟ عائلتي تعيش في بيت ريفي ضمن قرية صغيرة من قرى نيويورك، وفي تلك المزرعة تصول دجاجات وتجول، وثمة حقول على مد البصر، كما أن الأيام المشمسة في بلادي طويلة».

عندها، ابتسمت مادلين. وكيف يمكنها ألا تفعل؟ إذ حينما كان يصف لها الوضع بتلك الطريقة كانت بلاده تبدو في عينيها رائعة.

سألته: «وماذا عن أسرتك؟».

فأجاب: «لقد أخبرتك أن لدي أختاً غير متزوجة، أو لعلها تزوجت في غيابي. أما والدي ووالدتي فهما شخصان أمريكيان عاديان، وليس ثمة شيء مميز يمكنني أن أحدثك عنه بخصوصهما».

سألته: «إذاً، شقيقتك تعيش في بيتكم أيضاً، أليس كذلك؟ أخبرني، كم غرفة نوم توجد في بيتكم؟».

عند ذلك، وقف روي بفظاظة وسار بضع خطوات بعيداً عنها وهو يقول: «ما هذا؟ عشرون سؤالاً معاً؟ كُفّي عن هذا!».

أحجمت مادلين عن الرد عليه، إذ كان بغاية اللطف والمحبة والرقة معها في معظم الأوقات،

لكنه كان يتبرم منها ويصبح وقحاً معها في أحيان أخرى؛ وكأنه لا يحق لها أن تسأله أي سؤال شخصي. كانت تشعر أحياناً أنهما يعيشان داخل فقاعة يكون فيها كل شيء رائعاً إلى أن تسأله أي سؤال في وقت غير مناسب. ولهذا، كان القلق يساورها في بعض الأحيان بعد توديعهما بعضهما؛ لأنها كانت تخاف وتظن أنها قد أفسدت كل شيء بينهما.

غير أنّ والدها أخبرها أن روي قد أتى لرؤيته، وأنه طلب يدها للزواج، فأصبح ذلك كل ما يشغل بالها في ذلك الحين. ولكنها كانت بحاجة للتعرف على شكل الحياة التي تتوقع لنفسها أن تعيشها؛ هذا في حال قدم لها إجابات شافية على أسئلتها.

هل بوسعها أن تترك كل شيء في حياتها بالفعل؟ هل يمكنها أن تترك عائلتها للأبد؟ كان ذلك الأمر يقلقها في كل ليلة قبل حلول الظلام؛ لأنها كانت تفكر بأمر الزواج منه كثيراً قبل ذلك، وقد اكتشفت أنها ترغب بالزواج منه، لكن لم تكن لديها أدنى فكرة حول موقع نيويورك حتى على الخارطة. لذا، ألا يحق لها أن تعرف القليل فقط عن المكان الذي ستنتقل إليه في حال وافقت على الزواج منه؟

هتفت: «أنا آسفة يا روي، كنت فقط...»

فالتفت إليها وقد علت وجهه ابتسامة كان بوسعها أن تراها من المكان الذي يقف فيه، والذي تسرب إليه بعض الضوء. عندها، شعرت بتلك الدغدغة التي باتت مألوفة لديها في معدتها، والتي كانت تذكّرها بأنها مغرمة به.

بعد ذلك، ركع أمام مقعدها، وأمسك يديها بيديه وأخذ يقول: «بل أنا من يجب أن يعتذر يا مادي».

أوه، يا إلهي! هل سيطلبها للزواج في هذه اللحظة؟ وهل يتعيّن عليها أن تصل إلى قرار بشأن ذلك في هذه الليلة؟ بدأت دقات قلبها بالتسارع، وكذلك نبضها الذي أخذ ينتفض عند رقبتها وفي معصميها، وهذا ما جعلها تستغرب؛ لأن حبيبها لم يتمكن من رؤية قلبها وهو يخفق بشدة تحت قميصها الصوفي.

ثم انحنى للأمام ليقبل أنفها ويقول: «يمكنك أن تسألي كما يحلو لك. لكنني كنت أفكر بالحرب، وبالرحيل وب-...»

سحبت يديها من يديه، ووضعتهما في حضنها وهي تقول: «بوسعك أن تحدثني عما يدور بخلدك».

فهز رأسه وهو يقول: «كنت فقط أفكر بأنه يجب علينا أن نعيش اللحظة، وألا نضيّع الوقت بالحديث عن أمريكا أو أي شيء آخر. هل تشعرين بالبرد؟».

هزت رأسها إيجاباً، فما كان منه إلاّ أن خلع معطفه ولف كتفيها به.

سألها: «لمَ لم تخبريني؟».

شعرت مادلين بالدفء يتسرب إلى جسدها، فأخذت تستنشق رائحة العطر التي علقت على سترته، ثم نظرت في عينيه. هل كان يُفترض بها أن تطلب منه معطفه؟ لم تكن لديها أية خبرة في هذا المجال، كما كانت تظن أنّ أي رجل يمكنه أن يقدم معطفه لأي امرأة. جعلتها أفكارها تشعر بالضيق لأنها كانت تشك فيه؛ فقد كان رجلاً طيباً ولطيفاً، ثم إن مختلف أنواع الأفكار الرومانسية كانت تحلق في خيالها، إلاّ أنّ ذلك لم يكن يناسبها.

هتف بها: «فلنمضِ إلى بيتك قبل أن يخرج والدك للبحث عنا».

مالت نحوه عندما أحاطها بذراعه، لكنها بقيت تطرح عليه الأسئلة بين الفينة والأخرى؛ لأنها كانت قلقة وتريد أن تعرف إن كان يناسبها أم لا. ولكنها في أوقات مثل تلك كانت تسأل نفسها عن سبب كونها سخيفة لتلك الدرجة.

إلا أنها كانت تقول لنفسها مجدداً إنها لم تعرفه سوى لفترة قصيرة، وإنه سيغادر خلال وقت قصير، ومع ذلك عليها أن تتخذ قراراً لم تكن لتتخذه بهذه السرعة لو عرض عليها ذلك الأمر قبل الحرب.

قالت له: «حدِّثني عن مزرعتكم مرة أخرى».

كان مسترخياً هذه المرة، وجذبها نحوه بدلاً من أن يبعدها عنه.

ثم طبع قبلة على رأسها وقال: «في كل صباح، يقوم أحدهم بجمع كل البيض، وإخراج الدجاجات من القن لتتجول في الحقول بكل حرية، إلى أن تُعاد إلى القن لتناول العشاء المؤلف من القمح المجروش».

سألته: «أتطعم الأفراخ قمحاً مجروشاً؟».

فأخذ يتشدق ويبطئ من حركتهما أثناء المسير وهو يقول: «إنها دجاجات يا حبيبتي وليست أفراخاً».

عندها، ضحكت.

فقال لها: «أمامك الكثير من الأمور لتتعلميها حتى تصبحي زوجة لفلاح».

عندها، بدأ قلب مادلين يخفق من جديد، فقد بدا لها ذلك أشبه بسؤال أو تلميح، ولكنها لم تكن لتعترف به؛ ليس قبل أن يطلب منها الزواج بكل صراحة ووضوح.

وبما أنها لم تكن مستعدة للتوصل إلى قرار بشأن ذلك، شعرت بأنه لم يحن الأوان بعد.

«هل أعطيت ذلك الفتى جواباً؟».

التفتت مادلين باتجاه البيت، إذ كانت تقضم قطعة من الخبز المحمص وهي تنظر من النافذة.

نظر إليها والدها من تحت نظارته بعدما سحب الجريدة نحو الأسفل ليتمكن من رؤيتها.

فردّت عليه: «لم يطلب مني شيئاً».

كانت صادقة مع أبيها دوماً، لكن الحديث حول روي كان محرجاً بالنسبة لها؛ إذ كان من عادتها أن تثرثر مع والدها حول الكتب والأحداث وصديقاتها، وعن محل الجزارة، لكن لم يسبق لها أن حدثته عن الشبان، ثم إنه لم يكن في حياتها أي شاب لتتحدث عنه.

قال لها أبوها: «سيطلبك عما قريب».

ثم عاد لقراءة الجريدة، لكنها لم تبعد نظرها عنه، بل بدأت تسأل نفسها: هل قال لي ذلك ليسهل عليّ أمر الموافقة؟ هل يريدني أن أوافق؟ كانت مادلين آخر العنقود بعد أربع فتيات، وكانت الأخيرة الباقية في البيت. صحيح أنها كانت الصغرى، لكنها آخر من بقي في البيت منهن، لذا ظلت مدللة أبيها على الدوام، بعدما تزوجت شقيقاتها في سن مبكرة، وأنجبن أولاداً أيضاً.

أخذت تراقب والدتها وهي تثير صخباً في المطبخ كما تفعل عادة، ثم أخذت تصغي لحفيف الورق حينما قلب والدها الصفحة. كان كل ذلك شيئاً مألوفاً بالنسبة لها، لكنها لا بد أن تتركه يوماً ما. إلاّ أن فكرة عدم سماعها تلك الأصوات أو رؤيتها والديها وهما يمارسان أعمالهما اليومية الاعتيادية

كانت ترعبها.

«أما زلت تفكرين به؟».

لم يقم والدها بدفع الجريدة للأسفل هذه المرة، مما جعلها تحملق بورق الصحيفة، لكنها لم تستطع إخفاء ابتسامتها.

ردت عليه: «بالطبع لا يا أبي».

عندها، سمعته يضحك ضحكة مكتومة ثم يقول:

«سأحضرك إلى البيت».

عند ذلك، سقط وعاء معدني من يدي أمها في الحوض، فدوّى رنين الوعاء.

وهنا، طوى والدها الجريدة، ثم وضع كلتا يديه على الطاولة وذلك قبل أن يمدهما ثم يقف.

بعد ذلك قال لها: «إن حدث وتزوجت ذلك الشاب وتبيّن لك أن الوضع سيئ هناك، فسأعيدك إلى بلادك».

عند ذلك، احمر وجه والدتها وصرخت به: «هارولد! ليس لدينا مال لنعيدها إلى البلد إن كانت تحلم بالعودة إليه».

فما كان من والدها إلاّ أن ضرب ضربة عنيفة خلفه، حتى دون أن ينظر إلى موقع تلك الضربة. فكانت تلك الحركة التي قام بها بيده أشبه بمحاولة لإسكات أمها، ولهذا بقيت مادلين تنظر إلى والدها، وتحاول منع دموعها من التسرب من عينيها.

وهنا صرخ والدها: «إنها ابنتي الصغرى يا سيلفيا، وإن لم تتمكن مادلين من التأقلم مع حياتها هناك، أو لم يعاملها ذلك الفتى كما يجب، أو في حال حدث لها أي شيء آخر، عندها سأبيع كل ما لدينا إن اضطرني الأمر لأعيدها إلى بلدها».

بعد ذلك، سار خطوتين حول الطاولة وطبع قبلة على رأسها، ثم قال:

«لا أريدك أن ترحلي يا ابنتي! لكن، إن كنت تحبينه فعليك أن توافقي إن طلبك ذلك الشاب للزواج».

عندها، اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها فعلت كل ما بوسعها لتبقي الابتسامة مرسومة على وجهها إلى أن ابتعد عنها أبوها. كانت تحب أمها، لكنها كانت متعلقة بأبيها، وطالما أن أباها قد بارك زواجهما، فهي ستوافق على الرحيل إن طلب منها روي الزواج.

إلا أنها لم تكن ترغب بأن ينفق والدها كل ما يملكه من مال ليعيدها إلى البلاد. ولكن، إن كان الوضع سيئاً بالنسبة لها هناك، فهي تعرف أن ثمة من يريدها أن تعود إلى بلادها على الأقل؛ حتى لو كان ذلك يعني عودة امرأة لا يهتم بها أحد من الشبان في البلد.

كان والدها يحبها حباً جماً، وكان ذلك كل ما يعنيها ويهمها. وإن كان والدها قد فكر بأنها ستقدم على تلك الخطوة وستتزوج من روي إن طلب يدها، فستفعل ذلك من كل بدّ.

***

كانت الأيام تمضي ببطء شديد. إذ كانت كلما رأت عاشقين متشابكي اليدين، وكلما سمعت صديقاتها يتحدثن عمن يعشقن من الشبان، وكلما تنفست بعمق، تحس بأن قلبها يكاد ينفطر ويتشظى إلى آلاف الأجزاء الصغيرة. كما أن الثقل الذي كانت تحس به جاثماً فوق صدرها كان يجعلها تشعر

بأنها تختنق. ثم إن التفكير بالأمور التي ستخلفها وراءها كان يشعرها برغبة في التقيؤ.

إلا أنّها ظلت ترى وجه روي، وبقيت عيناه البنيتان الداكنتان تلوحان أمام ناظريها، كما كانت تتلمس شعره الأشقر الذي يشبه رمل البحر بأصابعها، وكانت تحس بالخدر يجتاح رؤوس أصابعها تعبيراً عن رغبتها العارمة بلمسه.

ثم أخذت تتخيل المزرعة كما وصفها لها، فرأت دجاجات مكتنزة وهي تتبختر في الجوار، وحقولاً مفروشة بالعشب الذي يصل إلى فخذي المرء إن مر خلاله، ورأت حصاناً يرعى بعد العمود، وسياجاً معدنياً؛ فكانت تلك المزرعة تشبه المزارع التي قرأت عنها بالضبط.

ثم أخذت تحلم بالأطفال الذين ستنجبهم منه، وبالصغار منهم وهم حفاة، وقد يمتطي بعضهم الأحصنة الصغيرة أيضاً. إلاّ أن ذلك لم يذكّرها سوى بعدم تمكن أي طفل قد يولد لها من رؤية جده أو جدته، وهذا ما كان يدفعها للاستسلام للمرض من جديد.

كان ينبغي لإحساسها في الليلة التي طلبها للزواج فيها أن يكون على خير ما يرام، إلاّ أن القلق الذي كان يؤثر على معدتها تحوّل إلى ألم حقيقي، فبات من الصعب عليها تحمّل كل ذلك التوتر والقلق. لم يحدث يومها أي شيء خارج عن المألوف أو المعتاد، ولم يتم اختلاق أي شيء كاذب. فكل ما هنالك أنهما كانا يجلسان معاً على المقعد الخشبي في الحديقة الخلفية لبيت أسرتها، ثم لمع ضوء القمر فوق الخاتم الذي أخرجه من جيبه، حيث بدأ حديثه بالقول:

«تعرفين أنني أحبك يا مادلين».

فما كان منها إلاّ أن أخذت تهز برأسها إيجاباً بعدما عقدت المفاجأة لسانها.

فتابع قائلاً: «وأعرف أنك تحبين عائلتك، لكنني أريد أن نبني عائلتنا معاً». ثم ركع على ركبتيه، وأخرج الخاتم، وأخذ يحدق في عينيها وهو يقول: «لا أريد أن أرحل غداً قبل أن أعرف أنك قبلت الزواج مني. أريدك زوجة لي يا مادلين».

عندها، تساقطت دموعها على خديها، وجمدت الحروف فوق لسانها، لكنها تمكّنت من الابتسام بطريقة ما حينما وضع الخاتم في إصبعها، ثم قال:

«ستتزوجينني يا مادلين، أليس كذلك؟».

فهمست له: «أجل، أجل يا روي، سأتزوجك».

فجذبها نحوه ليقبلها، ثم عانقها بشدة إلى أن كفّت عن البكاء. بعد ذلك، رفعت يدها لترى الخاتم، والذي كان عبارة عن شريط ذهبي رفيع وبسيط يدل على أنها أصبحت مخطوبة.

هتف لها: «فلنذهب لنخبر والديك، ما رأيك؟».

فتبعته إلى البيت، وقد تنبّهت إلى أن يديهما متشابكتان. لكنها كانت على وشك أن تنفجر بالبكاء مرة أخرى حينما رأت والديها بانتظارهما وهما يجلسان إلى الطاولة.

كانا في غاية السعادة عند سماعهما النبأ. واحتفالاً بذلك، أخرجت عائلتها زجاجة من الشراب كانت قد خبأتها للمناسبات. ارتشفت مادلين من كأسها رشفة، إلاّ أن الشك بقي يراودها، وبقيت تتصارع مع مشاعرها التي كانت تحاربها كل يوم.

بعد ذلك، تركها خطيبها وبقيت تنتظر.

إذ عاد خطيبها إلى الحرب كمعظم الشبان في تلك القارة، وقد وعده قادته بإعطائه إجازة ليتزوجها، وقد حان موعد تحقيق ذلك الوعد. أما مادلين فتعتبر محظوظة بعد كل ما جرى لأنها

**تمكنت من رؤيته مرة أخرى قبل أن تصل إلى أمريكا، هذا إن لم يعد من الحرب مصاباً أو بحاجة لفترة نقاهة.**

**إلا أنها لم تسمح لنفسها بالتفكير في احتمال عودته إلى بلاده جثة هامدة وليس كخطيب لها.**

# الفصل الخامس

هتفت بيتي: «أعتقد أنه يحبك بالفعل؛ فقد رجع من الحرب وتزوجك. وإنّ ما يقلقك هو أنك لم تريه؛ مثل ما حدث لنا جميعاً».

ابتسمت مادلين لبيتي ابتسامة متكلفة؛ إذ من الغريب بالنسبة لها أن تتحدث عن مشاعرها، وأن تفتح قلبها لأحد. لكنّ الفتيات الأخريات سبقنها في ذلك، كما أنها شعرت بشيء من السعادة حينما حدثتهن بصدق.

«ثم إن الأمر لا يتعلق بظنونك حيال عدم محبته لك، أليس كذلك؟».

عندها، التفتت مادلين عندما تحدثت جون، وكذلك فعلت الفتاتان الأخريان.

فتابعت جون: «لأن الأمر يتعلق بخوفك من أنك لن تشعري بالسعادة معه كما كنت تشعرين بها حينما كنت في بيتك ومع أسرتك. كما أن ما يقلقك أيضاً هو احتمال تغيّره معك حينما تصلين إلى بلاده».

عند ذلك، مسحت مادلين الدموع التي تدفقت فوق خديها، وهزت برأسها موافقة على كلام جون التي تابعت قائلة:

«كل واحدة منا تعاني من تلك الظنون والأفكار، أو لنقل إنني على الأقل أعاني من الظنون ذاتها، وأسأل نفسي: هل سيظل يحبني بعد مرور كل هذا الوقت؟ هل ستحبني عائلته؟ هل سأندم وأتمنى لو أنني بقيت في بلادي وتزوجت شاباً منها؟». ثم تنهدت وأردفت: «أصبحت تلك الأفكار تراودني كل ليلة، لكنني أخدع نفسي بالقول إن كل الأمور ستكون على ما يرام، وأتوقف عند تلك النقطة».

عندها، تأوهت بيتي وهتفت: «يكفي أنكن لستن حوامل». ثم أخذت تحاول أن تلطف الأجواء كعادتها وقالت: «إن لم يكن يحبني حينها، فلن يحبني بعدما انتفخ بطني بهذا الشكل».

فضحكت مادلين حتى اختفت دموعها، ثم قالت: «لا بد له أن يحبك يا بيتي. وإن قُدِّر لإحدانا أن تجد من يعشقها، فإنني سأراهن عليك أنت بالذات».

أخذت بيتي تفرك بطنها كدأبها حينما يتحدث عنها الآخرون، غير أن الوحيدة التي بدا عليها السخط والكدر هي أليس التي صاحت وهي تعبس بطريقة متكلفة: «ستعرفن أن زوجي يحبني، أو سيكون أفضل من رجالكن على الأقل، وإلا فسأتركه وسأتزوج غيره إن لم يكن كذلك».

وهكذا، دفعت مزحتها الجميع للضحك.

ثم انطلق صوت الصافرة.

فهتفت بيتي بسعادة غامرة وهي تمد يدها: «حان وقت الغداء».

تمتمت أليس: «إن الطعام هو كل ما تفكر به بيتي».

ردت مادلين: «انتظري وسترين كيف أنك ستتناولين الطعام عن شخصين، وهذا ما جعل شهية صديقتنا مفتوحة».

قالت جون: «ما رأيكن بالذهاب إلى المتجر بعد ذلك؟ يمكننا أن نتقاسم لوح شوكولا في ما بعد».

فهزت أليس برأسها إيجاباً، بينما أخذت بيتي تلعق شفتيها بعدما سال عليهما لعابها.

سألت جون: «هل ستأتين معنا؟».

فابتسمت مادلين وأخذت تنظر إليهن. كانت جميع الفتيات يضحكن لها، وكانت سعادتهن معدية، لكنها كانت تريد أن تختلي بنفسها لبعض الوقت، ولم يكن ذلك يعني أن صحبتهن لم تعجبها، بل إن صداقتهن قد جعلت رحلتها في السفينة تجربة رائعة، غير أنها كانت بحاجة لبعض الوقت حتى تفكر.

لذا، ردت على جون: «سأبقى جالسة لبعض الوقت. احتفظن بشطيرة من أجلي».

سألتها جون: «هل أنت متأكدة؟ إذ ليس لدي أي مانع في البقاء معك هنا».

فلوّحت مادلين في الهواء وهي تقول: «اذهبي وتناولي غداءك. إنني بحاجة فقط لبعض الوقت حتى ألتقط أنفاسي».

وهكذا، لم تتوقف مادلين عن الابتسام إلى أن اختفت جميع الفتيات، لأنها لم تكن تريدهن أن يقلقن عليها. إذ لم يعد يهمها ما أخبرتهن إياه؛ بالرغم من أنها شعرت بالارتياح عندما أزاحت ذلك السر عن صدرها، بيد أنها كانت بحاجة لتأمل تلك التجربة بمفردها، وللتفكير ملياً بأمر زواجها وعائلتها. والحمد لله أن الفتيات أدركن أنها كانت بحاجة للاختلاء بنفسها بين الفينة والأخرى.

ثم إنها لم تخبرهن بكل شيء. ولكن، هل كانت ردة فعلهن ستبقى على حالها لو أنها كانت صادقة معهن بكل شيء؟ كانت تحب روي حقاً، ولم تكن تطيق صبراً على فراقه. لكنّ هذا لم يكن يعني أن القلق لم يكن يساورها حيال الرجل الذي تزوجته، وحيال شكل الحياة معه.

***

سقطت زخات مطر خفيفة في يوم زفافهما، وذلك قبل أن تتفرق الغيوم وتصفو السماء الزرقاء من جديد. كان روي قد عاد قبل يوم من موعد الزفاف، لذا كانت السعادة تغمرها حينما رأته، وكانت تتوق شوقاً لتحتضنه وتتحدث إليه من جديد؛ إلى أن حصل شيء سيئ يومها.

لم يبدُ في عينيه ذلك الحب الذي كانت تتوقعه منه، ولكن لعلها كانت قد توقعت منه أكثر مما يجب! كان عليها أن تكفّ عن كل تلك الرومانسية، وأن ترضى بما كُتِب لها. فكم مرة أوضحت لها والدتها أن الزواج السعيد لا يحتاج لقصة حب؟!

كان قد جلس معها لفترة قصيرة في مطبخ بيت أهلها، وذلك قبل أن يحل الليل، وكانت والدتها قد رتّبت له سريراً في غرفة السطح التي تتمتع بنوافذ كبيرة. وحينما نام، تابع أهلها استعداداتهم للزفاف؛ إذ كانت مراسم زفافهما ستُقام في دار العبادة الصغيرة في الحي، دار العبادة التي كانت مادلين تواظب على زيارتها كل أحد قبل ارتباطها به. وقد قام الجيران بالمساهمة في صنع قالب كعك للحفل، كما قامت والدتها بتغطية الكعكة بالسكر، فيما جلست إحدى شقيقات مادلين وأخذت تعبث بثوب عرسها، ثم قالت لها:

«ركزي!».

فلم تعد مادلين تأتي بأية حركة.

عندها، تمتمت شقيقتها وهي تضع دبوساً بين شفتيها: «لو لم تكوني صغيرة لما بقيت هنا». إلاّ أن مادلين كانت تعرف أن شقيقتها كانت سعيدة لأنها ستقوم بتعديل قياس ذلك الفستان لتراه على شقيقتها مرة أخرى، إذ كانت قد ارتدته منذ بضع سنوات وسارت به إلى المذبح في دار العبادة ذاتها.

عند ذلك، اكتفت مادلين بهز رأسها مبتسمة، غير أنها كانت تحس بمغص شديد في بطنها. كانت قد خسرت بعض الوزن بسبب القلق والترقب، ولكن بمجرد عودته، اشتدت عقدة التوتر والقلق وازدادت حدتها، كما كانت مخاوفها تنشب مخالبها في جسدها وتحكم الخناق حول رقبتها.

«مادلين؟».

أرعبها صوت شقيقتها وهي تقول:

«لا تقولي لي إنك تفكرين في الموضوع مرة ثانية! لأنك اليوم شاردة الذهن كلياً».

فقابلتها مادلين بابتسامة وهي تقول: «كلا، إنني فقط، حسناً، كنت أفكر كم سيكون مسروراً برؤيتي».

عندها، أسقط في يد شقيقتها، وهذا ما منع مادلين من ذرف دموعها قبل أن تتساقط على وجنتيها.

فقد أخذت شقيقتها تهز بسبابتها لتؤثر عليها وهي تقول: «إنه رجل عاد لتوه بعدما كان على خط النار. إنها الحرب يا مادلين، والله وحده يعلم الويلات التي واجهها هذا الرجل المسكين. ثم إن هذا الوقت عصيب، وعليك أن تتحلي بالصبر مع الرجال حتى في أحسن الأحوال».

عند ذلك، بدا على والدتها أنها متأثرة ومتعاطفة بعض الشيء، فصاحت بها شقيقتها: «ماذا عنك أنت؟! بعدما ذهبت لتخلدي للنوم انتهى بك المطاف هنا. إن لديك ما يكفيك من الهموم التي تشغل بالك، لذا عليك أن تشرعي بتصفيف شعرك وسآتي لمساعدتك بعد قليل».

أخذت مادلين تفكر في قرارة نفسها بأن أمها وشقيقتها كانتا على حق. فقد كان كل ما تعاني منه سببه التوتر الذي انتابها لأنها لم ترَ خطيبها منذ فترة طويلة، والشك بما كان يفكر فيه، إلى جانب التفكير بشهر العسل الذي كان مجرد ليلة سيقضيانها في كوخ صغير بمفردهما، أو كان أمامهما السفر والعيش خارج البلاد.

إلا أن تلك الفكرة كانت أكثر ما يخيفها.

وهنا، خلعت ثوبها، وملأت رئتيها بالهواء، وعندها توصلت إلى نتيجة مفادها أن الطريقة الوحيدة التي ستساعدها على التخلص من كل تلك الأفكار والشكوك يوم زفافها تكمن في إيقاف زر التفكير في دماغها.

بعد ذلك، وقعت عيناها على كومة الأشياء الصغيرة التي تكدست فوق خزانة الزينة في غرفتها؛ مما جعلها تحبس أنفاسها داخل جوفها. إذ شاهدت شريطاً مزيناً لم يسبق لها أن شاهدته من قبل موضوعاً فوق صدار طفل أزرق اللون كانت قد رأته يوم زفاف شقيقتها. كان شيئاً مستعاراً وأزرق، وهذا ما جعل رعشة من الحماسة تصل إلى أسفل ظهرها، ثم سألت نفسها: هل يستخدم ذلك للكبار أيضاً؟

مدت مادلين يدها لتتحسس الشريط الناعم، فأمسكت يدها خيطاً من اللؤلؤ الأبيض كان مخفياً تحت ذلك الشريط الذي كان يعود لأمها. لا بد أنها قد رأته في مكان ما، وذلك حينما كانت طفلة مع أخواتها، وكان من عادتها أن تتلمس ذلك العقد الذي كان يزين جيد أمها قبل أن يخرج والدها لتناول العشاء في الخارج...

كان الجميع ينتظر منها أن تتحلى به في ذلك اليوم. أجل، إنه ذلك العقد القديم، أو لعل أمها قد استعارته أيضاً.

ولكن، هل كان روي ينتظر منها أن تضع ذلك العقد؟

عند ذلك، استبعدت مادلين مخاوفها؛ وذلك لأن خوفها كان يمنعها من محاولة اكتشاف الحقيقة.

***

كان الشيء الوحيد الذي كانت مادلين واثقة منه حيال زواجها هو أن روي كان ينظر إلى الحقوق الزوجية التي ستمنح له نظرة جدية. وهكذا، أصبحت مادلين امرأة متزوجة بالرغم من الخوف الذي لم يبارحها طيلة ليلة زفافها. إلاّ أن ذلك الخوف لم يكن من النوع الذي يسيطر على تفكير المرء، بل كان مجرد قلق من كونها لم تكن تعرف ما هو متوقع منها بالضبط.

إلا أنها لم تكن بحاجة إلى كل هذا القلق.

إذ بعدما تم تمديد الإذن الذي منح لروي بشكل غير متوقع، تعرفت مادلين على ما كان يتوقعه منها بالضبط. ولا يمكن هنا القول إن ذلك لم يعجبها، بل إن الرتابة التي كانت تواجهها كل ليلة بدأت ترهقها.

فبعد مرور أسبوعين على زفافهما، جلست مادلين في غرفتها لتسرح شعرها، ولو لم يكن روي هناك، لكانت قد توجهت إلى سريرها وغطت في نوم كانت بأمس الحاجة له. لكنها كانت تعرف أنه سيبقى هناك ليتناول كأساً أخرى، وذلك بعدما يأوي الجميع إلى أسرّتهم، وعندها لا بد أن يتوقع منها أن تكون في انتظاره.

جعلها صوت صرير البابِ تعيد الفرشاة إلى مكانها فوق طاولة الزينة، ثم التفتت فالتقت عيناها عينَي زوجها الذي هتف قائلاً:

«مرحباً يا زوجتي!».

عندها، شعرت بسعادة مألوفة، وبمتعة كانت تمزقها بين الحب والشك، كما أخذ القلق يساورها لأنها كانت تريد أن تخبره بأن الأمور في تلك الليلة لم تكن ستتم كما كان يتوقع لها.

بدأ بخلع ثيابه، فأخفت عنه قلقها، وحاولت أن تفكر بنفسها بصفتها امرأة متزوجة وناضجة ينبغي عليها ألا تقلق إذا أرادت أن تتحدث مع زوجها في أمور حساسة.

هتفت به: «روي، إنني...»

أخذ يراقبها، إلاّ أن نزقه كان واضحاً أثناء تلعثمها.

وهنا تنحنحت مادلين وقالت: «إنني الآن في فترة... الحيض».

عندها، شعرت بأنها مريضة بالفعل، وأخذت تسأل نفسها: هل هذا كل ما تدور حوله كلمة زوجة؟ هل هذا يعني ألا يكون لها رأي في الموضوع، حتى في حالة مثل حالتها؟

كانت تشعر بالحب تجاهه أثناء النهار حينما يكونان مع بعضهما، وحتى في الليل حينما يكونان معاً، لكنها كانت تحس بأنها على وشك الانفجار في بعض الأحيان. أما بالنسبة لهذا الموضوع، فلم تكن تشعر بأن أمورها بخير في بعض الأحيان، ثم إن الخبرة تنقصها، ولعل ذلك أمر طبيعي بالنسبة لها. وهكذا، تمنت لو كان لديها ما يكفي من الجرأة لتفتح الموضوع مع أمها، أو تسأل إحدى شقيقاتها حوله.

هتف بها: «مادلين؟».

فردت وهي تحاول أن تتكلف ابتسامة: «عن إذنك لحظة، وسأعود إليك بعد قليل».

هرعت راكضة إلى الحمام على رؤوس أصابعها مخافة أن توقظ أحداً من أهلها، ثم أغلقت الباب خلفها، لتسقط على الأرض؛ إذ كان إحساسها بالعار يكاد أن يخنقها.

كان كل ما تريده هو أن تتزوج، لكنها أخذت تحس بعد زواجها بأن زوجها كان يتصرف كوحش مجرد من كل إحساس.

أيعقل أنها لم تنضج بعد؟ أخذت دموعها تنهال حينما بدأت تلك الفكرة تراودها، لكنها حاولت ألا تصدر أي صوت أثناء بكائها، ثم نهضت لتضع قطعة قماش باردة فوق وجهها، لأنها لم تكن تريد أن تخيب أمل زوجها بها، ولكن...

كانت تتمنى لو أنه بقي في ساحات القتال.

وضعت مادلين القليل من العطر خلف أذنها، ثم أمسكت بمنشفة، وقررت أن تكون أكثر شجاعة. فإذا كان الزواج يتمحور حول هذا الموضوع، فما عليها سوى أن تعتاد عليه، ثم إنه كان على وشك العودة إلى الحرب، كما أن والدتها كانت ستطلب منها أن ترضى بنصيبها وأن تلتزم بواجباتها الزوجية، وكان ذلك بالضبط ما كانت على وشك القيام به.

***

«مادلين!».

رفعت مادلين بصرها بعدما كانت عيناها قد جمدتا على مياه المحيط، ثم رفعت أحد مرفقيها، وشعرت بالسعادة تغمرها لأنها تمكنت من استبعاد تلك الذكريات مرة أخرى، ثم هتفت وهي تبتسم لجون التي توجهت إليها على جناح السرعة:

«لا تنفعلي من أجل شطيرتي لهذا الحد». إلاّ أن ابتسامتها اختفت حينما رأت التعابير التي علت وجه جون، فصاحت بها: «ما الأمر؟ ما الذي حدث؟».

كانت جون تلهث، لذا توقفت لتلتقط أنفاسها قبل أن تنطق بأي كلمة، وأخيراً هتفت: «إنها، إنها بيتي. إننا نعتقد أن مرحلة مخاضها قد بدأت، لكنها منعتنا من استدعاء الطبيب».

عندها، قفزت مادلين وأخذت تبحث عن حذائها وهي تقول: «أين هي الآن؟».

كانت عينا جون تحملان كل معاني الذعر، فردت عليها بالقول: «لقد أعادتها أليس إلى الحجرة، فهي ممرضة، ولكن...» وهنا أخذت جون تعصر يدها بقوة وتقول: «إنني متأكدة من أنها تعرف كيف تمرض الجنود، لكنها لا تعرف أي شيء عن التوليد».

وهنا أسرعت كلتاهما نحو الباب.

سألت جون: «ماذا تعرفين عن الرضّع؟».

عندها، ضحكت مادلين؛ لأنها كانت تعرف عن الرضع أكثر مما كان يهمها، إذ كان ذلك الشيء هو الوحيد الذي لم تكن غرة فيه، وهذا ما دفعها للقول: «لدي ثلاث شقيقات، ولديهن جميعاً أطفال، وقد ساعدت في توليد إحداهن قبل أن أسافر، كما حضرت معظم ولاداتهن».

كانت جون على وشك الإغماء، إلاّ أن مادلين أمسكت ذراعها بإحكام وأسرعت بها نحو وجهتهما.

ثم أخبرتها: «يمكنني أن أولّدها ولكنني بحاجة إلى بعض المساعدة. وطالما أن الأمور ما زالت بخير، فأنا أعرف كيف سأتصرف. فالأطفال يأتون إلى هذا العالم كل يوم في مختلف بقاع العالم يا جون، لذا كفي عن التصرف وكأنها على وشك أن تموت بين أيدينا».

**فما كان من جون إلاّ أن هزت رأسها، ثم بدأ وجهها الشاحب يعود إلى لونه الطبيعي رويداً رويداً.**

**غير أن مادلين هزت رأسها وهي تقول: «سأظل أقول عنها إنها امرأة سخيفة لأنها ترفض مساعدة المسعفين رغم ما حل بها».**

**لكنها لم تكن لتفشي سرها؛ إذ كان من الممكن لبيتي أن تتعرض لمشكلات كثيرة لأنها كذبت على السلطات، ولم يكن الوقت مناسباً لإثارة قلقها وهي تضع مولودها. ولهذا، كان كل ما بوسعهن فعله من أجلها هو أن يتأكدن من قدوم وليدها إلى هذه الحياة وهو يتلوى ويصرخ دون حدوث أي مضاعفات لها، وبعد ذلك يمكنهن معالجة أية مشكلة.**

**سألت مادلين: «أليست ولادتها مبكرة؟».**

**توسعت عينا جون وردت: «إنها تقول إن ولادتها جاءت مبكرة قبل موعدها بثلاثة أسابيع أو أكثر».**

**إلا أن مادلين لم تكن لتفكر في هذا الموضوع، لأن المولود إذا كان على استعداد للخروج من بطن أمه، فلن يقف في وجهه أي شيء في الوجود، ولهذا أسرعت مادلين في سيرها وهتفت: «هيا يا جون، أسرعي!».**

# الفصل السادس

وصل الماء إلى السطح حينما أخذت السفينة تترنح من طرف إلى آخر، فحاولت بيتي أن تركز على الحركة والأصوات بدلاً من التفكير في نوبة الألم القادمة، وأخذت تصغي لصوت ارتطام حبات المطر الثقيلة حينما اشتدت، وهي تحاول أن تشد من عزيمتها لتتحمل عملية انقباض الرحم المقبلة. كان الألم لا يحتمل، ولا يشبه أي ألم آخر خطر ببالها ذات يوم، وهذا ما جعلها تشعر بأن الألم الذي كانت تعاني منه قد تآمر مع العاصفة المجنونة ضدها، والتي ساعدت على ظهور موجات عاتية خشيت بيتي أن تكون نهايتها على يدها وذلك قبل مضي تلك الليلة على خير. إذ بمجرد أن يخف الألم، كانت موجة أخرى تبدأ بالتصاعد مرة أخرى وبشدة وتجعلها راغبة بالقيام بأي شيء لتوقف كل ذلك الوجع. كانت عدة ساعات قد مضت عليها وهي في فترة المخاض، لذا بدأت تشعر بالإنهاك الشديد.

أخذت مادلين تعلمها وتقول لها: «عليك أن تضغطي هذه المرة. لذا، خذي نفساً عميقاً ثم اضغطي بقوة!».

تلوى وجه صديقتها عندئذ ليرسم تكشيرة حازمة، وذلك عندما ركعت على طرف السرير، واجتمعت المرأتان حولها.

ثم صرخت والألم يعتصرها: «كلا! فما زال الوقت مبكراً على الولادة. لا أستطيع! أوقفن هذا!».

ردت مادلين: «ليس الأمر بيدك يا بيتي، فالطفل بدأ بالخروج الآن!».

أخذ الألم يشتد بسرعة، فصرخت بأعلى صوتها، ولكنها شعرت فجأة بأن عليها أن تضغط، وذلك لأن الألم كان شديداً، فكان الضغط هو الشيء الوحيد الذي بوسعها القيام به حينها.

أخذت مادلين تشجعها بالقول: «اضغطي يا بيتي... اضغطي! تابعي! يمكنني أن أرى رأسه الآن». غير أنها لم تعد تستطيع أن تضغط أكثر. أجل، لم تستطع، إذ انتابتها موجة تقلص أخرى، وكان الألم حارقاً هذه المرة.

هتفت مادلين: «اضغطي!».

شعرت بيتي بيد تمتد إلى يدها وتضغط عليها بشدة، ثم تمسك بها بكل ما أوتيت من قوة، بينما قامت يد أخرى بوضع قطعة قماش مبللة على جبينها، غير أنها لم تكن تركز إلا على شيء واحد في ذلك الحين، ألا وهو الألم الذي بدأ يخبو. بعدها، أصبح بمقدورها التركيز على شيء آخر.

اضغطي!

عندما بدأت حالة التقلص التالية بإيلامها، جاهدت بيتي للحصول على الأكسجين؛ إذ أخذت تعب الهواء بأنفاس حادة وسريعة. وهنا تصاعد الألم مع كل الحقد الذي يحمله البحر الذي كانت فيه، فحاولت في تلك المرة أن تصمد أمام العاصفة، وذلك بأن تدفع بكل ما أوتيت من قوة لتجبر ذلك الطفل على الخروج بشكل نهائي؛ لأنها كانت تعرف أنها لا تتمتع بالقوة الكافية لتتحمل الألم لفترة أطول.

وهنا صرخت بيتي وهي تصرّ على أسنانها وتواصل الدفع، بينما اندفعت شهقة بكاء رغماً عنها من جوفها وهي تقول: «آآآآه».

أخذت مادلين تخفف عنها بصوت أنعم وألطف مما كان عليه في السابق وهي تقول: «يمكنك أن تفعلي ذلك. أجل، يمكنك فعل ذلك يا حبيبتي. ما عليك إلاّ أن تواصلي الشهيق والزفير، ولا بد للطفل أن يخرج مع التقلص التالي».

«يمكنني أن أرى رأسه أيضاً».

منحت تلك الصيحة الأخيرة المفعمة بالحماسة والتي أطلقتها إحدى الفتيات بيتي الثقةَ التي كانت تحتاج إليها. ربما كان يتوجب عليها أن تستدعي الأطباء، لكنها عندما سمعت تلك الصيحة بدأت تحس بالأمان، وأدركت أن النساء حولها كنّ على استعداد لرعايتها والاهتمام بها.

تابعت مادلين التخفيف عنها بالقول: «هيا يا حبيبتي... هيا!».

أخذت بيتي تعدّ الثواني، إلى أن أحست بنوبة التقلص التالية، ثم بدأت تضغط بكل ما أوتيت من قوة وهي تحبس أنفاسها قدر المستطاع.

وهنا ملأت موجة من الضجيج الغرفة، فبدا ذلك أشبه بقطة صغيرة تموء. وفجأة، لم تعد بيتي تحس بأي ألم، أو أي جرح. حتى إن القلق الذي انتابها لبضع ثوانٍ قبل قليل كان قد اختفى هو أيضاً، وأصبح بوسعها أن تسمع صوت وليدها!

هتفت جون: «أوه يا بيتي! إنه صبي صغير!». وكانت تنتظر والمناشف بيدها إلى جانب الماء الدافئ، ثم بدأت تمسح الكتلة الصغيرة التي كانت تتلوى ويغطيها الدم.

تساقطت قطرات باردة من دموع الفرح على بشرة بيتي التي كانت حارة. أجل، لقد تمكنت من الولادة، لقد فعلت ذلك! وهنا، أخذ وجه شارلي يلوح أمام ناظريها، فأغمضت عينيها الدامعتين لتحتفظ بصورته في مخيلتها التي بدأت ترسم لها النظرة التي ستعلو وجهه حينما يرى ابنه الصغير للمرة الأولى. أخذت تتخيله وهو يحمل ابنه، والابتسامة على محياه، وكم سيكون فخوراً بها.

وهنا، قاطعت مادلين حبل أفكارها عندما هتفت: «لم ننتهِ من الأمر بعد. إذ لا بد أن تشعري بتقلص آخر، وبعدها...»

لم تكن بيتي مستعدة للشعور بالمزيد من الألم، لكن كان من الواضح أن مادلين تعرف ما تفعله بالضبط. ولهذا، ركزت بيتي على مولودها حينما انتابتها موجة تقلص أخرى، وأخذت تدفع فيما كانت مادلين تضغط على بطنها، وبدأت تعلّمها كيف تفعل ذلك.

وأخيراً، ابتسمت مادلين وبدا عليها الارتياح وهي تقول: «انتهينا! لكن، علينا أن نقوم بتنظيفك الآن».

«إليك يا ماما!».

رفعت بيتي بصرها حينما هتفت جون بتلك العبارة. وكانت سعادتها الغامرة لدى رؤيتها مولودها الصغير ملفوفاً بمنشفة ناعمة سبباً في تجمع دفعة جديدة من الدموع في عينيها، وذلك عندما وضعت جون الطفل على صدرها.

فلفّته بيتي بذراعيها، وأخذت تقبل رأسه الصغير الذي كان مبللاً. أما الفتيات فقد أخذن يثرثرن ويبتسمن ويبكين ويضحكن بينما كان الطفل يتلوى، ثم صدرت عنه أخيراً صرخة مدوية.

عندها، ضحكت أليس وهي تقول: «يا له من جوف! هذا بالضبط ما كنا نتوق لسماعه».

تمتمت جون وهي تلمس بإصبعها خد الوليد قائلة: «سيكون والدك فخوراً بك أيها الصغير! ما الذي سيقوله زوجك حينما يراك وأنت تهبطين من السفينة ومعك طفل؟ هاه؟».

عندها، أمسكن جميعاً عن الكلام وكأن على رؤوسهن الطير. فكنّ صفاً واحداً كما يمكن للنساء فقط أن يكن. غير أن بيتي لم تكن لتأبه لحشمتها حينما أخذت مادلين تتفحصها من الأسفل للمرة الأخيرة، ثم شدت عليها قميص نومها لتسترها. بعدها، أخذ الصبي يزعق بضيق حينما حاولت مادلين أن ترشده إلى صدر أمه، وذلك قبل أن يلتقمه ويمص حلمتها بقوة.

هتفت مادلين: «يا إلهي، إنه محارب! إذ بالرغم من أن حجمه صغير كحجم العصفور، إلاّ أنه أتى ليحارب منذ البداية». وذلك عندما ضحكن جميعهن عليه حينما كوّر يديه وأخذ يتصرف بشكل حازم.

هتفت بيتي وقد علت وجهها ابتسامة فاترة وهي تنظر إلى ابنها: «إنه يتصرف وكأنه في مقهى يقدم الحليب». كانت بيتي منهكة، لكنها كانت ترغب بمراقبة وليدها وهو يرضع بحماسة؛ بالرغم من أن العملية كانت موجعة بعض الشيء.

سألتها جون: «ماذا ستسمينه؟».

فردت: «أعتقد أنني سأسميه ويليام على اسم أبي. فقد فقدت أبي وأمي بسبب مرض أصابهما قبل الحرب، وما زلت أشعر بشوق كبير لهما على الدوام؛ حتى بعد مرور كل ذلك الوقت».

وهنا أخذت جميع الفتيات يبتسمن لها.

هتفت جون: «ويليام، أعتقد أن هذا الاسم يناسبه».

هزت مادلين رأسها موافقة، ثم أخذت تصفق بيديها بهدوء وقالت للفتاتين: «فلنتركهما لبعض الوقت ليتعرفا على بعضهما». ثمّ وجهت كلامها لبيتي قائلة: «نامي قليلاً وسنأتيك بشيء لتأكليه بعد قليل». وبعدها، اقتربت منها وهمست: «أخبريني إن كنت تريدين أن تختلي بنفسك لتغتسلي، إذ يمكنني مساعدتك إن كنت بحاجة لي، أو يمكنني أن أحمل الصغير ليتسنى لك الاعتناء بنفسك».

فهزت بيتي برأسها شاكرة بعدما أدركت كم كانت متعبة حينها، ثم نظرت إلى صغيرها فاكتشفت أنه كان قد أغمض عينيه بالرغم من مواصلته الرضاعة بين الفينة والأخرى، وكأنه كان جائعاً حتى وهو نائم.

وهنا همست في أذنه: «ليلة سعيدة يا حبيبي!».

ومع استمرار السفينة بالتأرجح من طرف إلى آخر، ومع العاصفة التي كانت تصدع ظهر السفينة، سمحت بيتي لنفسها بأن تغط بغفوة قصيرة، وهي تهدهد صغيرها وهو بين ذراعيها. ثم حاولت أن تنسى ما مرت به من ألم وأوجاع وضعف، وركزت تفكيرها على وجه المولود الصغير فقط، وكذلك على وجه شارلي؛ حبيبها شارلي.

***

كانت قاعة الرقص تعج بالشابات والشبان، وكانت بيتي قد أمسكت بقطعة قطن قد أفلتت من ثوبها وأخذت تلعب بها وتقفز وهي تبادل بين قدميها. فمنذ أن توفي والداها، كانت بيتي تقضي وقتاً طويلاً بمفردها. وبقدر ما كانت ترغب بالخروج والاستمتاع خارج البيت، كانت أيضاً تشعر براحة أكبر إذا بقيت في البيت وسهرت هناك طيلة الليل. كانت فترة طويلة قد مضت على آخر مرة وافقت فيها على الرقص مع أحدهم، ولا بد أنها كانت ستشعر بثقة أكبر لو أنها لم تكن تقف بمفردها في تلك القاعة.

كانت قد قطعت خمسة أميال سيراً على الأقدام لتصل إلى هناك بصحبة صديقتها المفضلة

لوسي. وكان نسيم الليل يهب دافئاً على ذراعي كل منهما وكتفيها العاريتين إلا من الشال الذي كان يحيط بهما. كانت والدة صديقتها قد لفت لها شعرها وعقصته، وكانت تشعر بأنها في غاية الجمال؛ بالرغم من عصبيتها الزائدة. ولكن، كان على بيتي أن تعتاد على الحياة بذلك الشكل، وأن تنسى أمر الحرب وإطفاء الأنوار خلال الغارات الجوية، ومؤونة الطعام، وكل ما خسرته وهي لا تزال صغيرة.

لكنها لو فكرت بالأمر ملياً لأدركت أن لوسي لم تكن لتبقى قربها طيلة الوقت في تلك الليلة، وذلك لأن السبب الوحيد الذي دفعهما للذهاب هو أن شاباً أمريكياً كان قد دعا لوسي للرقص معه. وبالطبع، هرعت لوسي للرقص معه قبل مضي ربع ساعة على وصولهما إلى هناك.

أخذت بيتي تعاين القاعة وعلى وجهها ابتسامة. إذ كان بوسعها أن ترى لوسي وهي غارقة بين ذراعي الشاب الأمريكي الوسيم الذي أمضت عدة أيام وهي تحدثهم عنه، فيما بدا على الشابات والشبان أثر العشق والوله، وذلك حينما عانق كل عاشق حبيبته حالما هبط إيقاع الأغنية وأصبح أكثر بطئاً.

كانت بيتي تدرك أنها ستكون حمقاء لو شعرت بالقلق لأنها كانت تقف وحيدة؛ فقد قتل الكثير من الرجال والنساء في مختلف بقاع العالم أثناء تلك الحرب. لذا، كان وقوفها لوحدها في الوقت الذي كانت فيه صديقتها تغرق في بحر الحب أشبه بمأزق كان ينبغي عليها أن ترش عليه السكر وأن تتقبله بكل رحابة صدر. ولهذا، اتخذت لنفسها مقعداً بعدما قررت ببساطة أن تستمع بمراقبة العشاق وهم يرقصون.

وفجأة، سمعت أحدهم يقول لها: «عذراً».

فالتفتت بيتي لترى من كان صاحب ذلك الصوت العميق، وأخذت تسأل نفسها: هل هناك من يخاطبني؟ فوقعت عيناها على رجل كان يقف على بعد أقل من خطوتين منها، وعندها لمعت عيناه الواسعتان البنيتان حينما نظر إليها وسألها:

«هل هذا المقعد محجوز؟».

أجل! كان يتحدث إليها! فما كان منها إلاّ أن نظرت بطرف عينها لتتأكد من عدم وجود امرأة خلفه، وذلك قبل أن تتصرف ببلاهة.

ثم ردت: «أوه، كلا، تفضل!».

جلس الشاب، مما جعلها ترتبك وهي جالسة على كرسيها؛ إذ لم تكن تدري ما الذي ينبغي عليها أن تفعله. فهل عليها أن تعرفه عن نفسها؟ كانت حينها تعرف ما الذي ينبغي عليها ألا تفعله؛ وهو ألا تسدد إليه سهام نظراتها المغرمة به، لكن كان من الصعب عليها إخفاء ذلك.

أما هو فقد كان شاباً لفحت الشمس بشرته، وكان يتمتع بشعر بني فاتح. وبالرغم من أنه كان قد سرح شعره، إلاّ أن شعره كان عنيداً بعض الشيء. ومن الواضح من خلال بزته العسكرية وكذلك لهجته بأنه كان أمريكياً؛ كمعظم الشبان المتواجدين في تلك القاعة.

أخذت بيتي تسأل نفسها: هل جلس ليريح قدميه؟ أم أتى ليتعرف عليها؟ وبالرغم من أن بيتي لم تكن تعتبر نفسها غبية، وبالرغم من أنها لا تعرف كيف تتصرف مع الرجال، إلاّ أنها لم تعرف كيف تتصرف في تلك اللحظة.

لاحظت بيتي أنه كان يجول القاعة ببصره، فأخذت تتتبّع نظراته؛ إلى أن استقرت على مجموعة من الشبان الذين كانوا يتدافعون ويلكز بعضهم بعضاً. هل كان هؤلاء يضحكون عليها؟

سألها: «أتحبين أن ترقصي؟».

عندها، احمر وجهها خجلا؛ لأنها لم تكن تريد لأحد أن يسخر منها، وهنا تمنت لو أنها لم تحضر إلى هذا المكان منذ البداية.

مما دفعها لتقول له: «يمكنك أن تخبر أصدقاءك بأنني لا أحب أن أكون موضوعاً لسخريتهم!».

عندها، حان دور الشاب ليشعر بالارتباك، واستدار نحوها لتظهر وجنتاه المحمرتان، ونظر إليها بعينين متوسلتين، ثم هز رأسه بقوة وهو يقول:

«أوه، كلا، أرجوك، فأنت لست مصدراً للسخرية، إنها فقط...»

فنظرت إليه بإمعان، إذ كانت قد سمعت أن كلام الأمريكي المعسول كثير وبلا قيمة، لذلك قررت ألا تنخدع بما سيقوله لها. ولهذا، صالبت ساقيها بنعومة، ثم أبعدت كتفيها عنه.

عند ذلك، رأته بيتي وهو يعاود الجلوس على كرسيه. وبالرغم من أن الفضول كان ينهشها، إلاّ أنها لم تكن لتسمح له بالتأثير عليها.

وهنا قطع الصمت بقوله: «كنت أراقبك منذ أن وصلت مع صديقتك. ولهذا كانوا يحاولون دفعي للمجيء إليك، هذا كل ما في الأمر بكل صدق وصراحة».

دفعها كلامه للالتفات إليه بعض الشيء؛ إذ لعلها قد بالغت بردة فعلها، إلاّ أنها لم تكن مستعدة للاستسلام له، ولهذا بقيت ملتفتة جزئياً بعيداً عنه.

إلا أن دهشتها كانت كبيرة حينما نهض وسار مبتعداً عنها. لقد ابتعد عنها! إذا كان هذا التصرف يشعر الفتاة بأن الشاب قد تركها، فإذاً... أخذت بيتي تتميز من شدة الغيظ. ولو لم تكن قد وعدت لوسي بالعودة معها إلى البيت لكانت قد خرجت من القاعة على الفور. وهكذا، وقفت وأخذت تبحث عن صديقتها مرة أخرى وهي تعتزم أن تومئ لها برأسها لتعلمها بأنها تريد العودة.

فجأة، سمعت بيتي أحدهم يبربر: «مممممم».

التفتت نحو مصدر الصوت... يا إلهي!

فإذا به يمد يده بكأس من الشراب إليها وهو يقول: «مرحباً، اسمي شارلي أوليفر، ويكتب اسمي بحرفي لام». ثم ضحك وقال: «هذا إن كان الأمر يهمك».

عندها، لم تعرف بيتي ما تقوله له، إذ ما الذي كان يحاول فعله؟

غير أنه سألها: «أعتذر لك عما بدر مني من قبل. ولكن، هل لنا أن نبدأ من جديد؟».

عند ذلك، أخذت بيتي تبحث بين الجموع عن لوسي مرة أخرى، لكنها لم تستطع أن تحدد مكانها. ولهذا، مدت يدها لتتناول الكأس التي حملها إليها، كما مدت يدها اليمنى بحذر شديد لتصافحه.

وقالت: «بيتي ساندرز». ثم تنهدت حينما نظر إليها نظرة كلها توسل ورجاء، وقالت له: «نعم، يمكننا أن نبدأ من جديد، إن أحببت».

عندها، ابتسم لها شارلي، فعرفت أنها أخطأت بالحكم عليه. إذ قد يكون وقحاً، لكن الصدق يبدو على محياه. وهذا بالضبط ما كانت والدتها ستقوله عنه لو بقيت على قيد الحياة حتى تلك اللحظة.

سألها: «إذاً، ما الذي تفعلينه يا بيتي بحق الله وأنت جالسة بمفردك في قاعة الرقص؟».

فضحكت وهزت كتفيها بلامبالاة؛ لأنها لم تكن تريد أن تخبره بأنها لم ترقص كثيراً قبل ذلك، إلى جانب أنها لم تتلقَّ أي دعوة من شبان كانوا يتوقون للرقص معها.

لكنه عاجلها بالقول: «إن بقية الشبان يخافون من فكرة دعوتك للرقص؛ بالرغم من أن فتاة جميلة مثلك يجب أن ترقص إلى أن يهترئ حذاؤها ويبلى».

عندها، أدركت بيتي ما الذي كانت والدة لوسي تفعله طيلة الوقت وهي تحذرهن من سحر الشبان الأمريكيين.

إذ كانت تقول لهما وهي تحرك إصبعها أمامهما قبل أن تذهبا إلى الحفلة: إن ألسنتهم تقطر عسلاً، كما أنهم لا يسمون الأشياء بمسمياتها كما يفعل الشبان في بلادنا. أي ينبغي عليكما ألا تصدقا كل ما يقولونه لكما.

كانت بيتي ولوسي تضحكان على ذلك طيلة الطريق إلى الحفلة، وأخذتا تتبادلان الأدوار لتقليد أم لوسي. غير أن بيتي أدركت فجأة أن الشبان الأمريكيين كانوا مختلفين، وعرفت حينها سبب وقوع الكثير من الفتيات في غرامهم.

تناولت بيتي رشفة من الشراب، فشعرت فوراً برأسها يدور. إلاّ أنّ آخر ما كانت تتمناه هو أن تلتقي شاباً متهوراً وأن تفقد وعيها بين يديه، والأسوأ من ذلك أن يستغل الوضع. ولهذا، وضعت كأسها جانباً، فسألها:

«ما رأيك بهذه الرقصة؟».

ثم أخذ يبتسم لها قبل أن يقف ويمد لها يده. والعجيب أنها أمسكت بيده، وقالت:

«لست راقصة بارعة...»

فألحّ عليها بالقول وهو يشد على يدها ويقترب منها أكثر مما توقعت: «هذا ليس صحيحاً. ففتاة في مثل روعتك لا بد أن تكون رائعة في حلبة الرقص أيضاً».

عندها، حاولت بيتي أن تكتم ضحكتها.

أوه أجل، لقد أدركت أخيراً كم من السهل أن تقع الفتاة في شباك شاب أمريكي.

وهكذا، صدحت الفرقة الموسيقية بمعزوفة لأوركسترا غلين ميللر، بينما شرع المغنون بغناء أغانٍ لفرقة الأخوات أندروز، فما كان من شارلي إلاّ أن شد خصرها بقوة إليه، لدرجة أحست معها أنه كاد أن يهصره.

هتف بها: «هيا أيتها الفتاة، دعينا نرقص قليلاً!».

عندها، فكرت بيتي بمقاومته عبر التشبث بالأرضية بكعبيها دون أن تأتي بأي حركة أخرى. إذ كان من عادتها أن تفسح المجال للوسي لتظهر تحت الأضواء دوماً حينما تخرجان معاً، أو أن تقف خلفها، إلاّ أن شارلي كان مقتعاً إلى أبعد حد بالنسبة لها. لذا، لم يكن بحاجة لأن يقول لها أي شيء، إذ كانت تكفيها لمعة عينيه، وابتسامته، والطريقة التي نهض فيها ثم وقف وأخذ ينتظرها.

أخذت بيتي نفساً عميقاً من الهواء، وملأت رئتيها بالأكسجين، وذلك لتنطلق نحوه ولتخفي مخاوفها. فقد كانت تحلم بفارس أحلامها منذ سنوات طويلة، ولهذا أخذت تفكر في سرها: تخيلي أن يكون هذا الشاب فارس أحلامك، وأن تسمحي لمخاوفك بإبعاده عنك!

ولكن، حينما تشابكت ذراعاهما شعرت بموجة من الحماسة والإثارة، فشدت كتفيها، وأخذت تتبع خطواته، كما شعرت بقدميها وهما تتحركان بسرعة وكأنهما لا تلامسان الأرض.

كانت ثمة ابتسامة على وجه شارلي لم يسبق لبيتي أن رأت مثلها في حياتها. ولعل الحرب هي التي تجعل الأوقات الطيبة تبدو أكثر سعادة مما هي عليه، أو لعلها حرارة الغرفة وما تفرزه أجساد الأشخاص المتواجدين فيها، وكذلك دفقة الأدرينالين التي حفزتها الفرقة الموسيقية. وهكذا، وجدت بيتي نفسها غارقة بحب شارلي...

بالرغم من أنها كانت تفكر بتجاهل مبادرته منذ قليل...

وبالرغم من أنها لم تلاحظ وجوده منذ قليل...

ولكن، ها هي الآن وهي تدور وتلف وتقع في أحضانه، تتصرف وكأن بينهما علاقة حب امتدت لشهور طويلة.

ومع انخفاض صوت الموسيقى التي تعزفها الفرقة الموسيقية أثناء غناء الألحان المتبقية من الأغنية، جعلها شارلي تدور، ثم جذبها إليه بقوة، فارتمت بين ذراعيه وعلى صدره كحشرة وقعت في شبكة عنكبوت، ولم تعد أمامها أي فرصة للهرب.

ولو تركها بعد ذلك لكانت قد أبعدت نظرها عنه، لكنّ عينيه لم تسمحا لها بالتخلص من نظراته بتلك السهولة.

همس لها: «إنك جميلة... هل تعرفين ذلك؟».

عندها، أخذت تصغي إليه وهو يتشدق بالكلام، ثم حاولت ألا تغتر بكلامه؛ إذ لم تكن معتادة على المجاملات.

فتوقف وأخذ ينظر إليها متجاهلاً بدء الفرقة في عزف لحن جديد، ثم قال: «إنك كذلك يا بيتي». كان اللحن الذي بدأت الفرقة بعزفه بطيئاً، فشعرت بيتي بأن القاعة تدور حولهما معاً، وأن العشاق الآخرين قد تحوّلوا إلى ضباب على مسافة بعيدة؛ وخاصة حينما همس لها: «إنك أجمل فتاة في هذه القاعة».

وهكذا، لم يزح بصره عنها، فيما كانت ذراعاه تحيطان بجسدها. أما هي، فلم يسبق لها أن كانت قريبة من رجل كما كانت يومها، كما لم يسبق لها أن شعرت بالإثارة التي تحس بها المرأة حينما يمسكها رجل بين ذراعيه أو يسمعها بعض كلمات المديح والإطراء.

إلا أن شارلي أخذ يقرب شفتيه من شفتيها، فما كان منها إلاّ أن رفعت ذقنها في محاولة منها لإخفاء الرعشة التي سرت في جسدها حينما اقترب منها أكثر. وهكذا، شعرت أن دهراً قد مضى قبل أن تلمس شفتاه شفتيها، وقبل أن يمس جلده جلدها. فغرت فمها قليلاً حينما أخذ يقبلها، وشعرت أن ضغطة ناعمة قد استمرت للأبد فوق شفتيها، لكنها انتهت بسرعة كبيرة في الوقت نفسه.

وعندما أبعد شارلي شفتيه، سمعت بيتي صوت هتاف جعلها تلتفت، إلاّ أن شارلي ضمها إليه وأخذ يحدق في أصدقائه الذين كانوا يصفقون ويصفرون. لكنه لم يقبلها فقط ليستعرض ذلك أمامهم، أليس كذلك؟

وهنا همست: «شارلي...»

فردّ عليها وهو يضمها إليه أكثر: «تجاهليهم يا حبيبتي، فهم يغارون منا». وهكذا، بدأ أصدقاؤه يتمايلون على أنغام الموسيقى الناعمة والبطيئة.

فما كان من بيتي إلاّ أن صدقته، لكنها لم تصدق موضوع الغيرة بقدر ما صدقت أنه كان يريد منها أن تبقى بين ذراعيه.

ملأت بيتي أنفها برائحة كريم ما بعد الحلاقة الذي كان يستعمله والتي كانت قوية، كما شعرت بأن منكبيه العريضين كانا يمتدان إلى ما لا نهاية تحت راحتيها، أما ملمس يديه وهما تتحسسان خصرها فجعلها تنسى وجود أي أحد آخر في الغرفة.

وهنا قال لها: «سأراك مجدداً يا بيتي، ما رأيك؟».

ثم أبعدها عنه لثانية قدرتها بخفقة قلب، فأخذت تحدق في عينيه، وأحست بأن صوتها قد سرق منها؛ ممّا دفعها لتومئ له برأسها موافقة على كلامه.

ثم سمح لها شارلي بالعودة لحضنه من جديد، وهو يقول:

«أتعرفين ما قلته لأصدقائي حينما دخلتِ القاعة الليلة؟».

فهزت رأسها فوق صدره نافية، وكانت جبهتها تندس تحت عظمة الترقوة عنده مع كل حركة.

وهنا أجابها: «لقد قلت لهم: تلك هي الفتاة التي سأتزوجها. وهل تعرفين ماذا قالوا لي؟».

وعندها، حاولت أن تكتم ضحكتها وأن تخفي قلقها؛ إذ لعله كان يبالغ، لكنها لم تكن تهتم بذلك.

قال لها: «لقد قالوا لي: لن تسنح لك أية فرصة لتجعل تلك الفتاة تقع في غرامك يا شارلي، وذلك لأنها تنتمي لعالم مختلف عن عالمك».

كانت بيتي مسرورة لأن الفرقة استمرت في عزف الموسيقى، ولهذا كان لديها مبرر للبقاء بين ذراعيه.

وهكذا، شعرت بأن وقوعها في حب شارلي أوليفر لن يكون بغاية الصعوبة.

***

«أعتقد أنه علينا أن نتركها وشأنها».

استيقظت بيتي على أصوات همس في الغرفة، فجلست في العتمة التي لم تكن مطبقة، وأخذت ترمش بعينيها في محاولة منها لجعل الرؤية واضحة في عينيها الناعستين، ثم سألت نفسها: أين أنا؟

إلّا أن ألماً في الجزء السفلي من جسمها جعلها تغمض عينيها بشدة مرة أخرى. إنه طفلها ويليام.

وشارلي...

أخذت تسترجع الحلم في ذاكرتها وتسعى جاهدة لتحتفظ به؛ حيث تعود لحضن شارلي وتتلمسه وتتذوق رحيق شفتيه.

وهنا سمعت صوتاً يخاطبها: «هل أنت بخير يا حبيبتي؟».

وهتف صوت آخر: «أعتقد أنها بحاجة لبعض الطعام والشراب».

وعندها، خفق ضوء، فاضطرت بيتي لفتح عينيها، ثم بدأت تتعرف على وجوه صديقاتها اللواتي تجمعن حولها، كما أخذت تعاين اللون الباهت للغرفة وكذلك الأسرة الأخرى فيها.

لكنها لم ترَ ويليام! فصاحت: «أين هو؟». وكان بوسعها أن تسمع نبرة الذعر في صوتها.

فدفعتها مادلين نحو الخلف بثبات، وأخذت تبعد ما تناثر من شعرها عن وجهها، ثم قالت لها: «ويليام بخير، فلقد لفته جون بقماط وأخرجته معها لتهدهده».

عند ذلك، ناولتها أليس كأساً من الماء فأخذتها منها بامتنان.

تابعت مادلين وهي تبتعد عن السرير: «كما أنك بحاجة لتناول شيء ما أيضاً، فلهذا الوحش الصغير شهية كبيرة، ولهذا أنت بحاجة للمزيد من القوة».

أخذت بيتي تهز برأسها موافقة، ثم مدت يدها تحت ملاءات السرير لتعيد ترتيب وضعها، إذ كانت تتألم، لكنها قادرة على تحمل ذلك الألم؛ لا سيما بعدما حصلت على الهدية التي أنعم الله بها عليها.

لكنها لم تكن تصدق أنه ولد قبل أوانه هكذا، فأخذت تقول: «إنه بخير، أليس كذلك؟».

فردت عليها مادلين وكأنها تعرف بالضبط الشيء الذي كانت تحس به وقالت: «إنه بخير». ثم جلست بالقرب من السرير وفي يدها قصعة من الحساء وقالت لها: «والآن، عليك أن تتناولي هذه، وبعدها ستكونين مستعدة لإرضاعه مرة أخرى».

أمسكت بيتي بالملعقة، وجلست وهي تشعر بالسعادة لأنها تطيع الأوامر، إذ كانت جائعة وبحاجة لاسترداد بعض قوتها.

إلا أنها بقيت تتألم من أجل زوجها شارلي؛ لأنها كانت على استعداد للقيام بأي شيء مقابل تواجده معها في ذلك اليوم، ومقابل أن يحتويها بذراعيه ليحميها من كل مكروه، ومقابل أن يحمل طفلهما، ومقابل أن يعرف أن زوجته أصبحت بأمان، وأنهم سيكونون معاً في نهاية المطاف.

لم تعد لدى بيتي أية عائلة منذ أن توفي والداها؛ باستثناء عائلة صديقتها لوسي، وهذا ما دفعها لخوض تلك المغامرة عبر ركوب السفينة أثناء فترة الحمل. إذ لم تكن تريد أن تثقل على أهل لوسي بالبقاء عندهم مع طفل رضيع تحت سقف واحد؛ فقد عاشت في بيتهم منذ أن رحل والدها، لكنها لم تكن تتوقع منهم أن يعتنوا بها للأبد، كما أنها لم تكن تطيق صبراً على فراق شارلي أكثر من ذلك.

أصبح شارلي وويليام كل حياتها الآن، بل كل من لديها. لذا، لم يكن هنالك أي مجال للتراجع، كما أنها لم تكن ترغب بذلك أصلاً.

وبخلاف بقية الفتيات، لم يكن لدى بيتي ما يقلقها من مخاوف. إذ لا بد أن يكون شارلي بانتظارها، ولا بد أن يلوِّح لها بقبعته حينما ترسو السفينة في الميناء، ولا بد أن يركض نحوها ليمسك بذراعيها. إذ كان قد وعدها في كل رسائله بأنه سيكون بانتظارها حينما ترسو السفينة، ولهذا طلب منها أن تخبره عن الموعد المرتقب لوصولها، لذا لم يساورها الشك ولو لثانية واحدة في ذلك الموضوع.

قطع صوت حبل أفكارها بالقول: «هيّا يا بيتي، لا تعودي لخيالاتك!».

عندها، فتحت بيتي عينيها بسرعة وحاولت أن تركز على مادلين من جديد.

لكنها عادت لتقنع نفسها بأنه بوسعها أن تثق بشارلي، ثم إنها كانت على وشك الوصول. أجل، لقد كانت على وشك اللقاء بشارلي.

# القسم الثاني

# الفصل السابع

لفّت أليس سترتها جيداً حول جسمها، ثم رفعت ذقنها وشدت كتفيها، وأخذت تحدق بمياه البحر الأزرق وذلك حينما بدأت السفينة تشق عباب الموج لتقترب من المرفأ ببطء.

بدا على الأخريات الخوف والقلق، ولكنها كانت على ما يرام؛ لأنه لم يكن لديها أي شيء لتقلق عليه. إذ لم يكن لديها أدنى شك حول تقبلها لأمريكا، أو إعجابها بهالة السحر المحيطة بتلك البلاد التي تدوّخها.

أخذت الصافرة تدوي بصفير عالٍ وواضح؛ تماماً كما حدثهن المسؤولون على ظهر السفينة عنها. عندها، لم تستطع أليس أن تكبت ابتسامتها. فها قد لاحت البلاد أمامها، أجل لقد سافرت إلى هناك.

لقد وصلن إلى أمريكا أخيراً.

وأخيراً ستلتقي رالف مرة أخرى، وستعود لحضنه، وستكون جزءاً من عائلته، بل ستكون زوجته. وكم سيستمتعان بوقتهما معاً!

«أليس، أسرعي وتعالي لتري!».

ابتسمت أليس حينما نادتها جون بحماسة، وحينما رأت مادلين ترفع تنورتها وتركض معها، غير أن أليس لم تتحرك من مكانها.

كانت أمريكا قريبة، قريبة لدرجة بات بوسعها أن تشتم رائحة هوائها، كما كانت نيويورك ضمن مجال الرؤية؛ إذ كان بوسع القبطان أن يراها بنفسه.

لذا، لم تكن أليس بحاجة لتزاحم النساء الأخريات على رؤيتها. ولهذا، أغمضت عينيها لترى رالف، وأخذت تراقبه وهو يبتسم في مخيلتها، فبدا لها أنيقاً للغاية وهو يرتدي بزته العسكرية.

وحينما بدأت الأخريات يتفرقن في كل اتجاه، أصبح بوسعها أن تتجه إلى حافة السفينة، وأن تمسك بحاجزها. لكنها لم تكن مستعجلة في الوصول إلى المقدمة.

«أليس، أليس! ما الذي تفعلينه؟».

التفتت إلى مصدر الصوت.

كانت بيتي تقف خلفها بعدما وضعت صغيرها تحت ذراعها، ولفت نفسها مع طفلها بوشاح، فضحكت أليس لذلك المنظر. كان الارتياح بادياً عليهما، لكنّ منظرهما كان فوضوياً في الوقت ذاته، إلاّ أن السعادة كانت تغمرهما.

ردت عليها أليس وهي تتراجع خطوة للوراء حيث يمكنهما أن تقفا جنباً إلى جنب: «إنني أتفرج وحسب. ألا يمكنك أن تستوعبي هذه الفكرة إلا عبر مزاحمتي على مكاني هنا؟».

عند ذلك، أخرجت بيتي ويليام وسألتها: «ألا ترغبين بحمله قليلاً؟».

فهزت أليس رأسها وقالت: «آسفة، إنه...»

فما كان من بيتي إلاّ أن أعادت ابنها إلى مكانه تحت ذراعها وأخذت تهدهده وتقول:

«لا تقلق يا ويلي، فالفتيات الأخريات يحببنك، إلاّ أن الخالة أليس لا تريد لسترتها الجميلة

أن تتسخ بقذارتك».

ردت أليس: «ليس الأمر كذلك».

فلكزتها بيتي قبل أن تطبع قبلة على رأس ويليام وتقول:

«لا بأس يا أليس، فقد اعتدت كثيراً على الأخريات اللواتي يرغبن بأن يأخذنه مني طيلة الوقت».

عندها، شعرت أليس بالحرج؛ وهو أمر لم تعتد أن ينتابها.

فردت بالقول: «إنني لست...»

فابتسمت لها بيتي وقالت: «أعرف، أعرف». ثم أخذت تهدهد صغيرها مرة أخرى، وبعد ذلك خاطبتها قائلة: «إنك صديقة طيبة يا أليس، ولست بحاجة إلى حمل صغيري كي تثبتي لي ذلك؛ فقد كنت بجانبي حينما لزم الأمر، ولن أنسى لك صنيعك ما حييت».

عندها، هتفت مادلين التي ظهرت بجانبهما فجأة: «لقد رأيت ذلك! رأيت ذلك بأم عينيّ!».

وهنا، شعرت أليس بالسرور لوجود ما يصرف انتباهها عما كانت تفكر فيه؛ لأنها لم تكن تحب أن تتجمع الدموع في عينيها، كما لم يعجبها أثناء حديثها مع بيتي إحساسها بأن تلك كانت نهاية علاقتها بالفتيات. فبالرغم من الاختلاف الكبير بينها وبين الأخريات، إلاّ أنهن تقاربن من بعضهن كثيراً على ظهر السفينة، وأصبحن في ذلك الحين كالشقيقات.

أخذت مادلين تقفز وكأنها ربحت ورقة يانصيب، ولم تكن تصرفات جون تختلف عن تصرفات مادلين كثيراً في تلك الأثناء.

هتفت مادلين: «ها نحن هنا، ها نحن هنا بالفعل». ثم أخذت تنطق بالكلمات وكأنها تهمس بسر خطير وتقول: «لقد رأيت تمثال الحرية، لقد رأيته بالفعل!».

عندها، وقفت جميع الفتيات وأخذن يحدقن ببعضهن، ومن ثم أخذن ينظرن للأفق، لقطعة أرض صغيرة كانت تمثل نيويورك، وإلى تمثال ضخم كان يحمل شعلة ويرفعها عالياً في السماء.

وهنا، كان على أليس أن تسأل: «لا بد أن نبقى جميعاً على تواصل، أليس كذلك يا فتيات؟». قد تكون أليس أكثرهن ثقة بالنفس، نظراً إلى كونها على يقين من أن حياتها ستسير بشكل ناجح هناك، إلاّ أنها لم تكن تريد أن تخطو إلى هناك بمفردها، وخاصة بعدما أصبحت لديها صديقات مثل أولئك الفتيات الثلاث اللواتي تعرفت عليهن خلال تلك الرحلة، وهذا ما دفعها للقول:

«علينا أن نتبادل العناوين الآن قبل أن نهبط من السفينة».

فمالت جون نحوها وهتفت: «بالطبع». وبدت غير واثقة من العبارة الأمريكية التي نطقتها بلكنة إنكليزية، إذ كانت جميع الفتيات قد تعلمن بعض المفردات العامية من أزواجهن ومن المجلات التي كن يقرأنها.

عندها، قالت بيتي وهي تشد ابنها إلى صدرها وتقترب منهن: «لا أريد أن أخسركن يا بنات بعد اليوم».

فردت أليس: «إذاً، اتفقنا على هذا».

قالت مادلين: «علينا أن نبقى على تواصل مهما كلفنا الأمر، وذلك لأن صداقتنا أبدية». وأخذت كل منهن تنظر إلى الأخرى. وفجأة، لم تعد أليس قادرة على تمالك نفسها فشرعت بالبكاء،

حيث بدأت قطرات كبيرة وغزيرة من الدموع تنهمر من عينيها. وبالرغم من أنها حاولت جاهدة أن توقف دموعها وتتظاهر بالسعادة، إلاّ أنها لم تتمكن من منع نفسها عن ذلك.

وكذلك الحال بالنسبة لجون ومادلين وبيتي. إذ أخذت دموعهن تتدحرج، وأفلتت منهن شهقات نحيب وكأن أحداً ما قد فارق الحياة.

إلا أن صراخ ويليام العالي كان كفيلاً بكبح جماح مشاعرهن جميعاً.

عند ذلك، حاولت أليس أن تستعيد جرأتها وشجاعتها وقالت: «بكينا كثلة من النساء العجائز».

فهتفت بيتي وهي تهز ابنها إلى الأمام والخلف: «أحبكن يا بنات».

إلا أن أليس لم تكن بحاجة للرد على تلك العبارة؛ فقد أحبتهن جميعاً، وأصبح بينهن شيء لا يمكن أن يموت. وبعيداً عن زوجها، إن الصداقة كانت بالنسبة لها أهم من أي شيء آخر؛ لا سيما في ذلك المكان، وطيلة تلك الرحلة التي نقلتهن للطرف الآخر من العالم.

كانت الصداقة تعني كل شيء لهن، إذ كانت كل ما لديهن خلال الأسابيع الماضية. ورغم أن أليس كانت تهاب السفر بالبحر، إلاّ أن الوقت الذي أمضته برفقتهن خلال تلك الرحلة كان أكثر الأوقات متعة بالنسبة إليها منذ فترة ما قبل الحرب؛ إذ لم يكن أمامهن سوى أن يستمتعن بالصحبة التي جمعت بينهن، وأن يتقاربن من بعضهن، ويأتمن بعضهن على آمالهن وأحلامهن. لذا، مهما كان ما سيحدث بعد ذلك، لم تكن أليس لتنسى أولئك الفتيات ما دامت على قيد الحياة.

سألت بيتي: «لا يمكن أن تكون نيويورك كبيرة بهذا الحجم، أليس كذلك؟». في الوقت الذي كانت فيه الفتيات غارقات بصخبهن وهن يكتبن ملاحظات على قطع من الورق ويتبادلنها بينهن.

هزت مادلين كتفيها وقالت: «كل ما أعرفه هو أننا سنسكن في مكان في الريف يبعد مسافة جولة قصيرة بالسيارة عن هنا. ولهذا، سأكتب لك العنوان».

وهتفت جون: «ولي أيضاً. ثم إنك محقة، إذ لا يمكن أن يكون هذا المكان كبيراً إلى هذا الحد، ولا بد لنا أن نجد بعضنا. لذا، لا تقلقن حول هذا الأمر».

أخذت أليس وبيتي تهزا رأسيهما، إذ لم يكن هناك أي مجال للانقطاع عن التواصل؛ خاصة بعد كل ما جرى لهن وعشنه معاً على ظهر السفينة.

# الفصل الثامن

انتاب بيتي ذلك الإحساس بالانقباض الذي أحست به يوم مخاضها. إذ بدأت رعدة تسري في جسدها وتخلف ألماً ثقيلاً أسفل ظهرها.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يساورها فيها القلق منذ أن غادرت لندن بألا يكون شارلي بانتظارها في الميناء؛ ممّا جعلها تشعر بخواء في داخلها. ثم أخذ صوت خفي يحاول إقناعها بأنه لن يكون بانتظارها، ولكنها وجدت الأمر في غاية السخافة، لأنه كان قد وعدها بذلك، ثم إن شارلي لم يكن ليخيب أملها به. إلاّ أن إحساسها ذاك ازداد مع كل ذلك الهرج والمرج الذي رافق الهبوط من السفينة، وأصوات عشرات النساء وهن يترجلن منها. وهذا ما دفعها لتطلب من الفتيات الأخريات أن يسبقنها، ووعدتهن باللحاق بهن حينما يصلن إلى مكتب الهجرة، غير أن الأمر بدا لها في غاية الصعوبة.

كانت أعداد الناس الذين احتشدوا تزداد، وكانوا يتحركون ضمن مجموعات هائلة، وقد خافت أن تسحقها تلك الجموع، لاسيما بعد اعتيادها على مجموعة مقربة تقتصر على الفتيات خلال الأسابيع الماضية. وقد أخذت الفرقة هناك تعزف الأغنية ذاتها مراراً وتكراراً، وينطلق الغناء معها بصوت عالٍ عبر مكبرات للصوت تثير القلق في النفوس، بينما كانت هي تنتظر أن يقوم الموظفون بختم أوراقها في المكتب الذي كان يعج بالناس. كانت قد سمعت لحن: ها قد وصلت العروس، فور وصولها، لكنها إن سمعت اللحن مرة أخرى فستزعق بالجميع.

وهنا أخذ ويليام يبكي بصوت منخفض، وهو ينشج فوق صدرها.

فهمست له وهي تضمه إليها أكثر: «لا بأس يا حبيبي. اسكت الآن!».

شعرت بيتي بخدر شديد في ذراعها الأخرى، لكنها لم تترك حقيبتها.

كان يجب عليها ألا تترك الفتيات دون أن تلحق بهن؛ إلاّ أن شارلي كان قد وعدها بأنه سينتظرها في الميناء يوم وصولها، وبأنه سيقف في أقرب نقطة يمكن لأحد أن يتجرأ على الوصول إليها، وبأنه سيقذف قبعته في الهواء حتى تتمكن من رؤيته، وبأنه سينتظرها حتى يدور معها في دوائر ليرحب بقدومها إلى أمريكا.

غير أنه لم يفِ بوعده، إذ أخذت تنظر هنا وهناك، لكنها لم تتمكن من رؤيته.

عندها، بدأت تقول في سرها: أين أنت يا شارلي؟

ثم بدأت تهدهد ويليام حينما أخذ يبكي مرة أخرى، فقد كان جائعاً، لكنها لم تكن ترغب بإرضاعه في مكان عام كهذا.

صاحت به: «كفّ عن هذا الآن». ثم أجبرت نفسها على الابتسام، واستخدمت أفضل طبقة صوتية رخيمة لديها وهي تقول: «لنجد مكاناً هادئاً، ما رأيك؟».

كان لا بد أن يجدها شارلي وأن يأتي إليها؛ لأنها لم تشكّ فيه من قبل، وليس لديها أي سبب وجيه لتفعل ذلك حينها. فقد يكون هنالك مائة سبب لتأخره، ثم إن أسوأ شيء يمكنها أن تضر به زواجها هو أن تنحي باللائمة عليه دون أي مبرر.

كان بوسعها أن ترى حجم الحشود بأم عينيها، وهذا يعني أنه ربما تأخر بسبب الزحام، أو بسبب تأخر القطار... لذا، لن تشك به أبداً، إذ لم يفت الأوان بعد.

وهنا سمعت صوتاً يهتف: «بيتي!».

فالتفتت ورأت جون وهي تحاول التخلص من الزحام.

ثم أتت إليها قائلة: «آه بيتي! أحمد الله لأنني وجدتك!».

فابتسمت لصديقتها وقالت: «كنت أبحث عن مكان لأرضع فيه ويليام».

سألتها جون: «أين شارلي؟».

فأحسّت بيتي مرة أخرى بأن دموعها باتت على وشك أن تسيل.

ولكن، قبل أن تتمكن من الإجابة على سؤالها، ظهر رجل طويل ذو شعر بني خلف جون، ووضع ذراعه حول خصرها، فأخذت بيتي تراقب ذلك المشهد بينما بدأت جون تضحك، وتتمنى لو يقف شارلي ويحيطها بذراعه هو أيضاً.

قاطعت جون أفكارها تلك بالقول: «بيتي، إنه زوجي إيدي... إيدي ويست».

فسألها: «كيف حالك؟».

مدت له بيتي يدها لتصافحه، ثم قالت له: «لقد سمعت عنك الكثير يا إيدي، ويسرني لقاؤك».

فسألها: «أستلتقين زوجك هنا؟».

عند ذلك، مدت جون يديها لتمسك بوليام فناولتها بيتي إياه، إذ كان ويلي يحب الفتيات اللواتي حملنه ودللنه خلال الرحلة بقدر ما فعلت أمه تقريباً.

ردت بيتي بقدر ما استطاعت أن تستجمع من شجاعة بالقول: «لم أجده بعد، لذا سأذهب لأرضع ابني، ومن ثم سأتابع البحث عنه».

فما كان من إيدي إلاّ أن أمسك بحقيبتها وقال: «اسمحي لي أن أحمل هذه عنك». ثم أشار بيده وخاطبها قائلاً: «ما رأيك بالجلوس هناك، وسنساعدك بالوصول إلى ذلك المكان».

فأعادت جون ويليام إلى أمه ليسير الثلاثة جنباً إلى جنب.

هتفت جون: «كان من المفترض أن تلتقيه هنا، أليس كذلك؟ صدقيني، بوسعك أن تسافري معنا إن اضطررت لذلك».

فهزت بيتي رأسها وهي تقول: «سأكون بخير، وسيصل إلى هنا بعد قليل».

عند ذلك، وضع إيدي حقيبتها على الأرض، ثم أومأ لها لتجلس وقال: «يمكننا أن ننتظرك إن أحببت».

فأخذت جون تتوسل إليها بالقول: «أرجوك يا بيتي تعالي معنا، إذ لا يمكنني أن أتركك هنا بمفردك».

فردت بيتي: «انطلقي!». وابتسمت لها أشجع ابتسامة كان بإمكانها أن ترسمها على وجهها؛ لأنها لم تكن تريد أن تفسد عليهما يومهما أيضاً بأن تبوح لهما بمخاوفها السخيفة. وبعدها، خاطبت جون قائلة: «يجب عليكما أن تفعلا ما يحلو لكما أنتما الاثنين».

إلا أن جون لم يبدُ عليها أنها اقتنعت بذلك، لكنها انحنت لتطبع على وجنة ويليام قبلة، ثم على وجنة بيتي، فيما أمسك إيدي بيدها، ثم قالت: «إن والدة إيدي وشقيقته بانتظارنا، لذا أعتقد أنه

يجب علينا أن نذهب».

عندها، شعرت بيتي بشيء من الغيرة، لكنها استبعدتها على الفور لأنها كانت تتمنى أن تقوم عائلتها الجديدة بالترحيب بها. كانت تتمنى أن تجد تلك العائلة على الفور، وأن تحظى برعايتها. وبالرغم من أن جون كانت تستحق ذلك الاهتمام من طرف عائلة زوجها، إلاّ أن الوضع بقي مؤلماً بالنسبة لبيتي.

وهنا أخرج إيدي بطاقة من جيبه وأعطاها لبيتي وهو يقول:

«إن احتجت لنا فما عليك سوى أن تتصلي بالرقم الموجود هنا في أي وقت تشائين، فصديقة جون صديقتي أنا أيضاً».

تناولت بيتي البطاقة ووضعتها في حقيبتها. وهكذا، ساعدتها البطاقة البيضاء المزخرفة على التفكير بخطة بديلة على الأقل في حال حدث أمر خطير أدى إلى تأخر شارلي.

قالت لهما: «رحلة سعيدة!». وهنا، كان على إيدي أن يبتعد مع جون، إلاّ أن بيتي كانت بخير، إذ كل ما كانت تريده حينها هو أن ترضع صغيرها، ثم أن تجد شارلي. كانت الأعداد المحتشدة قد بدأت بالتناقص، وهكذا أصبح من الأسهل إيجاده إذا قل عدد الناس المتواجدين.

***

بقيت بيتي بمفردها بينما كان المرفأ لا يزال يعج بالناس، لكنها أحست أنها أمضت ساعات طويلة بالانتظار؛ بالرغم من أنها لم تكن تعرف كم من الوقت مضى وهي على تلك الحال، لكنها أحست بأن الفترة كانت طويلة جداً، وذلك لأن أغلب المتواجدين كانوا قد غادروا بعد أن التم شملهم من جديد بلقاء أحبتهم. أما هي، فلشدة قلقها تجعد شعرها والتصق برقبتها من الخلف.

وهنا بدأ ويليام بالصراخ من جديد، فحاولت جهدها منع نفسها من البكاء هي أيضاً، وذلك لأن الخوف المتزايد من عدم مجيئه بدأ يخنقها، ولم تكن تدري ما الذي يجب عليها فعله. هل يتوجب عليها أن تحاول إيجاد طريقها إلى بيته إن لم يصل إليها؟

وفجأة، سمعت صوتاً يسألها: «بيتي أوليفر؟».

فرفعت رأسها لترى امرأة في منتصف العمر ذات وجه متعب تقف أمامها، وكانت تحمل صورة بيدها.

أخذت بيتي تحدق بتلك المرأة بينما كانت الدموع تحرق عينيها وهي تحاول جاهدة أن تمنعها من التساقط، ثم أكدت لها بالقول: «أنا بيتي».

ردت المرأة: «أوه، حمداً لله!». ثم أمسكت حقيبة بيتي بإحدى يديها، ومدت اليد الأخرى لتساعدها على النهوض وهي تقول: «خلت أنني لن أجدك».

عند ذلك، ضمت بيتي ويليام إلى صدرها بقوة أكبر، وبقيت تتابع أمر أمتعتها، لأنها لم تكن تثق بالغرباء.

وهنا سألت المرأة: «عذراً، ولكن هل أنت والدة شارلي؟».

فردت: «لم نكن نتوقع أن يكون معك طفل. إذ أخبرني لوكا أنك كنت مع أسرتك، ولكن...»

سألتها بيتي: «لوكا؟».

فقالت: «إنه السيد أوليفر الثاني، شقيق شارلي». ثم أمسكت بذراع بيتي وشرعت بالسير.

إلا أن بيتي ثبّتت كعبيها بالأرض وتوقفت وهي تقول لها: «كنت أتوقع أن يأتي شارلي لاستقبالي، وأعتقد أنني سأنتظره إن لم يكن لديك مانع».

بينما أخذت تقول في سرها: من هذه المرأة؟

فما كان من المرأة إلاّ أن توقفت، فأحست بيتي بوجود شيء مريب، إلاّ أن المرأة ابتسمت لها ابتسامة جعلت أصابع قدميها تقشعر من شدة القلق والتوتر. ما الذي كان يجري؟

عندها، وضعت المرأة الحقيبة على الأرضٍ وقالت: «أعتذر يا عزيزتي. إذ كان يجدر بي أن أعرفك عن نفسي بشكل أفضل. لقد كان يوماً طويلاً! اسمي إيفي، وأنا مدبرة منزل لوكا الذي طلب مني أن أوافيك، وأصطحبك إلى بيته».

ردت بيتي: «ولكن...»

فقالت لها: «عزيزتي، لقد وصلك التلغراف قبل أن تغادري، أليس كذلك؟ لم نكن على يقين من أنك ستأتين، ولكن حينما لم تصلنا أية رسالة منك طلب مني السيد لوكا أن آتي لاستقبالك؛ هذا في حال قدومك، لأننا رتبنا الأمور لاستقبالك قبل ذلك في نهاية الأمر».

عند ذلك، بدأ رأس بيتي يتصدع، فشدت إليها ويليام بقوة، ثم سألتها:

«أين شارلي؟». إذ بدأ الذعر يتسرب إليها، وكانت على وشك أن تصرخ بأعلى صوتها وتنادي زوجها.

غير أن إيفي أمسكتها وقد اغرورقت عيناها بالدموع فجأة، ثم ابتسمت لها ابتسامة ضعيفة، أتبعتها بتنهيدة عميقة. كانت الطريقة التي تسحب فيها تلك المرأة جسدها، والارتخاء الذي ظهر على كتفيها ينبآن بوقوع أمر سيئ؛ أي أن تلك المرأة التي يبدو عليها أنها لطيفة لم تكن تريد أن تشاركها بأحزانها.

أخذت بيتي ترتعد، فيما بدأ قلبها يخفق بشدة وبسرعة لدرجة أحست معها بأنه كاد يخترق قميصها الصوفي بالفعل.

عند ذلك، تكلمت المرأة وقالت لها: «اعذريني يا بيتي، إذ لم أكن أعتقد أنني سأكون من ينقل إليك ذلك الخبر...»

هتفت بيتي: «أين هو؟». ولم يكن ذلك الصوت يشبه صوتها؛ لأنه كان مخنوقاً ومشحوناً بالألم، ويعكس حالة قلبها الكسير، إذ بات بمقدورها حينها أن تتوقع ما ستقوله المرأة بعد ذلك، لكنها لم تكن ترغب بسماع ما يتوجب على إيفي أن تقوله. أجل، لقد كانت بحاجة لزوجها، فصرخت: «أين زوجي شارلي؟ أخبريني، أين هو؟!».

عند ذلك، سمحت بيتي للمرأة بأن تأخذ ويليام منها لأنه بدأ بالصراخ، وكانت يداها ترتجفان بشدة لدرجة أنها لم تعد تستطيع أن تحمله بهما.

وأخيراً، ردت تلك المرأة وقالت: «عذراً يا حبيبتي، فقد مات شارلي».

***

حاولت جون أن تجلس بهدوء، فبعد رحلة طويلة في البحر كانت مشتاقة لأن تخطو بقدميها وأن تسير على أرض ثابتة، إلاّ أنه كان يتعين عليها أن تسافر مرة أخرى، ولكن بالقطار هذه المرة. كان إيدي قد ذهب ليأتيها بوجبة خفيفة، وتركها مع أمه وشقيقته.

هتفت شقيقة إيدي باتريسيا وهي تمسك بيد جون وتشد عليها: «إن سعادتنا لا توصف لأنك

أصبحت بيننا أخيراً».

عندها، اغرورقت عينا جون بالدموع، لكنها مسحت دموعها، وذلك لأن وجود فتاة أخرى وهي أخت زوجها إلى جانبها كان يشعرها بالحنين. لذا، أخذت تسأل نفسها: هل ستمسك بيد شقيقتها مرة أخرى؟ وهل سترى ليلي أو والدتها أو والدها من جديد؟

لكنها تشجعت ورسمت ابتسامة على شفتيها حينما رأت باتريسيا وحماتها تتبادلان النظرات.

ثم سألتها باتريسيا: «هل وجدتنا بخلاف توقعاتك؟».

فردت جون: «أوه، يا إلهي، كلا!». ثم ضحكت مرتبكة وتابعت الكلام: «كل ما في الأمر هو أنك تذكرينني بشقيقتي كثيراً، ولهذا يصعب عليّ أن أفكر أنني قد لا أراها مرة أخرى».

فما كان من باتريسيا إلاّ أن أحاطت كتفيها بذراعها وقالت: «ستحبين العيش هنا. إننا على ثقة من ذلك».

عندها، ظهر إيدي عند باب المقصورة؛ إذ كانوا قد حجزوا مقصورة كاملة خاصة بهم تشتمل على أربعة مقاعد كبيرة.

هتف إيدي: «ما الذي يجري هنا؟». وهو يوزع أكواب القهوة التي حملها في صينية ثم وضعها على الطاولة وتابع: «هل تخيفين زوجتي؟».

فلم تمنع جون نفسها من الابتسام له رداً على ذلك؛ إذ كانت ابتسامته معدية. فمنذ اليوم الأول الذي أحضرته فيه إلى بيتها رغم كل المصاعب، وساعدته بالرغم من غيابه عن الوعي بسبب الثمالة، لم يكن بوسعها أن تبعد ناظريها عن تلك الابتسامة. وبالرغم من أن ملايين الكيلومترات كانت تفصلها عن المكان الذي ولدت وكبرت فيه، إلاّ أن البقاء بجانب إيدي كان يشعرها وكأنها ما زالت في وطنها.

عند ذلك، ضربته باتريسيا على ذراعه وهو يحاول أن يبعدها بخشونة عن زوجته وقالت له: «لقد أحببناها كثيراً يا إيدي. لكننا لم نعرف ما الذي جذبها إليك».

فما كان من إيدي إلاّ أن غمز جون وهو يحاول أن يبعد شقيقته عن مقعدها ليأخذ مكانها، ثم وضع ذراعه حول زوجته، وقال:

«إننا نناديها باتي». وهو يشير بإبهامه إلى شقيقته ثم تابع: «إذ كانت قد وقعت على روث بقرة حينما كانت صغيرة، وهكذا صار ذلك الاسم ملازماً لها».

فصرخت باتي: «هذا غير صحيح».

عند ذلك، رفعت أمهما يدها لتضع حداً لتلك المشاحنة العابثة، فشد إيدي جون نحوه وطبع قبلة على رأسها ثم قال:

«ألم أخبركما بأنها أفضل فتاة؟».

فضحكت الأم وابنتها. عندها، شعرت جون بتورد في وجنتيها؛ إذ كانت الحرارة تغمر تلك المقصورة.

سألت الحماة: «لا بد أنك مشتاقة لعائلتك كثيراً يا جون».

فرفعت جون بصرها لتلتقي عيناها عيني حماتها، ثم ردت: «أجل».

سألتها: «وهل ستأتي عائلتك لزيارتك؟».

عند ذلك ابتلعت جون ريقها، إذ لم تكن عائلتها فقيرة تماماً، ولكن قطع كل تلك المسافة للوصول إلى أمريكا كان بمثابة إسراف كبير في المال بالنسبة لتلك الأسرة.

ومع ذلك، ردت عليها بالقول: «ربما سيأتون يوماً ما. إلاّ أن ذلك لن يكون بتلك السهولة بالنسبة لهم. حسناً، سيكون من الصعب عليهم أن يتحملوا نفقات السفر».

فابتسمت حماتها ونظرت إلى إيدي ثم قالت: «حسناً، أنا متأكدة أنه بوسعنا مساعدتهم في القيام بتلك الزيارة يوماً ما، أليس كذلك يا إيدي؟».

فردّ على والدته بابتسامة لطيفة؛ مما جعل جون تشعر... بالرضى. إذ كانت تشعر بقلق كبير حيال تعرفها على أسرته، كما كانت تحس بالتوتر كلما خطر ببالها أن أفراد أسرته قد لا يحبونها. أما الآن، وبعد أن بذلت أمه وأخته كل ما بوسعهما كي تعاملاها بكل لطف، وترحبا بقدومها فقد زال توترها.

عندها، شدها إيدي إليه أكثر فتابعت أمه قائلة:

«أوه، ما رأيك يا جون؟».

فأبعدت جون نظراتها عن النافذة وعادت لتنظر إلى والدة إيدي.

تابعت الأم: «لقد أصبحت جزءاً من أسرتنا الآن، وبوسعك أن تناديني أمي أو إيرين؛ أي بما تجدينه مناسباً لك».

عندها، اندست جون بإيدي أكثر؛ إذ كانت تلك هي المرة الأولى التي أحست فيها بسعادة حقيقية منذ أن خطت قدماها فوق أرض السفينة وغادرت وطنها. وعندها، لم يساورها أي شك في أن ما فعلته كان عين الصواب.

أجل، لقد أصبح إيدي زوجها، وأصبحت لديها عائلة جديدة ورائعة. وإن حافظت إيرين على كلمتها، فلا بد أن تأتي أسرتها لزيارتها يوماً ما.

همس إيدي في أذنها وهو يمسح على شعرها بسبابته وإبهامه: «نامي يا حبيبتي، استرخي قليلاً».

وبما أن جون كانت متعبة للغاية، لذا لم تناقشه، بل وضعت رأسها على كتفه ثم أغمضت عينيها.

كانت قد أمضت ليالي رحلتها في البحر وهي قلقة؛ إذ كانت تسهر طيلة الليل والأفكار والصور حول ما يمكن أن يحدث عند وصولها تعذبها. وبالرغم من أن بعض الفتيات كن مستغرقات بأفكارهن وأحلامهن الوردية، إلاّ أن أملها الوحيد كان ينصب على تقبّل عائلة إيدي لها.

وبدا لها أن حياءها قد أثمر لأول مرة في حياتها.

***

كان قلب جون يخفق بهجة، وذلك حينما أخذت باتي وإيرين بالتلويح بجنون لرجل لديه شارب كان يقف بسيارته التي لم يكن لها سقف إلى جانب الطريق.

أخذت جون تنادي: «إيدي.. إيدي!». وذلك حينما أخذ إيدي يجر حقيبتها للخارج.

عندها، نظر إليها وابتسم ابتسامة عريضة، ثم قال: «أعتقد أن سيارة أبي ستعجبك. إنها بلا

سقف!».

وهنا ركضت جون نحوه وتعلقت بساعده فقال لها:

«لسنا بحاجة لسقف في نيويورك، خاصة في الصيف».

تبعت جون زوجها إلى السيارة التي سبقتهما إليها المرأتان الأخريان اللتان جلستا على المقعد الخلفي. وهنا، أخذت جون تراقب باستحياء الرجل عندما طبع قبلة على خد زوجته، وذلك قبل أن يتقدم إليها ليرحب بها.

كانت معدة الرجل تتدلى فوق بنطاله، بشكل يعكس مدى تغذيته الجيدة. ولو كانت أمها هنا لقالت إن هذا دليل على وجود امرأة تحبه وتكدح في المطبخ من أجله. أخذ ذلك الرجل يمرر أصابع إحدى يديه فوق شاربه الكث حينما اقترب منها، وذلك قبل أن يخلع قبعته عن رأسه ويهتف بحرارة:

«حسناً، إذاً هذه زوجة ابني، هاه؟».

عندها، صالبت جون كاحليها وهي تشعر بحرج شديد على الفور؛ لأنها لم تكن تدري ما الذي يجب عليها فعله.

تابع الرجل كلامه:

«لقد سمعنا عنك الكثير يا فتاة. إذ لم يكن إيدي يتحدث عن أي شيء آخر سواك منذ أن عاد إلى البيت».

وهنا خطت جون خطوة إلى الأمام بتوتر، ثم أخذت تسأل نفسها عن سبب كل هذه الحماقة التي بدرت منها. وعندها، شدّها والد إيدي واحتضنها بقوة، وذلك قبل أن يطبع قبلة على وجنتيها، وهو يقول:

«أهلاً بك في عائلتنا يا حبيبتي».

كانت جون تعرف أن خديها قد أصبحا أحمرين، إلاّ أنه لم تكن بيدها حيلة لمنع ذلك، فردت عليه وهي تتلعثم:

«أشكركم على استضافتي».

وهنا، ربّت الأب على ظهر ابنه، ثم حمل حقيبتها وقال مخاطباً ابنه:

«لقد كنت محقاً في كل ما قلته عنها. يا لها من فتاة رائعة!».

وهذا ما جعل قلبها يرقص طرباً، وأعاد اللون لبشرتها التي انتعشت بهجة وحبوراً.

تابع والد إيدي كلامه: «انتظري حتى تري البيت الجديد، فقد كنا...»

فصرخ به إيدي لائماً: «بابا!».

فما كان من الأب سوى أن وضع يده فوق فمه ونظر إليها نظرة اعتذار.

سألت: «أي بيت؟».

فردّ إيدي: «إنها مفاجأة. تعالي!».

ثم أمسك بيدها وساعدها على ركوب السيارة، فجلست بجانب باتي. وهكذا، انحشرت النساء الثلاث في الخلف، بينما جلس إيدي على المقعد الأمامي ووالده خلف المقود.

وعندما انطلقت بهم السيارة هتف إيدي محذراً: «أمسكن بقبعاتكن أيتها السيدات».

فضحكن، وكانت ضحكة جون الأعلى بينهن.

وذلك لأنها شعرت بأنه لا يمكن للحياة أن تصفو أكثر من ذلك.

***

أويمكنها أن تصفو أكثر؟

كانت جون تكره أن تعيش في الظلمة، لكنها لم تجرؤ على اختلاس النظر. إذ كانوا قد لفوا عصابة فوق عينيها بإحكام، وأخذ إيدي يرشدها، أما هي فكانت تتمسك بذراعه بقوة.

كان الآخرون قد اختفوا في المنزل، دون أن يدخلوها الغرفة التي ستكون لها. كان البيت جميلاً وفخماً وأنيقاً، ومليئاً بالمفروشات الرائعة واللوحات المؤطرة والوسائد الناعمة التي كانت جون على يقين من أنها مصنوعة يدوياً.

كان المنزل برمته قد استحوذ على قلبها منذ اللحظة التي وصلت فيها السيارة إلى الممر المخصص لها. إذ كان قد أقيم فوق منحدر خفيف للتلة، وتحيط به حقول لا نهاية لها تنتشر في بعضها أبقار وفي البعض الآخر تمت زراعة محاصيل زراعية. لذا، كان البيت مزرعة حقيقية لم يسبق لجون أن رأت لها مثيلاً.

هتف بها إيدي: «هناك تقريباً».

فتوسلت إليه قائلة: «أرجوك يا إيدي! دعني أخلع العصابة».

فمشى بضع خطوات بهدوء، دون أن يوجّه لها أي كلمة، وبعد ذلك توقف وقال:

«حسناً، إن كان لا بد لك من ذلك».

فكت جون عقدة العصابة خلف رأسها، فانسدل المنديل عن عينيها.

أوه، كانت المفاجأة منزلاً.

فنظرت إليه متسائلة عن سبب مجيئهما إلى هناك، وعمّن يعيش في ذلك البيت.

سألته: «أين نحن يا إيدي؟».

فردّ عليها بكل بساطة: «في البيت».

هتفت: «ولكن...»

لم يكن بوسعه أن يبتسم ابتسامة أعرض من ذلك حتى إن حاول، ثم قال: «ما رأيك بإلقاء نظرة عليه؟».

شعرت جون بحيرة كبيرة. فلِمَ يتعين عليهما أن يلقيا نظرة على المنزل من الداخل؟ ولم وصفه بالبيت؟ فقد كانا في بيته أصلاً.

كان البيت كبيراً ومبنياً من الخشب، أو بالأحرى من ألواح خشبية طويلة كان يبدو عليها وبكل وضوح أنها طليت مؤخراً بلون أبيض مصفر. كانت فيه مدخنتان تمتدان بكل شموخ نحو السقف، إلى جانب نوافذ كبيرة تطل على الحقول. وكان ذلك البيت قد شيد على مرتفع من الأرض، ويطل على ما ارتفع من الحقول تحته.

هتف بها: «توقفي!».

فجمدت قدمها قبل أن تصل إلى الأرض. وعندها، فتح الباب لكنه منعها من الدخول قبل أن تتمكن من الوصول.

نادته: «إيدي...»

وهنا ما كان منه إلاّ أن حملها بين ذراعيه ومضى بها فوق العتبة، وذلك قبل أن يقبلها بنعومة على شفتيها.

ثم قال لها وهو يضعها على ألواح الأرضية الخشبية المصقولة واللامعة: «لقد عدت قبل أربعة أشهر تقريباً، وأخذت أعمل مع أبي والبنّاء كل يوم في هذا البيت حتى نجهزه لكلينا».

فابتلعت جون ريقها وقالت: «أهذا بيتنا؟».

فابتسم لها إيدي ابتسامة أضاءت عينيه وجعلتهما يتغضنان، ثم قال: «كله لنا».

ردت: «أوه يا إيدي، أوه يا إلهي!».

دخلت جون إلى الردهة ومنها إلى المطبخ، وهناك أخذت تلمس براحتها الطاولة الخشبية الصلبة، قبل أن تمرر أصابعها فوقها، ثم تفحصت الفرن والمعدات قبل أن تخرج إلى الردهة من جديد. كانت النار تشتعل داخل المدفأة، بالرغم من الجو الدافئ.

سألته: «هل هذا البيت بيتنا حقاً؟».

فهز إيدي برأسه وقال: «هل أعجبك؟».

فركضت لتحضنه، وصرخت كما لم تفعل من قبل وقالت: «لقد أحببته! أوه يا إيدي، لا أصدق أن هذا البيت بيتنا، بيتنا بالفعل!».

رد عليها: «علينا أن نأتي بالمزيد من الأثاث، لكن الأثاث الموجود حالياً يفي بالغرض».

هتفت وهي تزفر تنهيدة: «أيفي بالغرض وحسب؟ إنه ملائم تماماً يا إيدي، فأنا لا أريد أن أغادر هذا البيت ما حييت».

عندها، أمسك بيدها ليصعدا الدرج معاً وقال: «سأجول بك في البيت، وبعد ذلك سنأتي بأغراضك؛ فالجميع بانتظارك ليسمعوا رأيك».

ردت عليه بالقول: «لا أصدق أنهم ساعدوك لتصنع لي هذا البيت. ولكن، هل سكنت فيه؟».

فهز رأسه نافياً وقال: «لقد فرغنا منه الأسبوع الفائت». ثم توقف إيدي وقال بخبث: «ثم إنني أريد أن نقضي ليلتنا الأولى هنا معاً».

وبعد ذلك، ابتعد عنها واختفى خلف أحد الأبواب.

فنادته: «أين أنت؟».

ثم نظرت داخل الغرفة، فرأته مستلقياً وهو متكئ على أحد مرفقيه فوق سرير كبير. عندها، لم تعرف جون إلى أين توجِّه بصرها؛ خاصة مع طريقته بمراقبتها.

سألها: «ألا تريدين أن تجربيه؟».

فردت: «إيدي! لا يمكننا أن نفعل ذلك».

عندها، استوى في جلسته وأمسك بيديها، ثم سحبها نحو السرير، وتدحرج حتى صارا مستلقيين عليه.

هتفت به: «إيدي!».

فأخذ يقبل رقبتها ويداعبها.

صاحت به: «إيدي أرجوك، كف عن ذلك!». لكنها لم تتمكن من التوقف عن الضحك، كما أنه لم يأخذ كلامها على محمل الجد.

بعدها، حرّر ذراعيها وأخذ يقبل ثغرها عوضاً عن ذلك، دون توقف.

وفجأة، توقف ونظر إليها، وكانت عيناه تبحثان عن عينيها وهو يقول: «أحبك يا جون».

فابتسمت له على الفور وردت: «إنني سعيدة لأنني وجدتك في ذلك اليوم يا إيدي ويست».

وهنا نهض وسحبها معه وقال:

«كم أتمنى أن نبقى هنا، لكن أمي ستدعو نصف سكان الحي للبيت اليوم؛ لأنها ستقيم حفلة على شرفك».

فما كان من جون إلاّ أن قفزت وقالت: «أوه كلا! لا يمكن أن يروني وأنا بهذا المنظر!».

ثم أخذت تمسّد بأصابعها شعرها الذي كان بحاجة لتنظيف وتصفيف. أما ثيابها فكانت مجعدة بشكل محرج، ولم تكن لديها أدنى فكرة حول ما يجب عليها أن ترتديه من أجلهم.

عندها، انحنى إيدي ليقبّلها، ثم سوّى وضع بنطاله وقال:

«ابقي هنا، وستجدين الحمام بعد الصالة في الطابق السفلي، وفيه مياه ساخنة، وقد وضعت أمي مناشف فيه. أما أنا فسأعود إلى البيت سريعاً لأحضر لك أغراضك».

انطلق إيدي للبيت، فاستلقت جون على السرير وتمددت فيه كنجمة بحر.

لم تكن تطيق صبراً حتى تكتب لأسرتها عما جرى معها.

كانت الشكوك قبل وصولها تساورها حيال زوجها. فكانت تتساءل إن كان قد ندم على الزواج بها واعتبر زواجهما نزوة جمعت بينهما في لندن. وقد توقعت أن تُبدي أسرته حذراً منها، وأن تعاملها بجفاء أيضاً، كما توقعت أن تكون الصورة التي رسمتها لمنزلهم ولمزرعتهم أجمل بكثير من الواقع...

لكنها كانت قد بخست كل شيء حقه.

إذ تحقّق بوصولها إلى هنا كل حلم وكل أمنية تمنتها يوماً ما.

ولو قدر لعائلتها أن تراها، وأن تتواجد معها ولو للحظة واحدة، فستكون أسعد امرأة في العالم.

# الفصل التاسع

وضعت بيتي رأسها على زجاج النافذة البارد، إذ أخذت السيارة تترنح وتميل نحو الأمام وذلك قبل أن تسير ببطء شديد بسبب الزحام مرة أخرى. وعندها، سمعت ويليام يبكي، إلاّ أن قلبها كان يؤلمها لدرجة لم تتمكن معها أن تستجمع طاقتها لتلتفت إليه. كانت تود أن تسأل عن شارلي، غير أنها لم تكن تريد أن تعترف بتلك الحقيقة، بل لم يكن بوسعها ذلك.

خاطبتها إيفي بالقول: «أعتقد أن السيد ويليام بحاجة للرضاعة».

فرفعت بيتي رأسها، لكن الألم الذي اشتد في المنطقة الواقعة ما بين أذنيها عاودها من جديد.

ويليام.. كان اسم ابنها أشبه بدفقة من الراحة... ويليام..

مدت بيتي يديها إليها، ثم تناولته من إيفي التي كانت تجلس بجوارها، فأخذ الصغير يبربر عندما احتضنته.

عندها أمسكت إيفي بغطاء ولفتها به لتسترها، ولتساعدها على إرضاع طفلها، إلاّ أن الدموع كانت تكوي عينَي بيتي، لكنها لم تكن لتسمح لها بالتساقط؛ وذلك لأن البكاء يعني اعترافها برحيل شارلي، وبأن موته بات واقعاً، وهي لم تكن على استعداد لمواجهة الواقع، ولم تكن تريد أن تسمع أية تفاصيل، بل لم تكن تريد أن تسمع أي شيء، لأنها كانت تريد أن يعود شارلي.

قطعت عليها إيفي كل أفكارها بالقول: «ألا تريدين أن تأكلي شيئاً؟ لقد جلبت لك شطيرة إن كنت ترغبين بذلك».

إلا أن بيتي لم تنظر إلى إيفي، بل نظرت فقط إلى رأسها، كما أن كبتها لمشاعرها في صدرها كان يمنعها من الإجابة على سؤالها.

عند ذلك، تابعت إيفي وهي تراقبها بكل قلق: «أوه يا حبيبتي، أنا آسفة، فقد كنت، حسناً... أعتقد أنك ستصبحين أفضل حالما يتحدث إليك لوكا».

أحست بيتي بالعذوبة في صوت إيفي، وشعرت بأن هذه المرأة تبذل قصارى جهدها لتخفف عنها، لكنها لم تكن تريد أن تسمع أي شيء، إذ كيف يمكن لشقيق شارلي أن يخفف عنها مصابها؟!

تابعت إيفي بالقول: «إنه يريدك أن تبقي هنا يا بيتي، وسيعتني بك ولن يتركك أنت أو ويليام الصغير».

إلا أن بيتي استدارت لتنظر إلى الطريق من جديد، وإلى تلك الأراضي الزراعية التي كانت تظهر لها تباعاً من خلال النافذة. كانت تتمنى لو كان بوسعها أن تستمتع بكل ما يحيط بها في رحلتها تلك، وأن تتشرب تلك الأجواء الريفية التي تحيط بالمكان الذي سيتحول إلى وطن لها.

لم تكن تريد من لوكا أن يعتني بها، بل كان كل ما تريده هو شارلي، وهنا أخذت تسأل نفسها: هل عاد لوطنه من ساحة الحرب ثم توفي في أمريكا؟ وهكذا، تزاحمت الذكريات في رأسها فكانت جميلة ومؤلمة في الوقت ذاته.

***

طوق بيديه خصرها، فضحكت بيتي، بل لم تستطع أن تكتم ضحكتها، وذلك لأن التواجد مع

شارلي كان أشبه بلقاء ممثل هزلي، إذ لم يكن يكف عن إضحاكها بنكاته ومزاحه.

هتفت به بيتي: «ألا يمكننا أن نتظاهر بأنك قد أصبت؟».

عندها، أتى دور شارلي ليضحك وهو يقول: «آه يا حضرة الرقيب! لقد تحطم قلبي، ولهذا لا أستطيع أن أسافر، بل سأبقى هنا».

أخذت بيتي تهز رأسها حينما أخذ يتشدق بالكلام، إذ قد يكون المزاح قائماً بينهما، ولكن القلق كان أمراً واقعاً؛ حيث إنها كانت تنتظره حينما أمضى مهمته بعيداً عنها، لكنه لم يُخفِ عنها الحقيقة حينما أخبرها بأنه لم يعد من فرقته سوى عدد من الرفاق يمثلون أقل من نصف الفرقة.

إذاً، لم يُطلق عليهم لقب «صانعو الأرامل» من فراغ.

هتفت: «لكن، يا شارلي...»

فرد: «لننسَ أمر الحرب يا حبيبتي، وتعالي لنتناول شيئاً».

لم يكن يبدو عليه أي خوف، لكنها كانت خائفة، ومخاوفها كانت تفوق أي مخاوف ترغب بالإفصاح عنها.

قال لها وهو يضمها إليه بقوة مرة أخرى: «إنهم يعتقدون أن الحرب ستنتهي عما قريب، أليس كذلك؟».

فسألته: «ومن هم؟». ولكنه قفز كعادته إلى الفكرة التي تليها، وقال:

«تعالي يا حبيبتي، فلنلحق بالآخرين».

لكنها لم تكن تعرف بعد من هم أولئك الذين تحدث عنهم. ومع ذلك، قررت أن تصدقه، إذ حينما تنتهي تلك الحرب سيصبح العمر أمامهما، وسيطول طالما أنه سيعود من الحرب وسيبقى معها دائماً.

وهنا ابتعدت بيتي عنه قليلاً ثم أمسكت بيده وقالت:

«حدّثني عن أسرتك يا شارلي». إذ منذ أن فقدت والديها أصبحت لديها رغبة بالتعرف على عائلات الآخرين، رغم أنها كانت تدرك قيمة الأسرة حتى قبل أن تفقد أهلها.

فما كان منه إلاّ أن توقف ثم جذبها إليها وطبع قبلة على شفتيها، فهمست:

«شارلي!».

رد عليها وهو يحاول أن ينحني ليقبلها مرة ثانية: «ماذا؟». فحاولت أن تُفلِت منه، إلاّ أنه لم يتركها، بل قال: «إننا متزوجان، ومن الذي سيأبه إن تعانقنا وتبادلنا القبل؟».

فضربته بيتي على كتفه بحقيبة يدها، ثم سألته: «إذاً؟». إذ كانت تريد منه أن يحدثها عن أسرته التي تركها في أمريكا.

بدأ بالسير من جديد وهو يؤرجح يدها في الهواء للأمام والخلف، ثم قال: «لديّ أخ عصبي وصعب المراس، يمكن أن أصفه بأنه أشبه بوجع المناقير في الرقبة. إلاّ أنه رجل طيب، بل سيد الرجال. ولدي أم بوسعها أن تدير هذه الحرب إن رغبت في ذلك وتوقفت عن التفكير بنفسها، ولدي أب يقضي معظم نهاره بقراءة الجريدة ثم يأخذ غفوة على كرسيه».

عند ذلك، أخذت بيتي تتخيل كل أفراد العائلة وتتمنى أن يتمتعوا بطيبة كطيبة شارلي.

وفجأة، اجتاحت حمى جسدها وجعلت العرق يتصبب منه فهتفت: «آآآه».

سألها: «هل أنت بخير؟».

ثم أمسكها بيده القوية.

فاتكأت عليه، وبدأت تأخذ أنفاساً عميقة وتقول: «أخال أنني سأمرض».

مضى بها شارلي لتستريح فوق صخرة صغيرة بعيدة عن الطريق، فجلست عليها، ثم نهضت مرة أخرى، وأخذت تتقيأ على العشب وتقول:

«آسفة، أوه شارلي، أعتذر... إنني...»

فما كانٍ منه إلاّ أن أبعد شعرها عن وجهها وأخذ يربت على ظهرها ويقول: «ستكونين بخير. خذي نفساً عميقاً». فمسحت بيتي فمها بواسطة منديل، ثم وضعته في حقيبتها وهي تفكر في أنها لن تتزوج كل يوم رجلاً حنوناً يعاملها بكل هذا اللطف ويبعد شعرها للخلف إذا بدأت بالتقيؤ.

بعد ذلك، جلس شارلي وجذبها لتجلس في حضنه، فقالت:

«شارلي، إنني...»

فردّ عليها: «ما الخطب؟ هل أنت مريضة؟ بوسعي أن آخذك إلى البيت إن كنت ترغبين بأن تتمددي».

فابتسمت، ثم وضعت كفها المفتوحة على خده وقالت:

«إنني لست مريضة يا شارلي، بل أنا حامل».

فأخذ يحدق فيها ويهز برأسه غير مصدق وهو يقول: «هل أنت متأكدة؟».

فهزت برأسها إيجاباً.

عندها، هتف: «يا إلهي!». ثم أمسك بها وقذفها في الهواء، وبعدها حملها وأخذ يدور بها مرات ومرات.

ثم صرخ: «سيكون لدينا طفل!».

فردت بالقول: «شارلي، إنني لا أحس بروعة ذلك».

فوضعها على الأرض وذلك قبل أن يحتويها في عناق لم تختبر له مثيلاً بحنانه وروعته، وهمس لها:

«سيكون لدينا طفل».

فردت في سرها بالقول: أجل، لذا حاول جدياً أن تعود إلى وطنك سالماً، لأنني لا يمكنني أن أضع مولودي بمفردي.

***

رسم ذلك الحلم ابتسامة على وجهها عندما استيقظت، إلاّ أن لسعة الواقع الباردة لفحتها حالما فتحت عينيها. كان أسوأ ما في الأمر هو أنه عاد إلى وطنه سالماً، إلاّ أنها كانت قد أحست بالقلق يساورها طيلة المهمات الأخيرة التي كُلِّف بها، وطيلة رحلته التي قطعها عائداً إلى الوطن، لكنه تمكن من الوصول أخيراً. ولكن، ما ذاك الانقلاب المتوحش في الأقدار الذي حدث؟ لم تستطع أن تتقبل الأمر ببساطة، بل لم تكن تريد أن تعرف ما الذي جرى أصلاً.

وهنا ألقت نظرة خاطفة على ويليام الذي كان لا يزال نائماً بين ذراعيها، ومندساً في جسدها وكأنه جزء منه.

هتفت إيفي بلطف: «وصلنا تقريباً».

أخذت بيتي ترمش بعينيها لتتمكن من التركيز، ثم رفعت بصرها، إلاّ أنها بقيت تحس بأنها قد فقدت الإحساس بجسدها. فبالرغم من أن جسمها كان يتحرك، إلاّ أن عقلها لم يكن يستجيب، كما أنها لم تكن واثقة من أن صوتها سيساعدها، ولهذا شكرت الله لوجود مقاعد جلدية مريحة في السيارة يمكنها أن تغفو عليها وترتاح.

هتفت إيفي: «سيأتي لوكا إلى البيت بعدما نصل؛ إذ كان يخطط لينهي عمله مبكراً».

فهزت بيتي رأسها وقالت: «وماذا عن والديه؟».

ابتسمت إيفي وردت: «كان من النادر بالنسبة للشابين أن يجالسا والديهما؛ إذ كانا يبقيان بمفردهما في معظم الأوقات، ويمكنني أن أصف لك السيدة أوليفر بأنها... حسناً، لنقل إنني عملت لدى هذه العائلة لسنوات طويلة، وسررت أيما سرور حينما طلب مني لوكا أن أدير بيته عوضاً عن بيت أمه».

هزّت بيتي رأسها مرة أخرى، وذلك لأن مجرد التلفظ بتلك الكلمات جعل الجفاف يغزو حلقها الذي بدأ يؤلمها.

سألتها إيفي: «هل بإمكاني أن أحمل الطفل عنك؟ يسعدني أن أحمله مرة أخرى».

فغيّرت بيتي جلستها، وأعادت ترتيب وضع ويليام داخل البطانية، ثم قالت: «سأكون بخير».

كانت بيتي تشعر بالامتنان حيال إيفي لأنها ساعدتها كثيراً، لكنها لم تكن تريد أن تعطيها ويليام؛ إذ كان ويليام كل من لديها حينها، وكل من كانت تعيش من أجله. لذا، لم تكن لتفلته من بين ذراعيها مرة أخرى.

وهنا، أخذت تفكر بالأفكار التي كانت تراود إيفي حيالها، وكيف سيكون انطباع عائلة شارلي عنها؟ إذ لم يكونوا يتوقعوا وصولها أصلاً؛ خاصة مع طفل في قماط.

أخذ ويليام يبكي، لكنها لم تقم بإرضاعه؛ إذ لم يكن معها أي شيء لتتناوله خلال رحلتها، ممّا أشعرها بتلبك في معدتها، وجعلها تشك إن كان قد بقي في ثدييها حليب يمكنها أن ترضع ولدها منه.

لكنها قطعت على نفسها عهداً بتناول الطعام والشراب حينما يصلان إلى البيت، لأنها بحاجة لإرضاعه والاعتناء به، إذ أصبح ويليام كل حياتها، ولم يكن لديها أحد سواه. ثم إنه جزء من شارلي بكل تأكيد، وهذا ما جعلها تحبه أكثر.

ربتت إيفي على ساقها بلطف وقالت: «لم يعد أمامنا الكثير الآن».

رفعت بيتي رأسها لأنها لم تستطع أن تمنع نفسها من ذلك. إذ كانت تنتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر. إلاّ أنها كانت تتمنى أن تجلس بجانب شارلي لتحدثه عن رحلتها في البحر، ثم تندس به وتسرق بعض القبل، وليس أن تجلس بجوار مدبرة المنزل وهي تتمنى ألا يقوم شقيق زوجها بطردها، أو أن يصر على عودتها إلى لندن. أجل، لم تكن تظن أنها ستصبح أرملة يوماً ما بكل تأكيد.

استدارت السيارة عند منعطف، فأخذت بيتي تصغي لصوت الحصى وهي تُطحن تحت

العجلات الكبيرة. كان مدخل السيارات واسعاً، وتحيط به أشجار بدأت أوراقها تتفتح من جديد على أبواب فصل الصيف.

وهناك لاح منزل من بعيد. لا بد أنهم يطلقون عليه في لندن تسمية قصر، إلاّ أنها لم تستطع أن تتذكر تسميته التي وردت في مجلة دليل المرأة بالمصطلح الأمريكي، لكنه كان رائعاً وكبيراً للغاية، وبدا بارداً للغاية بالنسبة لها، لكنه كان جميلاً.

كان شارلي قد أخبرها أن لديهم بيتاً جميلاً، لكنها لم تكن تعرف أن عائلته ثرية إلى هذا الحد؛ إذ لم يكن يتصرف كشخص ينتمي لبيئة مترفة، كما لم يخطر ببالها أن تسأله عن شيء كهذا.

شاهدت بيتي سيارة أخرى تقف في مدخل السيارات، وتحتل الموقع الأول في صدر المدخل.

وهنا هتفت إيفي: «لوكا في البيت».

أخذت بيتي نفساً عميقاً، وعندها أطلق ويليام صرخة مكبوتة، فبدأت بيتي تهزه وهي تقول: «اهدأ الآن، اسكت يا ويليام، فقد حان الوقت للقاء عمك».

عندها، فتح عينيه ليراها، لكن قلب بيتي كان يتمنى أن يتشظى ويتحول إلى ألف قطعة. ومع ذلك رفعت ذقنها وأخفت دموعها.

كان ويليام على وشك أن يلتقي عمه. فرغم أنه لم يكن بوسعه أن يحظى بأبيه، فعلى الأقل لديه شخص غير أمه يمكنه أن يعتني به ويهتم بمصلحته، أجل أصبحت لديه عائلة.

***

لم يكن لوكا بانتظارهما عند الباب، وهذا ما جعل بيتي تدرك بغريزتها أنه لم يكن يشبه أخاه. إذ كان شارلي يتصرف كحيوان أليف يبدي حماسة مفرطة، ولو كان موجوداً لكان بانتظارهما عند الباب الأمامي.

غير أنها أبعدت عن نفسها تلك الوساوس بالتفكير: يقول المثل: لا تحكم على كتاب من غلافه. لكنها لم تكن تحكم بقدر ما كانت تجمِّل القول، ولم يكن أمامها سوى أن تأمل أن يكون لدى لوكا شيء من دفء أخيه ولطفه، إذ أصبحت مع ويليام تعتمد على مساعدته بشكل كامل في ذلك الحين. وهنا، أخذت بيتي تجول بنظرها مرة أخرى وتنظر للبيت الكبير المكون من ثلاثة أقسام يغطيها القرميد، كما أخذت تتأمل الخدم القائمين عليه، وكذلك السيارة الفارهة، فابتلعت ريقها؛ إذ لم تكن تحلم بزوج ثري، ولم تكن تهتم بمكانته الاجتماعية، لأن كل ما كان يهمها هو شارلي نفسه. ومع ذلك، قادتها قدماها لهذا البيت الفخم الذي لم ترَ له مثيلاً في حياتها.

وهنا خاطبتها إيفي وهي تدفعها بمرفقها قائلة: «لمَ لا نقوم بجولة في المسكن الخاص بك؟».

فالتفتت بيتي لترى السائق الذي كان يخرج حقيبتها من الصندوق.

هتفت إيفي: «سيوافونك بأغراضك. لذا، دعينا نصعد الآن للطابق العلوي، ثم يمكنك أن تنزلي لملاقاة لوكا بعدما تستريحين وتستعيدين نشاطك».

كان باستطاعة بيتي حينها أن ترى النظرة القلقة على وجه إيفي. ولكن، هل كانت قلقة حيال ردة فعل لوكا تجاه الرضيع؟ وهل كان يتمنى لو أنها بقيت في لندن؟ عندها، أخذ جسد بيتي يرتعد، وأخذت الدموع التي تجمعت داخل عينيها تحرقها مرة أخرى، وأخذت تسأل نفسها: هل سيكون شارلي بانتظارها في الداخل؟ لا بد أن خطأ ما قد حصل، ولا بد أنها مزحة ثقيلة وسخيفة أيضاً.

تبعت بيتي إيفي وهي مطأطأة الرأس، إذ كان كل تركيزها منصباَ على طريقة حملها لويليام، غير أنها لم تستطع منع نفسها من ملاحظة التحف النفيسة والسجاد باهظ الثمن والأخشاب الصقيلة التي فرشت بها الأرضية التي مرت فوقها، والاستدارة الأنيقة للدرج وهما تصعدانه.

عندها، تمنت لو حدثها شارلي عن مدى ثراء أسرته، فعلى الأقل كانت ستبني توقعاتها بشكل مختلف.

ثم سمعت صوتاً رجولياً يخرج إلى الدرج من غرفة أخرى، وعندها عجلت إيفي من سرعة مسيرهما وهي تقول:

«أتعرفين؟ إن السيد ويليام يشبه الشابين حينما كانا رضيعين تماماً، وكأنه صورة طبق الأصل عنهما».

فابتسمت لها بيتي ابتسامة مصطنعة لأنها عرفت ما الذي كانت إيفي تحاول فعله؛ إذ كانت تريد أن تشعرها بالارتياح بشأن الطفل الذي ولد مبكراً، إلاّ أنها لم تكن تخجل من ذلك، لأن الطفل ابن شارلي، ولم يسبق لها أن خرجت بصحبة رجل آخر قبله، ولم تعد تأمل في ذلك أصلاً، إذ قد تغيرت مشاعرها.

هتفت بها إيفي: «من هنا!».

نظرت بيتي إلى الغرفة حالما فتحت إيفي الباب وهي تقول:

«كان يُفترَض أن تكون هذه غرفتك أنت وشارلي، إذ كنا نأمل أن تعيشا هنا خلال الأشهر الأولى على الأقل».

عندها، غيرت بيتي من الطريقة التي كانت تمسك بها ويليام، وجعلت وجهه للغرفة هو أيضاً وظهره إلى صدرها. كانت الغرفة واسعة، فخلعت بيتي حذاءها وأخذت تتلمس وبر السجادة تحت أصابع قدميها. أما الستائر فكانت ثقيلة وتشبه ستائر المسارح، وقد رفعت عن النوافذ بواسطة شيء بدا لها كمخالب ذهبية عند كل طرف. هذا وقد طليت جدران الغرفة بلون أبيض مصفر، فيما كان الباب الموجود ضمن جدار قصي قد فُتِح على ما خالت أنه حجرة نوم للطفل.

وهنا لوّحت إيفي لها بيدها وقالت: «يمكنه أن ينام هنا معك إن كنت تفضلين ذلك، إذ يمكننا أن نأتي بمهده إلى هنا، أو بوسعك استخدام حجرة الطفل التي تم تجهيزها بكل ما يلزم».

سارت بيتي نحو الحجرة والعبرات تخنقها وهي تنظر إليها، فرأت فيها مهداً صغيراً كان قد وُضِع تحت النافذة، وسريراً نقالاً يمكن لويليام استخدامه حينما يصبح أكبر، وكان موضوعاً بالقرب من الجدار الآخر، وثمة طاولة تستخدم لتغيير الحفاضات، ورفوف مخصصة للملابس، وسلال كبيرة مجدولة من القش ظنت بيتي أنها لا بد أن تكون قد خصصت للألعاب. هذا إلى جانب قفص خشبي بديع الشكل يمكن لابنها أن يلعب فيه حينما يكبر قليلاً.

وهنا أخذت تفكر: لو كان شارلي معها لكانت مشاهدة هذه الغرفة متعة، لكن وجودها لوحدها فيها أشعرها بأنها كانت أشبه بخدعة.

نادتها إيفي: «بيتي؟».

لكنها لم تلتفت إليها، بل وضعت ابنها في المهد، وأخذت تبتسم بالرغم من دموعها التي سالت وهي تغطيه بالبطانية. أخذ يبكي، إلاّ أنها تجاهلته؛ إذ كانت بحاجة لبعض الوقت. فبالرغم من أنه لم ينزل عن ذراعيها أو أحضان صديقاتها منذ أن ولد، إلاّ أنها أصبحت بحاجة لوضعه في مكان ما بعيداً عنها.

التفتت بيتي ببطء حينما كانت إيفي لا تزال واقفة قرب باب الغرفة، وكان وجهها أشبه بوجه أم أو جدة؛ أي كانت من أولئك الأشخاص الذين يعرفون كيف يتصرفون مع الآلام، ويعرفون كيف يداوون جراح الآخرين. كان بوسع بيتي أن ترى فيها ذلك، إذ كان قد مضى وقت طويل على آخر مرة احتضنتها أمها فيها وأخذت ترشدها وتعلمها، ولكنها في ذلك الحين أخذت تتمنى لو كانت أمها بجانبها أكثر من أي شيء آخر.

توجّهت إيفي صوبها بخطى مترددة، وحين مدت لها ذراعيها ركضت بيتي نحوها، فأصبح جسدها يهتز مع نشيجها، وأخذت الدموع تنهمر من عينيها كحبات المطر فوق وجنتيها.

عندها، أخذت إيفي تهدئ من روعها وتربّت على ظهرها وكأنها طفلة وهي تقول لها: «أوه يا عزيزتي بيتي، ستكون أمورك بخير».

فأغمضت بيتي عينيها بشدة، وتمنّت أن تصدق ما قالته لها إيفي، إلاّ أن حياتها لن تكون بخير، كما أنها لن تكون أفضل من حياتها الآن لو بقيت في لندن.

تابعت إيفي كلامها قائلة: «لا بأس عليك يا عزيزتي».

فتمسكت بها بيتي بقوة، بينما بدأ بكاؤها يهدأ، إلاّ أن اليأس الذي غمر قلبها كان قد تفاقم.

تراجعت إيفي للوراء قليلاً، وأخذت تمسح الشعر الذي نزل على وجه بيتي وهي تقول:

«سأتركك لبعض الوقت لأخبر لوكا بأنك لست على استعداد للقائه اليوم، كما سأحضِّر لك الحمام، وبعد ذلك يمكنك أن تأوي إلى فراشك باكراً».

هزت بيتي رأسها موافقة، ثم مسحت الدموع عن عينيها، وسمحت لشفتيها أن تفترّا عن ابتسامة وهي تقول: «سأكون بخير، لكنني بحاجة لبعض الوقت».

فبدا على إيفي أنها لم تكن تصدقها، إلاّ أن بيتي تابعت:

«عليّ أن أشكره لأنه سمح لنا بدخول بيته، لذا أريد أن ألتقيه».

نظرت إليها إيفي نظرة صارمة، ثم تنهدت وقالت: «ولكن، ما رأيك بالاستحمام أولاً؟ يمكنك أن تبقي بمفردك لساعة فقط، حيث تسترخين تحت الماء قليلاً، وسأعتني بويليام في ذلك الحين، ثم يمكنك أن تتناولي طعام العشاء مع لوكا».

فهزت بيتي برأسها موافقة.

لم تكن بيتي تهتم بذلك الحل الوسط، إذ كان الاستحمام هو ما تحتاج إليه بالضبط. وطالما أن لوكا لن يعتبر أمر استحمامها قبل لقائه قلة ذوق منها، إذاً ستكون ممتنة لو فعلت ذلك. لكنها كانت قد قررت أن تلتقيه في ذلك اليوم وأن تنهي الأمور معه، إذ كانت عازمة على تغيير شقيق زوجها ليصبح مثلها مهما كلفها الأمر.

كانت يتيمة وأرملة، إذ لم يعد هنالك أحد في حياتها سوى ويليام وعمه، ولم يكن لديها أي مكان يمكنها أن تذهب إليه، ولم يكن لديها أحد يمكنها أن تعود إليه إن رجعت إلى بلادها.

هكذا أصبحت حياتها، وأصبحت أمريكا وطناً لها؛ سواء أكانأكانأكان شارلي موجوداً أم لا. لذا، يتعين عليها أن تستفيد من ذلك إلى أقصى حد ممكن، إذ لم يكن أمامها أي خيار آخر.

وهنا سمعت نقرة على الباب.

ثم ظهر السائق وهو يحمل حقيبتها الكبيرة، إلى جانب حقيبة يدها الصوفية السميكة.

**فقالت له: «أشكرك».**

**فما كان منه إلاّ أن ابتسم لها ورفع قبعته. كانت قد أصبحت متبلدة الإحساس حينما كانت في السيارة، لذا بالكاد لاحظت وجوده، إلاّ أنها رأت في وجهه الآن طيبة تشبه طيبة إيفي بالضبط.**

**قال لها: «إنه لمن دواعي سرورنا أن نستقبل زوجة شارلي هنا يا سيدتي».**

**ثم أمسك بقبعته بين يديه.**

**فهزت بيتي رأسها وقالت: «كنت أتمنى لو كان هنا هو أيضاً». وشعرت عندها بزهو كبير يغمرها لأنها تمكنت من التلفظ بتلك الكلمات.**

**رد عليها السائق: «وأنا كذلك يا سيدتي! جميعنا كنا نتمنى لو لم تنتهِ الأمور إلى ما وصلت إليه».**

**فابتسمت له بيتي ابتسامة على عجل، ثم التفتت بعيداً عنه؛ إذ لم تكن تريد أن تبكي مرة أخرى. فهنالك وقت مخصص للحزن؛ وهو الوقت الذي تكون فيه بمفردها. ثم إن عليها أن تتذكر أنها كانت محظوظة لأنها لم تبقَ في الشارع؛ خاصة بعدما واجهت ذلك المصير من قبل حينما توفي والداها، إلاّ أن عائلة صديقتها فتحت أبوابها لها واستقبلتها. ولكنها لم تتخيل أن يحدث لها ذلك مرة أخرى في حياتها.**

**لم تكنِ بيتي على يقين من أن جميع العائلات الأمريكية على استعداد لاستقبال العرائس الأجنبيات، عفواً الأرامل، بكل حفاوة واهتمام.**

**وفجأة، بدأ ويليام بالبكاء.**

**فسمعت صوت إيفي وهي تأمرها بتسلط وتقول لها: «لا تلمسي ذلك الرضيع!». وذلك حينما تقدمت خطوة باتجاهه، وعندها تذكرت طريقة مادلين العملية أثناء عنايتها بها، ثم سمعتها تقول: «الحمام أمامك بعد الصالة، وقد فتحت لك الماء أيضاً».**

**فترددت بيتي.**

**إلا أن إيفي أسرعت إلى غرفة ويليام وهي تقول: «اذهبي أيتها السيدة الشابة قبل أن آخذك إلى هناك بنفسي».**

*******

**كانت المياه باردة إلى حد ما، ورأت بيتي المنشفة معلقة على مسافة تبعد عن يديها أقل من بضع أقدام، إلاّ أنها لم تتمكن من استجماع قوتها لتتناولها. بدأ جسمها يبرد، غير أن الماء كان رفاهية لم تقوَ على مقاومتها، أو مقاومة فكرة البقاء فيه حتى النهاية.**

**ومن مكانها، سمعت صوت ويليام وهو يبكي ثم ينشج ثم يسكت أخيراً دون أن يصدر عنه أي صوت بعد ذلك، كما لم تسمع أي صوت يصدر عن إيفي أيضاً، إلاّ أنها بدأت تشتاق لابنها، وكذلك بدأ جسمها يشتاق إليه؛ إذ حان موعد إرضاعه حينها.**

**وقفت بيتي في الحمام، ولفت جسدها بالمنشفة السميكة، ثم فركت جلدها وهي لا تزال تشعر بالرهبة لكونها أصبحت تنعم برفاهية التواجد في حمام حقيقي. كانت أرضية الحمام مكسوة بالآجر، أما الصنابير فكانت جميعها مطلية بالذهب، فبدا لها وكأنها تعيش تجربة لم يسبق لها أن حلمت بها في حياتها.**

**لفّت بيتي المنشفة حول جسدها وشدّتها، ثم خرجت من الحمام لكنها عادت إليه لتضغط**

على القابس الكهربائي، حيث أخذت المياه تصدر خريراً حينما استدارت نحو المرآة. وهنا فوجئت بصورتها المنعكسة فيها، إذ كان وجهها ممتلئاً ونضراً وكذلك بطنها في آخر مرة رأت نفسها فيها بالمرآة، أما الآن فقد أصبحت وجنتاها أقل امتلاء كوجنتي السنجاب، وعادت لسابق عهدها وشكلها؛ وذلك حينما رقصت مع شارلي للمرة الأولى في حياتها.

وبواسطة أصابعها، أخذت تفرّق شعرها الذي كان مبللاً بعد الحمام وتفوح منه رائحة عطرة بفضل الشامبو الرائع الذي كان موضوعاً عند حافة الحوض. كان شعر بيتي قد تجعد في لفات رخوة، إلاّ أن بشرتها بدت أقل شحوباً مما كانت عليه عادة؛ وذلك بفضل الأيام التي قضتها على ظهر السفينة بصحبة البنات، إلاّ أنها كانت مبقعة بنمش انتشر فوق أرنبة أنفها.

تنهّدت بيتي حينما تذكرت أنها لم تحمل سوى النزر اليسير من الملابس الأنيقة؛ وذلك لأنها عندما غادرت لندن كان بطنها كبيراً، فكان عليها أن تخفي حملها بارتداء الألبسة الفضفاضة. كما كانت تأمل أن تجد عند إيفي ملابس داخلية قطنية، وذلك لأن ملابسها الداخلية كانت بحاجة إلى رتق وإصلاح، وكان عليها أيضاً أن تنسج بعض الألبسة لوليام.

سألتها إيفي: «هل أنت بخير يا بيتي؟».

ابتسمت بيتي عندما سمعت صوت إيفي، ثم أبعدت نظرها عن صورتها المنعكسة على المرآة، وشدّت المنشفة الناعمة الكبيرة حول جسدها وفتحت الباب، وردت: «عذراً، لكنّ الأجواء رائعة في الداخل».

لم يبدُ على إيفي القلق وهي تقول: «لا يزال الرجل الذي يتبوّل بملابسه نائماً».

فردّت بيتي: «أشكرك».

عندها، قالت لها إيفي: «عليّ أن أساعدك في ارتداء ملابسك، وبعد ذلك سترين لوكا، ما رأيك؟ إنه بانتظارك».

فابتلعت بيتي ريقها، إذ كان ذلك ما ينبغي عليها القيام به.

ثم اعترفت لإيفي بالقول: «ليس لدي الكثير من الملابس المناسبة».

ربّتت إيفي على ذراعها، وقادتها عبر القاعة لتصلا إلى الغرفة، ثم قالت لها: «فلنبحث لك عن شيء لترتديه الآن، وحالما تستقرين سآخذك إلى الخيّاطة التي ستحيك لك بعض القطع الجميلة خلال وقت قصير».

وفي تلك اللحظة، شاهدت إيفي تلك النظرة التي ارتسمت على وجه بيتي، والتي لم تتمكن الأخيرة من إخفائها؛ إذ لم يتبقَّ لديها سوى القليل من المال، وخاصة بعد اشتهائها الشوكولا على ظهر السفينة وشرائها بعض الأشياء اللازمة لطفلها. وهكذا، لم يتبقَّ في حوزتها إلا مبلغ صغير لا يكفيها إطلاقاً لشراء أثواب جديدة. كما لم يكن لديها ذلك المبلغ الذي يقارب عشرة جنيهات استرلينية والذي فرض على العرائس اللواتي هاجرن إلى أمريكا.

وهنا هتفت إيفي: «لا داعي للقلق يا عزيزتي، فلوكا رجل ثري، ثم إنك والدة ابن أخيه الوحيد».

عندها، رفعت بيتي نظرها لتلتقي عيناها عينَي إيفي، ولاحظت فيهما صدقاً وحناناً، لكنها لم تكن تتوقع من أسرة زوجها أي صدقة.

فردت: «إيفي، إنني...»

فأجابتها إيفي: «تعالي يا حبيبتي لأساعدك في ارتداء ملابسك. إذ يمكننا أن نتحدث عن كل تلك الأمور في الصباح، بعدما تستقرين وترتاحين».

عندها، أمسكت بيتي عن الكلام، ولم تعد تريد أن تتجادل معها؛ فهذه المرأة هي الحليفة الوحيدة لها الآن، والشخص الوحيد الذي يمكنها أن تثق به. لأن أسابيع طويلة– بل وربما أكثر– قد تمر عليها قبل أن ترى الفتيات اللواتي تعرفت عليهن على ظهر السفينة. لذا، ينبغي عليها الآن أن تترك انطباعاً جيداً، وأن تعتني بطفلها.

***

تركت بيتي يدها تنزلق على الخشب المصقول للدرابزين، أما قلبها فكان يدق بشدة، كما بدأت حالة الغثيان التي تشعر بها ترغي وتزبد في معدتها، إلاّ أنها حافظت على أسنانها مطبقة، وأخذت تتدرب على إلقاء الكلمات في رأسها.

أشكرك على استقبالك لي في منزلك. إن ويليام محظوظ لأن لديه عماً مثلك. تقبل تعازي الحارة في شارلي الذي كان رجلاً رائعاً. وإنني لممتنة لك أشد الامتنان لأنك فتحت بيتك لنا.

كان كل ما تتمناه حينها هو ألا يخونها صوتها.

أخذ ويليام يهدر وهو بين ذراعيها فنظرت إليه. عندها، لمعت عيناه وهو يبادلها النظرات، وافترت شفتاه عن ابتسامة فيها الكثير من خفة الظل.

فهمست له: «ستكون أمورنا بخير أيها الفتى الذي لا يزال يتبول على نفسه، إذ لا بد أن يحبنا عمك».

غير أن بيتي كادت تتعثر في سيرها عندما سمعت سعالاً قوياً، فتوقفت ورأت رجلاً طويل القامة يقف قريباً منها وهو يحمل في يده كأساً، إلاّ أنه كان يراقبها.

كان ذلك الرجل شقيق شارلي بلا شك، لكنه كان أصغر مما توقعت، إلاّ أنه بدا لها أكبر من شارلي بكثير. إذ كان شعر شارلي طويلاً وينسدل على جبهته في بعض الأحيان، أما شعر لوكا فقد كان قصيراً بشكل يوحي بالجدية؛ بالرغم من أن لديهما البشرة المائلة للاحمرار ذاتها، مع أن بشرة لوكا كانت أفتح من بشرة شارلي. وهو أيضاً يتّصف بمنكبين عريضين، إلى جانب طول القامة، وكذلك بالشخصية القيادية التي كان شقيقه يتمتع بها، إلاّ أن الفرق بينهما هو أن شارلي كان يبتسم ويمزح دائماً حتى مع الغرباء، بينما بدا على لوكا أنه كان أكثر جدية من أخيه.

سرت رعدة القلق في جسمها حتى وصلت إلى أسفل ظهرها، فشعرت وكأن فمها قد بات ملصقاً بالغراء. وهنا أمسك ويليام بخصلة مجعدة من شعرها، ولكن لم يكن لديها ما يكفي من الطاقة لتوبخه.

كان لوكا أول من بدأ الحديث، وذلك بعدما وضع كأسه فوق منضدة جانبية، ثم سار ببطء ليصل إلى أسفل الدرج، وقال مخاطباً إياها:

«لا بد أنك بيتي».

وبعدها مدّ لها يده، فسارت بضع خطوات ثم مدت له يدها أيضاً، وبذلت جهداً كبيراً لتبتسم له، ونجحت في ذلك أخيراً؛ فهو الرجل الذي سيؤويها تحت سقف داره في نهاية المطاف.

قالت له بصوت ناعم ومنخفض: «عذراً، لكنك تشبه شارلي كثيراً، وهذا ما فاجأني».

ثم أخذت تراقب تعابير وجهه التي تغيرت، والتي كساها شيء من الاكفهرار أو الحزن

ربما.

سألها: «وهل هذا ابن أخي؟».

عندها، سارت خطوة أخيرة باتجاهه، ورفعت ويليام حتى منتصف ذراعها وهي تقول بكل فخر:

«إنه ويليام تشارلز أوليفر، وقد أطلقت عليه هذا الاسم تيمناً باسم أبي واسم أبيه أيضاً».

فهز لوكا رأسه، وعندها لاحظت أنه كان يختلس النظرات إلى وجهها، ولكنها حاولت ألا تظهر أي انزعاج بسبب ذلك، وذلك لأنه لم يثق فيها بعد بحسب ظنها كما أنها لم تثق فيه أيضاً.

عندها قال لها: «تفضلي إلى مائدة العشاء، وبعدها بوسعك أن تحدثيني عن كل ما جرى معك خلال رحلتك».

تناول كأسه، فسارت بجانبه وهي تحاول أن تتابع خطواته، وقالت له:

«أريد أن أشكرك على استقبالنا يا لوكا، فأنا ممتنة لك عظيم الامتنان، إذ إن الأمر من دون شارلي...»

إلا أنه قاطعها بفظاظة وقال: «ويليام هو ابن أخي الوحيد، وأنت زوجة أخي، وهنالك الكثير من الغرف الشاغرة في هذا البيت كما ترين».

وهنا تحولت تعابير وجهه من الجدية للمهابة، أما فمه فقد هبط ليعكس حالة عبوس. عندها، أخذت بيتي تسأل نفسها: هل قلت ما أثار حفيظته؟ إذ كانت تتمنى لو أنها لم تفعل شيئاً كهذا.

خاطبها بالقول: «إن إيفي بانتظارنا على العشاء».

عندها، تمنّت بيتي لو كان شارلي بجانبها، وتمنت لو أنه موجود ليمزح وهو يندفع نحوها، وليغيظ أخاه بذلك ثم يعرفهما على بعضهما، وليتحدث بعد ذلك عن خططهما ومستقبلهما، إلاّ أنها شعرت بالإحراج عوضاً عن ذلك؛ وذلك لأنها أحست بأنها تحولت إلى مصدر للشفقة والصدقة.

قد يكون لوكا شبيهاً بأخيه الأصغر، إلاّ أنها أحست بأن كل ما بينهما من تشابه ينتهي عند الشكل فقط.

سألها: «أيمكن أن نطلب من إيفي أن تأخذ ويليام معها بينما نتناول طعامنا؟».

كان سؤالاً بسيطاً، إلاّ أن بيتي لم تستطع أن تمنع تلك الرجفة التي سرت في شفتها السفلى. فلو كان شارلي معها لكان قد رغب بتواجد ويليام إلى الطاولة؛ سواء أكان في حضنها أو حضنه.

لكنها ردت: «بالطبع».

عندها، وضع لوكا كأسه الفارغة على طاولة منخفضة أثناء مرورهما معاً، ثم أرشدها إلى طاولة الطعام التي كانت كبيرة بشكل يبعث على السخرية، إلاّ أن بيتي كانت مسرورة لأنها اكتشفت أنهما لن يجلسا في طرفين متقابلين.

وهنا ظهرت إيفي برفقة امرأة أصغر منها كانت تحمل صينية الطعام، وأخذت تبتسم لها ابتسامة مشجعة.

فقالت لها بيتي: «أشكرك. ولكن، هل أنت متأكدة من أنك ستتدبرين أمرك معه؟».

كانت بيتي تكره أن تقلل من أهمية دور هذه المرأة؛ فهي ستعتني بويليام للمرة الثانية خلال

**أقل من ساعتين!**

**إلا أن تلك المرأة تناولت ويليام وضمته إلى صدرها وهي تقول: «إن هذا سبب تواجدي هنا يا عزيزتي، لذا لا تقلقي لأنه سيكون بخير، بل استمتعي بتناول طعامك».**

**وهنا وقف لوكا عند كرسي بيتي وسحبه، ثم أخذ ينتظرها لتجلس عليه ففعلت، ثم أخذت تراقبه وهو ينحني ليجلس على الكرسي الواقع إلى يسارها. وفي تلك اللحظة، شعرت أنه من الصعب عليها أن تنظر في عينيه اللتين كانتا تحدقان فيها بتعابير مكفهرة وعابسة.**

**يمكن أن يكون لوكا قد رسم صورة لها ولشكلها بخياله، إلاّ أنها كانت تشعر بالإحراج كلما تذكرت أنها لم تفكر فيه سوى قليلاً، وذلك لأن شارلي كان يحتل فكرها ومخيلتها دوماً. وهكذا، كانت تفكر في معظم الأحيان بالمكان الذي سيعيشان فيه، إلاّ أنها لم تكن تفكر بأفراد أسرته؛ باستثناء ما يتعلق بأمر لقائهم والتعرف عليهم.**

**حاولت بيتي ألا تتحرك بعصبية وتوتر أثناء جلوسها. كان الملح والفلفل قد وضعا في وسط الطاولة، أما أمامها فقد رأت بيتي قصعة من الحساء الساخن، فأخذت تتذكر كيف أن الحساء كان يرافقه دوماً رغيف من الخبز المحمص الشهي، لذا كان من عادتها أن تمسح كل نقطة من الحساء حيث لا يبقى شيء في قصعتها، إلاّ أن تغميس الخبز في الحساء بدا لها غير لائق في المحيط الجديد الذي وجدت نفسها فيه.**

**ابتسم لوكا ثم غمّس ملعقته في حسائه السميك، في إشارة منه إلى البدء بتناول الطعام. كانت بيتي قد تناولت الكثير من الطعام على ظهر السفينة، غير أن الحركة المتتابعة جعلتها تحس بالاضطراب والغثيان، كما أن جلوسها مع لوكا كان يزيد من توترها أيضاً.**

**بدأ لوكا الحديث بقوله: «أخبرتني إيفي أنك لم تستلمي التلغراف».**

**عندها، كادت بيتي تختنق، فوضعت ملعقتها على الطاولة لأنها لم تكن تتمنى أن يتحدثا حول أي موضوع بهذه الجدية، وبهذه السرعة أيضاً.**

**لكنها ردت عليه وقد أسبلت جفنيها: «أعتذر إن لم تكن تتوقع وصولي». ثم أخذت تسأل نفسها: هل يمكنني أن أنظر إليه؟ وهل يمثّل كلامه هذا أسلوباً خاصاً به ليخبرها من خلاله أنه كان يتمنى لو بقيت في بلادها؟**

**إلا أنّ عيني لوكا كانتا تخترقانها، لذا كان عليها أن ترفع بصرها، وكان بانتظارها ليُجري بينهما تواصلاً بصرياً. أجل، كان بوسعها أن تشعر بذلك، وكأنه كان يأمرها أن تقوم بذلك دون أن ينبس ببنت شفة.**

**وهنا هتفت وهي بالكاد تستطيع أن تميز صوتها: «أعتذر يا لوكا، وآسفة من أجل شارلي، ومن أجل عدم بقائي في بلادي».**

**وعندها، اجتاحتها رغبة بالهروب؛ إذ فكرت أن تصعد تلك الأدراج مهرولة، وأن تجمع أشياءها ومن ثم تغادر، لكنها لم تفعل، لأنه لم يكن لديها أي مكان آخر لتذهب إليه.**

**تناول لوكا ملعقته من جديد وبدأ بتناول طعامه وكأن شيئاً لم يحدث، ففعلت مثله. وبالرغم من أن تجرع الحساء كان صعباً عليها، إلاّ أنها أخذت تجبر نفسها على ابتلاع كل لقمة.**

**وحينما فرغ الحساء من قصعته، وضع لوكا الملعقة على الطاولة مرة أخرى، ثم مسح زاويتَي فمه، وشبك ذراعيه، وأبعد كرسيه عن الطاولة قليلاً.**

**إلا أن بيتي لم تكن قد فرغت من حسائها بعد، لكنها فعلت المثل لأنها لم تعد قادرة على**

تجرع المزيد من الحساء؛ حتى إن حاولت.

عندها هرعت الخادمة الشابة لتأخذ القصعتين، ثم غادرت الغرفة سريعاً كما أتت، فتمنت بيتي لو أنها لم تبقَ لوحدها مع لوكا.

وفجأة، قطع لوكا الصمت بقوله: «إن الأمر لا يتعلق بأنني لا أريدك أن تأتي يا بيتي». وبدا مستغرقاً في التفكير حينها، وهنا رأت بيتي رعشة في عينيه ذكرتها بشارلي لوهلة قصيرة، ثم تابع قائلاً: «لكن الوضع محرج، وأنا متأكد من أنك توافقينني الرأي».

فهزت برأسها إيجاباً، إلاّ أنها كانت تتميز غيظاً في داخلها، أما قلبها فكان يخفق بشدة. فما حدث معها لم يكن محرجاً فحسب، بل كان مدمراً، وكأن أحدهم قد مزق قلبها.

أخذ لوكا يمسد بيده مفرش الطاولة، وكانت أصابعه الطويلة تتابع نسقاً معيناً فوق سطحها، ثم قال: «شارلي أخي الوحيد، وقد كان يريد مني أن أعتني بك. لكنني لست متزوجاً، وهذا يعني أنه ليس لدي ورثة لينعموا بأملاك الأسرة وثرواتها. وبما أن ويليام هو ابن أخي، لذا لن يكون بحاجة لأي شيء، أعدك بذلك».

عند ذلك، شعرت بيتي بظل ينعكس عليها، وبهبة نسيم باردة أشعرتها بأنها تستحق أكثر مما بدا لها اتفاقاً عملياً لضمان وجود وريث للعائلة.

وفجأة هتفت وهي تنطق كلماتها بصعوبة: «إنني أحبه، فهو زوجي، وأنا أحبه». إلاّ أنها لم تستطع أن تستخدم صيغة الزمن الماضي وهي تتحدث عن حبيبها شارلي.

وهنا ظهرت الفتاة الشابة مرة أخرى، وكانت تحمل طبقين هذه المرة؛ حيث حملت كل واحد منهما بيد، ثم وضعتهما علي الطاولة، فشعرت بيتي بالدم يغلي في عروقها من شدة الغضب– إذ كانت على وشك الانفجار– إلا أنها كبتت مشاعرها كلياً.

وهنا قالت الفتاة قبل أن تغادر: «بط مشوي، مع صلصة بنكهة البرتقال، وبطاطا حلوة مغطاة بالسكر، وفاصولياء خضراء».

وحالما خرجت الخادمة من الغرفة للمرة الثانية خاطبها لوكا بصوت منخفض: «ليس لدي أدنى شك بحبك له. فقد كتب لنا شارلي عنك في رسائله عدة مرات، وحينما عاد كان يحدثنا عنك باستمرار. ثم إنه كان سعيداً لأنك كنت حاملاً».

فما كان منها إلاّ أن بصقت كلماتها بصقاً وهي تقول متناسية أمر الأخلاق: «إنه ابن شارلي».

فابتسم لوكا بتوتر وهو ينظر إليها، ثم أمسك بأدوات المائدة وقال:

«إنه يشبه عائلة أوليفر، لا شك لدي بذلك، وخاصة بعدما رأيته».

عندها، صبت بيتي جام غضبها على طعامها، وأخذت تقطّع اللحم بعنف.

كان لكلماته وقع أحست معه أنه كان يتصنع ذلك. هل عليها أن تظن أنه كان يشك بذلك إلى أن رأى ويليام؟ عندها، بدأت يداها ترتعشان، لكنها لم تكن لتبدي ذلك أثناء غضبها.

كان لوكا رجلاً قوياً، ولكنها قوية أيضاً. إذ كيف لفتاة فقدت والديها، وتزوجت في لندن خلال فترة الحرب ألا تكون مقاتلة شرسة؟ ثم إنه طالما أنهما لن يتحدثا عن سبب وفاة شارلي فإنها ستظل بخير؛ لأنها لم تكن على استعداد لسماع التفاصيل في ذلك الحين، بل كانت تشك بأنه لن يكون بوسعها أن تسمع ذلك على الإطلاق، وذلك لأن عدم إطلاعها على ذلك يعني أنه بوسعها على الأقل

**أن تتظاهر بأنه لم يرحل بالفعل.**

# الفصل العاشر

أخذت مادلين تحدق بيديها، إذ كان بوسعها أن ترى كل خط فيهما وكل شق انفتح داخلهما. فقد أصبحتا حمراوين وخشنتين بفعل ساعات العمل في الحقول، ومن ثم عملية التنظيف المتواصلة التي تأتي بعد ذلك لإزالة الأقذار والأوساخ التي علقت بهما.

كانت يداها تحكيان قصتهما دون الحاجة لمن يحكي عنهما.

وفجأة، سمعت طرقة قوية قادمة من الردهة، فانكمشت على نفسها من شدة الخوف.

ثم سمعت من يناديها: «أسرعي يا فتاة!».

إلا أنها لم تزعج نفسها بالرد، إذ كانت تكره صوت حماتها أكثر من أي صوت آخر، وكانت تشمئز من سماع تلك اللهجة الخشنة والصلبة لتلك المرأة التي كانت تعاملها كمجرد شيء قذر تحت حذائها. وبالرغم من أن أهل زوجها كانوا يكرهونها فقط لأنها أجنبية، إلاّ أنها كانت تحتقر كل شيء يمت لهم بصلة.

«ألم تسمعيني أيتها الفتاة؟». أتتها تلك النبرة الفظة من جديد.

وكانت تكره أن يناديها أحد بأيتها الفتاة.

عند ذلك، ردت مادلين رداً لاذعاً: «سمعتك جيداً، لكنني لم أنتهِ بعد كما ترين».

لكنها تمنت لو أن لسانها قد قطع قبل أن ترد بتلك الطريقة؛ لأن ذلك لم يكن من طبيعتها. إذ كانت قد ترعرعت بين أبويها اللذين كانا يعاملان أولادهما وكل من حولهما بكل لطف ومحبة، لذا لم تكن لديها أية مشكلة في تحمل أعباء أعمال البيت التي توقعت أن تقوم بها حينما كانت في بيتها. فالبيت هو المكان الوحيد الذي يتم التعامل فيه بمحبة واحترام، وذلك حينما كانت تعمل مع والدتها وأخواتها ليتحول بيتهم إلى بيت سعيد.

أما هنا فلم تكن أكثر من جارية تعمل حتى الإعياء، في بيت كان يجب أن يكون بيت الزوجية الخاص بها. إذ أصبح من الواجب عليها أن تكدح فقط لتنعم بسقف يؤويها، وبطعام يسد رمقها. فمنذ وصولها مع زوجها إلى المزرعة أحست مادلين بقلق مريب. وعندما التقت روي في الميناء كانت الأجواء بينهما مكهربة وجافة، إلاّ أنها كانت تتمنى أن تصبح الأمور أفضل حالما يصلان إلى بيتهما. ولكن حين وصلا، عرفت على الفور أن كل ما قاله لها عن حياته المنزلية كان كذبة.

كان أفضل ما يوصف به البيت أنه كان على وشك السقوط، كما كان منظر السقف المصنوع من الصفيح يوحي بأنه لا يمكنه أن يصمد حتى أمام عاصفة خفيفة الشدة. أما داخل المنزل فيظل بارداً حتى لو كان الطقس دافئاً خارجه. وبالرغم من أن بيتها في لندن لم يكن أفضل من بيوت الكثيرين، إلاّ أنها اعتادت على بيت مفعم بالمحبة والسعادة. غير أن عائلة روي كانت مكفهرة وعابسة ومتجهمة، ولم يكن البيت يختلف عنهم كثيراً. كان والده يمضي وقته إما في الحقل أو في تناول العشاء أو في النوم. وبالرغم من أنه لم يلاحظ وجودها سوى مرات قليلة؛ إلاّ أنه كان يعاملها بعدائية كعدائية والدة روي وشقيقته.

أما حماتها سارة فقد كانت تنظر إليها بقرف وهي تتفحص طبقاً من جبل الأطباق التي كانت مادلين تنظفها، ثم تقوم بتقليبه بازدراء بين أصابعها ذات العقد التي لوثتها السجائر، لتقوم بعد ذلك بإعادة الطبق إلى الماء مع ابتسامة خبيثة وهي تقول:

«أعيدي تنظيفه! ألم تعلمك أمك كيف يجب أن تتصرف الزوجة؟ أم أن النساء الإنكليزيات لا يعرفن شيئاً عن النظافة؟».

عندها، كانت مادلين تتنفس بصعوبة، وذلك لأن الطبق يكون نظيفاً وخالياً من البقع، ثم تحاول ألا تصرخ وأن تبتلع كلماتها، إلاّ أنها كانت تعرف أنها لن تتحمل ذلك، بل عليها أن تقول شيئاً.

ولذلك، ردت عليها بالقول هذه المرة: «إن كان هذا لا يعجبك، إذاً ربما يجب عليك أن تقومي بذلك بنفسك».

حملقت فيها المرأة العجوز، وأخذ اللعاب يتجمع عند حافتي فمها وهي ترغي وتزبد.

فنكصت مادلين على عقبيها وابتعدت وهي تقول: «لقد قلت ذلك رغماً عني، فاعذريني أرجوك».

إلا أنها رفعت كتفيها بهدوء بكل اعتزاز وكرامة، وسارت بكل رشاقة وهي تقاوم رغبتها بالهروب من سارة بأسرع وقت ممكن.

صاحت بها حماتها: «لا تبتعدي عندما أوجه إليك الحديث! إن الزوجة الأمريكية تعرف واجباتها تماماً، أسمعت؟».

عند ذلك، أغمضت مادلين عينيها لثانية، لكنها تابعت سيرها.

ثم فوجئت بأنها أصبحت أمام غرفتها، وهناك شعرت بعظيم الامتنان لأن لغرفتها باباً، وذلك لأن ما كان يفصل بين الغرفة التي تنام فيها شقيقة زوجها وبين غرفة المعيشة مجرد ستارة متدلية بشكل فج من مسمار بارز في الحائط. وهكذا، كانت مساحة الخصوصية الصغيرة التي يوفرها لها ذلك الباب الرقيق هي ما ينقذها في ساعات الشدة.

وهناك، وضعت مادلين كرسياً تحت مقبض بابها لتستخدمه كقفل مؤقت، ثم ارتمت على السرير، وشعرت بنوابضه تحرق ظهرها، لكنها لم تكترث بذلك.

كانت تتوقع أن تسمع طرقاً على بابها، لتدخل سارة بعد ذلك وتطلب منها العودة لغسل الأطباق. ثم لا بد أنها ستطلب منها بعد ذلك أن تجمع الخضراوات من الحديقة، أو أن تقتلع الأعشاب الضارة، أو ستطلب منها ما هو أسوأ من ذلك وهو أن تلوي رقبة إحدى الدجاجات ليتناولها الجميع على العشاء.

أخذت مادلين ترتعد حينما فكرت بذلك، إذ لم تكن لديها أدنى فكرة عما يجب عليها فعله، وكيف عليها أن تتصرف في هذه الحالة التي قادها إليها مصيرها. لم يكن اعتراضها على القيام ببعض الأعمال الشاقة، بل كانت تتوقع أن تقوم ببعض الأعمال المتعبة عند ترتيب بيتها الجديد، إلاّ أن حجم الأعمال التي كانت عائلة زوجها تتوقع منها القيام بها كان هائلاً. ثم إن القسوة والاحتقار والتسلط التي قابلتها بها عائلتها الجديدة جعلت الوضع لا يطاق.

كانت صورة والدها الحبيب لا تبارح مخيلتها، إذ كان وجهه اللطيف يتراءى أمام ناظريها، وكان بوسعها أن تستعيد كلماته مرات ومرات وهو يقول لها: سأعود بك إلى البلاد يا مادلين. كانت بحاجة لإدامة التفكير بذلك، وذلك لتذكر نفسها بأن ما قاله لها كان حقيقياً، فكانت تتذكر مقولته: إن كان الوضع سيئاً بالنسبة لك هناك، فسأبذل كل ما بوسعي لأعيدك إلى بلادك.

ولكن، هل كان بوسعها أن تطلب منه ذلك؟ وهل سيظل والدها راغباً بمساعدتها إن أخبرت أهلها عن وضعها في هذه البلاد؟ وبما كانت عائلتها الجديدة تتوقعه منها؟ وكيف عاملتها هذه العائلة؟

حينما التقت مادلين والدة روي للمرة الأولى في البيت كان الأمر بمثابة صدمة بالنسبة لها، إذ رأت امرأة قد احدودب ظهرها بعدما كانت طويلة القامة، وارتسمت على فمها خطوط ذابلة، هذا إلى جانب شعرها الأشيب وعينيها الثاقبتين، ولهذا بدت لها أشبه بساحرة.

ومنذ أن وصلت مادلين، رأت سارة تبتسم عدة مرات، كما كانت لطيفة أحياناً؛ ولكن ليس مع مادلين. إذ كانت تعامل ابنتها بلطف أحياناً، وكذلك ابنها في معظم الأحيان. فيما بدا لمادلين أنها كانت تعاملها بدونية واحتقار، وكأنها لم تكن مناسبة لابنها. إلاّ أن سلوكها وتصرفاتها مع مادلين كانت تتحسن بشكل طفيف حينما يكون روي في الجوار، ولكنها سرعان ما تعوِّض عن ذلك بسوء الخلق معها في غيابه.

وبالرغم من أن مادلين كانت خارج نطاق المقارنة، إلاّ أنها كانت تشعر بأنها الأرقى في ذلك البيت؛ ليس من ناحية المال وحسب، بل أيضاً من ناحية الأخلاق والمكانة الاجتماعية، والآداب والقواعد الأساسية للتعامل بشكل لائق مع الآخرين.

غير أن الصدمة الكبرى التي تلقتها مادلين كانت حينما تعرفت على شقيقة زوجها كارولين. إذ كانت تحلم بصداقة مع فتاة أخرى من عمرها، إلاّ أن كارولين كانت وضيعة كأمها، إن لم تكن أسوأ منها أيضاً. فقد كانت تعابير وجهها تنم عن القرف والاشمئزاز قبل أي شيء آخر.

كانت كل من سارة وكارولين تعاملان روي وكأنه مميز، وكأن مادلين لم تكن مناسبة له؛ وهذا ما كان يثير غضبها وجنونها.

أين ذلك الرجل الذي التقته في لندن؟ وأين ذلك الجندي الشاب والقوي والحازم الذي جعلها تثق به، والذي ترك انطباعاً حسناً لدى أسرتها وجعلها تتركها لتتزوجه؟ والآن، لم تعد مادلين تستغرب السبب الذي دفعه للتهرب من أسئلتها عن بيته وعائلته. فالرجل الذي بات معها الآن لم يكن أكثر من حيوان قارض لا فقاري، ولم يكن يجرؤ على النظر في عينيها، إذ كان يولي ظهره هارباً مع أولى علامات سوء معاملة أسرته لمادلين. كان يعرف في قرارة نفسه أنه خدعها، ومع ذلك لم يعتذر منها أو حتى يحاول أن يشرح لها وضعه، بل كان يعمل بجد هو أيضاً؛ بالرغم من أنه كان يقضي ساعات طويلة في المدينة في أغلب الأحيان، بحجة الاجتماعات أو بيع ما لديهم من بضاعة، ليعود متأخراً إلى البيت ومعه القليل من المال بعد كدحه لساعات طويلة. إلاّ أن ذلك لم يمنع أمه من إغراقه بالمديح على جهوده المتواضعة.

سمعت مادلين صوت صرير مقبض الباب، وصوتاً يقول لها: «افتحي الباب يا مادلين فوراً!».

فهتفت في سرها: ها قد ذكرنا العفريت فظهر لنا!

نهضت مادلين وأبعدت الكرسي، فدخل روي وهو يمرر إحدى يديه في شعره بعنف، بينما كانت يده الأخرى مسترخية على جانبه وكأنه لم يكن يدري ما الذي عليه أن يفعله بها.

خاطبته مادلين بلؤم وهي تعود إلى مجلسها على السرير: «لا بد أن أمك قد هرعت إليك وحدثتك عني بالسوء». وعندها، ظهر الغضب على وجه روي، وصاح بها:

«كان عليّ أن آتي من الحقل يا مادلين، إذ لديك دوماً سبب وجيه لعصيان...»

ردت عليه: «عصيان؟ بحق الله يا روي! من المفترض بها أن تعاملني كحماة وليس كسيدة علي!».

فحملق بها وصاح: «كل ما طلبته منك هو القيام ببعض الأعمال المنزلية».

وهنا ضحكت مادلين بصوت عالٍ، لأنها إن لم تفعل ذلك فستظل تصيح لفترة طويلة لتظهر لروي أنها قوية، إلاّ أن ذلك لم يكن ليفيدها في شيء.

ثم ردت عليه بالقول: «إنني أعمل لساعات طويلة كل يوم يا روي، أتسمع: لساعات طويلة، إلاّ أن ذلك لا يكفي للقيام بأعباء البيت».

فقال لها: «طالما بقيت ضيفة في هذا البيت...»

عندها، وقفت وأخذت تحدق في عينيه بجرأة أكبر مما تخيلت أو توقعت أنه بوسعها أن تفعل يوماً ما، ثم ردت:

«إنني لست ضيفة يا روي، فقد تزوجتني وأتيت بي إلى هنا، ولا ينبغي علي أن أشعر بالامتنان لذلك، بل إن ذلك من حقي، إذ أليس من واجب الزوج أن يقدم مسكناً لزوجته؟».

عندها، بدأت حنجرته تنتفض بفعل الغضب، كما رأت مادلين تغيُّرا في نظرة عينيه، أما وجهه فقد أصبح أحمر بلون الدم.

وبالرغم من كل ذلك، واصلت مادلين حديثها بالقول: «إذاً، متى سننتقل إلى بيتنا الخاص بنا؟ لأنني على يقين بأن أياً كان لن يتحمل ما أنا فيه أكثر ممّا تحملت».

فصرخ بها قائلاً: «وإلا ماذا؟».

فردت: «وإلا فسأفضح عائلتك حينما أرفع دعوى طلاق، وسأعود إلى بلادي». إذ لم تكن مستعدة لتبدي أي خنوع أو خضوع حينما يتعلق الأمر بروي وأسرته؛ وخاصة بعدما كذب عليها، وبعد الطريقة التي عاملوها بها. لذا، لم يكن بوسعها سوى أن تعتمد على نفسها، وهذا يعني أن عليها أن تتحلى بالشجاعة؛ حتى في الوقت الذي كانت تشعر فيه بالوجل والخوف في أعماقها.

رد عليها: «لن تفعلي ذلك».

عندها، استطاعت أن تلاحظ نبرة التردد في صوته، وذلك من خلال تلعثمه وحشرجة الكلام في حلقه.

فقالت له: «إن مجرد رسالة واحدة أرسلها لبلادي كفيلة بنقلي من هنا على متن السفينة القادمة».

وهنا، بدأ يحدق فيها وتحدق فيه؛ إلاّ أن مادلين كانت تعرف أنها لن تستطيع أن تواصل تظاهرها بالقوة طويلاً، ولكنها قررت أن تستمر بإظهار قوتها لأطول فترة ممكنة.

خاطبها روي قائلاً: «إن تركنا هذا البيت فعندها سيترتب عليّ أن أجد عملاً في المدينة، لأنك لا تريدين مني أن أترك والدي وحسب، أليس كذلك؟ ولكن، من سيعينهما في البيت؟». ثم تنهد بعمق وقال: «إنني فلاح يا مادلين، ولهذا فهذه البيئة هي التي تناسبني».

أخذت مادلين تحدق فيه ثم قالت:

«أمامك شهر واحد يا روي، وإلا فسأرحل».

***

تمددت مادلين على السرير، فخيم عليها الوجوم المطبق؛ لدرجة باتت معها تخشى أن تأتي بأي حركة.

في تلك الليلة، توجّهت مادلين نحو المطبخ بظهر مشدود، وفتحت الثلاجة وأخذت منها

قطعة من الجبن ثم غرست فيها سكيناً لتقطع منها عدة شرائح، قبل أن تعيدها بعد أن وضعت شرائح الجبن على قطعة من الخبز، ثم عادت أدراجها إلى غرفة نومها.

كان الجميع يراقبونها وهي تقوم بذلك، وكانت أعينهم تخترقها وتتبع كل حركة تأتي بها. إلاّ أن أحداً منهم لم تصدر عنه نأمة؛ إذ كانوا نادراً ما يتحدثون وهم جالسون إلى مائدة العشاء.

غير أن الاختلاف الفظيع بينهم وبين أسرتها هو ما كان يضايق مادلين إلى حد الجنون. أخذت تتخيل عائلتها في تلك الأثناء؛ فرأت هارولد وهو يضحك ويسلّي بناته، كما رأت أمها وهي تحاول أن تزم شفتيها وتؤنبه، لكنها تستسلم لنكاته في نهاية الأمر. أما أحفاده وحفيداته فكانوا يتحلقون حوله وهو يحكي لهم حكاية أثناء جلوسه على كرسيه الهزاز، وذلك في غرفة الجلوس أمام النار.

تركت مادلين الباب ينزلق من بين أصابعها محدثاً صوتاً قوياً عند إغلاقه، ثم جلست وأخذت تتناول الخبز مع الجبن. وبعد ذلك، بدأت تفكر بأنهم لا بد أن يسجلوا ملاحظة عنها وعما أخذته ليدوّنوا ذلك على الفاتورة التي يحتفظون بها، كما لا بد لهم أن يسجلوا تكلفة استضافة العروسين الجديدين.

إلا أنها كانت أكثر معرفة منهم بذلك، لذا لم تكن لتسمح لهم بأن يتفوقوا عليها بالذكاء والدهاء في هذا المضمار. فهي لم تكن لتأخذ شيئاً ليس من حقها، ثم إن العمل الذي كانت تقوم به بشكل يومي لا بد أن يفي بتكلفة الطعام والخبز اللذين كانوا يمنحوها إياهما مقابل ذلك، بل وقد يزيد. وإن سمعت مرة أخرى بأنه عليها أن تعود إلى لندن فستصرخ في وجوههم! إلاّ أن الشيء الوحيد الذي لم تفهمه فهو سبب رغبة روي في البقاء في هذا المكان وإصراره على ذلك. ولم لا يرغب بأن تكون لهما مزرعتهما الخاصة بهما؟ إذ كانت مادلين مستعدة لكي تعمل وتساعده وبكل سرور لو رغب بتجربة ذلك الأمر، أو حتى بتجربة أي شيء آخر. لكن الشيء الوحيد الذي كانت متيقنة منه هو أن تأثير والدته عليه كان كالحفر في الصخر؛ إذ كانت بارعة في السيطرة على ابنها. غير أن روي لم يكن ليعترف بتأثيرها عليه، أو ربما لم يكن يدرك أنها تؤثر عليه أصلاً.

ولكن، كانت لدى مادلين خطة؛ إذ قررت أن تذهب في اليوم التالي إلى المدينة، وأن تطلب من أحد الأشخاص الذين ينتقلون إلى هناك بسياراتهم أن يصطحبها معه. إذ بدا لها أن الفلاحين الآخرين كانوا يتمتعون بطيبة كبيرة، وأنهم كانوا لا يختلفون عن الفلاحين الذين كان والدها يتعامل معهم في متجره المخصص لبيع اللحوم. وهكذا، لا شك بأن طيبة أولئك الأشخاص ولطفهم سيمنعانهم من المرور بصبية من دون دعوتها للركوب في سياراتهم أو عرباتهم.

كانت مادلين تبتلع لقمتها الأخيرة حينما فتح روي الباب وصرخ بها:

«هذه سخافة».

فابتسمت له بدلال وردت: «إنك على حق، لأن بقاءنا في هذا الجحر محض سخافة بالفعل».

وبالطبع، كان من الصعب عليها التلفظ بتلك الكلمات، لكنها أجبرت نفسها على ذلك.

فردّ عليها: «أصبحت غير معقولة يا مادلين».

أعجبتها فكرة أنه بدأ يستشيط غضباً؛ بالرغم من أنها كانت تبغضه بعض الشيء، إذ بدأت تحتقره خلال فترة لم تتجاوز أربعة أسابيع؛ وذلك لأنه كذب عليها بشأن البيت، وسمح لأسرته بأن تعاملها بذلك الأسلوب. أجل، لقد كرهته بسبب كل ما هي فيه.

إلا أن أكثر شيء دفعها لكرهه هو أنه خدعها وأخبرها بأنه يحبها، ثم أتى بها إلى هذا المكان. وبالرغم من أنها لم تكن تشك بأنه يكن لها بعض المشاعر الجميلة، ولعله قد وقع في

غرامها في لندن، إلاّ أنها لم تعد قادرة على التأكد من أي شيء بشأنه بعد كل ذلك الخداع. ولكن، إن كان لا يزال يحبها فما كان ليسمح لأهله بمعاملتها بتلك الطريقة، ولكان قد وقف إلى جانبها ولبى كل ما تريده.

تنهد وقال لها: «سأتحدث إليهم، وسأطلب منهم أن يعاملوك بلطف أكبر».

فنظرت إلى وجهه، وإلى تلك الخطوط التي ظهرت على جبهته قبل أوانها، ثم إلى ذلك السواد الذي كان يحيط بعينيه، وهنا خفق داخلها إحساس تجاهه، إلاّ أنها أخمدته وقتلته في مهده. فقد كانت غير قادرة على التعاطف معه؛ بالرغم من أنه سبق لها أن فعلت ذلك. وذلك لأن الرجل الشجاع الذي التقته في لندن كان قد اختفى وانسحق تحت قدم أمه. أحسّت بضعفه في هذه اللحظة، إلاّ أنه كان يجدر بها أن تدافع عن نفسها وعن حقوقها.

جلس روي على السرير بجانبها، ثم وضع رأسه بين يديه وقال لها:

«لا يمكننا تحمل نفقات الانتقال إلى مكان آخر. ثم إنني لا أريد أن أنتقل لأي مكان».

فهزت مادلين رأسها لأنها كانت تتوقع منه أن يقول لها ذلك؛ إذ من الواضح أن أمه قد قامت بدورها على أكمل وجه وجعلته يفكر بتلك الأفكار. ولهذا، مدت مادلين أصابعها، وأخذت تتلمس يده برقة وقالت:

«سأبحث عن عمل».

فرفع رأسه وقال: «ستبحثين عن ماذا؟».

ردت عليه: «عن عمل، إذ يمكنني ذلك وبكل سهولة».

فقال لها: «لن يسمحوا لك بذلك، لذا لا تكوني حمقاء!».

سألته: «من هم يا روي؟ من هم الذين لن يسمحوا لي بذلك؟». إلاّ أنها كانت تعرف من كان يقصد بالضبط، لكنها كانت تريد منه أن يقول لها من هم.

فردّ عليها: «إن ذلك سيجلب العار لأسرتي؛ إذ سيعتقد كل من في القرية حينها بأن أرضنا لا تعطينا ما يكفي من المال لإطعام جميع من في البيت».

فابتسمت وقالت: «وهل سيُخزي ذلك أسرتك أكثر مما سيحصل لو تركتك؟».

عندها، تغيرت تعابير وجهه.

وتابعت مادلين كلامها: «سأجد لنفسي عملاً وكذلك أنت، أو يمكنهم أن يدفعوا لك ما تستحقه. وبكل الأحوال، لا بد أن نجد لنفسنا منزلاً خاصاً بنا».

عند ذلك، وقف روي وغادر الغرفة، ولكنها لم تنادِه ليعود.

أخذت مادلين تخلع ثيابها ببطء، ثم ارتدت قميص نومها وتمددت تحت الأغطية، حيث أصبح بوسعها أن تسمح لنفسها بلحظة ضعف في تلك الأثناء. وهكذا، أخذت الدموع تكوي عينيها وتتساقط من بين رموشها كالشلالات، ثم أخذت تشهق بنعومة، وتخنق شهقاتها قدر الإمكان لئلا يسمعها أحد.

وفجأة، سمعت صوت خطوات قريبة منها، فأدارت رأسها وأخذت تبكي بلا صوت بعدما ضغطت وجهها على وسادتها.

كانت قد قررت أن تبحث عن عمل، إلاّ أنها لم تخبر روي بأنها لم تعد تحتمل أي شيء بعد

**ذلك الحين.**

**وإن صدقت ظنونها، فلا بد أنها حامل.**

**أخذت مادلين تتلمس بطنها، وسالت دموعها أكثر.**

**كانت تحلم طيلة حياتها بأن تصبح أماً، إلاّ أنها تورطت بالبقاء في هذا المكان الذي تشعر فيه بالوحدة. وفجأة، أصبح حلم الأمومة آخر شيء في العالم يمكنها أن تفكر فيه؛ إذ لم تكن تريد أن تنجب طفلاً إن بقي الوضع على ما هو عليه.**

**ثم إنها كانت ترغب بالعودة إلى بلادها.**

**عندما أتاها روي في تلك الليلة، وانسل تحت أغطية سريرهما، كانت قد قررت أن ترفضه، وأن تواصل رفضها له إلى أن ينتقلا إلى مسكن خاص بهما. أجل، كانت قد عزمت على رفض الشيء الوحيد الذي كان يريده منها.**

**لا بد أنه سيتحول إلى دب هائج ذي مخالب طويلة حينها، إلاّ أنها لن تأبه به.**

**وهكذا، لم يكن أمامها سوى أن تنفِّذ خططها أو تعود إلى لندن على متن أي سفينة عائدة. ثم إن القرار كان قراره، وقد أعطته فرصة؛ وذلك لأنها حينما تلقي نظرة خاطفة على الرجل الذي تورطت معه، تجد أن أمر إنقاذ زواجها منه يستحق المحاولة. إلاّ أنها لم تكن تريد أن يستمر بمعاملتها بتلك الطريقة طيلة ما تبقى من حياتها، كما أنها لم تكن لتسمح بإنجاب أي طفل في عائلة تعيسة.**

**بات البيت والمسكن بالنسبة لها أشبه بسراب يختفي بعيداً ضمن ذكرياتها. إلاّ أن ذلك السراب كان يناديها ويجرها إليه كتيار مغناطيسي، ليعود ويتسرب من بين أصابعها بسرعة كبيرة، وهذا ما كان يخيفها أكثر من أي شيء آخر.**

# الفصل الحادي عشر

أحست أليس بشيء يكاد يخنقها، وكان أشبه بيد تعتصرها وتحبس أنفاسها عند قصبتي صدرها، فاستيقظت من نومها مرتاعة وهي تشعر بالحرارة، ولاحظت أن العرق يُغرِق جسدها، وأن شعرها قد التصق بجبهتها.

كان صوت الشخير هو الشيء الوحيد الذي جعلها تدرك أنها أصبحت بأمان، أو على الأقل أنها أصبحت بأمان قدر الإمكان في هذا المكان والزمان.

وضعت أليس رأسها على الوسادة من جديد، وأخذت تصغي لهمهمة زوجها التي باتت مألوفة بالنسبة لها أثناء نومه؛ إذ كانت تلكزه في بعض الأحيان ثم تلتزم السكون المطبق وتتظاهر بالنوم لئلا يكشفها. إلاّ أن ذلك لم يساعدها في شيء، إذ كان يتوقف عن شخيره عند ذلك، ثم يتململ ليبدأ من جديد بالتنفس كالدب. ولهذا، أصبحت راحتها الوحيدة تتمثل في الخلود للنوم قبله، إلاّ أن استيقاظها من كابوس بهذا الشكل جعل النوم يجافي عينيها لساعات طويلة.

وهكذا بقيت تفكر...

لم تكن حياتها في هذه البلاد كما كانت تشتهي وتتمنى؛ إذ لم تكن تشبه الحياة التي تخيلتها حينما أبحرت عبر المحيط في شيء.

ثم أين زوجها؟ أين ذلك الرجل والجندي الذي أغرمت به؟ أين أصبح ذلك الرجل المنضبط والقوي والوسيم للغاية والذي كان يظهر بغاية الأناقة حينما يرتدي بزته العسكرية، والذي كان يبدو لها لطيفاً ومهيباً حتى وهو ضعيف وممدد فوق سرير المشفى؟

أين ذلك الرجل الذي كان يغازلها دوماً؟ والذي تدرّج ضمن الرتب العسكرية في جيش الولايات المتحدة إلى أن أصبح نقيباً قبل بلوغه الخامسة والعشرين من العمر؟ فمنذ اللحظة التي رأته فيها حينما كان بانتظارها في الميناء عرفت أن شيئاً ما قد تغير، حيث اختفى ذلك النور الذي كان يشع من عينيه، وهكذا لم يعد شكله الخارجي يشبه شكل حبيبها رالف في شيء. إذ إن ذلك الشخص المندفع والواثق بنفسه الذي أغرمت به قد اختفى.

نهضت أليس من سريرهما، ولفّت كتفيها بشال وشدته عليهما. كان البيت دافئاً نوعاً ما، وهكذا أخذت قطرات العرق تجف بسرعة لتبرد جلدها. كان العمل قد أضناها، والقلق قد أتعبها، وكانت تشعر بحنين قاتل لبلادها، إلاّ أن أشد ما كان يغيظها هو أن عليها أن تحسب حساب كل قرش يصرفانه.

كانت قد توقعت أن تجد بانتظارها حفلات باذخة، ومنزلاً ريفياً أنيقاً لا يحتاج لأي جهد منها؛ سوى في ما يتعلق بالأعباء المنزلية.

ولكم كانت مخطئة حينما اعتقدت ذلك.

إذ أخذت تعمل لساعات طويلة وهي تطبخ لزوجها، وتنظف وتغسل وتقوم بأمور البيت، فضلاً عن القلق الذي أخذ ينتابها كل أسبوع بشأن الفواتير التي أخذت تتكدس لديهما على طاولة المطبخ.

بالإضافة إلى مراقبتها زوجها وهو يقوم بصرف كل قرش يدّخرانه على شراء الشراب، حيث كان يشرب حتى الثمالة، وذلك قبل أن يغمى عليه على كرسيه، أو يبدأ بالصراخ على اللاسلكي. والأسوأ من ذلك كله حينما كان يصرخ بها. ولكن حينما كان يرفض التحدث إليها لأيام في نهاية

الأمر كان الأمر ينتهي بأبشع صورة يمكن للمرء أن يتخيلها.

كانت ترغب بشدة بأن تعود إلى بلادها؛ إذ كانت تريد أن تعود بالزمن إلى الوراء لترفض محاولات رالف التقرب منها. لكنها كانت تعلم في قرارة نفسها بأنه حتى لو تم لها ذلك، لكانت قد تزوجته أيضاً؛ إذ لا يمكن لفتاة أن ترفض من هو مثله، أو ألا تتقبل طريقته في التقرب منها.

إلا أن ذلك لم يساعدها في التأقلم مع خيبة الأمل. إذ أصبح زوجها رجلاً فاشلاً بعدما كان مهماً في مرحلة ما حينما كان في الجيش، غير أنه لم يكن له أي شأن في الحياة الواقعية.

كان زوجها رجلاً قد خسر كل شيء فاستسلم وأصابه القنوط. ولكن، ما الذي حدث؟ وما الذي تغير منذ أن رأته آخر مرة؟ كانت في كل مرة تحاول فيها أن تفتح هذا الموضوع معه لتكلمه فيه يقوم بإغلاقه، ثم يلجأ إلى طريقة الانسحاب والتهرب أكثر مما هو عليه بالأصل.

كانت الدموع تحرق عينيها، إلاّ أنها كانت تحرك أهدابها لتخفي تلك الدموع. وكما كانت تفعل في معظم الأحيان عندما تستيقظ في ساعة مبكرة من الصباح، نهضت هذه المرة أيضاً لتضع الإناء على النار ليغلي، ثم صنعت لنفسها فنجاناً محبباً من الشوكولا الساخنة التي اعتادت عليها منذ أن كانت في بلادها، ثم سمحت لدموعها السخية بالسقوط في فنجانها حينما تجرأت ورشفت منه رشفة.

كانت تشعر بالوحدة والتعاسة والندم على زواجها، ولهذا كرهت عملها، وكرهت بيتها، والأسوأ من كل ذلك أنها كرهت زوجها كما لم تكره إنساناً من قبل.

أخذت تفكر بالجندي الذي التقت عيناه عينيها حينما كانت تعمل كممرضة، بذلك الرجل الممشوق والقوي الذي طلب يدها بكل جرأة، وبحث عنها إلى أن وجد مكانها وطرق باب بيتها.

وفجأة، أتاها صوت الشخير العنيد المتواصل من الغرفة الثانية.

فسألت نفسها: ما الذي فعلته لأعاقب بهذا الشكل؟

***

لم تكن أليس راغبة بالشجار في ذلك اليوم، ولم تكن على استعداد للشجار مرة أخرى. ففي كل مرة يكونان فيها معاً يتشاجران أو يقوم هو بتجاهلها. أما اليوم فلم تكن لدى أليس أي قوة للقيام بذلك، إذ كانت تسعى للتعامل معه بصمت وهدوء.

أخذت أليس تنظر إلى بشرتها في المرآة، ثم حاولت أن تزيل خطوط العبوس والتجهم التي كانت تحيط بثغرها. وبعدها، اكتشفت أن شفتيها كانتا في صراع دائم مع الجاذبية خلال تلك الفترة، بينما كان من الصعب عليها في السابق أن تمسح الابتسامة عن وجهها. وكانت قد تعبت من النوم المضطرب الذي عاشته خلال الليلة الماضية، والذي بدت آثاره واضحة عليها.

بدأت أليس بوضع مساحيق التجميل على بشرتها، ثم أخذت تمسح وجهها بلطف بلون أحمر لتعيد الرونق إلى وجنتيها، بعدها تناولت فرشاة الشفاه وجاهدت لتمنع يدها من الارتجاف وهي تصبغ فمها باللون الأحمر، إلاّ أن ذلك لم يبدل من وضعها شيئاً؛ إذ اكتشفت بعد ذلك كيف اختفى بريق الحياة من عينيها، فأصبحت الكآبة تسكنهما بدلاً من الحيوية، فضلاً عن اختفاء الرونق من وجهها.

أجبرت أليس نفسها على الابتسام، ثم رفعت جوربيها الطويلين الرقيقين؛ إذ كانا آخر زوج لديها، ولم يكونا مبرقعين بفتحات أو شقوق. ثم إن تعاستها لا تعني أن تسمح لمستواها بالهبوط، إذ كان كل ما احتفظت به يذكّرها بما كانت عليه من قبل. ثم إن الحفاظ على المظاهر كان السبب الوحيد

الذي يمكّنها من مقابلة العالم بأسره كل يوم وذقنها مائل للأعلى بكل ثقة، ورأسها مرفوع عالياً.

كانت الشمس قد أشرقت بكل سطوع في الخارج، مما جعل أليس تتساءل إن كانت الشمس تحاول أن تبهجها، ولهذا فكرت بأن عليها أن تحاول تحسين حالتها النفسية، وألا تشعر بالأسى على حالها بعد اليوم. إذ يمكنها هي وزوجها أن يتجاوزا تلك المرحلة، كما يمكن أن يصلح رالف من حاله، ويمكنها أن تكون عوناً له في ذلك. إذ لا يمكن أن يستمر الوضع على ما هو عليه للأبد، ولا بد أن يظهر شخص ما ويقوم بمساعدتها، ويكون ذلك الشخص على إطلاع ودراية بأمور الجنود الذين يعانون من مشكلات كمشكلات زوجها. فقد سبق لها أن قرأت شيئاً في مكان ما عن الرجال الذين يعودون من الحروب مصدومين. إذاً، هل كان ذلك ما تغير لدى زوجها؟

عدلت أليس وضع تنورتها، وتمنّت لو كانت لديها تنورة أقصر لتناسب الموضة الجديدة للأزياء. إلاّ أن شكلها لا يزال مغرياً، فالثياب التي اشترتها كانت غالية وأنيقة بالرغم من أنها لا تتماشى مع أحدث صيحات الموضة والتصميمات. كانت تسمع الفتيات الأخريات في العمل وهن يضحكن ضحكات مكبوتة عليها ويتهامسن في ما بينهن عندما تمر بهن. إذ كن يرفضن أن تنضم أليس إلى مجموعتهن، إلاّ أنها لم تكن تعبأ بهن؛ إذ كانت النساء يثرثرن ويتحدثن عنها طيلة حياتها، ويكرهنها لأن الرجال كانوا يلاحقونها بنظراتهم أينما سارت.

أخذت تقنع نفسها بأنها ليست بحاجة إلى صديقات، أي لصديقات جديدات؛ لأن الصديقات اللواتي كانت تهتم لأمرهن هن الفتيات اللواتي التقتهن على متن السفينة؛ أولئك الفتيات اللواتي يقضين أوقاتهن كزوجات تزوجن حديثاً، بينما كانت هي تعاني طيلة النهار وكل يوم مع زوجها، ولهذا أحست بأنه بوسعها أن تفعل أي شيء مقابل الاجتماع بهن كلهن، لتستودعهن سرها وما جرى معها. إلاّ أنها بقدر ما كانت تعشق الحديث معهن، كانت كبرياؤها تمنعها من ذلك؛ إذ لا بد أنهن كن مشغولات بتحويل أحلامهن إلى حقيقة، بينما كانت هي سجينة ما يسمى زواجاً. كانت واثقة جداً من نفسها حيال حياتها الجديدة. ومع ذلك، كانت تحس بالشقاء وتتمنى لو أنها لم تتزوج ذلك الرجل.

رفعت أليس ذقنها للأعلى وخرجت من غرفة النوم، ثم كشرت حينما رأت الفوضى تعم غرفة الجلوس الصغيرة في بيتهما، لكنها تابعت سيرها، ومرت بزوجها الذي كان يحدق في الفراغ من الشرفة. كان الكرسي المتداعي الذي يجلس عليه يبدو صغيراً أمام حجم جسده الكبير. عندها، تمهلت أليس، وأخذت تعبث بحافة تنورتها قبل أن تقوم بشيء ما. ثم انحنت لتلمس زهرة وحيدة، وشعرت لأول مرة في حياتها بأنها لم تكن تدري ما تقوله؛ فكل ما كانت تريده هو أن ينتبه رالف لها، وأن تتقد جذوة الحب بينهما من جديد، لترى في عينيه تلك النظرة القديمة التي ألفتها والتي كان دوماً ينظر بها إليها حينما كان معجباً بها.

أخذت أليس تنتظر وهي تراقبه، وتضغط بيديها أسفل تنورتها على أمل أن يلاحظ وجودها، إلاّ أن كل ما بدر عنه كان مجرد ابتسامة، ثم تابع تحديقه في الفراغ وكأنها لم تكن موجودة أصلاً.

عندها، شدت أليس كتفيها متحدية ثم غادرت، لكنها انكمشت على نفسها حينما نزلت إلى الشارع، لأنها كانت تكره أن تغادر البيت دون أن يلاحظها أو يهتم بها، لكنها لم تتوقف أو تسمح لدموعها بالهطول، إذ لم يكن هنالك أي مجال للمشاعر في حياتها، وخاصة أمام الناس.

كانت تمضي نصف ساعة سيراً على الأقدام لتصل إلى عملها، إلاّ أن ذلك كان مفيداً لها؛ إذ كان إحساسها بدفء أشعة الشمس على بشرتها يسعدها ويرفع من معنوياتها ويثنيها عن محاولة اللحاق بالحافلة.

***

لم تكن أليس تكره عملها بقدر ما كانت تكره اضطرارها للعمل. إذ لم تكن تتوقع لنفسها أن

تقوم بأكثر من أعمال الطهي والتنظيف في بيتها، إلى جانب رعاية الأطفال حينما يحين وقت ذلك، على ألا يتم ذلك دون مساعدة من الآخرين بالطبع. أما العمل، فلم يكن أصلاً جزءاً من المخطط الذي رسمته لحياتها الزوجية.

كما لم يخطر ببالها أيضاً أنها ستكون في بيتها الشخص الوحيد الذي سيعمل بعد الزواج.

وهنا سمعت أحدهم يناديها: «سيدة جونز؟».

فرفعت رأسها بينما كانت أصابعها ترفرف فوق الآلة الكاتبة.

«لقد دعا السيد روبرتس لعقد اجتماع لكامل الكادر العامل لدينا، وعلينا أن نجتمع على الفور عند الساعة العاشرة والنصف في قاعة الاجتماعات».

هزت أليس رأسها موافقة، إذ لم تكن السيدة بيركينز– هذه المرأة الحقيرة والعجوز التي تدير فريق العمل في المكتب– تبدي أي مودة للعاملين معها على الإطلاق. ونادراً ما كانت تتكلف ابتسامة منذ أن بدأت أليس العمل في ذلك المكتب.

عادت أليس لاستكمال الطباعة، وكانت أصابعها تتحرك بثقة فوق المفاتيح. وبالرغم من أن أصابعها لم تكن سريعة كأصابع الأخريات، إلاّ أنها كانت أنيقة في حركتها، ولم يصدر عنها أي خطأ. أخذت أليس تبتسم وهي تنقر على المفاتيح، وتفكر في أن معلمتها لن تصدق أن أسوأ طالبة لديها انتهى بها الأمر وهي تقوم بأعمال الطباعة لتكسب لقمة العيش. إلاّ أن شيئاً ما حيال السنوات التي قضتها في المدرسة كان قد بقي معها.

وفجأة، فاحت رائحة عطر أحدهم عندما مر بجانبها، فرفعت أليس رأسها على الفور.

أوه..

أخذت عيناها تتبعان أنفها لتقعا أخيراً على رجل وسيم ينسل إلى داخل المكتب. كانت رائحة العطر الذي تعطر به ومظهره يوحيان بالثراء الفاحش. وكان قد سرح شعره الأسود للخلف، ليظهر الشعر الأشيب الذي تجاوز صدغيه. كان فارع الطول، وله شارب قام بتهذيبه بشكل أنيق ليحاذي فمه، أما الساعة التي كانت تزين معصمه فكانت مصنوعة من ذهب ذي لون داكن.

عادت أليس بنظرها إلى عملها بسرعة وذلك حينما نظر ذلك الرجل نحوها.

أوه يا إلهي! لقد رآني وأنا أحدق به...

ولهذا لم تجرؤ على التحديق فيه مرة أخرى. إلاّ أن الحرارة التي بدأت تتصاعد حتى بلغت وجنتيها، ثم كامل وجهها كانت على وشك أن تفضح أمرها إن بقي ذلك الرجل ينظر إليها.

لا بد أن ذلك الرجل هو السيد روبرتس.

مديرها الجديد.

لم تكن أليس قد دعيت إلى قاعة الاجتماعات من قبل، إذ كان الموظفون القدامى فقط هم من يتم استدعاؤهم لحضور الاجتماعات ولتدوين الملاحظات.

كانت قاعة الاجتماعات أنيقة كما يجب أن تكون أية قاعة اجتماعات أخرى. حيث كانت تتوسطها طاولة خشبية فاخرة يحيط بها العديد من الكراسي، أما نوافذها فتطل على المدينة.

ترددت أليس عند الباب قبل أن تتخذ موقعها بجانب جدار قصي، تاركة الكراسي لمن هم أعلى منها رتبة في التسلسل الوظيفي.

امتلأت القاعة بالمحاضر والمذكرات، وبدأت الهمهمة الخفيضة تختفي تدريجياً، وذلك مع بدء الموظفين بالحديث همساً. إلاّ أن أحداً منهم لم يوجِّه أي كلمة لأليس، وكانت هي بدورها قد اعتادت على تلك الحال.

وفجأة، تنحنح أحد الرجال، فرفعت أليس بصرها.

عندها، ظهر السيد روبرتس الذي اجتاز الباب واتخذ موقعه عند رأس الطاولة، فشحن الغرفة بالطاقة والحيوية بفضل حضوره المتميز. وهنا أخذت أليس تراقبه وهو يبتسم غير مكترث بكثرة الناس حوله، والذين صبوا كل اهتمامهم عليه.

ثم بدأ حديثه بالقول بصوت عميق وواثق: «أشكركم جميعاً لاجتماعكم بي على الفور، كما يطيب لي أن أغتنم هذه الفرصة لأعرفكم بنفسي، ولأخبركم جميعاً أنني أتوقع ألا يؤثر التغيير الإداري عليكم أو يسبب أي انقطاع أو تعطل في العمل».

بعدها، توقّف السيد روبرتس عن الكلام قليلاً، وأخذ يسعل ثم تابع قائلاً:

«أيمكن لأحدكم أن يتكرم ويحضر لي كأساً من الماء؟».

عند ذلك، شعرت أليس بطعنة موجهة إلى صدرها، أعقبها صوت السيدة بيركينز الذي أزعج أذنيها وهي تهتف بسرعة وتقول:

«هيا يا أليس».

غير أن أليس لم تكن لتفتعل شجاراً إن أصبحت ضمن دائرة الانتباه والاهتمام؛ لا سيما وأنها أحدث موظفة في المكتب. ولو كان يتعين على أحد ما أن يأتي بالحذاء، فلن يكون سوى هي، لا سيما مع كل تلك البرودة التي تعاملها بها الفتيات الأخريات. وهكذا، سارت أليس بصعوبة بين جميع النساء اللواتي احتشدن في الخلف، واللواتي لم يكترثن حتى بالابتعاد عن طريقها، لتنسل بعد ذلك وتخرج من الباب.

ثم أخذت أليس تسرع في خطواتها حينما وصلت إلى الممر، فصبت كأساً من الماء، ثم عادت لقاعة الاجتماعات. وبعدها، أخذت تحدق بالنساء اللواتي وقفن في طريقها؛ لأنها لم تكن تريد للماء أن ينسكب من الكأس هذه المرة.

إلا أن سرعتها تضاءلت حينما اقتربت من مديرها الجديد، وخاصة حينما رفع بصره إليها فالتقت عيناه عينيها.

عند ذلك، أحست أليس أن كل من في القاعة يراقبهما، ولهذا ارتعشت يدها وهي تضع الكأس على الطاولة أمامه.

قال لها: «أشكرك». وهو يثبت نظراته عليها باهتمام.

فابتسمت وقالت: «على الرحب والسعة».

فما كان منه إلاّ أن ضحك، بل كان يضحك عليها بالفعل، وهذا ما جعلها تتمنى الموت في مكانها عند تلك اللحظة.

ثم سألها: «هل أنت فتاة إنكليزية ؟ ها؟ حسناً، تخيلوا ذلك! ما اسمك؟».

فابتلعت أليس ريقها ثم قالت: «أليس جونز يا سيدي».

قال: «السيدة جونز». ثم رفع الكأس وابتلع نصف ما فيها من ماء، وبعدها قال مخاطباً

**إياها: «أشكرك».**

**ثم تابع ما كان يقوله وكأن شيئاً لم يحدث بينهما، وكأنه لم يكن في القاعة إلا هو وهي وفجأة أحاط بهما الآخرون.**

**تجاهلت أليس أمر وجنتيها اللتين كانتا تحترقان من شدة الحرارة، وعادت لمكانها في القاعة من جديد وهي تتمنى ألا يدوم الاجتماع طويلاً، وأخذت تراقب النظرات المكفهرة التي وُجِّهت صوبها.**

**لم ترفع أليس بصرها بعد ذلك إلى أن انتهى الاجتماع، وأخذت النساء حولها يسرن مبتعدات للخروج من القاعة، وهكذا أجبرت أليس قدميها على اتباع أوامرها واللحاق بهن.**

**وبقيت على تلك الحال إلى أن سمعت صوتاً ذكورياً عميقاً وواضحاً يأتيها عبر القاعة ويقول:**

**«سيدة جونز».**

**أوه، كلا. عندها جمدت في مكانها، وأخذت تقول في سرها: أرجوك، لا تطردني اليوم، أتوسل إليك! ثم إنه لم يذكر شيئاً عن تقليص أعداد الموظفين، أليس كذلك؟ أم أن ذلك فاتها بينما كانت غارقة بأحلام اليقظة وهي تفكر فيه؟ تمهلت أليس إلى أن خرج من تبقى من موظفين، ثم توجهت نحوه، بينما أخذ الخدر يسري في جسدها. فكانت قدماها ثقيلتين، خاصة حينما التقت عيناها عينيه وهما تحدقان بها.**

**سألته: «أمرك سيدي؟».**

**فردّ: «اجلسي أرجوك». وأشار إليها بيده لتجلس قبالته، ثم تابع: «ونادِني ماثيو؛ على الأقل حينما نكون لوحدنا».**

**وبعدها غمزها. أجل، كان مديرها يغمزها بالفعل!!**

**فما كان من أليس إلاّ أن هزت برأسها إيجاباً، لكنها لم تستطع أن تحرك لسانها لتنطق بأي حرف، ثم إنها نسيت كيف يتم ذلك، وذلك لأن الحديث إلى رجل مثل هذا الرجل والبقاء بصحبته كان من المفترض أن يتم بشكل طبيعي بالنسبة لها.**

**سألها: «أليس! هل بإمكاني أن أناديك أليس؟».**

**فهزت رأسها موافقة مرة أخرى.**

**قال: «حسناً يا أليس، إنني بحاجة لمعاون شخصي، وأعتقد أن هذه الوظيفة تناسبك تماماً». عندها أخذت أليس تهز رأسها من هول الصدمة وهي تقول: «ماذا؟»، لكنها سيطرت على نفسها وسألته: «وماذا عن السيدة بيركينز؟».**

**فابتسم ابتسامة كلها سخرية ورفع حاجبيه لثانية ثم قال:**

**«حسناً، إن السيدة بيركينز ليست مناسبة لشغل ذلك المنصب، ولهذا ستتفوقين عليها في ذلك. أنا واثق من هذا».**

**كان قد انجذب إليها، وكان بوسعها أن تحس بذلك. أجل، كان ذلك الرجل القوي وصاحب النفوذ والسلطة قد انجذب إليها. وإلّا فلِمَ طلب منها أن تقوم بمساعدته في الوقت الذي كان بوسعه فيه أن يطلب من أي سيدة تعمل لديه في المكتب أن تقوم بذلك؟ ثم إنه لا يعرف أي شيء عنها.**

**سألها: «إذاَ، هل تقبلين بالعرض الذي عرضته عليك؟».**

**عندها، أخذت أليس نفساً عميقاً، ثم أجبرت عينيها على النظر في عينيه، وأخذت تفكر بأن ذلك سيزيد من كراهية الأخريات لها. ولكن، لمَ عليها أن تكترث بذلك؟ إذ لم يكن لديها أي شيء لتخسره، بل كان أمامها كل شيء يمكنها أن تكسبه.**

**فردت عليه بالقول: «يشرفني ذلك يا سيد روبرتس».**

**فذكرها بالقول: «ماثيو». وذلك قبل أن يغمزها مرة أخرى.**

**حاولت أليس أن تبقي الابتسامة على وجهها، لكنها في أعماقها كانت تحس بعدم الارتياح. فلو كانت كسابق عهدها لكانت قد غازلته ومازحته، إلاّ أن هذا الأمر لم يعد سهلاً عليها كما كان في السابق.**

**سألته وهي تحاول أن تتصنع الثقة تصنعاً: «متى سأباشر عملي؟».**

**فابتسم وشبك ذراعيه فوق صدره وهو يحاول أن يتفحصها، ثم قال:**

**«دعيني أعرض على السيدة بيركينز صفقة التقاعد المبكر أولاً، وبعدها ستصبحين ذراعي اليمنى».**

**عندها، نهضت أليس، وشدت ظهرها وكتفيها، وابتسمت بثقة دون أن تتحرك في مكانها ثم قالت:**

**«اتفقنا يا ماثيو».**

**فوقف هو أيضاً دون أن تبتعد نظراته عن وجهها، وقال:**

**«اتفقنا».**

**إلا أن الشيء الوحيد الذي أشعر أليس بالندم هو أنه كان يرتدي خاتم زواج.**

**ومع ذلك، تجاهلت قرصة الإحساس بالذنب التي وجدت طريقها إليها، وتذكرت أنها كانت قد ردّت رجلاً متزوجاً قبل ذلك، كما أنها أصبحت متزوجة هي أيضاً.**

**لكنّ كل ما طلبه منها ماثيو هو أن تصبح معاونة له.**

**أجل، كان ذلك كل ما طلبه حتى ذلك الحين.**

# الفصل الثاني عشر

بقيت جون غير قادرة على تصديق ذلك. إذ كانت في كل مرة تنظر فيها إلى ما حولها، وفي كل مرة تخطو فيها إلى داخل غرفتها، لم تكن تستطيع أن تصدق أن هذا البيت أصبح بيتها، بل بيتهما، وأن زوجها قد بناه بيديه على الأرض التي منحتهما إياها عائلة زوجها. وقد أعجبتها تلك اللفتة منهم، كما أحبت كل ما فعلوه من أجلها ليمنحوها أروع بداية يمكن أن تتخيلها في بلاد جديدة عليها، وهذا ما جعلها تشعر بالاستقرار والسعادة.

وفجأة، وبينما كانت تلك الأفكار تجول بخاطرها سمعت جون طرقة على الباب.

عندها، حركت أصابعها للمرة الأخيرة على ساق الزهرة، ثم دفعتها داخل الباقة، وبعدها مسحت يديها بمئزرها وهتفت:

«تفضل!».

فأعجبها صوتها وهو يتردد بوضوح في مدخل البيت. إذ كان بيت أسرتها متواضعاً وجميلاً، ولكنه لم يكن كبيراً، في الوقت الذي كان فيه بيتها كبيراً حيث يمكن أن يتسع لقبيلة كاملة من الأطفال.

عندها، ظهرت باتريسيا وسألتها: «ما الذي تفعلينه يا جون؟».

فردت: «أتلهى بالقيام ببعض الأشياء فقط».

فضحكت عليها شقيقة زوجها، ولوحت بيدها مشيرة إلى الشباك وهي تقول: «ألم تلاحظي كم هو جميل الطقس اليوم؟».

كانت جون قد لاحظت ذلك بالطبع، إذ كانت الشمس تلقي بأشعتها عبر النوافذ، فردت عليها: «كنت أريد أن أرتب البيت وأجعله جميلاً في عينَي إيدي».

غير أن ذلك دفع شقيقة زوجها لتضحك بصوت أعلى ثم تقول: «لقد قام ببناء هذا البيت، ثم أتى بك إليه، لذا لا تهتمي كثيراً. فحتى لو حوّلته إلى مكب للنفايات سيبقى إيدي يبتسم حينما يصل إلى بيته».

عندها، تورّدت وجنتا جون، ولم تستطع أن تمنع ذلك، وذلك لأن إيدي كان بالنسبة لها بمثابة شعاع الشمس الخاص بها. ففي كل مرة كان ينظر فيها إليها أو يلمسها أو يضحك معها كان يجعل الحياة تتسرب إلى روحها. أجل، كان يشعرها بالسعادة التي لا يمكن أن توصف.

سألتها شقيقة زوجها: «إذاً، هل ترغبين بالمجيء؟».

فسألتها: «إلى أين؟».

عندها، تبعتها باتريسيا إلى المطبخ، وقالت وهي تحاول أن تقلد اللهجة الإنكليزية بأفضل ما حفظته عنها: «لا وقت لتناول فنجان من «الحب»، وذلك لأن أمي ستصطحبنا معها إلى القرية لتناول طعام الغداء».

عند ذلك ابتسمت جون؛ إذ كانت محظوظة بشقيقة زوجها اللطيفة وبحماتها التي قررت أن تجول بها في القرية لتتفاخر بأنها كنتها، لكنها سألت: «وما المناسبة؟ أهي ذكرى ميلاد إحداكما؟ لم يخبرني إيدي بشيء حول ذلك هذا الصباح...»

فضحكت باتريسيا وهي تقول: «لسنا بحاجة لمناسبة يا حمقاء». ثم سحبت الإناء من يدها، وشدتها إلى الصالة، ومنها إلى الدرج وقالت لها: «كل ما نريده هو أن نعرفك على المكان، وأن نتأكد من أن جميع من في القرية بات يعرف من أنت».

عندها، أحست جون بأن وجهها قد تورد، فقالت: «يعرفني؟ أوه، لست أدري. حقاً، أعتقد أنني أود لو...»

عندها، دفعتها باتريسيا بحزم حتى الجهة الخلفية وقالت:

«ارتدي ثياباً جميلة. أمامك خمس عشرة دقيقة فقط».

فردت: «خمس عشرة، ولكن...»

قاطعتها باتريسيا: «أسرعي يا فتاة!».

فألقت نظرة على باتريسيا التي كانت تضع يديها على وركيها، ثم صعدت الدرج. وأخذت تفكر: لعله من الأفضل الخروج من البيت، والتعرف على المكان، والتمتع بدلال الأسرة الجديدة. لكنها لم تكن تحب أن يثار كل هذا الصخب حولها، وخاصة إن تحولت إلى محور للاهتمام.

بالرغم من أن ذلك كان يعني أنها ستتمكن من إرسال رسائلها بالبريد، مع محاولة البحث عن الفتيات الأخريات. وأحست كيف مضى الوقت بسرعة، لكنها كانت متأكدة من أن جميع الفتيات شعرن بذلك أيضاً؛ إذ كن مشغولات بالاستمتاع بحياتهن الجديدة خلال الأشهر التي أعقبت تفرقهن، لذا كانت تحس أحياناً بأن الوقت الذي أمضينه على ظهر السفينة كان مجرد حلم عابر، لكنها بقيت تتوق للتواصل معهن.

ابتسمت جون وهي تفكر بصديقاتها، ثم انتقلت بتفكيرها بسرعة إلى المكان الذي كانت تتوجه إليه؛ إذ لعلهن يزرن إيدي في عمله.

وهذا ما جعلها تسرع الخطى، وتجد أي مبرر للقاء زوجها هناك.

***

اشتدت وطأة أشعة الشمس على بشرة جون، وهذا ما جعلها تبتسم طوال الطريق مرة أخرى. إذ كان من الصعب عليها ألا تبتسم، ولكنها كانت قلقة بشأن عدم تأقلمها مع ذلك المكان، وكانت تخشى أن تشعر بالحنين لوطنها بشكل يشعرها بالشقاء. إلاّ أن ذلك لم يكن بعيداً كل البعد عما كانت عليه حقيقة.

كانت باتريسيا قد شبكت ذراعها بذراع جون أثناء سيرهما في الشارع، وكانت جون تشعر بالسعادة لأنها خرجت من البيت، إذ إن التواجد في القرية أثناء النهار كان ممتعاً أكثر مما توقعت.

وفجأة، سألت جون باتريسيا: «إذاً، أين سنذهب لتناول طعام الغداء؟».

فردت باتريسيا: «إن أمي تريد أن تأخذك إلى مطعم التلال».

بدا لها الاسم فخماً للغاية.

سألت: «ألن نلتقي إيدي؟».

فلكزتها باتريسيا وقالت: «ألا تملين من رؤيته طيلة الوقت؟ أعني، إنه لطيف ويتمتع بكل الخصال الحميدة، لكن لا تحاولي أن تتظاهري بأنك مجنونة به لهذه الدرجة».

عندها، توقفت جون وجمدت في مكانها، وأخذت تقول في سرها: هل يعتقدون أنني أتظاهر

أو أمثل عليهم؟

فكان لا بد لشقيقة زوجها أن تلاحظ تلك النظرة على وجهها، وصاحت بها:

«إنني أمزح يا جون، إنه مجرد مزاح». ثم رفعت يدها عالياً وكأن جون كانت مجرمة قد سلمت نفسها للتو، ثم قالت لها: «يا إلهي! أنتم البريطانيين تأخذون كل شيء على محمل الجد».

فابتسمت جون وتنفست الصعداء؛ إذ لم تكن قد اعتادت على أسلوب المزاح لدى الأمريكان، لا سيما في ما يتعلق بأمور كهذه. ثم كيف يمكنها أن تتعب من تواجد حبيبها إيدي برفقتها؟

سألتها باتريسيا: «هل ثمة شيء ما ترغبين بالقيام به؟».

وعندها، عاودتا السير بذراعين متشابكتين.

ردت جون: «أريد أن أرسل بعض الرسائل بالبريد إلى بلادي. هذا كل ما لدي».

وهنا أخذت باتريسيا تمازحها بالقول: «ألا تريدين أن تتوقفي لتري ملابس الأطفال؟».

عند ذلك، أحست جون بأن حاجبيها قد تقطبا، لكنها حاولت أن تخفي ردة فعلها، وسألتها:

«هل هذه محاولة أمريكية أخرى للمزاح؟».

وهنا جاء دور باتريسيا لتتظاهر بالرعب، وقالت:

«حسناً، شيء من هذا القبيل... لكنك قد تزوجت حديثاً، هذا فضلاً عن مكوثكما أنت وأخي في ذلك البيت الجديد الخاص بكما وبقاؤكما فيه كل ليلة. كل ذلك يدفعني للتساؤل، هذا كل ما في الأمر».

عندها، لم تستطع جون منع وجنتيها من التورد، لأنها لم تكن معتادة على الأسلوب المتهور والفضولي الذي كانت تتبعه النساء في أمريكا؛ إذ كان أي موضوع يطرح بلا قيود أو حدود، حتى أخص خصوصيات المرء.

سألتها باتريسيا: «إذاً؟».

فما كان من جون إلاّ أن نظرت إليها بطرف عينها ثم قالت: «هل بوسعي أن أناديك باتي؟».

فردت: «بالطبع».

إلا أن جون واصلت سيرها لأنها لم تعرف إن كان اسم باتي مجرد لقب أطلقه إيدي على شقيقته، ثم إنها كانت تنسى أن تسألها هذا السؤال في كل مرة.

لكن ذلك لم يجدِ نفعاً، إذ تابعت باتي كلامها: «إلا أن ذلك لا يعتبر إجابة على سؤالي. هل ترغبين برؤية ملابس الأطفال أم لا؟ إنني على استعداد لكي أصبح عمة!».

فردت جون: «لا حاجة لمشاهدة ملابس الأطفال الآن». غير أنها فوجئت بمدى ثبات صوتها وحزمه. لكن السبب في ذلك لم يكن عدم رغبتها بالحمل، بل كانت تريد أن تحمل أكثر من أي شيء آخر، لكنها لم ترزق بتلك النعمة بعد، ولم تكن تريد أن تجلب النحس لنفسها عبر شراء ملابس لم تكن بحاجة إليها بعد.

هتفت باتريسيا: «أوه انظري، هذه أمي!».

نظرت جون إلى المكان الذي كانت باتي تحدق فيه، ثم سارتا معاً إلى هناك. وأثناء سيرهما، كانت باتي قد انشغلت بالثرثرة حول موضوع آخر، إلاّ أن جون بقيت تفكر بموضوع الطفل.

**كان إيدي يتوق لتكوين أسرة كما كانت تتوق هي أيضاَ، إلاّ أن كل ما كان بوسعهما القيام به هو الأمل والدعاء.**

**وهنا كتمت ضحكة حينما فكرت أنه عليهما أن يواصلا محاولتهما للإنجاب، لأنهما كانا لا يبارحان بعضهما طيلة الليل.**

# الفصل الثالث عشر

جلست مادلين بظهر مشدود على الأريكة الصغيرة خارج الغرفة التي يفصلها عنها باب خشبي ثمين وصقيل. إلاّ أن راحتيها كانتا مبللتين بالعرق، وكأنها قد أمضت وقتاً طويلاً تحت أشعة الشمس. غير أن تعرّقها لم يكن بفعل الحرارة، بل لأن هذه المقابلة يمكنها أن تغير حياتها؛ إذ إن هذه الوظيفة والمال الذي ستكسبه منها لا بد أن يصبحا الملاذ الوحيد الذي يمكنها أن تلجأ إليه لتبدأ بالبحث عن طريقة للتخلص من الوضع المريع الذي وجدت نفسها فيه.

آه لو تحصل على هذه الوظيفة...

وبعد مرور ما بدا لها دهراً من الزمان، سمعت صرير الباب فانتصبت واقفة. عندها، ظهر لها رجل كان يكبر أباها بسنوات قليلة. كان ذا شارب كث، ويضع نظارة صغيرة الحجم، فارتاحت لمنظره اللطيف الذي كان أقرب إلى الودّ، ولأنه لم يكن ذلك الشخص المتجهم الذي توقعت أن تراه.

سألها: «السيدة باركر؟».

فهزت برأسها موافقة، وافترت شفتاها عن ابتسامة، ثم مدت يدها تماماً كما تدربت على ذلك أمام المرآة في البيت.

وقالت له: «نعم، سررت بلقائك يا سيدي».

فهز برأسه ودعاها للدخول إلى مكتبه.

أخذت مادلين نفساً عميقاً، ثم سارت نحو الأمام. كان المكتب أنيقاً ومرتباً، يتوسطه مكتب كبير، وُضِع وراءه كرسي جلدي ضخم. انتظرت مادلين إلى أن وقف الرجل أمام مكتبه، ولم تجلس إلا حينما أومأ لها بذلك.

كان الشيء الوحيد الذي كانت متأكدة منه حتى ذلك الحين هو أخلاقها وتصرفاتها.

بدأ الرجل كلامه بالقول: «حسناً يا سيدة باركر، يبدو لي أنك قد تركت انطباعاً حسناً لدى أمينة السر التي تعمل عندي».

عندها، سرت في روحها موجة ارتياح عظيمة، فردت عليه: «من الواضح أن السيدة رونسون امرأة لطيفة، ثم إنه لمن دواعي سروري أن أعمل معها».

وهنا، ابتسم الرجل وأخذ يمسد شاربه بإحدى يديه، وكأنه أصبح في حالة تأمل، ثم قال لها:

«لقد استقبلنا الكثير من المتقدمين، ولكنني أحب أن أهتم بسعادة الكادر العامل لدي، ثم إنك ستعملين مع السيدة رونسون في نهاية الأمر».

فما كان من مادلين سوى أن هزت برأسها وأخذت تنتظر ما سيقوله. إذ لم تكن تريد أن تضيع فرصتها بالتفوه بحماقة ما. ولكن، لم يبدُ عليها أنها لم تتقدم لأي وظيفة من قبل، إذ كانت المدرسة ومتجر اللحوم الذي يملكه والدها هما كل ما تعرفه في حياتها.

سألها الرجل: «إذاً، أخبريني يا سيدة باركر عن السبب الذي يدفعني لاختيارك لهذه الوظيفة، وعن الأشياء التي تميزك عمن سواك».

عند ذلك، أجبرت مادلين نفسها على إبعاد يديها عن بعضهما، ثم وضعتهما في حضنها وشرعت بالكلام:

«حضرة السيد كيرتس، إنني أقدر أن لك رأياً صارماً لا بد أن يسري في هذا المكتب، لكنني أعرف أنك ستسر مني أيما سرور. فقد كنت أساعد والدي في إدارة محله، وبقيت على تلك الحال لعدة سنوات. كما كنت أساعده في إعداد سائر الحسابات، وأنا أحب أن أقوم بالعمل على أكمل وجه».

وهنا كانت ابتسامة السيد كيرتس لطيفة حينما أخرج دفتر ملاحظاته، وقال:

«لقد سمعت أنكن أيتها الفتيات الإنكليزيات تتمتعن بأخلاق عملية جيدة. ولهذا، وبناء على ما قلته، أظن أن تلك الإشاعات صحيحة».

ردت عليه: «أجل يا سيدي، فلن أخيب ظنك. إذ كان والدي يقول: إن لم تستطع القيام بالعمل على أكمل وجه، فلا تقم به أصلاً. وأعتقد أنه مصيب في تلك المقولة».

عند ذلك، أخذ السيد كيرتس يتفحصها وينظر إليها مرات ومرات ثم ينظر إلى أوراقه. كانت السيدة رونسون قد أجرت معها مقابلة أولى، ولهذا اعتقدت مادلين أنه يدرس الملاحظات التي وضعتها تلك السيدة عنها.

ثم رفع بصره مرة أخرى، فرأت تعابير وجهه وقد اتسمت بالجدية وهو يفكر في أمرها ويقول: «حسناً، أعتقد أنني قد أخذت الوقت الكافي للتوصل إلى قرار».

عندها، طأطأت مادلين رأسها، وشعرت بقلبها يهوي، وأخذت تفكر في سرها: لم أوفّق هذه المرة. إذ بدا عليه أنه أعجب بها، ولكنْ كان هنالك الكثير من المرشحين الذين كان بوسعه أن يختار من بينهم، وكان عليها أن تدرك ذلك، إذ إنها لم تتلقَّ التدريب الخاص بهذا النوع من المهام.

وأخيراً، خاطبته بالقول: «أشكرك على الوقت الذي منحتني إياه يا سيدي، وإنني أقدر لك ذلك بكل تأكيد».

ثم وقفت وأمسكت بحقيبة يدها بين أصابعها، وبدأت تسير والكآبة تسيطر عليها باتجاه الباب، وعندها سمعته يناديها:

«سيدة باركر؟».

فالتفتت إلى الوراء وسألته: «نعم؟».

ردّ عليها: «أتمنى منك ألا تدفعيني لتغيير رأيي».

ثم أخذ يبتسم من جديد، فأخذت تفكر في سرها: أكانت هذه نكتة أمريكية سمجة لم تفهم معناها؟

ولهذا سألته: «عفواً؟».

فقال لها: «كنت على وشك أن أقول لك إنني قد اتخذت قراري، وإنك ستحصلين على هذه الوظيفة. هذا إن كنت لا تزالين راغبة بها».

كان على وشك ماذا؟

عندها، تلعثمت وهي تقول: «أوه... يا إلهي!!! أفعلاً اتخذت قرارك؟».

فضحك مرة أخرى وقال: «قد نحتاج للسيدة رونسون لتفسر لنا بعض المفردات التي تستخدمينها. ولكن، أجل، لقد أصبحت الوظيفة من نصيبك... تهانينا».

لو كانت مادلين أكثر جرأة مما هي عليه لكانت قد ركضت إلى خلف المكتب وقبّلت وجنته، ولكنها لم تفعل، بل جمدت واقفة في مكانها، ولم تستطع أن تخفي آثار الابتسامة على وجهها، ثم

سألته:

«ومتى سأباشر عملي؟».

رد عليها: «ما رأيك بيوم الاثنين؟ حيث يتعين عليك أن تقومي بإبلاغنا عند الساعة الثامنة والنصف، لنحدد لك مهامك بعدها».

غادرت مادلين المكتب وهي تطير فوق السحاب؛ فقد نجحت في المقابلة، وحصلت على الوظيفة، وأمّنت أمر العمل دون الحاجة إلى مساعدة من أحد. وقد تمكنت بمفردها وبجهدها وحدها أن تترك انطباعاً حسناً عند شخصين رغبا بتوظيفها، وها قد حصلت على الوظيفة.

كان أول وجه رأته في نهاية الممر هو وجه السيدة رونسون التي ظنت مادلين أنها تكبرها بعامين فقط على أبعد تقدير، لكنها كانت قد تشربت روح الكفاءة والاحترافية. كانت تلك السيدة قد سرحت شعرها بشدة للخلف، وجعلت منه كعكة قاسية، إلاّ أن ابتسامتها الودود كانت على نقيض شكلها تماماً.

وهناك سألتها السيدة رونسون: «حسناً؟».

إلا أن نظرة قلقة كانت قد ارتسمت على وجه مادلين، أما يداها فقد تشبثتا بثوبها المنقط الجميل.

لكنها قالت لها ويداها ترتجفان من شدة الحماسة: «سأكون هنا صباح الاثنين!».

فقابلتها السيدة رونسون بابتسامة واسعة كابتسامتها هي، وقالت لها:

«حسناً، إذاً من الأفضل أن تبدئي بمناداتي لورين، إن كنا سنعمل معاً كل يوم».

فردت عليها مادلين بالقول: «مادلين... بوسعك أن تناديني مادلين».

وبعدها تصافحتا، وشدت كل منهما على يد الأخرى بلطف خلال المصافحة.

ثم قالت لها لورين: «لقد انتظرت طويلاً حتى جاءنا شخص مثلك ليعمل هنا».

فابتسمت مادلين ابتسامة واسعة شعرت بعدها بألم في وجنتيها؛ إذ لم يكن لديها أحد في تلك البلاد سوى روي وأهله، وكانت لورين أشبه بنسمة هواء منعشة. كما أنها لم تكن تطيق صبراً إلى أن ترتبط بعمل مناسب، حيث يمكن لعملها أن يقدر. وهنا، شعرت مادلين أن وقتاً طويلاً قد مضى عليها منذ أن ابتسمت من فرط السعادة. كانت تعرف أن عليها أن تحاول الاتصال بالفتيات اللواتي تعرفت عليهن في السفينة، ولكنها لم تتمكن من القيام بذلك لأنها لم تتحمل فكرة الاعتراف بمدى التعاسة التي كانت تعيشها، أو التظاهر بأن كل شيء على ما يرام في الوقت الذي تبدو فيه السعادة على وجوه الأخريات.

والآن، لم تعد لديها سوى خمسة أيام لتنتقل إلى المدينة كي تتمكن من مباشرة عملها يوم الاثنين، ثم إن زوجها لم يحصل على وظيفة بعد. وكانت أيضاً تعرف أن زوجها لن يستقبل هذه الأخبار كما تحب وتشتهي، ولن يتفوه إلا بالقليل، إلاّ أنه كان يتوجب عليها أن تتابع خطتها لتهرب من الحياة في المزرعة.

***

«لا يهمني يا روي، فلقد حصلت على الوظيفة».

لم تكن قد رأته يستشيط غضباً مثلما رأته يومها.

صرخ بها: «كان عليك أن تسأليني أولاَ». ثم ضرب بقبضته الجدار من شدة الإحباط والفشل.

إلا أن مادلين لم تكن لتتراجع عما عزمت القيام به، وخاصة في ذلك الحين؛ إذ كانت بحاجة للخروج من ذلك البيت ولكسب بعض المال الخاص بها، كما كانت بحاجة للقيام بكل ما بوسعها القيام به لتحسن من وضعها قبل أن تتأكد من أمر الطفل.

لكنها كانت تعرف الحقيقة في أعماقها، إذ تأخرت دورتها الشهرية مرتين، وبدأت تحس بالغثيان في الصباح، إلاّ أنها لم تكن لتركز على ذلك الموضوع في ذلك الحين. فكل ما ترغب بالقيام به الآن هو الانتقال من هذا المكان ورسم حياة خاصة بها وبزوجها. ثم إن ذلك كان كل ما بوسعها أن تقوم به، لأنها إن لم تفلح في ذلك، فلن يعود أمامها أي خيار آخر.

صاح بها: «لا يمكنني أن أفعل ذلك بأسرتي يا مادلين، ألديك علم بذلك؟».

فردت عليه: «أن تفعل ماذا يا روي؟ أن تقف في وجههم؟ أن تكون رجلاً؟». فأخذ يحدق فيها، لكنّ ذلك لم يثنيها عن مواصلة كلامها، ولم يمنعها من التصريح بما كانت تفكر به حياله، فقالت له: «إنني أشمئز منك».

خرجت الجملة الأخيرة من فمها همساً، إلاّ أنها لم تتمكن من التعرف على صوتها تماماً حينها، وذلك لأن ما نطقت به كان في غاية الفظاظة.

لكنها تابعت بالقول: «لقد أمضيت ما يكفي من الوقت هنا، أتسمعني؟ لقد طفح الكيل. والآن، أمامك خياران: إما أن تأتي معي خلال عطلة نهاية الأسبوع هذه لترى البيوت التي استفسرت عنها، أو أن تتركني لأذهب بمفردي».

كانت مادلين متأكدة من أن عائلة زوجها بأكملها تتنصت عليهما عند الطرف الآخر من الباب. فهذا المكان يفتقر إلى الخصوصية، إلاّ أنها لم تعد تكترث بكل ذلك. وبالرغم من أن الكره يمكن أن يكون قد تسلل إلى قلبها تجاه زوجها، إلاّ أنها كانت مستعدة لمحاولة دفعه للانتقال بالترهيب. وحينما يخلو الجو لهما ويصبحان بمفردهما، فعندها قد تتحسن الأمور.

وهنا واجهها بالقول: «وما الذي سأفعله أنا؟ ها؟ ما العمل الذي سأجده في المدينة؟».

فردت عليه: «إن أجري سيكفينا لفترة قصيرة، وبعدها لا بد أن تجد أي عمل. أو يمكنك أن تذهب يومياً لتزاول عملك في المزرعة ثم تعود منها».

وهنا، أخذ كل منهما يحدق بالآخر بنظرات شرسة وهائجة، إلاّ أن الفرق الوحيد بينهما كان يتمثل في أن مادلين كانت قد اتخذت قرارها ولم تُبدِ أي نية بالتراجع عنه.

وأخيراً، سألها روي بصوت أكثر هدوءاً من ذي قبل: «أقلت لي إن لديك مواعيد؟».

فاكتشفت مادلين من كتفيه المنحنيتين وزمه لفمه بأنها قد انتصرت في معركتها الأولى، ولهذا ردت عليه بالقول:

«أجل، صباح السبت».

فسألها: «ألن تعيدي النظر بالعرض المتمثل بتلك الوظيفة؟».

ردت عليه: «إنه ليس عرضاً يا روي، فأنا قد قبلت الوظيفة، ثم إنهم سيدفعون لي أجري كل أسبوعين، وسأباشر عملي الأسبوع القادم».

وهنا استدار ليغادر الغرفة، فلم تبارح مكانها.

لم يكن يهمها ما سمعته حال خروجه، كما لم تكترث بكل الهياج الذي أبدته أسرته، بل تركته ليتصرف مع الأمر بمفرده.

كانت تشعر بالشفقة عليه في بعض الأحيان. أجل، في بعض الأحيان؛ إذ كانت تعرف أنه واقع بين مطرقة الضغوطات التي تمارسها عليه أسرته واستغلالهم له، وسندان ما كانت تريده زوجته. لكنه هو من اختار أن يأتي بها إلى هذا المكان؛ فقد كذب عليها في ما يتعلق بوضع حياتهما في أمريكا، ورفض أن يقف إلى صفها، وأن يحميها، وأن يحبها كما سبق له أن وعدها.

ولعله قد تزوجها لأنه كان قد أحبها حينها، أو أعجب بها على أقل تقدير، أو لعله ظن أنه سيموت في الحرب، وأن الأمور لن تصل بهما إلى هذا الحد. ولعل ذلك هو السبب الذي دفعه للادعاء بأن حياته في أمريكا كانت لا تشبه في شيء ما هي عليه في الواقع، أو لعل الأمور قد تغيرت خلال الحرب.

ولكن، مهما اختلفت أسبابه وتنوعت، كانت مادلين تستحق الأفضل، ولهذا لم تكن لتتراجع عن قرارها.

وضعت مادلين يدها على بطنها وأخذت تفرك بنعومة. فإذا كانت حاملاً، عندها سـتأمل أن يكون لديها بيت حقيقي من أجل طفلها، وأن يتوفر لديها ما يكفي من المال لشراء سرير للطفل، وثياب جميلة له، مع مجموعة من الألعاب.

لم تكن تريد أكثر من ذلك، لكنها كانت تريد أن تحس بالراحة.

إلا أن ما كانت تريده أكثر من كل شيء آخر هو أن تعود لبلادها.

***

كانت مادلين تتضور جوعاً، إذ سهرت في غرفتها طيلة الليل؛ باستثناء تلك المرات التي تسللت فيها في وقت متأخر من الليل وخرجت إلى المرحاض. إلاّ أنها لم تستطع أن تخفي أمرها أكثر من ذلك.

سمعتهم وهم يتناولون طعام الفطور، وأخذت تصغي إلى أصوات رنين الأطباق، وسمعت الباب الخلفي وهو يغلق عدة مرات.

وبدا لها البيت هادئاً بعد كل ذلك.

لكنها لم تكن تعرف كيف ستتحمل الوضع لأربعة أيام أخرى، إلاّ أن كل ما كانت تريده في ذلك الحين هو بعض الخبز لتملأ به معدتها الخاوية.

كان الخطر قد زال، لذا خرجت على رؤوس أصابعها واتجهت نحو المطبخ، ثم نظرت نظرة فاحصة على كل ما فيه وعلى النافذة الكبيرة، وبعدها بدأت تسترخي.

ثم أمسكت بسكين الزبدة ورغيف، ولكنها سمعت عند ذلك صوتاً فوق لوح الأرضية الخشبي خلفها، فشعرت بأن قلبها قد قفز من مكانه ووصل إلى حلقها، وخاصة حينما سمعت صوتاً يقول:

«أيتها السافلة الصغيرة الجبانة».

كانت تلك الكلمات تنم عن الشر والعدوانية.

وحال سماعها لذلك، شعرت مادلين بالزغب الناعم الذي كان على مؤخر رقبتها ينتصب، لكنها تابعت دهن الخبز بالزبدة.

فصاحت بها كارولين: «ألم تسمعي ما قلته لك؟».

ثم تابعت شقيقة روي المنحرفة والشريرة كلامها، وأصبح صوتها أعلى وهي تقول:

«كيف تجرأت على المجيء إلى هنا لتدمير عائلتي؟! إنني أشعر بالقرف منك! لأنك تغيرين الرجل على من هم من لحمه ودمه».

عند ذلك، وضعت مادلين السكين جانباً، ولم يكن أمامها سوى أن تعض لسانها وتقول لها:

«لا أريد أن أتحاور معك يا كارولين لأنني لم أفعل شيئاً كهذا. وأعتقد أنه عليك أن تعتذري لي».

عندها، لمعت عينا كارولين وصاحت:

«لا تستخدمي كلماتك المتعالية معي يا آنسة؛ لأننا نعرف أنك تريدين أن تسممي أفكاره ضدنا، لكنك لن تتمكني من ذلك، لأنك لست أكثر من حيوان كريه الرائحة، أيتها السافلة الإنكليزية القذرة».

إلا أن كلامها كان كافياً ليجعل الدم يغلي في عروق مادلين، حيث بلغت تلك الحرارة المحرقة صدرها، ثم اندفعت إلى رقبتها، فصاحت بها:

«لو حاولتم بأقل جهد، مجرد محاولة، أن تتقبلوني ضمن هذه العائلة، لما وصلنا إلى هنا. فقد أتيت إلى هنا وأنا أتوقع منكم المحبة، وأتوقع أن أجد عائلة أشعر معها وكأنني ضمن عائلتي، ولكن انظري أين انتهى بنا الأمر». وهنا أخذت تحدق بشقيقة زوجها بكل قرف، إذ كانت قد احتفظت بكل ذلك الكلام لنفسها طيلة فترة طويلة، غير أن الغضب الذي أحست به وقتها جعلها قوية، فتابعت كلامها قائلة: «إنك مجرد عانس شريرة مع أمها المقرفة. وكلتاكما عاملتماني معاملة الجارية».

ولوهلة، ظنت مادلين أنها ستتلقى لطمة أو خدشة من قبل تلك المرأة الغاضبة، إلاّ أن كارولين أخذت تحملق بها عوضاً عن ذلك، ثم سارت مبتعدة عنها، ولكن صمتها كان من ذلك النوع الذي تقشعر له الأبدان.

عندها، رأت مادلين روي يقف في الممر الذي يؤدي للخارج، وقد بدت عليه الدهشة، لكنه لم ينبس بكلمة.

ولكن، بما أن مادلين كانت في أوج انتصارها، لذا لم تكن لتسمح له بأن يدافع عن أسرته، وخاصة بعد ما جرى.

فالتفتت لتصب جام غضبها عليه بدلاً من شقيقته، لأنها لم تعد قادرة على تهدئة نفسها، فقالت له:

«هذا صحيح يا روي، كل كلمة مما قالته شقيقتك صحيحة. فأنت من رسم هذه اللوحة الجميلة للأجواء التي نعيشها هنا، والآن أدركتُ سبب رفضك أن تجيبني عن أسئلتي حينما كنت أسألك عن بيتك وعائلتك. إذ انتظرت فترة طويلة إلى أن تمكنت من تلفيق القصة التي اعتقدت أنني أرغب بسماعها».

عندها، نكس روي رأسه، فتمنت أن يكون إحساسه بالخجل والخزي قد تمكن منه في نهاية المطاف، وأن يدرك ما الذي فعله بها أخيراً، وكيف خطفها من عائلتها، وسرق كل شيء منها بكذبة.

وهنا تابعت كلامها: «لقد أحببتك يا روي، وتزوجتك لأنني ظننت أنك تحبني أيضاً، وأنك ستكون بجانبي وستدعمني، ولأنني اعتقدت أن عائلتك ستحبني وكأنني فردّ فيها».

وعندها هتف روي: «أنا آسف». حيث قال ذلك بهدوء وحزم، ممّا فاجأ مادلين.

فلأول مرة منذ وصولها بدا لها صوته كصوت الرجل الذي التقته في لندن، ولكنها أجابته:

«لا بد أن تشعر بالأسف». لأنها لم تكن لتحرره من التزاماته بتلك البساطة؛ إذ كان عليه أن يعتذر منها منذ أسابيع طويلة، وربما كان عليها أن تجبره على رؤية الأمور كما رأتها في ما بعد. فقد كان عليه أن ينتبه أكثر، وكان عليه أن يلاحظ مدى تعاستها؛ لذا لم يكن يهمها مدى صدقه في اعتذاره، بقدر ما كانت تشعر أنه لا يستحق الغفران. إذ لم يكن الوقت المناسب لمسامحته قد حان، فتابعت مخاطبة إياه بالقول: «لقد اختطفتني من أهلي، وتظاهرت بما هو ليس فيك، لذا لن أسامحك على فعلتك هذه ما حييت يا روي، بل ليس قبل أن تقوم بإصلاح ما أفسدته، وبأسرع وقت». إذ إن الذنب ليس ذنبها إن لم تكن عائلته ترغب بزوجة أجنبية في بيتها؛ وبكل وضوح وصراحة. ثم إنه زوجها، ومن واجبه أن يعتني بها ويحميها.

بعد ذلك، وقفا وأخذ كل منهما يحدق بالآخر؛ وكأن هدنة غير مستقرة قد حصلت بينهما. إذ جعلتها النظرة التي لاحت على وجهه تحس بأنه كان مهتماً بالموضوع.

لم تعد مادلين ترغب بتناول طعام الفطور الذي أعدته؛ إذ كان الهدير الذي يدمدم في معدتها قد اختفى ليحل محله صوت جلجلة عميقة ثم خواء. كانت تحس بأن جسدها كله قد بدأ ينبض بفعل الأدرينالين الناتج عن تلك المشاحنات والشجار.

ولكن، كان عليها أن تأكل، وأن تحافظ على قوتها، ولهذا قامت بدهن المربى فوق قطعة خبز محمصة بيد مرتجفة، ثم استدارت لتعود إلى غرفة نومها، فسمعت أحدهم يناديها:

«مادلين؟».

فنظرت بطرف عينها، ورأت روي في المطبخ وقد طوى قبعته بين يديه.

ردت عليه: «ماذا؟».

فقال لها: «سأجد عملاً في المدينة».

عندها، هزت برأسها موافقة، وأحست بأن ذلك كان بمثابة انتصار لها. لكنها كانت تعلم أن أمامهما طريقاً طويلاً عليهما أن يمضيا فيه قبل أن تشعر مجدداً بأي مشاعر عميقة من الاحترام والاهتمام تجاهه. كما أنها لم تكن متأكدة إن كانت قد ضغطت عليه بما فيه الكفاية حتى استسلم لها في ذلك الحين، أو أنه أدرك وجهة نظرها فعلاً في نهاية الأمر.

ولهذا، سارت مبتعدة عنه؛ إذ لم تعد هنالك أية كلمة يمكن أن تقال، بل حان وقت الفعل والعمل.

ولعل أمامهما فرصة، ولعل أمورهما ستتحسن إن انتقلا من هذا البيت.

هذا ما كانت مادلين تأمله.

وذلك لأن إحساسها بالحزن والوحدة والشقاء لم يكن ضمن خطتها التي وضعتها حينما وافقت على المجيء إلى هذه البلاد.

وهنا أخذت تتذكر كلماته:

أنا آسف...

حسناً، لقد كانت هي أيضاً تشعر بالأسف.

**لأنها فكرت في يوم من الأيام بأنها ستحظى بالسعادة في بلد آخر بعيداً عن عائلتها، ولأنها أتت إلى هذه البلاد من الأساس.**

# الفصل الرابع عشر

كان السرير ناعماً وفخماً، ولكن البيت كان يسوده الصمت المطبق؛ باستثناء تلك الخربشة الغريبة التي أخذ طائر يحدثها فوق السطح. أما ويليام فلم يصدر عنه أي صوت منذ فترة ما قبل منتصف الليل، ومع ذلك لم تتمكن بيتي من الاستسلام للنوم.

كانت كلما أغمضت عينيها ترى شارلي أمامها، كما كان إبقاؤهما مفتوحتين يدفعها للتفكير بشارلي أيضاً! بل كان كل شيء في المكان الذي كانت متواجدة فيه وفي البيت الذي كانت تقيم فيه وكذلك السبب الذي جعلها تتواجد في هذه البلاد يدفعها للتفكير فيه؛ فكل شيء يذكرها بشارلي. لقد مر شهران على وصولها مع ابنها، لكنها كانت تحس بأنها لم تكتشف أمر رحيل شارلي سوى البارحة.

كان لديها الكثير من الأسئلة؛ إذ كانت تريد أن تعرف كيف مات، وسبب موته. وهل بوسعها أن تبقى في هذا البيت لفترة طويلة؟ وهل كان شارلي يريد منها أن تقيم في هذا البيت وأن تعيش مع أسرته؟ إلى جانب الكثير من الأمور التي لم تعرف عنها شيئاً، والكثير من الأسئلة التي كانت تخشى أن تطرحها لئلا تسمع إجابات تزعجها، وكلمات كانت ترفض أن تسمعها من أي شخص كان. لكنها الآن أصبحت بحاجة لمعرفة كل ذلك؛ إذ لم يعد بإمكانها بعد مضي كل ذلك الوقت أن تبقى حبيسة فقاعتها الصغيرة من أحلام اليقظة، وأن تتظاهر بطريقة ما بأن شارلي لا بد أن يعود. لم يعد بوسعها أن تهرب من الحقيقة أكثر من ذلك؛ مهما كانت تلك الحقيقة مدمرة ومريرة.

حينما فقدت بيتي والديها اعتقدت أن ذلك أسوأ شيء يمكن للمرء أن يتخيله. ولكن الآن... كان عليها أن تنظر إلى ويليام لتكتشف كل ما فقده كلاهما. لكنّ ما كان يفلق كبدها هو أن ابنها سيكبر دون أن يعرف من كان أبوه.

نهضت بيتي ثم سارت بتثاقل نحو غرفة الأطفال المجاورة، وأخذت تراقب ويليام وهو نائم تحت الضوء الخافت. كان فمه الصغير متدلياً، أما رأسه فقد كان مائلاً قليلاً نحو أحد جانبيه، فبدا لها صغيراً للغاية، وضعيفاً للغاية، ولهذا قاومت رغبتها في حمله من مكانه.

أصبح ويليام كل من لديها في ذلك الوقت، والسبب الوحيد لحياتها، ولبقائها في هذا البيت. فهل كان لوكا سيرحب بها في بيته لو لم يولد ويليام؟ غير أنها لم تكن تريد أن تفكر في هذا الموضوع.

خرجت على رؤوس أصابعها من غرفة نوم الطفل، ولفّت نفسها بشال. كان البيت دافئاً نوعاً ما حينما خرجت إلى القاعة، إلاّ أنها أحست بإحساس كريه لأنها أخذت تتسلل داخل المنزل، لكنها لم تستطع أن تبقى مستلقية في سريرها دون نوم أكثر من ذلك، بل كان عليها أن تفعل شيئاً ما، وأن تشرب شيئاً دافئاً ليريح أعصابها ويعمل على تهدئتها وإبعاد تلك الأفكار التي كانت تعصف برأسها.

كانت لا تزال ذكرى الشاي بالبابونج الذي كانت أمها تعده تراودها، وخاصة رائحته العطرية التي تفوح حينما يوضع في إبريق فوق الطاولة، حيث كانت تراقب والدتها بعد ذلك وهي ترتشف منه برقة وعذوبة، ثم تقوم هي بتناول أول رشفة منه فتشعر بفعاليته وكيف يجعلها ترتاح مع كل رشفة تتناولها من فنجان الشاي. إلاّ أن ذلك كان في قديم الزمان، ولكن تواجدها في هذا المكان جعلها تستعيد الكثير من الذكريات المرتبطة بأمها التي كانت تشتاق إليها كثيراً.

وفجأة، سمعت بيتي صوتاً يقول لها: «هل أنت بخير يا عزيزتي؟».

فوضعت بيتي يدها بسرعة على صدرها ثم هتفت: «إيفي!».

فما كان من تلك المرأة سوى أن ابتسمت لها، إذ كانت تقف عند أسفل الدرج، أما شعرها الأشيب فقد كان يبدو في الظلام كهالة منسدلة من نور، وكذلك بشرتها الشاحبة تحت الضوء الخافت.

همست بيتي: «لقد أخفتني حتى كدت أموت؛ إذ لم أتوقع أن يكون أحد مستيقظاً».

فابتسمت إيفي وفركت عينيها ثم قالت: «إن نومي خفيف، ولطالما كنت كذلك، ولهذا سمعتك».

ردت بيتي: «أوه، آسفة، فقد كنت....»

قالت إيفي: «لا شيء يستحق الاعتذار، فأنا لم أنم جيداً أيضاً. لذا، ما رأيك بشراب ساخن؟».

هزت بيتي برأسها ولحقت بإيفي.

سألتها إيفي: «شوكولا أم قهوة؟».

حاولت بيتي أن تبذل أقصى ما بوسعها كي تبتسم، وذلك لأنها أصبحت في أمريكا بلاد القهوة وليس الشاي.

سارتا نحو المطبخ، وهناك أشعلت إيفي الضوء، فقالت لها بيتي:

«بما أنني هنا فسأعلمك كيف تعدين فنجاناً طيباً من الشاي».

عندها، أخذت إيفي تقلدها بمط حروفها وهي تقول: «فنجان من الشاااي». وهكذا، انسدل شعرها الطويل على إحدى كتفيها حينما بدأت تضحك، ثم ملأت الإبريق ووضعته على النار ليغلي.

ضحكت بيتي على ذلك أيضاً، إذ لم تستطع منع نفسها من الضحك حينها.

وهنا قالت لها إيفي: «لقد كتب لي حبيبنا شارلي، وأخبرني أنه عليّ أن أتعلم كيف أعد فنجاناً من الشاي، كما كان يسميه، وذلك كي أكسبك إلى صفي».

وبمجرد ذكر اسم شارلي، أحست بيتي بحالة التجهم وهي تسحب شفتيها نحو الأسفل، فحاولت أن ترفعهما مجدداً؛ إذ بقيت تفكر كثيراً طيلة الوقت الذي قضته في هذا المكان، إلاّ أن أحداً لم يستفد من ذلك بشيء، وخاصة هي. وهكذا، بدأت تحس بعدم قدرتها على الانسجام مع أي إنسان باستثناء ويليام خلال الأسابيع الماضية؛ ممّا جعلها تلزم غرفتها لتتجنب الاحتكاك بالآخرين. ثم إن لوكا نادراً ما كان يتواجد في البيت على أية حال. فمنذ العشاء الأول الذي تناولاه معاً كانا يتبادلان التحية بشكل عابر؛ فقط إن صادف أن مرّ أحدهما بالآخر. أما إيفي فكانت مقربة منها؛ حيث أخذت تساعدها بالأمور العملية. غير أنّ بيتي كانت تنكفئ على ذاتها إن تغيّر مجرى الحديث واتجه نحو أمور عاطفية، ولا سيما إن كان يمت لشارلي بصلة. ولكن، حان الوقت للقيام بمحاولة لتغيير ذلك السلوك.

وهذا ما دفع بيتي للقول ولكن بمشقة: «كان شارلي يحب أن يتناول الشاي المحلى بالسكر. أو ربما أحسن صنعاً حينما تظاهر بأنه يحب ذلك حينما كنت أعدّ له فنجاناً محلى بالسكر».

عندها، وضعت إيفي الفنجانين على الطاولة.

ثم ردت عليها بالقول: «لقد عرفت من رسائله التي كتبها لنا أنه كان يحب كل ما فيك، وكل ما يتعلق بك يا عزيزتي». وبعدها، أخذت تحرك الحبيبات السوداء في الإناء الذي كان شكله بديعاً، ثم

تابعت تقول: «والآن، سأعد لك قهوة كتلك التي كان سيعدها هو لك لو كان بيننا؛ إذ كان يحبها كثيفة ومحلاة بالسكر والكريمة».

عندها، ابتلعت بيتي دموعها وجلست إلى المائدة، وشعرت بالتحسن لكونها بصحبة إيفي. إذ قد تكون بداية تعارفهما سيئة، وذلك حينما نقلت إيفي لها خبر وفاة زوجها، إلاّ أنها أثبتت لها أنها امرأة لطيفة وحنون، وأنه بإمكان بيتي أن تثق بها وتستودعها أسرارها. إذ بقيت بجانبها، وأخذت تساعدها في العناية بويليام منذ اليوم الأول. ولكنها لم تدرك كم كان من الصعب عليها أن تتأقلم على الأجواء بمفردها دون وقوف إيفي بجانبها إلا بعدما تجاوزت مرحلة الحزن الشديد.

وهنا أخذت بيتي نفساً عميقاً وقالت: «أريد أن أعرف يا إيفي كيف، حسناً...» لكن، كان عليها أن تتحلى بالشجاعة، وهذا ما جعلها تستسلم في نهاية الأمر وتصغي لحديث إيفي، ولهذا قالت لها: «إيفي، لقد أصبحت مستعدة لأسمع منك كيف توفي شارلي».

أخذت بيتي تراقب إيفي وهي تصب القهوة وتحرك السكر بالملعقة، ثم أضافت لها الكريمة؛ إذ كانت تتصرف وكأن طلب بيتي الأخير لم يكن على هذا القدر من الأهمية. لكن بيتي كانت متأكدة من أن هدوء الأخيرة كان لصالحها.

وأخيراً، صرحت إيفي بالقول: «من كل ما جمعته من تفاصيل، لأنني لن أذكر لك سوى التفاصيل التي تأكدت منها، عرفت أنه قد طلِب من شارلي أن يسافر بالطائرة للقاء مجموعة من رفاقه بالقرب من المكان الذي فرز فيه ليتمركز هناك».

وهنا أحاطت يدا بيتي بالفنجان الكبير الذي قدمته إيفي لها، وذلك لتخفي ارتجافهما.

تابعت إيفي قائلة: «وكما ترين، كان لوكا دوماً الأنجح بينهما في ما يتعلق بالمسائل المالية، إذ أخبره شارلي بأنه يود أن يدخر ما يكفي من المال ليستثمره في بناء بيت، وقال إنه يريد أن يجعلك فخورة به، وأن يكون لك بيت خاص بك وبابنك».

ارتشفت بيتي من قهوتها. وبالرغم من حلاوتها، بدا لها طعمها مكثفاً وغير مألوف، وتأكدت أنه لا يمكن مقارنة هذا الشراب بالمشروبات المهدئة التي تشتمل على الشاي والتي اعتادت تناولها.

وهنا ارتعش صوتها إلى حد الضعف وهي تسأل: «وهل حدث أي مكروه له أثناء ذلك؟». إلاّ أن إيفي تابعت حديثها بكل هدوء:

«كان لديه عقد عمل لمدة شهر، فأخبرنا بأن ذلك سيساعده على ادخار بعض المال، والعودة إلى البلاد قبل أن يحين موعد وصولك؛ هذا إن سمحوا لك بركوب السفينة وأنت حامل، وهذا ما حدث».

فهزت بيتي برأسها موافقة، لأن ذلك كل ما كان بوسعها القيام به، وخاصة بعدما أحست أنها لم تعد تتمالك صوتها، وأنها لن تثق به مرة أخرى، لكنها كانت بحاجة لسماع كل ذلك.

أكملت إيفي: «كان قد بقي لديه أسبوع في عمله، وبدا أنه يعاني من بعض التعقيدات. وقد أخبرونا أنهم يعتقدون أن المحرك قد أصيب بعطل ما، وهكذا سقطت الطائرة التي كان يستقلها».

فهتفت بيتي بعدما أصبحت فاقدة للإحساس وخاوية من المشاعر في داخلها: «أين؟». إذ كانت على علم بأن لدى شارلي مهمة تستدعي منه أن يسافر بالطائرة، حيث أخبرها بذلك في رسالته الأخيرة التي وصلتها قبل أن تكتشف موعد إبحار السفينة. لكن لم يخطر ببالها أن تكون تلك المهمة خطرة لتلك الدرجة، لأنها لم تكن لتقارن بالسفر بالطائرة أثناء الحرب، والتي كانت عملية محفوفة بالمخاطر بالفعل.

ردت إيفي: «فوق المحيط. إذ لم يتمكنوا من الوصول إلى جثته، ولكن وصلهم نداء استغاثة، ثم وجدوا حطام الطائرة بعد فترة قصيرة».

وهنا ازدردت بيتي ريقها، وأخذت تهز رأسها أكثر، ثم أجبرت نفسها على تجرع القهوة الساخنة الحارقة، وبقيت كذلك إلى أن أمسكت إيفي بيدها. وعندها، سالت دموعها كأمواج لم يقدر أحد على الوقوف في وجهها. كانت تظن أن أسوأ ما لديها من شعور بالحزن قد انقضى، إلا أن وقع الخبر كان قاسياً عليها، بل أقسى من حالة التساؤل، لأنه أنهى كل شيء.

ولذلك هتفت بها إيفي: «إنني آسفة يا بيتي، آسفة حقاً. فقد عرفت هذين الشابين منذ أن كانا رضيعين يرتديان الحفاضات. ثم إن شارلي كان بمثابة ابن لي، ولا بد أنه كان سيصبح أباً عظيماً. إنني أعرف ما تقاسينه».

ردت عليها بيتي والكلمات تكاد تخنقها: «لقد كان زوجاً عظيماً، بل كان أفضل رجل التقيته في حياتي».

فقالت لها إيفي: «كل ما بوسعك أن تقومي به الآن هو أن تجعليه فخوراً بك يا عزيزتي».

ثم سحبت إيفي كرسيها باتجاه بيتي وأحاطتها بذراعها، فشعرت بيتي بالراحة والسكينة عندما أحست بثقل ذراعها، مما سهل عليها ذرف العبرات، فهتفت بها إيفي: «عليك أن تكوني أفضل أم يمكنك أن تتمثلي شخصيتها، وأن تحترمي ذكرى زوجك، وأن تستمتعي بالعيش في هذا البيت؛ فهذا كل ما كان يريده لك».

تساءلت بيتي: «أحقاً؟».

ردت إيفي: «لا أشك في أنه كان يحبك يا بيتي، وقد عرفت سبب حبه. أما الآن، فعليك أن تعودي إلى سريرك. لنرَ إن كان بوسعك أن تنعمي ببعض ساعات النوم قبل أن يبدأ السيد ويليام بصراخه المعهود».

تركت بيتي إيفي تقودها إلى غرفة نومها؛ لأنها كانت منهكة وقد استنزفت كل مشاعرها، لكنها على الأقل أصبحت تعرف السبب أخيراً.

لقد مات شارلي وهو يحلم بأن يكون أفضل أب وأفضل زوج. مات وهو يحاول إسعادها، مات دون أن يتغير؛ فبقي الشخص ذاته الذي وقعت بغرامه. ولعل الوقت قد حان لتحاول هي أن تعود تلك المرأة التي أغرم بها شارلي مرة أخرى.

حينما توفيت والدة بيتي، قال لها أبوها إنه خير للمرء أن يحب ويفقد، على ألا يعيش تجربة حب على الإطلاق. لكنها فقدت أباها بسبب المرض ذاته بعد مرور أسابيع على وفاة أمها، ثم جاء دور شارلي. وهكذا، أخذت تتذكر الأشخاص الذين أحبتهم ولم يعد بوسعها أن تراهم مرة أخرى. ولكن، كيف يمكن لقلبها أن يتحمل كل ذلك؟ كان ويليام الصغير هو حبل النجاة بالنسبة لها.

في ذلك الحين، لم تكن تحس بما قاله لها والدها يوماً، ولكنها متأكدة من أنها يوماً ما لا بد أن توافقه الرأي.

إلا أنها لم تكن لتمنع نفسها قط من أن تحلم بعودة شارلي إليها، مطلقاً!

***

أشرق الصباح بكل سطوع، إلاّ أن بيتي تأخرت في نومها أكثر مما كانت تتوقع، فأخذت تتمطى، ثم قامت من السرير بكسل ومشت نحو غرفة طفلها، فلم تجد ويليام هناك.

عندها ابتسمت، إذ تذكرت أن إيفي لا بد أن تكون قد هبت لنجدتها مرة أخرى، لأنها أوت إلى فراشها حينما كانت تشعر بالحزن وتبلد المشاعر، لكنها اسيقظت هذا الصباح وهي تشعر بالحيوية. وبالرغم من الألم الثقيل الذي كانت تحس به في أعماقها، إلاّ أنها بقيت تتوق للقاء حبيبها شارلي. ومع ذلك، أحست بالسعادة نوعاً ما لأنها لم تطلع على حقيقة الأمر حتى ذلك الحين؛ لأنها لم تكن قادرة على مواجهة تلك الحقيقة في ما مضى، ولكنها بعدما عرفت كل شيء بدأت تشعر بأن مرحلة تعافيها من الحزن لا بد أن تبدأ قريباً.

لبست بيتي ثيابها بسرعة، ثم مررت الفرشاة بين خصلات شعرها.

كانت بيتي قد سمعت صوت ويليام قبل أن تراه؛ إذ كان ينشج نشيجه المعهود القصير الذي كانت تعرفه جيداً لأنه كان جائعاً. وهكذا، تكرمت عليها إيفي وأخذته بعدما بحثت عنه، ثم بدأت تتمشى وهي تحمله ذهاباً وإياباً. إذ كانت قد وضعت ويليام على كتفها وأخذت تربت على ظهره بحزم.

وحينما رأتها قالت: «كنت أريد أن أتركك لتنامي، إلاّ أن هذا الفتى الصغير لم يقبل أن يشرب الحليب من الرضاعة!».

وهنا حملته بيتي، فأخذ يغرد بعدما رسم على ثغره الصغير ابتسامة لدى رؤيته لها.

فما كان من بيتي إلاّ أن قبّلت وجنته وقالت: «مرحباً يا صغيري! لقد اشتقت لك».

عندها، أمسكتها إيفي من أسفل ظهرها ودفعتها للأمام وقالت:

«تعالي وأرضعيه هنا وسأقوم أنا بإعداد فطورك».

ردت بيتي: «آسفة لأنني نمت طويلاً، إذ لم أدرك كم كنت متعبة».

قالت إيفي: «لقد تحملت الكثير في الليلة الماضية». ثم وضعت الإناء ليغلي على النار وبدأت تكسر البيض وتابعت بالقول: «لا بد أنك ستفتقدين للوكا هذا الصباح، ولكنك سترينه مساء».

إلا أن بيتي كانت مسرورة لأنها لم تكن تراه؛ إذ كانت الشهور التي مرت عليها منذ وصولها مشحونة بالتوتر والإحراج، ولهذا حاولت أن تبتعد عن طريقه قدر الإمكان لتتجنب أي حوار محرج معه. كما أنها لم تكن مستعدة لمرافقة أحد أو البقاء بصحبته، باستثناء صحبة إيفي. ولهذا، إن ما كان يشعرها بالارتياح هو أنه لم يكن يأتي إلى البيت خلال الأسابيع القليلة الماضية بسبب انشغاله في أعماله.

سألتها إيفي: «أتحبين البيض مخفوقاً أم بشكل دوائر؟».

فضحكت بيتي وقالت: «كنت سأقول لك مقلياً لو خيّرتني؛ إذ ما الذي تقصدينه بالدوائر هنا بحق الله؟».

عند ذلك، أخذ جسد إيفي يهتز بأكمله، حيث كان هدير ضحكتها يأتي من أعماق بطنها. وحينما التفتت، كانت عيناها تلتمعان بفعل الدمع، لكنها كبحت ضحكتها وقالت أخيراً:

«صدقيني، لو كان أي شخص يرغب في تناول البيض على الفطور فسيختار أن يكون البيض دوائر، وأنا واثقة من كلامي هذا».

وهنا، ثبّتت بيتي ويليام لتقوم بإرضاعه، وأخذت تستمتع بوجودها في مطبخ تلك السيدة، وتضحك وهي تنتظر طعام الفطور، ثم قالت: «إذاً، هذا هو البيض الدوائر». كانت هذه أول مرة تشعر فيها بالسعادة بحق منذ وصولها إلى هذه البلاد؛ وخاصة بعد افتقادها لذلك الشعور.

هتفت إيفي: «بيتي؟».

فرفعت بيتي بصرها، وقطعت مراقبتها لويليام وهو يرضع.

فتابعت إيفي: «إننا ننسجم مع بعضنا بشكل رائع. أعني أنا وأنت، بشكل رائع بالفعل».

عندها، أجبرت بيتي نفسها على رسم ابتسامة على ثغرها؛ إذ لم تكن تريد أن تسمح لنفسها بأن تتمرغ في وحل الشفقة على الذات أو الحزن بعد اليوم، وردّت على إيفي بالقول: «إنك محقة يا إيفي، إذ إننا كذلك».

فقالت لها بيتي: «إذاً، ما رأيك بأن نتوجّه إلى المدينة اليوم لنحضر لك بعض الثياب الجميلة؟ فكل ما تحتاجين إليه الآن هو شيء يبهجك ويدخل السعادة إلى قلبك، وعندها ستصبحين مستعدة لمواجهة العالم من جديد».

ردت بيتي: «تبدو فكرة جيدة بالنسبة لي». لكن، كان عليها أن تبذل جهداً أثناء نطقها تلك الكلمات؛ إذ لم يكن هناك أي سبيل آخر أمامها، كما أنهما بقيتا تخططان للخروج والتسوق منذ أول أسبوع لوصولها، ولهذا لم يكن بمقدورها أن تؤجل الموعد أكثر. كما أنها بقيت تتجول بثيابها القديمة منذ أشهر، فضلاً عن أنها خسرت الكثير من وزنها منذ وصولها.

وهنا جالت بخاطرها صورة وجه شارلي البسّام كحلم ضبابي أخذ يتلاشى بعيداً؛ إذ كانت تعرف أنه يريد لها السعادة ولا شيء سواها.

ولهذا قررت أن تحاول تجربة الحياة في أمريكا، لتجعله فخوراً بها.

ثم إن هذا كان الخيار الوحيد أمامها، إذ لم يكن باستطاعتها تحمل نفقات العودة إلى إنكلترا. وحتى لو كان بوسعها ذلك، فمن الشخص الذي يمكنها أن تلجأ إليه هناك؟

قالت مخاطبة إيفي: «لقد تعلمت الكثير من المفردات الأمريكية المضحكة أثناء رحلتي إلى هنا يا إيفي، لكنني أعتقد أنني بحاجة لبعض الدروس».

فردت إيفي وهي تضع طبقاً أمامها، ثم جلست وهي تحمل فنجان قهوتها: «ما رأيك بأن تبدئي بذكر المفردات التي تعرفت عليها؟ وعندها سأخبرك ما المضحك فيها».

وهنا، أعطت بيتي ويليام لإيفي حتى تتمكن من تناول طعامها، وقالت:

«حسناً، إن ما أعرفه هو أنكم تطلقون على ما نسميه مرحاضاً اسم جون، ولكن على مستوى غير رسمي».

فهزت إيفي رأسها موافقة، وأخذت آثار الضحك تتجلى في عينيها مرة أخرى.

تابعت بيتي: «لكنني لا أعتقد أنني سأعتاد على هذا الاسم؛ لأن اسم عمي كان جون، وهذه شتيمة كبيرة في حقه».

فبدأت المرأتان بالضحك من جديد، وانضم ويليام إليهما، حيث أخذ يصدر أصواتاً تعبر عن سعادته بكل ما أوتي من قوة.

وأخيراً، قالت بيتي: «لنعتمد تسمية مرحاض، وبعدها سننتقل إلى المفردة التي تليها».

***

لم تكن مدينة نيويورك تشبه كل ما تخيلته بيتي عنها؛ إذ ذكّرها صخبها وضجيجها بمدينة لندن، إلاّ أن هذه المدينة كانت مثيرة أكثر. كانت بعض النساء اللواتي مرت قربهن في غاية السحر

والجاذبية، ولكنهن كن أكثر هشاشة وطيشاً مما اعتادت أن تراه من النساء. غير أن واجهات المحالات كانت مدهشة، ولهذا حاولت أن تركز على تلك الأمور بدلاً من التفكير بمنظرها الذي كان تعيساً للغاية بملابسها الرثة مقارنة بالأخريات هناك.

وفجأة هتفت إيفي: «من هنا».

كانت بيتي تتابع إيفي بنظراتها. إذ كانت تحس أنها إن رمشت فلا بد أنه لن يعود باستطاعتها رؤية هذه المرأة ذات القوام القصير في هذا المكان الواسع. وهذا ما جعلها تحمل ويليام وتشده إلى صدرها بقوة.

وهناك ظهر أمامهما متجر جميل، كانت واجهاته تعرض ملابس أنيقة، كما كانت الفساتين قد وضعت بكل أناقة على تماثيل العرض، وتحتها وضعت الأحذية، إلى جانب القبعات التي تتبع أحدث صيحات الموضة والتي عُلّقت في مكان قريب.

سألت بيتي إيفي: «هل أنت متأكدة؟».

فما كان من إيفي إلاّ أن رمقتها ثم شدتها من مرفقها.

سمعت كلتاهما رنين الجرس فوق رأسيهما معلناً عن دخولهما المحل، فشعرت بيتي بأنها قد وقعت في الفخ؛ إذ كان ثوبها المهلهل والبالي يوحي بأنها أدنى منزلة من زبائن هذا المحل، وذلك لأنها بعدما فقدت أهلها، كان كل ما يشغل بالها هو التوفير والادخار والتقتير لتتمكن من شراء لوازم الطفل، ولتدفع ثمن تذكرة الرحيل. وهكذا، لم يعد لديها أي وقت أو مال فائض عن حاجتها لتصرفه على شكلها ومظهرها. ثم إن السلطات لم تسمح لهن سوى بعدد محدود من الأشياء ليحملنها معهن على ظهر السفينة.

وفجأة، ظهرت امرأة قد اعتنت بكامل أناقتها بشكل فاتن، فذكّرها منظر ساقيها اللتين زيّنهما جوربان طويلان وأنيقان، إلى جانب الحذاء الجلدي اللامع، ومسحة أحمر الشفاه بصديقتها أليس، أليس الحبيبة التي بقيت تضحكهن كل يوم طيلة رحلتهن. أجل، أليس التي أصبحت تعيش بلا ريب في حضن الرفاهية برفقة زوجها. وهنا، أخذت بيتي تفكر بأنها غرقت في حزنها خلال الشهور القليلة الماضية دون أن تتواصل مع الفتيات اللواتي لم يخطرن ببالها إلا بشكل عرضي؛ وذلك لأنها لم تستطع مواجهة الحقيقة. على أية حال، كان آخر شيء ترغب في أن تفعله هو أن تخبرهن كيف ساءت أحوالها، وما انتهت إليه أمورها، وكيف تحطمت سعادتها. كانت ستخبرهن بذلك يوماً ما، إلاّ أنها لم تكن مستعدة لذلك في هذا الحين، لأنها كانت تريد أن تدع كل واحدة منهنّ وشأنها لتستمتع بحياتها الشاعرية والرومانسية.

شعرت بيتي بالارتياح حينما لم تحدق البائعة كثيراً بثيابها الرثة، لكنّ ما أسعدها بالفعل هو أن تلك السيدة أخذت توجّه أسئلتها لإيفي، إذ لم تكن بيتي تعرف ما عليها قوله في هذا الموقف.

سألت البائعة: «كيف يمكنني أن أساعدكما؟».

فوقفت إيفي بكل اعتزاز. عندها، تمنت بيتي لو كان باستطاعتها أن تفعل مثلها، إلاّ أنه لم تكن لديها تلك الطاقة والقوة اللتان تساعدانها على القيام بذلك.

ردت إيفي: «نريد مجموعة من الفساتين الجديدة للسيدة أوليفر، وها هي ذي».

كانت بيتي متأكدة من أنها لاحظت البائعة وهي ترفع حاجبيها استغراباً. ولا شك بأن الثرثرة كانت ستبدأ حول الشخص الذي تزوجته، وسبب تواجدها في هذا المحل. ومجرد التفكير في هذا الأمر كاد أن يصيبها بالغثيان والقرف؛ إذ لعلها قد تجاوزت حدودها وقيمتها حينما توجهت إلى نيويورك بهذه السرعة، وذلك لأنها كانت لا تزال ضعيفة على المستوى العاطفي.

**سألت البائعة: «أهناك مناسبة معينة؟».**

**كان السؤال موجهاً لها هذه المرة، لكنها لم تعرف بماذا تجيب.**

**فتدخلت إيفي مرة أخرى وقالت: «لا نريد سوى مجموعة جميلة من الفساتين العصرية التي يمكن ارتداؤها كل يوم. ولنبدأ بهذا الطلب لو سمحت، هذا إلى جانب ما يناسب تلك الفساتين من أحذية».**

**ردت البائعة: «بالطبع. هيا معي من هنا».**

**شعرت بيتي بأنها جاهلة بكل ما يجري حولها تماماً، لكنها تبعت البائعة التي كانت تنقر بحذائها إلى المكان الذي أرشدتها إليه على أية حال؛ إذ كانت إيفي قد أوضحت لها الأمور قبل خروجهما من البيت، وطلبت منها ألا تقوم بأي شيء سوى أن تجرب الملابس، وعلى أساس ذلك سيتم اختيار بعض الثياب الجديدة.**

**سألتها البائعة: «أتحبين الألوان الفاتحة أم المحايدة؟».**

**عندها، لم تستطع بيتي أن تمنع نفسها من التفكير في أنه عليها أن ترتدي الأسود، الأسود المخصص للأرامل، لكنها لم تجرؤ على التصريح بذلك.**

**فردت: «أي لون تعتقدين أنه يناسبني سيفي بالغرض».**

**عندها، ابتسمت البائعة وقالت: «حسناً، لو أن الأمر يتعلق بي لاستفدت من جمال هاتين العينين الزرقاوين ولاخترت الألوان الفاتحة».**

**وهنا سحبتها إيفي من الخلف، ثم مدت يديها لتحمل ويليام.**

**إلا أن بيتي أعطتها إياه على مضض، ثم قبلت أن ترشدها البائعة لغرفة القياس، وهكذا لم يعد لديها أي مجال للتراجع.**

**خرجت بيتي وإيفي من المحل بأكياس ممتلئة حتى آخرها، إلاّ أن بيتي كانت تشعر بالتوتر أكثر من الإحراج، إذ لم يبدُ لها الوضع مناسباً حينما تصرفت وكأن شيئاً لم يحدث، وكأنه كان عليها أن تتواجد في ذلك المحل. هل سيظن الآخرون أنها زوجة لوكا أوليفر الجديدة؟ بالطبع لا، خاصة وأنها تحمل معها رضيعاً في قماط.**

**سألتها إيفي: «هل أنت بخير يا عزيزتي؟».**

**فتصنعت ابتسامة لتقابل بها إيفي وقالت: «إنني أفكر فقط».**

**سألتها إيفي: «أتفكرين بشارلي؟».**

**فهزت برأسها موافقة، إذ متى لم تكن تفكر به؟**

**عندها قالت لها إيفي: «كان سيرغب في أن تكوني سعيدة، وأن يعتني لوكا بك».**

**فسألت بيتي نفسها: أكان يريد لي ذلك؟ ثم خاطبتها قائلة: «كل ما هنالك أنني لم أرتح للأمر ولم أجده مناسباً. فهل يعقل مثلاً أن أتابع حياتي وأقوم بالتسوق وكأن شيئاً لم يكن، وكأنه سيعود يوماً ما، وكأن الأمور طبيعية كما يفترض أن تكون؟!!!».**

**عندها، أمسكتها إيفي من مرفقها وقادتها في الطريق الذي كان مزدحماً بالناس، وهذا ما لم تكن بيتي تحبه.**

ثم خاطبتها قائلة: «هيا، لنعد إلى البيت حتى تتمددي هناك، أو بإمكانك أن تتنزهي مع ويليام في الحدائق».

بدت لها فكرة التنزه مناسبة وأفضل من التجول في المدينة. وعندها، داهمها ذلك الإحساس المريع الذي كان يمنعها من التنفس، والذي سبق لها أن شعرت به حينما نقلت لها إيفي خبر وفاة زوجها؛ إذ كانت تحس بيد تمتد إلى حنجرتها وتعصرها رويداً وتمنع وصول الهواء إلى رئتيها.

استقلت كل من بيتي وإيفي السيارة، فأخذت بيتي تبتسم بامتنان للسائق الذي وضع الأكياس في الصندوق ثم أغلق الباب لها. وهكذا، بدأت أصوات المدينة تتلاشى، فأحست بيتي بالارتياح مع بداية الهدوء النسبي.

عند ذلك سألتها إيفي بكل لطف: «هل تتمنين العودة إلى بلادك؟».

فهزت بيتي رأسها نافية، ثم ركزت بصرها على ويليام، وعلى وجهه الصغير المستدير، ويديه المكورتين؛ إذ كان قد وضع إحداهما أمام فمه.

سألتها إيفي: «ألا تتمنين أن تعودي إلى عائلتك؟».

فالتفتت بيتي نحو إيفي وقالت: «ليست لدي عائلة يا إيفي، ولهذا كان عليّ أن أسافر إلى هنا. حيث لم أطق صبراً، وخاطرت بإنجابي لطفلي وأنا لوحدي؛ إذ كنت أرغب بالسفر منذ أن تجاوزت إقامتي في بيت صديقتي فترة حسن الضيافة والترحيب».

عند ذلك، اقتربت منها إيفي، وأحاطتها بذراعها ثم شدتها إليها وقالت:

«لدي ابنة في مثل عمرك، وأظن أنك ستحبينها، كما أن لديها صغاراً أيضاً».

أخذت بيتي تتنفس بصوت مسموع في محاولة منها لوضع حد للمرجل الذي كان يجيش في صدرها، وذلك حينما تدفقت العبرات من عينيها مجدداً.

تابعت إيفي بالقول: «كلما أحست ابنتي بالإحباط، أو إذا حدث أي مكروه فإننا نقوم بممارسة هواية الطهي معاً؛ حيث نخبز عجينة ما لنواجه العاصفة معاً، وهذا ما نفعله. هل سبق لك أن فعلت ذلك مع والدتك؟».

بدا لها الأمر رائعاً فردت: «أعتقد أن هذا ما أحتاج إليه بالضبط».

أجابت إيفي: «لطالما قلت إن عملية الخبز لا تشفي القلوب الكسيرة، لكنها بداية موفقة بكل تأكيد».

وهنا وضعت بيتي ويليام على صدرها، ودفعت برأسها ليستقر فوق سناد المقعد، وأخذت تفكر في ما كان بوسعها فعله لو لم تكن إيفي معها؟

ولهذا سألتها: «هل من اللائق أن أتواجد في المطبخ معك؟ لأن ذلك قد يثير مشكلة في إنكلترا».

فربتت إيفي على يدها وقالت: «إننا لا نثير الكثير من المشكلات هنا. ثم إن لوكا حينما كان صغيراً كان يقضي ساعات طويلة في المطبخ بصحبتي؛ إذ كنت أجده هو وشارلي واقفين عند قدمي أو على كرسي ليقدما لي يد العون، ولهذا لن يهتم لوكا بالأمر. يمكن أن تتضايق أمه من ذلك، أما هو فلا».

عندها، شعرت بيتي بالارتياح؛ إذ بقدر ما كانت بحاجة لمساندة إيفي لم تكن تريد أن تزعج لوكا أيضاً.

**ولهذا سألت بيتي إيفي: «هل تعتقدين أنه يحبني؟».**

**فردت بيتي: «من؟».**

**أغمضت بيتي عينيها، وركزت على حركة السيارة ثم قالت: «لوكا».**

**فأجابتها إيفي: «إن لوكا رجل طيب، وهو يحبك كثيراً، لكنك لم تريه كثيراً يا بيتي، لذا لا أتوقع أنه بات يعرفك تماماً».**

**هزت بيتي رأسها موافقة، إذ كانت إيفي محقة، ولهذا بدأت مخاوفها المعهودة تدور برأسها، وأخذت تسأل نفسها: إلى متى سيبقى لوكا يعيل زوجة أخيه وابنها؟ إذ كان الأمر يسير على ما يرام مع عدم وجود سيدة لذلك البيت، إلاّ أن بيتي لم تكن متأكدة من أن الأمور ستبقى على حالها إن حدث وأصبحت لذلك البيت سيدة.**

# الفصل الخامس عشر

أخذت الأمطار تنقر على السطح بلا انقطاع كما يفعل الطبال في الفرقة الموسيقية العسكرية، إلاّ أن مادلين لم تعبأ بذلك.

إذ كان من الممكن أن يهطل الثلج أو البرد أو أن تعصف الريح دون أن تكترث هي. فطالما أنها أصبحت هنا، في بيتها الخاص بها، وليست في بيت أهل زوجها، فستشعر حتماً بالسعادة.

كانت منهكة من العمل كل يوم، لكنها كانت تفضل أن تعمل إلى حد الإنهاك في مكان تُحترَم فيه جهودها وتُقدَّر على أن تبقى في المزرعة. فعلى الأقل، هنا يوجد أجر بانتظارها. وحالما يحصل روي على أول أجر له، عندها سيصبح لديها ما يكفي من مالها الخاص لتبدأ مرحلة الادخار: من أجل الطفل، ومن أجل أجرة البيت. إذ طالما أن لديها مالاً لوقت الأزمات يمكنها أن تعتمد عليه، لأي سبب كان، فكان لا بد لها أن تشعر بالأمان أكثر.

كان روي يكره العمل لدى محل البقالة، حيث يقوم بإفراغ الصناديق وما تحمله العربات، لكنها لم تكترث بذلك، ولم يكن يهمّها إن بقي لديهما بالكاد قرش ليصرفاه معاً طالما أن لديهما سريراً واحداً، وأريكة قديمة، وقفصاً خشبياً للخضار قلباه ليستخدماه كطاولة للقهوة، كما كان لديهما قدر واحدة فقط للطهي، وبعض الصحون والفناجين التي لا يشبه أحدها الآخر.

بل كان كل ما يهم مادلين هو أنهما ابتعدا عن المزرعة، وأنها لن تقوم حتى بزيارتها مرة أخرى إن لم تكن لديها رغبة بذلك.

كان روي متجهماً وعابساً وكالح الوجه في معظم الأحيان؛ وذلك بسبب أمر الانتقال إلى مسكن جديد، لكن الأمر كان يستحق كل ذلك. إذ لا بد أنه سيكتشف أهمية تلك الفكرة عما قريب. إلاّ أنها ظلت عاجزة عن فهم السبب الكامن وراء رغبته بالبقاء في تلك المزرعة؛ أكان ذلك لأنه كان يعتقد أن بوسعه أن يفعل شيئاً ما في ذلك المكان يوماً ما وذلك حينما تصبح ملكاً له؟ ولهذا حاولت مادلين أن تفتح هذا الموضوع معه، لكنه لم يكن يقبل بمناقشة ذلك الأمر؛ فكان كل ما توصلت إليه مادلين حول ذلك هو أن ذلك البيت كان بيته، وأنه كان يحب فكرة العمل في الأرض؛ بالرغم من أنها كانت تشك في أحيان كثيرة في أن السبب وراء ذلك يعود لمقدار الدلال والتراخي والكسل الذي كان ينعم به بين أهله هناك.

وهكذا، لم تستطع مادلين أن تتوصل لإجابات على تلك الأسئلة التي بقيت تدور بخلدها، إلاّ أنها بدأت تتلاشى أخيراً.

غير أن الشيء الوحيد الذي لم يكن ليتلاشى هو بطنها. فبالرغم من أنه ظل صغيراً، إلاّ أنه أصبح يتمتع بحافة مستديرة قليلاً تشير إلى انحناء يوحي بأن هذه المنطقة كانت مسطحة في السابق.

ولهذا، قررت أن تزور طبيباً خلال الشهر القادم. أما في هذه الفترة، فكل ما كانت تريده هو أن تستمتع بحصولها على بيت خاص بها، وعلى عمل خاص بها، وبأنها لم تعد تحس بذلك الكره الدفين تجاه زوجها على الإطلاق.

وفجأة، سمعت أحدهم يجرجر قدميه عند الباب، وقد كان روي.

فسألت نفسها: ما الذي أعاده إلى البيت باكراً؟ فقد كان هذا اليوم يوم عطلتها، وذلك مقابل الوقت الإضافي الذي أمضته بالنيابة عن لورين في بداية الأسبوع. إلاّ أنه يتعين على روي أن يبقى في عمله لساعات أخرى.

أخذت مادلين تصغي للضجة التي أحدثها زوجها وهو يهز مفاتيحه أثناء تواجده في الرواق، لكنها لم تذهب لتفتح له الباب، بل عادت إلى المطبخ ووضعت إناء فيه ماء على النار. إذ جرت العادة لدى أسرتها أنه حينما كان والدها يعود من العمل إلى البيت، يتعين عليها أو على شقيقتها أن تعد له مشروباً ساخناً، وعادة ما كانت كأساً صغيرة من الشاي تفي بالغرض وتساعده على الاسترخاء. غير أنها لم ترَ روي أو أحد أفراد أسرته يتناولون أي قطرة منه منذ وصولها.

وفجأة، سمعت صوتاً ينادي: «مادلين؟».

فالتفتت إلى مصدر الصوت الذي هتف باسمها، إذ لم يكن زوجها قد ناداها بهذه الطريقة منذ الفترة التي سبقت زواجهما.

نادى عليها مجدداً: «مادلين؟».

فردت: «إنني في الداخل».

وهنا ظهر زوجها، حاملاً باقة متواضعة من الأزهار بيده.

فقالت له: «أوه يا إلهي! أهذه الباقة من أجلي؟».

فابتسم روي لها، ثم وضع الباقة على المقعد الطويل وهو يقول:

«بكل تأكيد».

إلا أنها لم تكن تريد أن تثير موضوع التكلفة، وأنه ليس باستطاعتهما تحمل نفقات شيء كهذا؛ فقد أحضر الباقة وانتهى الأمر. إذاً، ما فائدة الشكوى بعد ذلك؟ ثم إنها لفتة لطيفة وغير معهودة منه.

ولهذا قالت له وهي تبتسم: «ليست لدينا زهريّة، لكن كأساً من الماء ستفي بالغرض». ثم استدارت لتأتي بالكأس الزجاجية الوحيدة التي لم تكسر بعد من الخزانة.

هتف قائلاً لها: «لقد حصلت على ترقية اليوم».

فاستدارت وأخذت تفكر: ترقية؟! مع أنه لم يمضِ عليه في عمله سوى أسبوعين.

سألته: «ترقية؟!».

فابتسم لها وهي تأخذ الأزهار وتضعها في الكأس، ثم قال:

«لقد أصيب مدير الإنتاج بنوبة قلبية هذا الصباح حينما كنا في العمل ونقل إلى المشفى، لكن من المستحيل أن يعود لمزاولة عمله، هل تصدقين ذلك؟».

كان الرجل كبيراً بالسن فعلاً، لذا لم تجد صعوبة في تصديق ذلك. إلاّ أن مسألة اختيارهم لروي وترقيتهم له بهذه السرعة كانت قصة مختلفة ولا تصدق بالنسبة لها، خاصة إن عُيِّن مديراً!!!

تابع روي القصة بالقول: «وهكذا طلبوا مني أن أشغل ذلك المنصب الشاغر، أأعجبك ذلك؟».

ردت مادلين: «أجل».

بعد ذلك، صبت مادلين فنجانين من القهوة لها ولزوجها وحملتهما إلى الصالة الصغيرة، وهناك سألته:

«وهل هذا يعني زيادة راتبك؟».

فردّ: «زيادة في المال مع بقاء ساعات العمل على حالها، ولكنه يعني زيادة في المسؤوليات أيضاً».

هتفت: «عظيم يا روي، إنني فخورة بك كثيراً». ثم ابتسمت له بكل أدب، وكأنها كانت تحادث زميلاً لها وليس زوجها الذي تشاركه السرير كل ليلة، وبعدها تابعت قائلة: «أشكرك على الأزهار».

وهنا قال لها: «كنت أفكر يا مادز». وأخذ ينظر إلى فنجان قهوته، ثم عاود النظر إليها، وتابع وكأنه كان يحس بالخجل وهو يقول: «حينما كنا في إنكلترا كانت أحلامي وآمالي كبيرة، وظننت أننا سنعيش بسعادة غامرة، ثم أدركت أنني لم أشترِ لك أزهاراً من قبل، فأي نوع من الأزواج أنا؟!».

عندها، تأثّرت مادلين بكلماته، وأحست بأن الأمور قد تغيّرت بينهما وعادت المياه لمجاريها، إلاّ أنها لم تكن هي التي تغيرت، بل هو من تظاهر وادعى وجود ما ليس فيه.

تابع قائلاً: «أنا آسف يا مادلين، فقد أردت أن تتزوجيني، وظننت أنني إن قلت لك الحقيقة المتعلقة بحياتي هنا، فلن توافقي على ذلك».

عند ذلك، أخفت مادلين انفعالاتها التي بدأت تخنقها في حنجرتها؛ لأن ذلك لم يكن ليغير من الموضوع شيئاً. لأنه لو فعل لكانت قد بقيت ليست فقط مهتمة به، بل أيضاً منجذبة إليه. لكنه كان على حق بطريقة ما؛ لأنها لم تكن لتتخلى عن أسرتها مقابل ذلك، وخاصة إن أخبرها أنها ستعيش في منزل أقيم ضمن مزرعة، وأن ذلك البيت لا يشتمل على مرحاض داخلي، وليست فيه سوى حجرة صغيرة مخصصة لهما، كما أنه لم تكن لديه أية نية للانتقال إلى بيت جديد، أو استئجار أي بيت في أي مكان آخر ليعيشا فيه معاً. كما أنها لم تكن ستوافق على الزواج منه لو أخبرها كم تمتعض أسرته من الزوجة الأجنبية، أو إن حدثها عن كمّ العمل الذي سيرهقون كاهلها به وكأنها جارية عندهم.

عندها سألها: «هل بوسعنا أن نحاول إصلاح ما فسد بيننا يا مادلين؟ حاولي، أرجوك!».

فابتسمت له أول ابتسامة حقيقية وصادقة كانت تتمنى أن تقابله بها منذ أن وصلت إلى هذه البلاد، وردت عليه بالقول:

«أتمنى ذلك يا روي. أجل، أتمنى ذلك».

فمنذ اليوم الذي حزمت فيه أمرها وتوصّلت فيه إلى خيارين لا ثالث لهما: إما الانتقال أو العودة إلى إنكلترا، كانت تصده ليلة بعد ليلة؛ بخلاف ما كانت عليه الأمور في بداية زواجهما، حين كان يحظى بكل ما يطالب به على أنه حقه. لكنها أصبحت الآن من يتحكم بذلك الأمر، ولعله قد حان الوقت لتكف عن مقاومته وصده عنها.

سألها: «ما رأيك بتناول وجبة في الخارج احتفالاً بهذه المناسبة؟».

فردت عليه بالسؤال: «وهل يمكننا أن نتحمل مصاريف ذلك؟». كانت مادلين تكره أن تكون مجرد عداد آلي للنقود، إلاّ أن المال كان الشيء الوحيد الذي لم يكن بوسعها أن تغض الطرف عنه في ذلك الحين.

أجابها: «فقط هذه المرة، وسأحصل على راتبي غداً».

ثم نهض وخطا خطوة مترددة، أعقبها بأخرى نحوها، إلاّ أنها كانت متوترة بعض الشيء.

وقف روي أمامها، ثم مد يديه وابتسم، إذ كان يدعوها للوقوف، ففعلت.

وهكذا وقفا، فكانا قريبين من بعضهما كثيراً. وهنا، أخذ كل منهما يحدق بالآخر. عندها، أحست مادلين بتلك الألفة تجاه زوجها والتي كانت تتمنى أن تشعر بها منذ وقت طويل.

في تلك اللحظة، انحنى ببطء إلى أن لامست شفتاه شفتيها، ولم يمضِ وقت طويل حتى ضغط بشفتيه ضغطة جعلتها تتأوه.

همس لها: «لا أريد أن نتشاجر طيلة الوقت يا مادلين».

وحينما أحاطها بذراعيه، تلاشت كل الذكريات السيئة، وانتفضت عنها لتختفي كلياً.

إلا أنها لم تستطع أن تتكتم على الموضوع أكثر من ذلك وتحتفظ بالسر لنفسها. إذ لو قدر لهما أن يصلحا ذات بينهما، وإن استطاعا بحق أن يعيدا علاقة الزواج التي تربط بينهما إلى مسارها الصحيح، إذاً لا بد لها من أن تكون صادقة معه، ولهذا قالت له:

«أعتقد أنني حامل يا روي».

وهكذا، أفشت مادلين ذلك السر، وسمحت للكلمات أن تسقط من فمها.

فتراجع خطوة للوراء، بينما ظلت ذراعاه تحيطان بها ولكن ليس بتلك القوة، ثم تقدم من جديد، وأخذ يرمش بعينيه بسرعة كبيرة، ليهتف أخيراً:

«حامل؟!».

ردت: «لست متأكدة من ذلك، لكن احتمال الحمل كبير».

فهتف وقد علت وجهه ابتسامة عريضة: «أصبح لدينا سبب أكثر أهمية للاحتفال. ما رأيك بتناول شرائح اللحم على العشاء؟».

فضحكت وضحكت وكأنها لم تفعل منذ فترة طويلة.

ثم ردت: «موافقة».

وهنا تركها فهرعت إلى غرفة نومهما لتبدل ثيابها، فتبعها روي وسألها:

«متى سنتأكد يقيناً من موضوع الحمل؟».

فهزت كتفيها وقالت: «حينما يتوفر لدينا من المال ما يكفي لنحدد موعداً عند الطبيب».

فابتسم لها، وبادلته الابتسامة.

إذ لعل هذا الجنين ما كان ينقصهما بالضبط ليصلحا علاقتهما.

وبما أنها أخبرت روي، كان عليها أن تكتب رسالة لتخبر عائلتها بذلك، والتي ستسر بهذا الخبر أيما سرور.

وأخيراً شعرت مادلين بأنها حامل بالفعل.

إلا أن كل ما كانت تريده في ذلك الحين هو أن تجد صديقاتها اللواتي تعرفت عليهن على ظهر السفينة، وعندها ستعود الحياة لوضعها الطبيعي. إذ لعل رؤيتهن مرة أخرى، والاجتماع بهن سيساعدانها على الاستقرار. وبما أنه قد أصبح لديها بيتها الخاص بها، وكذلك عملها الخاص، فلا بد أنها ستكون فخورة بنفسها حينما ستخبرهم عن حياتها، كما أنهن لن يصدقن أنها حملت حالما وصلن للأراضي الأمريكية.

«هل أنت بحاجة لوقت طويل حتى تنتهي؟».

**رفعت مادلين بصرها لتجد روي يراقبها وهي ترتدي فستانها.**
**فما كان منها إلاّ أن هزت رأسها وقالت:**
**«لا، عظيم! أليس كذلك؟ فأنا أتضور جوعاً».**

# الفصل السادس عشر

انسلت أليس من بيتها وهي تقفز أثناء مسيرها. كان المطر على وشك الهطول، ولهذا كان الهواء ثقيلاً ومشبعاً برائحة الرطوبة التي أعقبت العاصفة التي تعرضت لها المدينة، لكنها لم تكترث بكل ذلك.

كانت خلال معظم الصباحات التي تفر فيها من بيتها؛ تشعر بسعادة تغمرها حينما تعترف لنفسها بأنها لم تكن بحاجة للبقاء مع زوجها أو مشاهدة ذلك التصميم الداخلي لبيتها البشع ذي الضوء الخافت لمدة ثماني ساعات على الأقل. أما اليوم فقد كان سبب سعادتها وإشراقها مختلفاً، إذ كان السيد روبرتس قد تمكن أخيراً من التوصل إلى صفقة تقاعد خاصة بالسيدة بيركينز، ولهذا كان عليها أن تباشر وظيفتها الجديدة كمعاونة له في هذا اليوم.

وإلى جانب المركز المرموق، كانت أليس ستحصل على زيادة في الراتب، وسيخصص لها مكتب صغير فيه طاولة مكتب كبيرة مناسبة لتبسط عليها أغراضها، إلى جانب نافذة تطل على المدينة تحتها.

كما أنه كان يتعين عليها أن ترفع التقارير بشكل مباشر لماثيو.

ماثيو... كان مجرد نطقها باسمه يجعل جسدها يرتعش.

كان بينهما شيء ما... شيء تمنت لو أنه لم يكن محرماً لتلك الدرجة.

إذ إن مقارنة زوجها به كانت أشبه بوضع صندوق من التفاح اللامع بجانب حفنة من البرقوق المتعفن. ولكنها حينما كانت في لندن، كانت عملية انتقاء زوجها من بين الرجال أكثر صعوبة، إلاّ أن زوجها الآن قد لا يعجب أي امرأة محترمة.

أما ماثيو فقد كان مختلفاً تمام الاختلاف.

وكان متزوجاً... أخذت أليس تذكر نفسها بذلك. إذ كانت السيدة بيركينز ذات الملامح المرعبة واثقة من نفسها حينما أكدت لها هذه المعلومة وهي تتبختر خارجة من المكتب مساء البارحة.

لكن أليس لم تهتم بذلك؛ لأن كل ما كان يهمها هو الزيادة المالية على راتبها التي كانت ستضاف بشكل أسبوعي، بالرغم من أن تغييراً رائعاً في وضعها كان سيحدث، حيث كانت ستتلقى الأوامر من رجل يشبه نجوم السينما وتفوح منه رائحة الثراء، ذلك الثراء الذي كان واضحاً تمام الوضوح على جلده وبشرته.

***

بذلت أليس جهدها لتمسح تلك الابتسامة عن وجهها، إذ كان قد طلبها لمكتبه مرتين. أجل، طلبها مرتين خلال صباح واحد! وهذا ما جعل جسدها يرقص طرباً؛ بالرغم من أنه كان يجدر بها ألا تفعل ذلك، ولكن كانت لديها رغبة بالرقص في المكتب وحول الطاولة لأنها كانت تحس بمتعة وسعادة لكونها أصبحت مرغوبة، ولأنها أدركت أن هنالك رجلاً مهتماً بها.

تماماً كما كانت تحس عندما كانت عازبة في لندن، أي أنها لم تختبر ذلك الإحساس منذ فترة طويلة.

«أليس؟».

قفزت من مكانها، فضربت أصابعها مفاتيح الآلة الكاتبة عن طريق الخطأ.

هتفت وكلها انتباه بعدما ثبتت رأسها في أحد الجوانب: «نعم؟».

كان ماثيو يتكئ على باب مكتبه، وقد ارتسمت على فمه ابتسامة، ولهذا لم تستطع أليس إلاّ أن تبتسم له.

قال لها: «قد أحتاج لأن تبقي في العمل حتى ساعة متأخرة الليلة؛ إذ سيأتيني بعض العملاء عند الساعة الخامسة، وسأكون بحاجة لك لتتواجدي في الاجتماع معنا».

فهزت أليس رأسها موافقة وقالت: «بكل تأكيد».

فما كان منه إلا غمزها، وكم أحبت هي تلك الغمزة.

ثم قال: «هذا كل ما في الأمر يا فتاتي، ولهذا يمكنك أن تأخذي استراحة غداء أطول من المعتاد إن أردت التعويض عن ذلك».

وبعد ذلك، اختفى وأغلق الباب خلفه مرة أخرى. عندها، أحست أليس بأن قلبها خفق بقوة إلى أن توقف ثم بدأ يخفق بشكل اعتيادي من جديد.

كان بقاؤها في العمل لوقت متأخر يعني أن رالف لن يكون لديه ما يتناوله على العشاء حتى وقت متأخر جداً. لكن، عليها ألا تقلق بشأنه، فلو كان الزوج الذي توقعته وتمنت أن تجده، لكانت قد أسرعت إلى البيت خلال فترة استراحة الغداء وأخبرته بالأمر، ولهرعت إلى بيتها لتقوم بترتيب الأشياء الأساسية فيه.

ولكن، لو كان زواجها من ذلك الشخص مطابقاً لتوقعاتها، لما كانت عندئذ بحاجة للعمل، بل لا بد لها أن تكون في بيتها لتتجول فيه، وتقوم بترتيبه وتجميله، وتحضير الوجبات اللذيذة، وحفظ الأطعمة والفواكه. وبالطبع، كان لا بد لها من القيام ببعض التسوق وتدليل نفسها أيضاً.

ولهذا لم تكن ستشعر بالذنب إن عملت بجد.

ثم إنها في الوقت الذي ستصل فيه إلى البيت سيكون إما نائماً بعدما يكون قد أصبح ثملاً لدرجة بات معها لا يأبه لأي شيء، أو قد انتابته إحدى حالاته المزاجية المكفهرة التي يلتزم خلالها الصمت المطبق؛ وهذا يعني أنه لن يتناول أي شيء تضعه أمامه بأي شكل من الأشكال.

سحبت أليس الورقة من آلتها الكاتبة ووضعتها في سلة المهملات، إذ كانت تكره أن يرد في عملها أي خطأ.

ثم بدأت أصابعها تنسل فوق المفاتيح مرة أخرى لتقوم بالطباعة.

بدأ المكتب يفرغ من الموظفين، وهنا بدأت أليس تشعر بالتوتر، حيث أخذت تسأل نفسها: ماذا لو كان الاجتماع مجرد حيلة لتبقى هنا بمفردها؟ لكنها لم تتوصل لقرار تحدد من خلاله ما إذا كان ذلك شيئاً جيداً أم سيئاً بالنسبة لها.

كان التفكير بأمر خيانتها هو ما يحتل تفكيرها؛ إذ كانت رغبتها بأن تكون بين ذراعَي رجل آخر وتنجرف معه أمراً مقبولاً بالنسبة لها، لكن أن تعيش وتتصرف على أساس ذلك، مع زوج امرأة أخرى كان بالنسبة لها أمراً لم تكن تتقبله بسهولة.

نهضت أليس عن مقعدها وهي تحس بالانزعاج لأنها جلست بالوضعية نفسها لساعات طويلة، ثم ألقت نظرة خاطفة على باب مديرها الذي بقي موصداً بإحكام، إذ لم تكن قد رأته منذ الساعات الأولى لفترة ما بعد الظهيرة.

أمسكت أليس بحقيبتها وأسرعت إلى الممر، ولم تكلف نفسها عناء النظر في وجه أي من الموظفين الذين كانوا يهمون بالمغادرة، لأنها كانت تركز فقط على باب الحمام.

كان حمام السيدات بارداً نوعاً ما وهادئاً. وهكذا، أسرعت إلى المرآة، وهي تصغي السمع لأصوات أحذية الأخريات ذات الكعوب العالية وهن يضربن بها على البلاط. أخذت أليس تبحث في حقيبتها عن منديل ورقي، وعندما أخرجته مسحت أحمر شفاهها، ثم غطت وجهها بمساحيق التجميل وبدأت تزيّن شفتيها بالفرشاة، ثم عالجت رموشها «بالمسكرة»، وأخذت ترتب شعرها بعد ذلك؛ إذ كانت قد لفّته لفة ناعمة لتبعد شعرها الأشقر عن وجهها، وهكذا أخذت تفكر بتركه حراً بدلاً من لفه.

وهنا سألت نفسها: هل سيفضح ذلك أمري؟

لكن لم يكن لديها الكثير من الوقت لتفكر وتتساءل، وذلك لأن صوت الخطوات التي اقتربت جعلتها تجمع أشياءها وتتوجه نحو أحد المراحيض؛ إذ كان آخر ما تتمناه هو أن يكتشف أحد وجودها وهي تجمِّل مظهرها وشكلها في الوقت الذي يجب أن تكون فيه في طريقها إلى البيت كالأخريات.

عدّلت أليس وضع تنورتها، ثم أخذت تعبث بأزرار قميصها، وبعدها أخرجت زجاجة العطر الصغيرة ووضعت القليل منها على معصميها، غير أنها عادت ووضعت بعض العطر على رقبتها أيضاً.

وحينما فرغت أخذت نفساً عميقاً، فأدركت أنها كانت في غاية التوتر، وأن عليها أن تريح أعصابها بالفعل.

انتظرت أليس حتى سمعت صوت المياه يتدفق في دورة مياه أخرى قبل أن تخرج من الحجرة التي كانت فيها، ثم غسلت يديها وألقت نظرة أخيرة على بشرتها.

مذنبة، بدا عليها أنها مذنبة، لكنها كانت جذابة أيضاً؛ أكثر مما كانت تحس حينما وصلت إلى هذا المكان.

أسرعت أليس إلى القاعة وهناك توقفت، إذ كان المكتب قد خلا من سائر الموظفين في ذلك الحين، باستثناء رجلين كان كل منهما يرتدي بزة رسمية، وقد وقفا وأخذا يتحدثان إلى مديرها.

وعندما أحسّ ماثيو بوجودها، التفت إليها وابتسم، وذلك قبل أن يلوح لها لتأتي وتنضم إليهم.

عند ذلك أحست بالارتياح، لكن خيبة أملها كانت أكبر؛ لأنها كانت تتمنى أن تكون هي الشخص الوحيد الذي يود أن يراه، وألا يكون هناك أي اجتماع على الإطلاق.

وهكذا، بدأت تشعر أنها حمقاء لأنها أتعبت نفسها بالاهتمام بمظهرها.

***

بقي الرجال يتحدثون لمدة ساعة، وقد عملت أليس خلالها على تدوين الملاحظات بكل جد واجتهاد، إلاّ أن يدها بدأت تتشنج، وعندها أمسك الرجال عن الحديث بأمور العمل وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ويثرثرون.

لم تكن أليس قد حصلت على أي تدريب معترف به في هذا المجال، لذا لم تكن تدري إن كان عليها أن تعتذر وتبتعد، أم تواصل الكتابة، أم تقف في مكان بعيد عنهم وتبتسم بأدب أثناء حديثهم.

وفجأة، سمعت أحدهم يقول: «حسناً يا سادة، أعتقد أنه حان الوقت لننتهي من هذا اليوم».

وأخيراَ. وهكذا، وضعت أليس قلمها على الطاولة، ووضعت يديها فوق حضنها، وهي تنتظر الإذن بالانصراف.

إلا أن أحد الرجلين اقترح عليهم: «ما رأيكما بتناول شراب ما؟». فخمنت أليس من وجهه الأحمر المكتنز وبطنه المتدلي بأنه قد يكون أول من يقترح على الآخرين فكرة تناول الشراب أو الطعام، حيث تابع بالقول: «لنتناول كأساً أو اثنتين النادي».

لم تكن أليس قد سمعت عن النادي من قبل، فظنت أنه قد يكون مكاناً يرتاده الرجال الأثرياء للتعرف على غيرهم؛ كرجال الأعمال الذين كانوا أمامها. وقد يكون مكاناً يعج بالنساء الجميلات، وهذا ما أشعرها بغبائها مرة ثانية لأنها حاولت أن توقع مديرها بشباكها.

أخذت تراقب ماثيو وهو يهز برأسه ويقول: «فكرة جميلة. ما رأيكما بالتوجه إلى هناك لأوافيكما بعد قليل؟ لأنه عليّ أن أجري بعض المكالمات الهاتفية».

فوقف الرجل ووضع يده على شاربه وهو يقول: «لا حاجة لنا بذلك، سننتظرك».

فما كان من أليس إلاّ أن وقفت هي أيضاً، لكنها أخذت تسأل نفسها على الفور إن كان يتعين عليها أن تبقى جالسة.

إلا أن ماثيو أصر على موقفه وقال: «لن أبقيكما هناك طويلاً». ثم ترك طاولته ليضرب كلاً منهما على ظهره وهو يقول: «سألتقيكما هناك قبل أن تتجرعا أول كأس».

وضحك الجميع عند ذلك.

كانت أليس لا تزال واقفة بوجوم، ولم تكن تعجبها نظرات الحذر التي كان كلا العميلين يرمقانها بها، فتمنت لو أنهما غادرا بدلاً من الوقوف هكذا وإضاعة الوقت أثناء استعدادها للعودة إلى البيت.

لكنها كانت تحس بأنها منبوذة، لأن ماثيو لم ينظر إليها خلال الاجتماع، إلا حينما يتطلب الأمر منه توضيح نقطة معينة كان يريد منها أن تدوّنها عندها.

وأخيراً هتف ماثيو: «إذاً، أراكما هناك».

وهنا أخذت أليس تراقبه وهو يرافقهما للخارج، ثم انحنت لتجمع ملاحظاتها وأغراض ماثيو، وبعدها عادت إلى الغرفة المجاورة، ووضعت أشياءه على مكتبه.

«آسف لأنني أخّرتك».

التفتت أليس إلى مصدر الصوت فوجدت ماثيو خلفها، بينما كانت يده تحاول أن تمسك بمقبض الباب.

فما كان منها إلاّ أن ابتلعت ريقها، إذ كان يغلق الباب، وعندها بدأ قلبها ينبض بسرعة.

لقد أصبحا لوحدهما، إذ لم يكن هنالك أي أحد في المكتب، ثم إنه كان يغلق الباب ببطء وثقة.

وهنا تمكنت أليس من القول: «أوه، إن ذلك لا يهمني على الإطلاق».

فابتسم كما يبتسم الثعلب حينما تصبح دجاجة في مرمى بصره. هذا ما خطر لها فجأة، وخاصة حينما فغر فمه لتظهر أسنانه البيضاء، فأخذت تسأل نفسها إن كان سيثب عليها بالفعل.

لكنه قال: «لا بد أن زوجك يسأل نفسه الآن عن مكانك».

فهزت أليس رأسها وقالت: «أخال أنه لن يلاحظ أنني تأخرت».

وهنا ضحك ماثيو ثم تقدم منها، فكانت حركاته توحي لها بأنه وحش مفترس، وقال:

«لا يمكنني أن أصدق ذلك».

كانت أليس ترغب بالرد عليه، لكنها لم تتمكن من ذلك، إذ كانت قد تلعثمت في الكلمات الأخيرة التي نطقت بها، أما الآن فقد أصبحت بكماء كلياً.

توقف ماثيو على بعد بضع خطوات عنها، إلاّ أنه كان قريباً منها بما يكفي لجعل الحمرة تغزو وجنتيها، ولجعل عينيها ترفرفان وهي تنظر في عينيه، لكنه حافظ على مسافة بينه وبينها دون أن يتقدم أكثر.

ولكن...

قال لها: «إنهم يتوقعون وصولي بعد قليل».

فابتلعت ريقها مرة أخرى، إذ شعرت وكأن حصاة قد سقطت في حلقها ولم تستطع أن تدفع بها إلى الأسفل.

ردت عليه: «عليّ أن.. آها... سأتركك لتجري مكالماتك الهاتفية».

عندها، اقترب منها أكثر، فاحتل المجال المخصص لها وأخذ يحدق بها، لدرجة أحست معها بأن حرارة جسده قد وصلت إليها.

وقال لها: «لا أريد أن أجري أية مكالمة يا أليس».

ما إن تفوّه بذلك حتى أخذ قلبها يدق بقوة وسرعة أحست معها بالرعب.

إذ قد يكون الاجتماع حقيقياً، لكنّ عذره في البقاء والتأخر عنهما كان كاذباً، ومتعمداً.

أغمضت أليس عينيها حينما مد يده نحو وجهها، ثم أحست برؤوس أصابعه وهي تمسح خدها، قبل أن تتوقف عند ثغرها.

صاح بها: «أليس؟».

ففتحت عينيها لتجد عينيه تراقبانهما، وعندها أخذت تنظر إلى شاربه المهذب بأناقة، وشفتيه، ثم عادت لتنظر إلى عينيه.

فقال لها: «سأقبلك».

فهزت برأسها موافقة، إذ لم تستطع أن تنبس بكلمة حينها.

ضغط ماثيو بفمه على ثغرها، فأحست بشاربه يدغدغها، أما شفتاه الناعمتان فكانتا تمسحان شفتيها ذهاباً وإياباً.

بعد ذلك توقف، فتأوهت أليس، ولم تستطع أن تكتم ذلك. فما السبب الذي دفعه للتوقف؟

قال لها: «كلانا متزوجان، ألا تدركين ذلك؟».

فهزت برأسها مرة أخرى، إذ كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للرد التي كانت قادرة على إظهارها، وخاصة بعدما كان صوته العميق الأجش قد فعل بأحاسيسها فعلته، فما بالك بلمسته؟

أخذ يخاطبها بصوت خفيض هذه المرة ويهمس في أذنها بالقول:

«إن ما يجري ينحصر في هذا الزمان وهذا المكان، أتفهمين يا أليس؟».

إلا أن ذلك لم يكن يهمها؛ فبالرغم من أنه كان يتوجب عليها أن تهتم بذلك، لكنها لم تكترث.

غير أنها عندما هزت برأسها دليل الموافقة هذه المرة أحاطها بذراعيه، وجعلها تتمدد فوق المكتب رغماً عنها، ثم أخذ يقبلها، وأحست بجسده الصلب يلامس جسدها، فتمسكت به بكل عجز وكأنها لم تكن لتشبع منه مهما حاولت.

كانت تلك أجمل قبلة في حياتها.

***

أخذت أليس نفساً عميقاً قبل أن تعبر الباب الأمامي؛ إذ كانت ترفض أن تفكر في ما حدث لها أثناء دوامها، كما كانت بحاجة إلى أن تمضي فترة المساء في البيت أولاً، لتفكر في ما بعد بمشاعرها. كانت تشعر بالذنب. إذ هل كان يترتب عليها أن تبذل جهداً أكبر لتحافظ على زواجها؟ لكنها حاولت بكل طاقتها، ولعل زواجها كان فاشلاً جداً حيث يتعذر إصلاحه.

هتفت حال دخولها المنزل: «لقد عدت يا رالف». ثم وضعت حقيبة يدها على الأرض، وقطعت الصالة لتدخل المطبخ.

كان رالف جالساً على الكرسي ذاته الذي كانت تجده جالساً عليه دوماً، وثمة فنجان فارغ على الطاولة التي كانت إلى جانبه. غير أن رؤيته استدعت خليطاً من المشاعر داخلها؛ منها الشفقة والحزن والغضب إلى جانب ما تبقى من حب. فما كان منها إلاّ أن طبعت قبلة على قمة رأسه، وأخذت تتباطأ لعله يقول لها شيئاً، أي شيء، لكن لم تصدر عنه نأمة.

سألته: «كيف كان يومك؟». وهي تسعى جاهدة لتبقي الابتسامة على وجهها أثناء تفحصها للغرفة.

بعد ذلك، عبرت أليس الغرفة وفتحت الثلاجة، وأخرجت منها بعض المواد التي يمكنها بواسطتها أن تعد عشاء. كان قد أمضى اليوم بطوله وحيداً، إلاّ أنه لم يقم بإعداد أي وجبة لها على الإطلاق، ولم يشكرها قط على ساعات العمل الطويلة التي تقضيها لتتمكن من دفع فواتيره وفواتير البيت.

تابعت أليس حديثها وهي تتظاهر وكأنه قد ردّ عليها: «لقد انشغلت منذ بداية هذا الصباح. إذ بالكاد تمكنت من استقطاع وقت خلال استراحة الغداء».

كان رالف يحدّق في الفراغ، لكن نظرته كانت فارغة أيضاً؛ وهذا ما جعل أليس تخفي دموعها، لأنها لم تكن تريد حينها إلاّ أن تنهار لتتحول إلى ركام وتستسلم لكل شيء بعدها، لكنها لم تستطع. فإلى أين يمكنها أن تذهب؟ وما الذي بوسعها أن تقوم به؟

عندها، صاحت وهي تضع السكين التي كانت تستخدمها: «رالف؟ كلّمني أرجوك».

فرفع بصره، وبدا لها وكأن عينيه لم تقعا على أحد في البيت.

عندها همست له: «لقد اشتقت لك. لذا أرجوك قل لي إنك تريد مني أن أبقى معك هنا».

غير أن تعابير وجهه لم تتغير، بل أخذ يربت على يدها حينما اقتربت منه، ثم ضغط براحته على راحة يدها، واعتصر أصابعها قبل أن يترك يدها ويبدأ بالتحديق بالفراغ من جديد.

عندها، ابتعدت أليس بكل هدوء، ونسيت أمر تحضير العشاء، وأسرعت إلى غرفة نومها. وهناك كان من الصعب بالنسبة لها أن تسيطر على دموعها، وخاصة بعدما ثار بركان عواطفها

**وأخذت حممه تغلي في أعماقها؛ وذلك لأن حبيبها رالف قد رحل. أجل، كان قد رحل. وبقدر ما كانت تحس بالذنب بسبب ما جرى معها في المكتب قبل ذلك، إلاّ أنها أحست بأن ذلك أفضل من الاستسلام للحزن الذي كان يعتصرها كلما فكرت بوضع زواجها.**

# الفصل السابع عشر

«إذاً، هل اختلف الوضع هنا؟».

هكذا سألت لورين مادلين حينما كانتا جالستين على الدرجات الخلفية لبناء مكتبهما. كانت الشمس ساطعة، فمدت كل واحدة منهما ساقيها أثناء تناولهما الشطائر. كانت لورين تود أن تعرف رأي مادلين ببلادها الجديدة.

سألتها مادلين: «أتقصدين بصرف النظر عن اللهجات والأسماء المضحكة للأشياء؟».

فلكزتها لورين من كتفها، ورفعت عينيها نحو السماء وهي تقول:

«إنك تعرفين ما أقصده».

أخذت مادلين تفكر بالأمر، إذ ثمة أوجه اختلاف كثيرة لكنها لم تكن تعرف كيف تصف ذلك، وذلك لأنها لم تتخيل طيلة حياتها وجود مثل هذه الاختلافات.

ولهذا لم تجد إجابة سوى بالقول: «إنها مختلفة بالفعل. أعني، إن الأمريكيين يتحدثون عن الأشياء وإلى بعضهم بعضاً أكثر مما نفعل في بلادي. إنكم أكثر صراحة ومباشرة، وأعتقد أن هذا ما ورد في المجلة».

«أي مجلة؟». سألت لورين وهي تعض شطيرتها، ثم تتكئ للخلف بتثاقل بالاعتماد على راحتيها، وذلك لتجعل وجهها في مواجه الشمس.

ردت مادلين: «إنها مجلة: التدبير المنزلي المتميز، والتي خصصت قسماً للعرائس الأجنبيات، حتى... حسناً... حتى يتم تعليمنا كيف نصبح زوجات أمريكيات ناجحات».

عندها ضحكت لورين ثم قالت: «لعله كان يتعين عليهم أن يصدروا نسخة مخصصة لأهل روي كي يساعدوهم على أن يكونوا أهل زوج ناجحين».

كانت مادلين تستمتع بفكرة أنه بوسعها أن تتحدث إلى لورين؛ إذ لم تكن قد تواصلت مع الفتيات اللواتي تعرفت عليهن على ظهر السفينة بعد، لذا أحست بالسعادة لأنها تعرفت على صديقة هنا. كانت تتناول معها طعام الغداء في معظم الأيام، كما كانتا تنجزان أعباء العمل بسرعة بعد تقاسمها في ما بينهما. غير أن مادلين كانت تتوق لرؤية صديقاتها، وكانت تتحرق شوقاً للاجتماع بهن؛ إلاّ أن اعترافها أمامهن بما فعله زوجها لم يكن سهلاً عليها. إذ لا بد أن تطرح كل فتاة أسئلة على كل واحدة منهن، وكن جميعاً يتوقعن أن يعرفن كيف تعيش كل منهن، لكن مادلين لم تكن مستعدة للاعتراف بالحقيقة بعد.

سألتها لورين: «متى ستخبرين السيد كيرتس بأنك حامل؟».

فوضعت مادلين يدها على بطنها وقالت: «أعتقد أنني سأخبره قريباً بذلك. كل ما في الأمر أنني لا أريد أن يطردني».

صاحت بها لورين: «لن يطردك يا غبية، لأنك متميزة».

فسرت رجفة في جسدها ثم قالت: «لا أريد أن أزعجه، إذ لم يمضِ على عملي هنا سوى وقت قصير». ثم صمتت، وبعدها تابعت بالقول: «لا تخبريه بذلك أرجوك».

عندها، حولت لورين عينيها قبل أن تتفحص ساعة يدها ثم تقول: «كان يجدر بك ألا تطلبي

**مني ذلك. إلا إنه سيطردنا معاً على أية حال إن لم نعد إلى عملنا بسرعة؛ إذ قد تجاوزت الساعة الخامسة».**

**وهكذا وقفتا بسرعة وهرعتا للداخل.**

**سألتها لورين: «لمَ لا نتناول طعام العشاء معاً؛ أنا وأنت وروي خلال عطلة نهاية الأسبوع؟ إلا إن كانت لديكما خطط مسبقة لقضاء العطلة».**

**ردت مادلين: «سيكون ذلك رائعاً».**

**إذ لم تتناول مادلين وزوجها طعام العشاء في بيت أحد الأصدقاء منذ زواجهما، وهكذا بدت لها هذه الدعوة خطوة كبيرة نحو الأمام، وفي الاتجاه الصحيح.**

**سألت مادلين: «ما رأيك بأن أحضر معي حلويات؟».**

**فأمسكت لورين بيدها وشدت عليها وهي تقول: «أوه أجل! أعدي لنا تلك الأطباق التي تحتوي على الكريمة والتي سبق لك أن أخبرتني عنها، والتي كانت أمك تقوم بإعدادها».**

**عندها، هزت مادلين برأسها وسحبت يدها، لأنها لم تكن تريد أن ترى لورين الدموع في عينيها.**

**كانت تتوق في ذلك الحين لجلسة بصحبة أمها مع فنجان من الشاي لتسألها كيف تقوم بتحضير الحلويات اللذيذة. كانت تتمنى أن تشم رائحة المخبوزات الصباحية التي تعبق في المطبخ طيلة النهار، وأن تراقب والدها وهو يقبّل أمها على وجنتها ثم يسكب ما بقي من فنجانه في الحوض أثناء مروره، وأن تسمع صياح بنات أختها حينما تقوم شقيقتها بمطاردتهن في أرجاء البيت وهي تهددهن بالعقاب.**

**وفجأة سمعت السؤال: «هل أنت على ما يرام؟».**

**كانت لورين قد لاحظت شرودها، فمسحت مادلين عبراتها، ثم ابتسمت لصديقتها لتعودا إلى المكتب معاً. لقد كان حنينها لعائلتها يزداد ويشتد، لدرجة باتت معها تشك في أنها لن تبرأ منه طيلة حياتها.**

*******

**كان تواجدها في مطبخ لورين يذكّرها بالأيام التي كانت تقضيها مع شقيقتها الكبرى في مطبخها حينما كانت في لندن. إذ كان مطبخ لورين نظيفاً ومرتباً، وعلى الرغم من صغر مساحته، إلا أن المرء لا بد أن يحب هذا المكان.**

**كانت مادلين تبادل صديقتها الجديدة المشاعر ذاتها، وبدا لها أن زوج صديقتها كان مغرماً بها، لذا أخذت مادلين تتمنى في سرها أن يتعلم روي منه؛ وخاصة بعدما أخذ الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث في غرفة الجلوس بما يوحي بأنهما قد انسجما معاً.**

**وهنا همست مادلين: «يبدو أن الصبيين قد بدآ علاقة طيبة».**

**فنظرت لورين إلى مادلين وكأن الأخيرة كانت تتحدث لغة مختلفة ثم سألتها:**

**«من؟».**

**عندها، ضحكت مادلين وقالت: «الصبيان، إذ إننا نطلق على الرجال هذه التسمية في بلادي».**

علقت لورين: «أتقصدين بحسب كلامك المضحك؟».

ردت مادلين: «صدقيني، ثمة الكثير من المصطلحات المشتقة من تلك اللفظة».

عند ذلك، اقتحم سام زوج لورين المطبخ واتجه مباشرة نحو الثلاجة وهو يقول:

«نريد كأسين أخريين من الشراب للولدين».

ثم طبع قبلة على وجنة زوجته قبل أن يفتح الثلاجة ليحضر زجاجة الشراب، لكن لورين أخذت تلاحقه بنظراتها، ولهذا أخذت مادلين تراقبهما، وترى كيف ينظر كل منهما إلى الآخر، ثم ضحكت معهما حينما قام سام بتقبيل رقبة لورين قبل أن يضغط بالزجاجة الباردة على جلد ذراعيها العاري، الأمر الذي جعلها تصرخ.

كل ذلك جعل مادلين تشعر بالغيرة؛ بالرغم من أنها لم تكن لتعترف بذلك، إذ كانت علاقتها بروي قد تحسنت في تلك الأثناء، فأصبحت تأنس به ويأنس بها منذ أن حصل على تلك الترقية. إلاّ أن علاقتهما لم تكن تشبه علاقة لورين بزوجها في شيء، بل إن مادلين كانت ترى أنه من المستحيل أن تصبح علاقتها بروي مثل علاقتهما.

وفجأة، قطعت عليها لورين حبل أفكارها بالقول: «علينا أن نضع الطعام على الطاولة ثم نجلس هناك».

أخذت مادلين تساعد لورين في حمل الأطباق؛ بدءاً من الصينية التي كانت في الفرن، ثم الطبق الرئيس. كانت قد تذوقت طبق اللحم بالعجين مرة واحدة في حياتها، فبدا لها ذلك الطبق رائعاً يومها.

وهكذا، جلس الرجلان حالما فاحت الرائحة الزكية في أرجاء غرفة الجلوس.

جلس روي بجانب مادلين فابتسمت له ابتسامة حقيقية.

إذ لعله كان عليها أن تبذل المزيد من الجهد، كما أن رؤية لورين مع سام جعلتها ترغب في ذلك أيضاً، ثم إنها لم تكن تهاب العمل الشاق؛ وخاصة إن كان في سبيل إنجاح زواجها، فإذا سنحت لها الفرصة لإصلاح ما بينهما فعندها ستكون على استعداد للقيام بأي شيء حتى يتم لهما ذلك.

وفجأة هتف سام: «علينا أن ننعم بجلسات عشاء هادئة وجميلة كهذه الجلسة قبل أن يأتي الأطفال ويتولوا سائر المهام، ههه، أليس كذلك؟».

عندها، ابتسمت مادلين لدى سماعها ما قاله سام، إذ كان كلامه صحيحاً.

وشجعها ذلك على السؤال: «ألا ترغبان بالإنجاب؟».

فبدا على لورين الإحراج عند ذكر الموضوع وقالت: «حينما يأذن الله بذلك سنكون على أتم استعداد». إلاّ أن مادلين لاحظت كيف أخذ سام يمسح على يدها وهي تقول: «أمضينا فترة ونحن نتمنى أن يتم لنا ذلك».

عندها قال روي: «أعتقد أن مادلين أخبرتك خبراً سعيداً عنا».

فنظرت إليه لورين بعينين واجمتين، إذ كان سؤاله في غيره محله؛ هذا إن كان قد فهم المقصود من كلام لورين. ثم إن الأمر كان من المفترض أن يبقى سراً!

ولهذا هتفت مادلين: «روي! لا أعتقد أنه يجب علينا أن...»

عندها، ابتسم سام ابتسامة عريضة وخاطبها قائلاً: «أأنت حامل؟ يا لها من أخبار سارة».

فرحت مادلين لأن لورين احتفظت بالسر لنفسها. ولكن، لمَ قام روي بإفشاء السر؟ إذ لو لم تكن قد أخبرت لورين بالأمر لكان قد وضعها في موقف محرج وذلك لأنهما تعملان معاً.

وهذا ما دفع مادلين لتسأله: «لمن أفشيت هذا السر أيضاً يا حبيبي؟».

فردّ عليها: «لم أخبر أحداً، لكننا مع صديقينا هنا، فما المشكلة في ذلك؟».

عندها، بدا على لورين التعاطف؛ إذ كان بوسعها أن تتأكد حينها بأن روي لم يدرك وجود مشكلة أصلاً، ثم إن مادلين لم تكن لتفتعل مشكلة، لا سيما وأنها كانت لا تزال في بيت لورين.

وهذا ما جعلها تتردد وهي تقول: «حسناً، كل ما في الأمر أنني لم أتأكد بعد من أن الوقت قد أصبح مناسباً لأخبر الجميع بذلك، وسأبقى كذلك إلى أن تمضي فترة أطول على الحمل، على الأقل حتى يعرف مديري».

ولتغيير الموضوع، توجّه سام لروي بالسؤال: «إذاً يا روي، حدّثنا عن مزرعة عائلتك».

عند ذلك، نظرت لورين إلى مادلين نظرة اعتذار.

لكن روي أجاب بالقول: «لدينا مزروعات فيها، كما أننا نربي بعض أنواع المواشي».

رد سام: «يبدو هذا رائعاً».

عند ذلك، أخذت مادلين تراقب روي وهو يهز برأسه ويقول: «أجل، إنه مكان رائع».

فقاطعته لورين بالقول: «روي! لقد أخبرتني مادلين بأنك تستمتع بعملك».

عندها، ابتسم سام لزوجته، لكنه لم يسمح لها بتغيير الموضوع، إذ عاد ليقول: «حبيبتي! لقد كان روي يحدثنا عن مزرعته».

وهنا أحست مادلين بأن العرق بدأ يتصبب منها، وخاصة من راحتيها، ومن المنطقة الواقعة خلف رقبتها، وحتى من وجهها، وذلك لأن مجرد الحديث عن ذلك المكان وكأنه مزرعة تغمرها السعادة كان يصيبها بالغثيان. إذ كان روي يتحدث وكأن تلك المزرعة كانت بالفعل تشبه ما يحكى في القصص الخيالية التي وعدها بها.

عاد سام ليسأل: «أتذهب إلى هناك كثيراً؟».

وعندها، تمكنت مادلين من سماع سؤال سام بالرغم من الطنين الذي كانت تسمعه في أذنيها.

فردّ روي: «أوه، كلا». لكن مادلين لم ترفع بصرها حينما أحست بروي وهو يرمقها، بل يراقبها، بل ركزت على غرز الشوكة بقطعة اللحم، ثم أجبرت نفسها على تناولها. وعندها، سمعت روي يتابع قائلاً: «إذ إنني لم أزرها منذ أن انتقلنا إلى المدينة».

ثم أكمل بالقول: «إنني أفكر بالعودة إلى هناك عندما يولد الطفل؛ وذلك لأن المزرعة مكان رائع ومناسب ليترعرع فيه ابني». وهنا أحست مادلين من خلال كلامه وكأنهما قد تناقشا في ذلك الأمر، وأن تلك الرغبة كانت رغبتهما معاً، وبعدها سمعته يقول: «جميل أن يقيم المرء في المدينة حينما يكون الزوجان بلا أولاد، ولكنها ليست المكان المناسب لتكوين أسرة».

وهنا كادت مادلين تبصق اللقمة من فمها على الطاولة؛ وخاصة بعد البرودة التي انتابت جسدها بأكمله.

العودة إلى هناك؟! مستحيل!! كلا! بل لن تقبل بأن يعيش ابنها في ذلك المكان الكريه ولو

**على جثتها!!!**

**ثم بدأت تسعل وكأنها كانت تختنق، وتسأل نفسها: لمَ لم يطلعني على تلك الأفكار من قبل؟ وهل كانت هذه خطته منذ البداية؟ أن يتركها تحمل ثم يلح عليها بالعودة؟ وهل نصحته أمه بأن يصبر إلى أن تصبح حاملاً؟**

**وهنا بدا على لورين الاهتمام وهي تسأل: «هل أنت بخير؟ أتريدين كأساً من الماء؟».**

**عندها، نهضت مادلين وهي غير قادرة على النظر إلى روي، وأسرعت إلى المطبخ، فلحقت بها لورين وهي تقول:**

**«أأصبحت بخير؟ خذي هذه!».**

**وهنا ناولتها كأساً من الماء، فتجرعته مادلين بسرعة.**

**ثم خاطبتها مادلين بالقول: «أريد أن أذهب للحمام، أين هو؟».**

**وعندها، أخذت تتمسك بكرسي المطبخ لتتمكن من الصمود؛ إذ لم تكن تريد سوى أن تنحني، ولهذا أخذت تقنع نفسها بأن ذلك لا يمكن أن يكون قد حدث، ولا بد أنها قد أساءت فهم ما سمعته منه.**

**عند ذلك، همست لها لورين: «إنني متأكدة من أنه لا يعني ما يقوله يا مادز، فقد كان ذلك مجرد حوار ضمن حديث، وأنت تعرفين أنه يفكر بصوت عالٍ».**

**كانت مادلين تعرفه أكثر منها؛ إذ كان قد ذهب لزيارة أسرته بدونها خلال عطلة نهاية الأسبوع الماضية، لكنها لم تكترث لذلك، فقد كانت تلك أسرته، والقرار قراره إن كان يرغب بزيارتها. لكن، لا بد أنه أخبرهم بأنهما ينتظران مولوداً، والآن أصبحت أسرته تريد الطفل، دون أمه، وقد كانت تعرف ذلك مسبقاً، لكن الطفل ابنها، وهم يريدون ابنها!**

**هتفت مادلين حينما أحست أنها توشك على الإغماء: «أين الحمام؟».**

**ردت لورين: «بعد الصالة، أول باب على اليمين».**

**هرعت مادلين إلى هناك. وما إن وصلت إلى الحمام حتى بدأت بالتقيؤ داخل المرحاض، ثم تكررت تلك العملية مرات ومرات.**

**أجل، لم تكن لتوافق على العودة إلى هناك، بل لم تكن تطيق ذلك.**

**أخذ روي يقول لها: «إنها مجرد فكرة يا مادلين، فكرة كنت أفكر فيها وأقلبها في رأسي».**

**كانت مادلين على حافة الجنون حينما سمعت ذلك؛ إذ بعدما تدبرت أمرها لمتابعة ما تبقى من فترة العشاء، ثم تجاذب أطراف الحديث مع الجميع بعدها لفترة قصيرة، غادرت مع زوجها أخيراً ليعودا إلى البيت.**

**ردت عليه مادلين: «إنها ليست فكرة يا روي، فحتى تصبح فكرة، لا بد أن تكون قابلة الحدوث والتطبيق على أرض الواقع».**

**فما كان من روي إلاّ أن تنهد وأبعد أغطية السرير قبل أن يتمدد فيه وقال:**

**«أهي سيئة لهذه الدرجة؟». ثم تنهد وقال: «أعتقد أنه عليك أن تعطي فكرتي حقها، وأن تجربيها، وخاصة عندما تصبحين أماً».**

فصاحت به مادلين: «ألا تتذكر كيف عاملوني؟ وكيف كنت أعيش هناك؟ ألا تتذكر السبب الذي دفعنا للرحيل؟ وكيف تركنا ذلك البيت؟».

عندها جلس مستنداً إلى الوسائد، فوقفت مادلين حائرة في وسط الغرفة.

وهنا قال لها: «لا بد أن تختلف الأمور إن أصبح عندنا طفل».

وهنا أحست مادلين أنها أصبحت مجنونة بالفعل وهي تقول: «تختلف؟! ستختلف إن أصبح لديهم طفل وليس فقط أمه ليكيدوا لهما المكائد؟ وعندها سأغرق في مشاكل ذلك البيت يوماً بعد يوم! بالطبع لن أوافق على ذلك يا روي».

عند ذلك، بدأ روي يتأوه، لكنها لم تكن تدرك مدى جديته في كلامه في ذلك الحين. فهل كان ذلك مجرد جس نبض لها، أم كان يريد توضيح تلك الفكرة فعلاً؟

قال لها: «كيف سنعيش حينما تتوقفين عن العمل؟ إن تكاليف الحياة هنا ليست رخيصة، ثم إن علينا أن نجلب المزيد من قطع الأثاث، فضلاً عن لوازم الطفل. ثم إن أمي قد وافقت على تركنا للبيت لفترة قصيرة، لكنها أوضحت لي أنهم يتوقعون عودتنا إن حملتِ وبدأنا أنا وأنت بتكوين أسرة».

ردت عليه: «سنتعود يا روي. إذ يتعين على الكثير من الأزواج أن يستغنوا عن أهاليهم، ولا فرق بيننا وبينهم». ثم أخذت نفساً عميقاً وتابعت كلامها: «ثم إن أمك يجب ألا تتدخل في ما سنفعله أو ما لن نفعله». كانت مادلين تعرف في ذلك الحين ما حدث، فقد بقيا بعيداً عن سيطرة أمه طيلة تلك الفترة، من دون أن تكتشف أمه ذلك. ولكن، هل كان هذا سبب قبوله بالانتقال إلى المدينة؟ أم أن أمه أملت عليه تعليماتها وأخبرته بأن الابتعاد عنها يجب ألا يستمر سوى لفترة قصيرة؟

أخذ روي يهز رأسه ثم قال: «لست أفهم لم لا يمكننا أن نحاول مرة ثانية. إن هذا كل ما كنت أحاول أن أقوله، إذ لم أكن طيلة حياتي أرغب بالعيش في المدينة، ولكنني قمت بذلك من أجلك، ولهذا عليك أن تحاولي أن تعيشي في المزرعة مرة أخرى، ولا بد أن يطيب لك العيش هناك، أنا متأكد من ذلك».

فما كان من مادلين إلاّ أن ردت بالقول: «طالما نحن متزوجان، فلن نعيش في ذلك البيت مرة أخرى أبداً».

وهنا، اقتصرت ردة فعله على التمدد وكأنه كان على وشك النوم، ثم قال: «إنني متعب، لذا يمكننا أن نتحدث حول هذا الموضوع في وقت آخر».

إلا أن النوم كان قد جافاها ولم يقترب منها لا من بعيد ولا من قريب.

نادها قائلاً: «ألن تأتي إلى السرير؟».

فأجابته: «كلا».

توجهت مادلين إلى المطبخ، حيث ضغطت على مفتاح الكهرباء هناك، ثم أمسكت بقلمها؛ إذ شعرت بالحاجة للكتابة لعائلتها. كانت قد بذلت كل ما بوسعها لئلا ترهقهم بمشكلاتها، لدرجة أنها كانت ترمي بالرسائل التي كانت قد خطتها لهم قبل أن تذهب إلى المتجر لتقوم بإرسالها بالبريد من هناك.

إلا أنها في تلك الليلة كانت بحاجة لأن تكلم أي أحد؛ فقد كانت وحيدة، لذا عليها أن تبحث عن بيتي وأليس وجون بمجرد انتقالها للمدينة، فعلى الأقل حينها ستكون لديها صديقات تستودعهن أسرارها. ولكن، لمَ لم تدرك أي منهن كم كان من الصعب عليهن أن يبقين على تواصل؟ كان عليهن

أن يحددن مكاناً وزماناً معينين للقاء، بدل أن تنقضي كل تلك الشهور بلا أي تواصل بينهن. ولو أنها لاحظت كم كانت مدينة نيويورك ضخمة، لكانت قد سعت للحصول على عناوين مفصلة من كل واحدة منهن.

وهكذا، بدأت مادلين بالكتابة لأمها وأبيها، لتخبرهما عن خوفها من المستقبل، وعن مشاعرها المختلطة تجاه زوجها، وعن اهتمامها بعملها، وبالمال وبطفلها الذي لم يولد بعد.

غير أنها أخذت تعبر لهما عن مدى اشتياقها، وعن رغبتها بالقيام بأي شيء في سبيل العودة لحضن الوطن؛ لتكون فرداً ضمن تلك العائلة، بدلاً من أن تبقى وحيدة في الجانب الآخر من العالم، إلاّ أنها لم تحاول هذه المرة أن تتستر على الأشياء التي كانت تضايقها.

وفجأة، تذكرت مادلين نظرة والدها إليها حينما كانت محتارة بشأن قبول عرض الزواج من روي، تذكرت اللطف والمحبة التي كانت تشع من عينيه حينما وعدها بأن يعود بها إلى بلادها إن لم تكن الأمور كما تحب وتشتهي في أمريكا. وعندها، اكتشفت أنها لم تكن تريد أن تخبره بذلك، إذ لم يحن الوقت بعد؛ بالرغم من أن الحياة في أمريكا كانت أسوأ من أي كابوس مريع يمكن لطفل أن يعيشه، أو بالأحرى، ستصبح كابوساً إن توجب عليها أن تعود إلى المزرعة.

لكنها اكتفت بإخبارهم بأنها مشتاقة لهم كثيراً، وبأنها مستعدة للقيام بأي شيء مقابل العودة إلى حضن الوطن، وبأنها تريد أن تخبرهم بكل ذلك.

كان يجدر بها أن تنتظر إلى أن يولد الطفل قبل أن تطلب مساعدة والدها؛ إذ بوسعها أن ترى إن كان روي سيصر على عودتهما إلى المزرعة أما لا حينها. كانت ترغب في أن تطلع والديها على الحقيقة، غير أنها كانت تشعر بأنه لم يحن موعد تلك الخطوة بعد؛ طالما أنها لم تتأكد بعد من التحول الذي قد يصيب شخصية روي حينما يصبح أباً، وإن كان ذلك سيغيره أم لا.

لكن، كلما تحسنت علاقتهما، وبدأت الأمور تسير في مجراها الصحيح، كانت تحس به وكأنه يرميها بقنبلة يدوية، ولهذا كانت الحيرة تأكلها؛ لأنها لم تكن تصدق أن أمه تسيطر عليه لتلك الدرجة. لكنها كانت تعرف أنه يستمتع بالعمل في المزرعة، وأنه يريد أن يبقى بالقرب من عائلته لسبب لا يعلمه إلا الله، لكن أن تنتقل هي إلى هناك!!!! بدأت مادلين ترتعد حينما خطرت ببالها تلك الفكرة؛ لأنها كانت تعتقد أن الحياة التي بدآ ببنائها بمفردهما قد طابت له.

ولكنها قررت أنها إن لم تعد تتحمل كل ذلك، وإن أجبرها روي على العودة، فعندها ستهرب، وسترسل تلغرافاً لأبيها ترجوه فيه أن يساعدها.

لكن لم يكن الوقت قد حان للقيام بذلك بعد، إلاّ أنها يجب أن تفعل ذلك إن اضطرت.

طوت مادلين الرسالة ثم وضعتها في جيبها، بعدما قررت ألا ترسلها لأن الوقت لم يحن بعد؛ فبالرغم من أنها كانت تود أن تخبر عائلتها بما كان يجري معها لئلا تشعر بأنها وحيدة، إلاّ أنها في الوقت ذاته لم تكن تريد أن تجعلهم يقلقون عليها؛ لأنها كانت تريد أن تعرف أكثر عما كان المستقبل يخبّئه لها.

***

«أتمنى ألا يكون سام قد أزعجك ليلة البارحة». هكذا بدأت لورين الكلام وقد بدا عليها القلق حينما جلستا معاً لتتناولا طعام الغداء في اليوم التالي.

عندها، حاولت مادلين أن تبدي الشجاعة، في الوقت الذي كان كل ما تحتاج إليه فيه هو أن تتكور على نفسها وتشرع بالبكاء. لكنها كانت تعلم أن صوتها سيخونها، ولهذا اكتفت بمحاولة الابتسام.

**عندها، أحاطتها لورين بذراعها وهتفت: «أوه، أنا آسفة! عرفت أن ذلك سيزعجك، وكان علي أن أوقفه عند حده في ذلك الحين».**

**بدأت مادلين بالبكاء وهي تقول: «لم يكن الذنب ذنب سام بل ذنب روي. فأنا لا أستطيع أن أصدق كيف اقترح علي أمر العودة إلى هناك بالفعل».**

**كانت مادلين قد أخبرت لورين عن أشياء كثيرة حدثت معها حينما كانت في المزرعة، إلاّ أنها لم تطلعها على الحقيقة كاملة، بل أخبرتها بما يكفي لترسم صورة واضحة المعالم الحياة هناك.**

**كان قد مضى وقت طويل... طويل جداً منذ أن سمحت لأحدهم بأن يراها وهي تبكي، ومنذ أن كانت صادقة بمشاعرها لهذه الدرجة.**

**بقيت ذراع لورين تحيط بكتفي مادلين وهي تقول لها: «ستكون الأمور بخير، أنا واثقة من ذلك، فحالما يولد الطفل لا بد أن تصبح الأمور بخير، وسترين».**

**كان ذلك كل ما تتمناه مادلين.**

**إلا أن شيئاً ما داخل صدرها كان يقول لها إنها ستحتاج لشيء أكبر من ذلك الأمل لتواجه ما كان المستقبل يخبئه لها.**

# الفصل الثامن عشر

تنفست جون بعمق ثم أخذت تركز على سقف الحمام، لأنها لم تكن تريد أن تبكي.

كان كل شهر يمر عليها دون أن تحمل يسبب لها صداعاً لم تكن قد عرفت مثيلاً له من قبل؛ لأن ذلك كان يشعرها بالعجز، وبأنها أصبحت مدعاة للشفقة، وبأنها عاقر. فبالرغم من أنه لم يمضِ وقت طويل عليها في هذه الحالة، إلاّ أنها كانت تشعر بها على الدوام؛ لأنها كانت مستعدة لكي تصبح أماً. فقد مرت خمسة أشهر، وفي كل شهر كانت تتأمل وتتضرع، ثم ينتهي بها الأمر بخيبة أمل.

استبعدت تلك الأفكار المزعجة من رأسها حينما سمعت صوت صفير إيدي المرح، إذ أشعرها صوت حذائه على الدرج بتحسن كبير، لكنها كانت تعرف أن هذا الخبر سيصيبه بخيبة أمل هو أيضاً.

«أين أنتِ يا حبيبتي؟».

تنحنحت جون ثم سكبت ماءً في المرحاض وهي تقول:

«لحظة من فضلك».

فأخذ يواصل صفيره بنغمة معينة. وحينما فتحت الباب وخرجت من الحمام، رأته جالساً بانتظارها على السرير، فسألها:

«هل أنت مستعدة للخروج؟».

عندها ابتسمت جون، ولكن عندما التقت عيناها عينيه فقدت السيطرة على نفسها، وخرجت من فمها شهقة بكاء رغماً عنها، ثم أخذ جسدها يرتعش، وبلمح البصر أصبح إيدي واقفاً بجانبها.

أحاطها بذراعيه بقوة، وأخذ يهزها للأمام والخلف وهو يقول: «حبيبتي جون... جون... ما الأمر؟».

فأغمضت عينيها بقوة على أمل أن تختفي دموعها، وذلك قبل أن تفلت منه لتتمكن من رفع بصرها إليه.

سألته: «لمَ لم نتمكن من إنجاب طفل يا إيدي؟ ما الذي فعلناه حتى نستحق هذا العقاب؟».

عندها تنهد، ثم عانقها مجدداً وهو يقبّل رأسها ويهمس في أذنها محاولاً تهدئتها:

«علينا بالصبر. وستصبحين أماً رائعة يوماً ما، لذا ما عليك إلاّ أن تنتظري وسترين».

إلا أن ذلك أذكى فيها رغبة البكاء أكثر.

صاحت به فكان صوتها أشبه بحركة شفاه دون صوت: «لقد جهّزت لي هذا البيت الجميل، وكنت بغاية اللطف والروعة معي...»

عند ذلك، همس لها بالقول: «صه! لا تقولي ذلك».

فدفعته بقوة وابتعدت عنه وهي تقول: «لكنها الحقيقة! فلقد منحتني الكثير، لكنني لم أستطع أن أتدبر أمري وأحمل منك».

عندها، هزّ إيدي رأسه، وارتسمت ابتسامة على شفتيه وهو يقول: «حسناً، إنني مسرور لأنني بنظرك لطيف ورائع، لكنك لست أقل مني في ذلك».

**حاولت جون أن تخفي ابتسامتها لكنها لم تستطع، لذلك بدأت تعض على شفتيها، إذ كان دوماً ينجح في جعلها كذلك، حيث كان يرفع من معنوياتها في الوقت الذي يجب أن تحس فيه بالتعاسة والشقاء.**

**صاحت به: «كل ما أريده هو أن يكون عندي طفل يا إيدي، فهل أطلب الكثير؟».**

**وهنا، قطع المسافة الفاصلة بينهما مجدداً، وقبّل جبهتها هذه المرة، ثم طبع قبلة على خدها، وبعد ذلك على ثغرها، وقال:**

**«إن متعتي تتلخص بوجودك معي، لذا لا داعي للعجلة، لأن الأمر سيتم في الوقت المناسب، أليس كذلك؟».**

**فمالت عليه حينما أحاطها بذراعه، وانحنى فوقها بقامته الفارعة.**

**كرر السؤال بالقول: «أليس كذلك يا جون؟».**

**ردت: «أجل».**

**لكنها لم تكن تطيق الانتظار، إذ كانت تريد أن تحمل على الفور، لكنها حينما سمعت كلامه، أحست بأنه لا داعي للعجلة بالفعل؛ إذ كانا يستمتعان بوقتهما معاً، لدرجة أنها كانت تحس أنها لم تكن تحلم بزوج أفضل منه. لذا، كان من الغباء أن تنزعج من هذا الموضوع طالما أن زواجهما لم تمض عليه سنة، لكنها مع ذلك كانت ترغب بتكوين أسرة خاصة بها، لذا لم تكن تطيق صبراً.**

**سألها: «ما رأيك بأن نذهب؟».**

**فابتسمت له جون، ثم وقفت على رؤوس أصابع قدميها لتقبّله مرة أخرى، وبعدها عادت إلى الحمام، وهي تقول:**

**«لست أدري ما هو الشيء العظيم الذي فعلته في حياتي حتى أكافأ بشخص مثلك يا إيدي ويست».**

**ثم ضحكت حينما سمعت جلجلة ضحكته خلفها.**

**وبعدها قال لها: «لا تزال عائلتي تحاول أن تكتشف ما الذي فعلته حتى خدعتك وأقنعتك بالزواج مني. إذ إنهم جميعاً باتوا على يقين من أنني قد فعلت شيئاً ما لأخدعك وأوقعك في شباكي».**

**ردت: «أحقاً؟!». وفجأة، أحست بأن همومها أصبحت أقل، وبأنها أصبحت سعيدة، إذ كان بمقدوره أن يضحكها دوماً ليغير مزاجها السيئ، لذا كانت محقة حينما قررت أن تشاركه همومها، فقد كان يساعدها على تحسين حالتها النفسية على الفور. سألها: «ما رأيك بذلك؟».**

**قفزت جون حينما ظهر على صفحة المرآة خلفها، وأحاط خصرها بذراعيه حينما حاولت أن تمسك بأحمر الشفاه وتمسح الدموع التي سالت على خديها.**

**ثم قال وهو يرفع شعرها ليقبل رقبتها من الخلف: «أعتقد أنني أكثر الرجال حظاً في العالم».**

**عندها، حاولت أن تبتعد عنه لكنه شدها إليه فسألته:**

**«وماذا بعد؟».**

**فرد: «أعتقد أنه يجدر بنا ألا نذهب إلى العشاء وأن نبقى في البيت».**

**وعندها دفعته بيدها بنعومة وهي تقول:**

**«لا أوافقك الرأي بكل تأكيد».**

**فما كان منه إلاّ أن عبس في وجهها، فبدا أشبه بجرو صغير.**

**سألها: «ولمَ لا؟».**

**كانت تضع مسحوق التجميل على أنفها للمرة الأخيرة حينما جعلها تستدير لتقف أمامه وجهاً لوجه.**

**فردت عليه بالقول: «لأننا نمضي كل ليلة في البيت بمفردنا يا إيدي، ولا بد أن تعتقد أسرتك أن طبعَيْنا أصبحا غريبين».**

*******

**كانت جون في كل مرة تخطو فيها داخل بيت أهل زوجها تقابلهم بابتسامة.**

**لم تكن ابتسامتها مؤدبة فحسب، بل كانت ابتسامة عريضة توجع خديها وتظهر أسنانها وهي تبتسم. أجل، كانت ابتسامة من ذلك النوع الذي لا يمكن أن يرتسم دون شعور صاحبها بسعادة غامرة.**

**رحّبت باتي بهما عبر التلويح بأصابعها من مكانها على الأريكة، بينما هرعت أمها لتقبيل جون على وجنتيها وهي تقول:**

**«كيف حال كنتي المفضلة؟».**

**فقبلتها جون بالمثل وردت: «بخير».**

**ثم انحنى إيدي ليقبل أمه هو أيضاً، وذلك قبل يختفي خلف والده الذي كان يفتح زجاجة من الشراب.**

**هتفت جون: «عذراً لتأخرنا».**

**فبالرغم من أنها كانت تعرف أن أسرة إيدي لم تكن لتكترث بذلك، إلاّ أن الأمر بدا لها وكأنها قد وصلت إلى البيت المثالي؛ فقد كان بيتهم دافئاً، حتى في الليل وبعد غروب الشمس. كانت بسط وسجادات كبيرة تزين الأرضية، أما الأرائك الضخمة والكراسي فكانت تملأ الغرفة، وقد تم إعداد طاولة كبيرة للعشاء، دون أن تخلو مما يزينها ويجملها. لقد كان بيتاً حقيقياً؛ بيتاً يستريح المرء فيه ويحس بالسعادة، وكان بالضبط البيت الذي كانت جون تتخيله وتتخيل كيف كبر كل من إيدي وباتي وترعرعا فيه.**

**هتف بها والد إيدي قائلاً: «أتريدين كأساً من الشراب يا جون؟».**

**عندها استفاقت من حلم اليقظة وقالت: «أجل، أريد كأساً».**

**حمل إيدي إليها الكأس، فما كان منها إلاّ أن ابتسمت له؛ في محاولة منها لتكبت ضحكتها حينما رأته يغمزها. فقد كان منظره مضحكاً حينما كان يقوم بتلك الحركات، إلاّ أنه لم يكن ذلك الشاب الدمث الذي تعشقه الفتيات والذي كان يحاول أن يبدو مثله.**

**وفجأة، صرّحت باتي بكل اعتزاز وهي تتمطى ثم تقف حينما جلب لها والدها كأساً أيضاً: «لدينا الكثير من الأمور التي سنثرثر حولها».**

فكتمت جون ضحكتها على شقيقة زوجها حينما وبختها أمها بالقول: «كفاك يا باتي! يجب ألا تتكلمي عن الناس في غيابهم، كما يجب عليك ألا تستمتعي بأذية الآخرين».

وهنا أصبحت جون تتحرق شوقاً لمعرفة من كان سيصبح محوراً للحديث والثرثرة.

ضحكت باتي وتجاوزت أمها، ولكنها كادت تسكب الشراب على نفسها، غير أنها سألت جون:

«أتتذكرين تلك السيدة الأنيقة التي رأيناها في المدينة منذ بضعة أسابيع؟ تلك المرأة التي أثارت مشكلة حول الطعام في المطعم؟».

أوه، أجل، كانت جون قد تذكرتها لأن امرأة مثلها لا تنسى.

سألت جون: «ما بها؟».

فانحنت باتي مقتربة منها وكأنها على وشك أن تكشف سراً خطيراً، ثم قالت:

«حسناً، إن ابنتها التي لم تتزوج بعد والبالغة من العمر ستة عشر عاماً حامل! حامل!».

عندها، لم تشعر جون بأي رغبة بالضحك كما فعلت باتي، لأن ذلك لم يكن عدلاً! إذ كيف يمكن لفتاة يافعة لا يهمها موضوع الحمل أن يتم لها ذلك بكل يسر وسهولة، دون أن تفلح هي بذلك بالرغم من كل محاولاتها؟

همست باتي من جديد: «أسمعتني؟ إنها في السادسة عشرة!».

عندها، ردت جون بعدما أحست بالحرارة تجتاح جسدها وكأنها على وشك الإغماء: «المسكينة! لكن هذا ليس عدلاً!».

فردت شقيقة زوجها هازئة: «ليس عدلاً! كان عليها أن تفكر بذلك قبل أن تتورط بتلك العلاقة مع ابن الجزار».

صاحت الأم: «كفّي عن ذلك يا باتريسيا!».

عندها، طأطأت جون رأسها؛ إذ كان يجدر بها ألا تشجعها على الحديث عن الناس. عضّت باتي على شفتها، وبدت عليها ملامح الاعتذار والندم حينما أخذ والدها يحدق بها.

همست جون: «ما الذي ستفعله؟».

اقتربت باتي من جون وقالت:

«سيرسلونها إلى مكان بعيد على الأغلب، ثم سيرتبون أمر تبني الطفل. فكما تعرفين، ثمة أزواج لطفاء لا يستطيعون أن ينجبوا، ولذلك يمكنهم أن يتبنوا طفلاً بهذه الطريقة».

فهزت جون برأسها، إذ كان وضع أولئك الأزواج يشبه حالها وحال إيدي.

«هلمي، فالعشاء على الطاولة».

التفتت جون حينما أمسك إيدي بمرفقها، وسمحت له باقتيادها إلى الطاولة.

التبني... هل بمقدورهما القيام بذلك؟ «هل أنت بخير يا حبيبتي؟».

تمكّن صوت إيدي القلق من تبديد تلك الأفكار من رأسها.

وعندها، ابتسمت حينما التفتت الوجوه القلقة نحوها وصوّبت نظراتها إليها مباشرة، ثم

قالت: «أوه، بالطبع! إنني بخير... وبأحسن حال، لكن أحلام اليقظة تراودني».

لم يبدُ على إيدي أنه اقتنع بكلامها، ولكنها شدت على يده بلطف تحت الطاولة ثم مالت عليه.

وأخذت تفكر: إن لم يكن باستطاعتهما إنجاب طفل، فبوسعهما أن يتبنيا واحداً.

ثم إنها ستحب أي طفلٍ؛ سواء أكان ابنها أم لا. إذاً، إن لم تحمل فلن تكون هنالك أية خسارة، بل ثمة بصيص أمل متبقٍ؛ حتى لو تبنيا طفلاً الآن، ثم أنجبا في ما بعد حينما يحين الوقت المناسب لذلك.

خاطبها والد إيدي بالقول: «لقد كنا نفكر بعائلتك يا جون».

وكذلك كانت هي تفعل، كل يوم ودون انقطاع.

فابتسمت لوالد زوجها بسرور وردت: «كم أودّ أن تلتقوا بهم يوماً ما. لا بد أنهم سيحبونكم جميعاً».

ثم دفعت جون بطبقها، وأخذت تراقب كيف امتلأ الوعاء بلحم البقر المشوي مع البطاطا والخضار.

فردّ عليها والد زوجها بالقول: «حسناً، ذلك ما كنا نتحدث بشأنه».

إلا أن جون لم تكن متأكدة تماماً من أنها فهمت ما يقصده.

فردت عليه بالقول: «لا أعتقد أنهم سيقومون بزيارتنا في وقت قريب».

ثم أخذت تراقب كيف أخذ كل واحد منهم هم الثلاثة ينظر إلى الآخر ثم يبتسم؛ وكأنهم كانوا يعرفون شيئاً ويخفونه عنها.

قال الأب: «سنأتي بهم إلى هنا ليقيموا عندنا».

كان على إيدي أن يلاحظ كيف فغرت جون فمها... ليقيموا؟ هل كانوا يريدون أن يفعلوا ذلك من أجلها؟

تابع الأب: «لقد قلت لك أن تفكري بالموضوع، أليس كذلك يا جون؟».

لكنها لم تستطع أن تصدق ذلك.

ولذلك هتفت: «لا يجب أن تحس أنك مضطر لذلك، أعني...»

عندها، حان دور الأم لتتكلم فقالت: «ما هذا الكلام! لقد أصبحت فرداً من عائلتنا يا جون، ثم إن الأمر لن يستغرق وقتاً طويلاً، إذ يمكن أن يتم ذلك خلال ستة أشهر، لكننا نفضل أن نبدأ بالقيام ببعض الترتيبات، لنعرف أفضل وقت بالنسبة إليهم».

لم تستطع جون أن تمسك بسكينها وشوكتها، إذ كانت مذهولة للغاية، فبدأت الدموع تنساب من عينيها، لكنها كانت دموع الفرح. غير أنها تمكنت من أن تبتسم حتى وهي تذرف تلك الدموع، ثم قالت والعبرات تكاد تخنقها:

«أصبحتم كل شيء بالنسبة لي، ولن يكون بوسعي أن أوافيكم حقكم من الشكر».

فأحاطها إيدي بذراعه ثم قبَّل وجنتها، بينما رفع والده كأسه معلناً شرب نخب المحبة وهو يقول:

**«بصحة جون؛ آخر وأعز فرد في عائلتنا».**

# الفصل التاسع عشر

«كل ما في الأمر أنه لا يمكننا أن نبقى هنا».

كانت مادلين قد قررت ألا تبكي، وهنا هبطت إحدى يديها واستقرت على بطنها فشعرت بالراحة. إذ كانت هذه الحركة هي الشيء الوحيد الذي يشعرها بالراحة في بعض الأحيان، وذلك من خلال إحساسها براحة يداها وهي تمسك ببطنها وتتلمسه.

لأنها لم تكن تجد أي راحة بين ذراعَي زوجها بالطبع.

صاحت: «لن أعود إلى ذلك المكان».

فحملق بها وقال: «لن نتحاور حول هذا الموضوع مرة أخرى».

فردت: «أجل يا روي، لن نفعل ذلك».

جالت ببصرها في بيتهما الذي كان لا يزال خالياً من الأثاث وصغيراً، لكنه كان لها، إذ كانت تسعدها فكرة أن لها مساحتها الخاصة بها مع كل يوم يمر، وأن لهما بيتهما الخاص بهما.

كان ذلك يحيي الأمل في نفسها.

أما العودة إلى المزرعة فلم تكن تحيي فيها أي مشاعر؛ باستثناء التعاسة والحزن. إذ لم يكن هناك أي مستقبل باهر ينتظرها هناك، أو أي شيء لتترقبه، كما أن بيت المزرعة لم يكن المكان المناسب لتقيم فيه مع طفلها.

أما في بيتها، فكانت تتمسك ببقايا الحلم الذي كانت ترى فيه أنها ستكوّن مع زوجها عائلة حقيقية، وأن زوجها سيعود ليصبح ذلك الرجل الذي التقته في إنكلترا، سيصبح شبيهاً بذلك الرجل الذي عاينت بعض خصاله في الفترة الأولى التي انتقلا فيها إلى المدينة، وأن زواجهما يمكن أن يتطور ليتحول إلى زواج مفعم بالحب كزواج لورين وسام.

أتى صوتها قوياً وحازماً: «لن أعود للمزرعة يا روي».

فبدا عليه أنه لم يتأثر بكلامها، ورد عليها بالقول: «لقد أبلغتهم عن أمر انتقالي في العمل».

وهنا اجتاح الألم جسدها، فأصبح كالنار حينما وصل إلى رأسها.

ثم جلست، وأخذت تقول في سرها: كلا... لا، لا، لا!

غير أن صوتها فقد قوته، فبدا كصوت طفل صغير وهي تقول: «ماذا فعلت؟».

فابتسم لها ابتسامة العارف التي جعلت قلبها يتوقف عن الخفقان، ولكن ليس بسبب شيء لطيف.

تابع قائلاً: «إنني زوجك يا مادلين، وقد قررت أن ننتقل للعيش مع أسرتي». ثم شبك ذراعيه ووضعهما فوق صدره، وأكمل: «لقد تساهلت معك لفترة، لكن أمي لم تتوقع منك أن تستمري بالعمل لفترة طويلة، كما أنك أصبحت حاملاً الآن، وهذا يعني أنه حان الوقت لأبدأ باتخاذ القرارات المناسبة لنا جميعاً. وبالإضافة إلى ذلك، أعتقد أنك كنت تبالغين بردة فعلك قليلاً. أعرف أن حياة المزرعة تختلف تمام الاختلاف عما اعتدت عليه، لكن عليك أن تعتادي على طريقة العيش هناك».

بيد أن الكلمات كانت تختنق في جوفها وهي تقول: «لا يمكنك... لا يمكنك أن تتخذ وبكل

بساطة هذا النوع من القرارات بمفردك».

وعندها عرفت أن أمه كانت تمارس ألاعيبها معه، إذ أجبرته على ذلك، وأخبرته بما يجب أن يقوم به. عندها، أخذت تتأوه وتندب حظها. فحينما كان يذهب ليتناول طعام العشاء معهم في كل أسبوع وتبقى هي في البيت دون أن تضطر لرؤيتهم، كانوا يدبرون لها تلك المكيدة. وهكذا، انتظروا إلى أن أصبحت عاجزة عن ردعهم، ولم يعد أمامها أي خيار بخصوص هذا الموضوع. آه كم كانت حمقاء وغبية!

وهنا بدأت تتلعثم بكلماتها وهي تقول: «وأين سنعيش إن أقمنا هناك؟».

فابتسم مرة ثانية، إلاّ أن هدوءه أقلقها، ثم رد: «في الغرفة التي خصصوها لنا في السابق. فهي كبيرة، ويمكنها أن تتسع لطفل معنا، حيث سنبقى فيها إلى أن أقوم ببناء غرفة إضافية في المنزل».

عندها، فقدت مادلين كل إحساس، وأصابها الخدر، وبدأت البرودة تجتاح جسدها بالكامل، فبدأت تفرك بطنها مرة ثانية، في محاولة منها لتستمد بعض القوة؛ إذ كانت قد سارت نحو الفخ دون أن تدري أنه قد نصب لها.

ومع ذلك ردت بالقول: «لن أذهب يا روي. فلقد أخبرتك قبل ذلك أنني لن أعيش في ذلك البيت مرة أخرى».

فتنهد روي بضجر، وكأنه كان يعرف ما الذي ستقوله وما الذي كانت تفكر فيه، وكأنه كان قد حضّر الإجابات. كانت هذه هي المرة المرة الوحيدة التي رأته فيها قد حزم أمره وصمم عليه منذ أن وصلت إلى الولايات المتحدة، ولذلك فجدالها معه لم يكن ليأتي بنتيجة.

وهكذا، كانت نبرة صوته هادئة عندما قال لها: «لن تتركيني. فبالرغم من أنني أعرف أنك أفضل منا، وأن مزرعة والديّ لا تناسبك، لكننا أصبحنا عائلة واحدة يا مادلين».

عندها، ابتلعت مادلين ريقها، وأحست بالحاجة لتنفس الهواء لأنها كانت تختنق، ثم أكدت له بالقول:

«بل سأتركك... إن أجبرتني على الذهاب فسأتركك».

سألها: «كيف؟».

لكنها لم تكن تريد أن تصل بالحوار معه إلى هذه النقطة؛ لأنها لا تزال تريد أن تمنح ابنها فرصة البقاء ضمن أسرة؛ بين أم وأب يحبانه، بعدما بذلا كل ما بوسعهما لينجح زواجهما.

وهنا ردت عليه بالقول: «لا أريد أن أتركك يا روي. لكن، إن بقيت مؤيداً لوالدتك وتسمح لها بالتدخل في حياتنا، عندها لن يبقى أمامي أي خيار آخر».

فردّ عليها: «لكنك لا تملكين المال يا مادلين كي تتركيني، ثم إنني لن أدعك تذهبين». ثم صمت هنيهة، وبعدها تابع قائلاً: «ولن تأخذي طفلنا معك لأي مكان».

قالت له: «الأجدر بنا ألا نصل إلى هذا المستوى يا روي، أرجوك! دعنا نحاول، دعنا نبقى هنا معاً، ونعيش في بيتنا».

عند ذلك، نظر إليها نظرة كلها برودة، إلاّ أنها لمحت في عينيه غضباً كان يشتعل رويداً رويداً ولكنه يتحكم فيه. أجل، كان غضباً لم تره في عينيه من قبل، وخاصة حينما قال لها: «لقد رتبت كل الأمور، وسأبلغ صاحب البيت بأننا سنرحل حالما يجدون من يحل محلي في العمل. لذا،

**فالمسألة لن تستغرق وقتاً طويلاً».**

**عندها، بدأت الدموع تنهمر على وجهها، وبدأ جسدها ينتفض؛ إذ لا يمكن لذلك أن يحدث، وخاصة الآن، لا سيما أثناء حملها، وبعدما لم يعد أمامها أي خيار إلاّ أن تضع مولودها.**

**فردت عليه بالقول: «سأتركك يا روي، سأفعل ذلك. إذ يكفي أن أرسل رسالة واحدة إلى بلادي وعندها يمكنني أن أعود».**

**فجاءها رده: «سنرى».**

**وعندها، أحست بأنه يعرف شيئاً لا تعرفه. فبالرغم من أنها كانت تعرف أن الفكرة سخيفة، إلاّ أن نظرة الثقة التي بدت على وجهه جعلتها تحس بوجود شيء ما؛ شيء لا بد أن أمه كانت وراءه. عندها، أخذ جسدها ينتفض، وبدأت يداها ترتجفان، إذ كانت تتأمل أن تكون مقربة من حماتها، وأن تقيم علاقة حب ومودة مع والدة زوجها، لكنها باتت تكرهها أكثر من أي شيء أو أي شخص آخر على وجه الأرض.**

**إلا أن روي خرج وتركها جالسة هناك وهي تهز كرسيها، فشعرت بطفلها يتحرك داخل بطنها، لكنها لم تستطع التركيز على ذلك.**

**إذ كان كل ما تفكر فيه هو أنها لم تكن تريد أن تعود إلى تلك المزرعة، لأنها لم تكن تطيق ذلك أصلاً.**

**إذاً، حان الوقت لتطلب من والدها مساعدتها.**

**أي حان الوقت لتعود إلى الوطن.**

# الفصل العشرون

وقفت أليس عند عتبة الباب وأخذت تراقب زوجها الذي مضى على كرهها له أسابيع كثيرة، بل أشهر، لكنها بدأت تحس تجاهه بالندم والشفقة. إذ كانت في كل مرة تحاول فيها أن تتواصل معه تشعر وكأنه لا يلاحظ وجودها أصلاً، وكأنه قد نسي أن لديه زوجة.

لم تكن تدري ما الذي عليها أن تفعله، وما الشيء الذي عليها أن تغيره؛ هذا إن كان هنالك أي شيء يمكنها أن تساعده من خلاله.

كان من الواضح أن مشاعر أمه مختلفة، لكنها لم تكن تقضي وقتاً طويلاً في التفكير في ذلك الموضوع. إذ كانت أمه تسكن على مقربة منهما، في مكان يقع بين بيتهما والريف، إلاّ أن أليس لم تكن تحب أن تزور حماتها بشكل منتظم، ثم إنها كانت تتلقى مكالماتها الهاتفية الغريبة حينما يدفعها حظها العاثر لتجيب عليها، فكان ذلك كل ما بينها وبين أمه؛ إلاّ أن الأخيرة كانت تعرف أموراً حول ما جرى مع زوج أليس، وكانت تخفيها عنها بكل وضوح، أما أليس فكان كل ما تعرفه هو أنهما باتا مديونين، وأن الرجل الذي عرفته يوماً قد اختفى.

«إلى أين أنت ذاهبة؟».

التفتت أليس إليه، إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي يلاحظ فيها رالف وجودها حسبما تتذكر.

ردت عليه: «لأنجز بعض الأمور الخاصة بالعمل فقط، ولن أتأخر».

أخذ رالف يتفحصها؛ فبالرغم من علامات الإرهاق الناجمة عن الثمالة التي كانت تحيط بعينيه، إلاّ أنه كان يراقبها ويدرس وضعها.

كان عليها أن تحس بالذنب، غير أنها لم تشعر بذلك.

سألها: «وماذا عن عشائي؟». وهنا أخذ يبتلع الكلمات ابتلاعاً ويدغمها ببعضها؛ مما جعلها تتذمر. إذ كان أصعب شيء بعد تجاهله لها هو أن يكون ثملاً ثم ينطق مخاطباً إياها أخيراً.

كان مجرد الاستماع إليه وهو يتكلم بتلك الطريقة، وسماع صوته، ورؤيته وهو يحمل كل تلك القذارة يصيبها بالغثيان. فكل ما كان يهمه هو أن يملأ معدته بالطعام والشراب.

ردت عليه: «هناك وعاء في الفرن، بإمكانك أن تخرجه متى شئت».

عندها، كان بوسعها أن تسمع نبرة صوته وهو يتلفظ بكلام مشوش ومتداخل؛ وذلك حينما بدأت تمثل الدور الذي أرادت أن تلعبه. علت وجهه نظرة جفاء، أما عيناه فقد فقدتا تركيزهما حينما بدأ يحدق بالجدار، لم يكن وقتها يصغي حتى للمذياع، ولم يكن ينظر من النافذة أصلاً.

هتفت: «إلى اللقاء يا رالف!». غير أن كلماتها كانت تفتقر للدفء.

وعندها فقط تمنت لو أنها تودعه إلى غير رجعة.

حملت أليس حقيبة يدها وانسلت من الباب. كان عليها أن تسير لتقطع بناء واحداً فقط قبل أن ترى السيارة اللامعة التي كانت تبحث عنها.

لم يخرج من السيارة، لكنها لم تكن تتوقع منه أن يفعل ذلك؛ إذ كان قد جازف بما فيه الكفاية حينما أتى ليصطحبها. كما أنها لم ترِد أن يراهما أحد معاً، وخاصة في مكان قريب من بيتها.

كما أنه لم يسبق لهما أن أظهرا كل هذه الوقاحة خلال لقاءاتهما السابقة.

بدا على ماثيو أنه كان يهمس بكلماته همساً حين قال: «مرحباً يا حبيبتي».

فما كان منها إلاّ أن غرقت أكثر في المقعد وهي تشعر بمتعة ذلك الإحساس الذي شعرت به حينما وضع يده على فخذها. كانت أليس ترغب بأن تلتصق به لتقبله، لكنها كانت تعرف بأنه يحب التحفظ.

سألها: «أكان من الصعب عليك أن تنسلي من البيت؟».

فهزت رأسها نافية وهي تقول: «إطلاقاً».

رد عليها: «جيد».

عندها، نظرت أليس للأمام وهي تسأل نفسها عن المكان الذي سيتوجهان إليه.

قالت له: «أتمنى أن نأكل شيئاً ما لأنني أتضور جوعاً».

وهنا، اقتصرت ردة فعل ماثيو على تحويل نظره عن الطريق ليبتسم إليها، ثم غمزها إحدى غمزاته وهو يقول: «إنني أتوقع أن تكون شهيتك مفتوحة».

وفجأة، لم تعد أليس تحس بالجوع، لأنها باتت خائفة.

أخذا يتبادلان القبلات بحرارة بعدما اقتربا من بعضهما أكثر، لكنهما لم يكونا بهذه الحميمية من قبل، لذا لم تعد أليس تستغرب إصراره على الخروج معها هذه الليلة.

إذ كان قد خطط لذلك مسبقاً.

كانت هذه هي الليلة التي أصبحت فيها عشيقة لمديرها.

وبعد هذه الليلة، كان كل ما يفعلانه مجرد تمثيل. إذ كانا يمثلان بأنهما يعيشان علاقة ناضجة، لكنها كانت المرأة الأخرى في حياته. لذا، لا بد أنها كانت تقترف إثم الزنا بكل وضوح.

إلا أنها لم تستطع أن تقول له لا. وهكذا، أخذا يلتقيان سراً بعد دوامهما في المكتب، وذلك خلال مواعيد على الغداء أخذت تتكرر طيلة بضعة أسابيع ابتداء من تلك الليلة.

أخذت أليس تنظر إلى ماثيو وقد أعجبها انسدال شعره الناعم، وفكه القوي، وثيابه النظيفة، لذا لم تكن تكل أو تمل من النظر إليه.

قال لها: «معي هدية لك في الخلف».

هتفت: «لي؟!».

فهز برأسه إيجاباً وهو يقول: «مدّي يديك للخلف وألقي نظرة عليها».

كان الغطاء قد وضع فوق علبة سوداء كبيرة، لذا أخذت أليس تتلوى لتدفع ذلك الغطاء بعيداً عن العلبة.

وفجأة هتفت: «أوه، يا إلهي!».

وتمنت حينها لو تصرخ من شدة الفرح.

أخذ ماثيو يبتسم، ثم سألها:

«أأعجبتك؟».

تركت أليس أصابعها تتلمس الفراء الناعم الفاخر، لقد أصبح هذا المعطف معطفها! لطالما حلمت بالحصول على واحد مثله طيلة حياتها، ولطالما تخيلت زوجها وهو يشتري لها معطفاً مثله حينما تصل إلى هذه البلاد.

وهنا أخذت تذكر نفسها بالقول: كفاك! إذ كانت تمنع نفسها من مجرد التفكير برالف حينما تكون بصحبة ماثيو.

هدّأت من جيشان عواطفها، وذلك باستبعاد المخاوف التي كانت تتفاقم داخلها. فزوجها لم يكن يعبأ بما كانت تقوم به أو بالمكان الذي تتواجد فيه، لذا كان من الصعب عليه أن يلاحظ ارتداءها معطفاً من الفرو. ثم إنه هو من يجب أن يشعر بالذنب بسبب سلوكه وليس هي، فهي لم تكن ترغب بخيانته. ولكنها ظلت تحس بوخزة الذنب تلك؛ لأن كل ما كانت تريده هو أن تجد شخصاً يحبها، وأن تحس بأنها مرغوبة، وليس أن يكون وجودها أمراً مسلماً به، إذ لم تعد تطيق أن تشعر بالوحدة أكثر من ذلك.

لم يعد ماثيو ينظر إلى الطريق بل إليها حينما قال: «لم تجيبي على سؤالي يا أليس، أأعجبك؟».

فردت: «إنك الأروع يا ماثيو. أشكرك من صميم قلبي!».

ثم مالت نحوه وطبعت قبلة على وجنته؛ إذ كانت على وشك أن تطير من الفرحة بعدما حصلت على هديته، كما أن همومها ومخاوفها قد تلاشت.

إلا أنه أخذ ينظر إلى الطريق، ثم ابتسم ابتسامة ماكرة وهو يقول: «أريدك أن ترتدي معطف الفرو هذا دون أن ترتدي شيئاً سواه».

عندها، دغدغت رعشة من الإثارة جلدها وقالت:

«حاضر يا مديري».

***

ارتدت أليس المعطف حالما ترجّلت من السيارة، فبدا وكأنه يغلفها ويداعبها ويجعلها تحس بأنها مرغوبة. كانت تتخيل سابقاً رالف وهو يعاملها بهذه الطريقة، فيدللها ويعشقها كثيراً.

ولكم كانت مخطئة في ذلك.

شبك ماثيو يده الدافئة بيدها بقوة، وكأنهما قد خلقا ليكونا معاً.

ثم قال لها: «تبدين جميلة».

فابتسمت عندما سمعت كلماته، ثم أخذت تلوي أصابعها بين أصابعه إلى أن انتزعت يدها من يده.

صاح بها: «أليس؟».

فاستبعدت ذلك الإحساس، وأجبرت قدميها على متابعة المسير، كما أجبرت عقلها على العودة إلى المكان واللحظة السعيدة التي عاشتها منذ قليل.

غير أن الحافة الباردة لخاتم زواجه انغرست في أصابعها مرة أخرى، وذلك حينما استرجع يدها؛ مذكراً إياها بأنها أخطأت في ما فعلته. إذ لم يكن ليترك زوجته من أجلها، كما أنه لم يكن يفكر فيها سوى بأنها مجرد فتاة يقضي معها وقتاً ممتعاً. إلاّ أن وجوده معها كان ينطوي على خيانة

لامرأة أخرى؛ فالقبلات والضحكات الغريبة واللحظات الحلوة التي كان يسرقها معها لم تكن تقلقها كثيراً من قبل، إلاّ أن كل الأمور اختلفت هذه المرة، بل أصبحت علاقتهما أشد خطراً وأكثر جدية.

قال لها: «لا بد أنك أدركت بأنني سأجردك من ثيابك وأقبّل كل جزء في جسدك الليلة، أليس كذلك؟».

ثم ابتسم، فابتسمت له أيضاً، لكنها كانت متوترة. أجل، بل كانت منفعلة للغاية؛ لأن كل ما كانت تريده هو أن تحس بأنها مرغوبة، وأن تكون له طيلة الليل. ألم يكن هذا كافياً؟ وإذا لم يكن يريد أن يفكر بزوجته، فلِمَ عليها أن تفكر هي بها؟

تمتمت وهي تحاول معاودة تمثيل الدور مجدداً: «يمكنني أن أتظاهر بأنني غير مهتمة على الإطلاق؛ على الرغم من أنني أتحرق شوقاً لذلك».

فما كان منه إلاّ أن ضحك، وذلك قبل أن يقبض على معصمها بشدة، ثم يرفع يدها ليقبلها. وهكذا، أحست بشفتيه الرطبتين وهما تتحسسان جلدها.

رد عليها بالقول: «لكنني أحب أن أتظاهر بذلك».

عندها، أحست أليس بصوت داخل رأسها يحثها على الهروب، والإسراع إلى المنزل وإلى زوجها قبل أن تقدم على تدمير زواجها بشكل كامل. فربما اندفعت لممارسة الكثير من الأمور بدافع التسلية في الماضي، لكن لم يسبق لها أن خانت. ومن كل كلامها كان واضحاً أنها تريد علاقة حب، أما ارتكاب الزنا فلم تتوقع أن تقوم به نهائياً؛ لا سيما أنها كانت قد اقتنعت بأنها قد وقعت بحب رالف وتورطت بذلك.

إلا أنّ الصوت الآخر في داخلها كان مختلفاً، إذ دفعها لتندس بماثيو أكثر، وتتمنى أن يمضيا الليلة معاً؛ ذلك الصوت الذي ظل يذكرها بأن رالف الذي أحبته وتزوجته قد رحل منذ زمن بعيد.

بذلت أليس أقصى ما بوسعها لتبتسم، في الوقت الذي كان كل ما تريده فيه هو أن تخفي وجهها وتستر جسدها حياءً، وأن تغطي عريها، وأن تتكور كطفلة صغيرة وتبكي وتبكي إلى أن تجف الدموع في مقلتيها.

سألها ماثيو: «أتريدين أي شيء؟».

فهزت أليس رأسها نفياً؛ فما هو الشيء الذي كانت تريده؟ أتريد فرصة ثانية؟ لو كانت تعرف أن ما تقوم به سيكون قذراً وكريهاً لهذه الدرجة لما أقدمت عليه؛ إذ لم يكن هذا ما تريده، ولم يكن يشبه ما توقعته.

ردت عليه: «إنني بخير يا ماثيو، أشكرك».

فانحنى نحوها، وهنا سقط مشبك حزامه الذي كان قد فكه فوق جسمها؛ مما جعلها تحس ببرودة ملمسه. بذلت أليس كل ما بوسعها لتمنع نفسها من العبوس حينما أخذ يمرر شاربه فوق وجهها، ثم وضع شفتيه الرطبتين على شفتيها؛ فقد كان الأمر مثيراً بالنسبة لها من قبل، أما في هذه اللحظة فقد بدا لها... مزعجاً.

سألها: «أرى أن نلتقي على الغداء يوم غد، ما رأيك؟». ثم أخذت يداه تلمسان شعرها، ثم تمران على صدرها.

حينها، ودّت أن تصرخ، وأن تبعد يده عنها بقوة، وتطلب منه ألا يعاملها بهذه الطريقة. لكنها لم تستطع؛ لأنها كانت تعرف السبب الذي دفعه لإحضارها إلى هذا المكان، كما أنها تبعته وهي بكامل وعيها وإرادتها.

وهنا أخذ يسألها وهو يتلمس جسدها: «أليس، إن كل ما أتمناه هو موعد آخر كموعدنا هذا، حيث سنشرب القهوة ونتناول طعام الغداء».

عندها، أحست أليس أنها مجرد امرأة رخيصة، ومقرفة، وخائنة.

ردت عليه: «إنني بحاجة لبعض الوقت كي أجهِّز نفسي يا حبيبي. فهل تمانع ذلك؟». كانت أليس قد بذلت أقصى ما لديها من قوة لتكلمه بذلك الغنج؛ إلاّ أن الكلام معه بهذه الطريقة وكأنه حبيبها لم يعد يبدو طبيعياً؛ إذ فقد تأثيره منذ اللحظة التي جرّدها فيها من ثيابها. وقد استغرق الأمر منه دقيقة أو أكثر ليجد متعته، دون أن يفكر بما كانت تحتاج إليه، أو يفكر بإسعادها أيضاً.

عضت أليس على شفتها بقوة، فقد عاشت وضعاً حميمياً مع رالف لمرة واحدة؛ وذلك حينما كان ثملاً، وبعدها لم يعد يظهر أي رغبة أو اهتمام بها. وكان إحساسها بذلك من بين أمور أخرى كثيرة هو ما جعلها تحسٍ بأنها جوفاء، وبأنها مجرد صورة للمرأة التي كانت عليها حينما كانت في إنكلترا. إلاّ أنها كانت تفضّل ذلك الإحساس على الإحساس بالذنب الذي كان يعتصرها في تلك اللحظة.

قال لها وهو يرتدي بنطاله ويسحب قميصه: «بالطبع لا. وسأكون قد طلبت مشروباً في الردهة أثناء انتظاري لك».

أخذت أليس تراقبه وهو يغادر، ثم انتظرت لتسمع صوت الباب وهو يغلق أخيراً، فوقفت عارية أمام المرآة، وأخذت تنظر إلى نفسها، وتعاين بعينيها كل جزء في صورتها المنعكسة.

كانت قد حلقت الشعر الزائد، كما كانت تبدو رشيقة وجذابة.

إلا أن وجهها كان الشيء الوحيد الذي بدا كوجه دمية طلي بألوان عديدة، لدرجة باتت معها الزينة ومساحيق التجميل تخفي شخصية تلك المرأة وتغطيها. كما لاحظت شعرها الأشقر اللامع الذي لم تنتبه له منذ مدة طويلة.

كانت المرأة التي تراها في المرآة لا تشبه المرأة التي عرفتها طيلة حياتها؛ فقد كانت تلك المرأة التي كانت تعرفها تتمتع بصفات وأخلاق حميدة، كانت امرأة قد ردت رجلاً متزوجاً حينما كانت عازبة. كانت تلك المرأة تريد أن تبذل جهدها لينجح زواجها. أجل، كانت تستمتع بحياتها، ولكنها كانت تميّز بين الخطأ والصواب. وهكذا، فكل ما في الدنيا من أموال وثياب جميلة لم تكن لتعوض عمّا اقترفته.

أما المرأة التي تحوّلت إليها فقد كانت مجرد امرأة رخيصة؛ إذ منحت نفسها لمديرها كما تفعل أية بائعة هوى. ومن أجل ماذا؟ لم يكن بوسعها أن تصبح أكثر من خليلة له؛ إذ لم يستغرق الأمر سوى هدية واحدة وبعض كلمات الإطراء حتى ركعت تحت قدميه.

استدارت أليس وأمسكت بثيابها.

كان كل ما تعرفه في ذلك الوقت هو أنها لن تكرر ما فعلته مرة أخرى.

لم تكن تريد أن تعيش الشعور ذاته ثانية؛ إذ كانت تشعر بالاشمئزاز من سلوكها. لذا، لم تكن تريد أن تختبر ذلك الإحساس من جديد.

كان تريد أن تمنح زواجها فرصة أخرى. ولو كان بوسعها أن تعيش مع إحساسها بالذنب، وأن تستشعر ثقله الجاثم على صدرها، فعندها يمكنها أن تسعى جاهدة لتصلح أمر رالف، وإلا فستتركه، ولن تكون خليلة لأي شخص كان؛ الآن أو في ما بعد، وخاصة في هذه اللحظة التي كانت تعيش فيها ذلك الإحساس.

ولكن، هل بوسعها أن تصلح أمر زواجها؟ لأنها كانت تعرف طبيعة الرجال؛ إذ لا يستطيع

**الرجل أن يغفر لزوجته ذنباً كالذنب الذي اقترفته.**

**هذا إن اكتشفه أصلاً.**

# الفصل الحادي

# والعشرون

أصابت الرعشة يد مادلين وهي تمدها فوق المكتب؛ إذ أخبرها مديرها بوجود تلغراف بانتظارها، وعندها شعرت بانقباض في صدرها، وبأن أخباراً سيئة ستصلها اليوم. إذ كانت قد أرسلت رسالة لعائلتها بعد انتقالها، لتخبرهم فيها أن يرسلوا لها الرسائل على عنوانها في العمل، لكن لم يصلها شيء منهم منذ فترة طويلة، ولهذا أثار قلقها وصول تلغراف منهم في ذلك اليوم.

أخذت تسأل نفسها: هل سترسل لها عائلتها تلغرافاً بدلاً من الرسالة إن وضعت شقيقتها مولودها وذلك احتفالاً بهذه المناسبة المهمة؟

لكنها لم تفلح بالتوصل إلى سبب مقنع وراء إرسال ذلك التلغراف إلا وجود مصيبة. ولهذا أحست بالوبر الذي كان على ساعديها ينتصب، وخاصة أنها كانت بحاجة لعائلتها في هذه المرحلة، لا سيما بعدما توصّل روي إلى القرار الخاص بانتقالهما للمزرعة.

ابتسمت السيدة التي كانت تجلس خلف المكتب، إلاّ أن ابتسامتها اللطيفة زادت من وضع مادلين سوءاً.

كان هنالك مقعد خارج المكتب، وهكذا جلست مادلين عليه لتستريح؛ إذ كانت قدماها تؤلمانها من الوقوف في المصرف وهي تملأ الأوراق لأمين الصندوق طيلة النهار.

كانت الورقة قد تغضنت، ولهذا دفعت بأصابعها بين طياتها ثم فتحتها، لكنها أغمضت عينيها في الوقت ذاته.

كانت تنتظر الوقت المناسب لترسل هي «تلغرافاً» لهم؛ إذ باتت على استعداد لإخبار عائلتها بأنها تريد أن تعود للوطن، وأن تترك كل شيء، وأن تتخلى عن زواجها وتهرب. وقد بقيت تدخر المال طيلة أسابيع طويلة وذلك لتتمكن من دفع أجرة إرسال التلغراف دون علم روي. إذ كان قد أحكم سيطرته على مواردهما المالية منذ أن قرر أن يعودا إلى المزرعة.

ابتلعت مادلين ريقها، ثم فتحت عينيها وقرأت الورقة على عجل.

كان جسدها بكامله على وشك أن يتهاوى، وكأنها تلقت صدمة كهربائية كفيلة بإصابتها بالشلل.

كلا! لا، يا إلهي!

كان ذلك أسوأ من العودة إلى المزرعة، كان ذلك... لا يمكن أن يكون هذا حقيقة!

صرخت: «كلا! رحماك يا الله! كلا!».

ثم مزقت الورقة إلى قطع صغيرة، ثم إلى قطع أصغر فأصغر فأصغر، إذ لا يمكن لذلك أن يحدث.

إلا هو... إلا والدها.

إلا أنها مهما مزقت الورقة بقيت الكلمات عالقة في رأسها. أجل، بقيت مطبوعة بل محفورة في ذاكرتها.

حبيبتي مادلين. لقد توفي والدك متأثراً بنوبة قلبية في محله. لذا أردنا أن نخبرك بأنه كان يحبك ويفتقدك.

**لقد رحل والدها.**

**ورحل معه أي أمل بمغادرة الرمضاء الذي تعيش فيه.**

**وهكذا، أصبح عليها أن تعود إلى المزرعة.**

# الفصل الثاني

# والعشرون

سمعت بيتي صوت لوكا حينما وصل إلى البيت. كان الوقت متأخراً، وكانت قد تناولت عشاءها مع إيفي، ثم أوت إلى سريرها ساعة وصوله. وهكذا، سمعت صوت هدير السيارة وهي تتوقف فوق الممر المرصوف بالحصى، وكذلك صوت وقع خطواته، وبعدها صوت الباب. إذ بعد مرور أشهر كثيرة، أحست بيتي بأنها أصبحت مستعدة لتكون جزءاً من هذا العالم مرة أخرى، ولتتواصل مع شخص آخر غير طفلها أو إيفي.

ثمة شيء ما في داخلها كان يشعرها بأنها مفتونة بكل ما يحيط به. إذ كانت تتحرق شوقاً لتكتشف المزيد عنه، ولتفهم طبيعته، وتكتشف إن كان يشبه حبيبها شارلي في شيء. فقد كان هو الرابط الحي الذي يجمعها به في نهاية المطاف.

كانت بيتي تسعى جاهدة لتتصرف بحكمة وتعقل، لأنها لم تكن تعرفه جيداً؛ إذ كانت نادراً ما تراه بسبب سفره الدائم وابتعاده من أجل أعماله، والساعات الطويلة التي كان يقضيها في العمل.

كان ويليام قد نام بجانبها، لكنها كانت تحس بالحزن والوحدة في تلك الليلة، ولهذا حينما استسلم ويليام للنوم وهو بين ذراعيها، لم تجرؤ على نقله إلى غرفة نومه، بل وضعته فوق ذراعها، واندست بجانبه.

أخذت تستنشق رائحته، رائحة الصابون المنعشة بعد الحمام، ورائحة أنفاسه الجميلة وهو يزفر.

كانت قد فقدت شارلي، لكنها قررت ألا تخسر هذا الفتى الذي كان لا يزال يبول في ثيابه. فقد كان مستقبلها؛ حيث كان كل شيء قامت به منذ تلك الخطوة وما بعدها قد فعلته بصفتها أمه، وهكذا أصبح من واجبها أن تحتفظ بشارلي في قلبها وفي ذاكرتها، وأن تكون قوية.

سمعت بيتي صوت لوكا وهو يتلفظ بالكلام همساً أثناء حديثه مع إيفي، فشعرت بالسكينة تتسلل إلى روحها، حيث تأكدت أنها ليست وحيدة في هذا البيت؛ حتى لو كانت تشعر بالوحدة فيه في بعض الأحيان. كان لوكا يبدو كضيف يقوم بزيارات غير منتظمة للبيت، بينما كانت هي وإيفي الشخصين الوحيدين اللذين يقيمان فيه.

كان الحديث مع إيفي، وتمضية الوقت معها في المطبخ يومياً قد كشفا لبيتي الكثير حول طبيعة شخصية لوكا؛ إذ كان الأخ الجدي الذي حقق نجاحاً على الصعيد المالي بنفسه، كما تمكن بطريقة ما من أن يفر من الخدمة العسكرية. وقد عرفت بيتي أن لوكا هو من أصر على فتح بيته لها بلا ريب، بالرغم من أن أفراد أسرته الآخرين– الذين لم تلتقهم بيتي بعد– قد نصحوه بألا يفعل ذلك.

ولذلك، قررت بيتي أن تكون مصدر سرور بالنسبة للوكا لأنه قدم لها سقفاً يؤويها، وأن تطلع ويليام على ذلك ليعرف من هو ذلك الشخص الذي عليه أن يدين له بالفضل.

أغمضت بيتي عينيها واستحضرت صورة شارلي، وذلك عندما كانت تراقصه وتقبّله وتستلقي على العشب معه ليحدقا معاً في السماء.

شارلي الذي كان من المستحيل أن تنساه.

***

ثمة شيء في شخصية لوكا أخذ يذكرها بشارلي أخيراً بعد مرور كل ذلك الوقت، لكنها لم تتمكن من تحديد ذلك الشيء، إلاّ أنه كان موجوداً في مكان ما، بعدما اختفى تحت ما هو ظاهر. أجل، كان هنالك شيء ما فيه يذكرها بزوجها، لكنها لم تكن قد رأت ذلك الشيء من قبل، غير أنها بدأت تحس في هذه الفترة أنه أصبح فجأة يقضي وقتاً أطول في البيت.

التفت ليراها ثم ابتسم، أو لنقل إنه ابتسم لها نصف ابتسامة. أما هي فقد كانت تبذل جهداً أكبر لتتمكن من الانضمام إليه ومجالسته خلال أوقات تناول الوجبات، لا سيما وجبة الفطور في الصباح، وقد بدا لها أن الأمور بدأت تسير لصالحها.

سألها لوكا: «ماذا خططت لهذا اليوم يا بيتي؟».

فوضعت فنجانها على الطاولة، واستدارت بكامل جسدها لتواجهه. كان يجلس إلى طاولة الصباح وقد وضع ورقة أمامه، أما بقايا الأوراق من ليلة البارحة فقد تناثرت فوق سطح الطاولة الخشبي.

ردت عليه بالقول: «لم أخطط لشيء». إذ لم تكن قد خططت لشيء مطلقاً، ثم إنها لم تكن تعرف أحداً؛ باستثناء الفتيات اللواتي تعرفت عليهن خلال الرحلة. لذا، لم يكن لديها أحد، وهذا ما جعلها تقضي أيامها وهي تعتني بويليام، وتتحدث مع إيفي وتساعدها، كما تمكنت من الوصول إلى بعض الكتب في المكتبة. لذا، كان الشيء الوحيد الذي ينقصها هو أن تجد صديقاتها؛ إذ كان بوسعها أن تعتمد على دعمهن. ولكنها ولسبب ما لم تحاول التواصل معهن، كما أن أياً منهن لم تجد طريقها إليها، ولعل ذلك يعود لانشغال كل منهن بحياتها؛ بالرغم من أنهن وعدن بعضهن بالبقاء على تواصل، لكن لم يصلها شيء منهن بعد.

قال لها: «أفكر بالذهاب لرؤية والديّ».

عندها، شعرت بالدوار قليلاً، ما شأن أبويه؟

ردت عليه بالقول: «لم أعرف أنهما يريدان رؤيتي».

عندها، ارتشف رشفة من قهوته، وبدأ يطوي الورقة وهو يقول: «بل على العكس؛ إذ أخبراني أنه من غير اللائق أن تبقي هنا في بيت شخص أعزب، في الوقت الذي بوسعهما فيه أن يستضيفاك في بيتهما».

ثم تنحنح وتابع: «لقد أبعدتهما عن البيت بقدر ما استطعت، لكنك الآن، حسناً، أصبحت أقوى بعض الشيء، لذا لا يمكنني أن أصرفهما عن المجيء أكثر من ذلك».

وهنا، لا بد أنه لاحظ شحوب وجهها، وكأن كل الدماء التي كانت تسري في عروقها قد جفت حينها. وبكل صدق وصراحة، كانت تعرف أنه من الغريب ألا تلتقيهما بعد كل تلك الفترة؛ بما أنها أصبحت أرملة شارلي وأم حفيدهما الوحيد. ومع ذلك، ظل قلبها يخفق بشدة، وأحست بصعوبة حقيقية في التنفس.

عند ذلك قال لها: «اطمئني!». فكانت هذه المرة من بين المرات القليلة التي رأت فيها ابتسامته الواسعة بشكل مباشر، ثم تابع قائلاً: «فأنا لن أوصلك إلى هناك وأتركك عندهما؛ لأنني أشعر بأنني قد أهملتك. والآن، أصبح كل شيء تحت السيطرة في مجال العمل، لذا أريد أن أمضي بعض الوقت معك ومع ويليام».

عندها، تمكنت بيتي من التنفس قليلاً، فقد استنفدت كل طاقتها لتستقر هناك. وبدون إيفي

كان لا بد أن تعمّ حياتها فوضى عارمة. حتى إن الحديث مع لوكا كان يرهقها في بعض الأحيان؛ وذلك خلال المناسبات القليلة التي أمضت معه فيها وقتاً أطول. إذ كان لوكا يستيقظ عادة في وقت مبكر، ثم يخرج من البيت في الوقت الذي تستيقظ فيه بيتي، لذا لم تجده في البيت سوى مرة وحيدة بعدما غادرت فراشها.

بعد ذلك، دخلت إيفي الغرفة لترفع أطباق الفطور.

فخاطبها قائلاً: «كنت أقول لبيتي للتو إن اليوم مناسب لأعرفها على أمي وأبي».

عندها، تبادلت إيفي نظرات خاطفة مع بيتي، إلاّ أن ذلك لم يفت لوكا الذي قال بلهجته الجافة:

«وليس لدي أدنى شك بأنها قد عرفت كل شيء عنهما من خلالك».

فردت إيفي: «لم أتحدث عنهما مطلقاً».

وبالطبع، كانت إيفي تسعى جاهدة لإخفاء مشاعرها في تلك اللحظة.

لكن لوكا خاطب بيتي بالقول: «إنهما ليسا سيئين لتلك الدرجة؛ بالرغم من كل ما سمعته عنهما».

عند ذلك، هتفت إيفي بكل ذكاء وسرعة بديهة لاذعة كلسعة السوط: «إذاً، لم تركت بيتهما بتلك السرعة يا سيد لوكا؟».

فما كان منه إلاّ أن ضرب بيده ضربة قوية باتجاه إيفي وهو يقول: «دعك من السيد لوكا ومن هذا التحليل».

عند ذلك ضحكت بيتي، ولم تستطع أن تكتم ضحكتها، لأنها لم تكن تعلم حتى تلك اللحظة أنه بوسع لوكا أن يمزح ويكون مرحاً مع الآخرين.

لكنه أشار بإصبعه وضحك أيضاً وهو يقول: «دعك من هذا أنت أيضاً! فلا أريد أن تتآمر ضدي امرأتان».

عند ذلك، أظهرت له إيفي إحساسها بالامتعاض، ثم غادرت الغرفة وهي تحمل الأطباق بيديها.

وهنا سأل لوكا بيتي: «إذاً؟».

فابتسمت بيتي وردت عليه بالقول: «يسرني أن ألتقيهما. لكن، عدني أن تعود بي إلى هنا بعد أن أنتهي من زيارتهما، فأنا لا أريد أن أبقى عندهما».

وهنا نهض لوكا، ثم توقف ليحادث ويليام، وقد حدث ذلك بسرعة كبيرة أيضاً.

كان طفلها الصغير ممدداً على أريكة كبيرة، تحيط به بطانية ناعمة الملمس، وتحفه الوسائد كي تمنعه من السقوط. وكان قد شغل نفسه بنطق حروف غير مفهومة والتحدث إلى نفسه طيلة الوقت الذي كانت فيه أمه تتناول طعام الفطور مع عمه.

سأله لوكا: «أتريد أن تلتقي جدك وجدتك أيها الصبي الصغير؟».

عندها، سارعت بيتي للوقوف بجانبه، أما ويليام فكان قد كور يديه الصغيرتين، وأخذ يضرب الهواء بهما، كما كان على وشك أن يبتسم.

فصاحت به: «ابتسم لعمك، هيّا!».

ثم انحنت للأمام، وأخذت تداعبه من تحت ذقنه، وعندها بدأت شفته السفلى ترتجف.

صاحت به أمه: «هيّا يا ويليام!».

فما كان منه إلاّ أن أبعد ناظريه عن بيتي وعاد ليحدق بلوكا. وهنا كان بوسعها أن ترى بطرف عينها لوكا وهو يبتسم له.

ثم ضحكت حينما أخذ ويليام يبتسم ويظهر تعابير مضحكة على وجهه، وخاطبت لوكا بالقول: «أوه، انظر!».

فضحك لوكا أيضاً، ثم مد إصبعه لويليام ليلتقطها.

عند ذلك قالت له بيتي: «أعتقد أنه يحبك».

فنظر إليها لوكا؛ إذ كانا يقفان على مقربة من بعضهما، وذلك حينما تحلقا فوق الطفل، أي أن المسافة الفاصلة بينهما كانت ضئيلة.

فما كان منه إلاّ أن ارتعش ورجع للخلف وحرر إصبعه من قبضة ويليام، فبدأ الصغير عندها بالبكاء.

عندها، تراجع لوكا وبدا عليه الارتباك مرة أخرى وهو يقول: «آسف، إنني...»

فما كان من بيتي إلاّ أن مدت يديها لويليام، فشرع يبتسم من جديد حينما حملته بين ذراعيها، وقالت:

«إنه مخادع كبير، هذا كل ما في الأمر». ثم قبّلت جبينه، واستدارت ليتمكن ويليام من رؤية لوكا مجدداً وهو يتكئ على كتفها.

عندها، خاطبها لوكا بتكلف: «أعتقد أنه علينا أن نغادر في غضون ساعة، إن كان ذلك يناسبك. وسأخبرهما بقدومنا».

فالتفتت بيتي خلفها، لكنها لم ترَ سوى ظهر لوكا. لذا تساءلت إن كانت قد تفوهت بشيء أساء له وجعله يتصرف بكل تلك الفظاظة.

وهنا ظهرت إيفي، وعلى وجهها تعابير تنم عن التساؤل.

فهتفت بيتي على الفور: «لست متأكدة إن كنت قد أزعجت لوكا... إنني...»

ردت إيفي: «لقد ارتبك بعض الشيء؛ فهو لم يعتد على وجود الأطفال كما تعرفين».

عندها، هزت بيتي كتفيها وكأنها لم تكترث، ولكنها أحست بأنه جرح كبرياءها.

غير أن إيفي تابعت بالقول: «أو على وجود النساء».

إلا أن بيتي لم تصدق ذلك. فبالرغم من أنه لم يكن مثل شارلي، لكنه كان وسيماً؛ إذ كان يتمتع بشعر أسود كثيف، وعينين بنيتين، وقامة فارعة الطول. كما كان يمتلك بيتاً جميلاً، وكل ما يحتاج إليه المرء ليقيم مشروعاً تجارياً ناجحاً. إذاً، لِمَ ليست لديه أي خبرة مع النساء؟

لكن إيفي استطاعت أن تقرأ التعابير التي ارتسمت على وجه بيتي وقالت لها:

«سأخبرك بكل شيء حول هذا الموضوع يوماً ما». ثم أخذت تربّت على كتفها وهي تسير، وهنا تابعت قائلة: «وأظن أنك قد تكتشفين الأمر بنفسك بعد ما حدث اليوم».

إلا أنه لم يكن أمام بيتي الكثير من الوقت كي تتمكن من استجواب إيفي حول الموضوع، وخاصة أنه كان يجب عليهما أن يغادرا في غضون ساعة.

ولذلك سألت إيفي: «ماذا عليّ أن أحمل معي؟ وهل يجب عليّ أن أرتدي أفضل ما عندي أو أن آخذ معي حقيبة تكفيني لليلة واحدة؟».

فهزّت إيفي رأسها نافية وردت: «لا تأخذي معك حقيبة فيها ما يكفيك لليلة واحدة، وذلك لأن لوكا سيضجر منهما بمجرد وصولكما. وارتدي ثياباً جميلة، ولكن يجب أن تكون مريحة، وذلك لأن الطريق سيستغرق أكثر من ساعة؛ حتى إن اصطحبك بسيارته السريعة تلك».

سألتها بيتي: «وماذا عن ويليام؟».

سألت إيفي: «هل ترغبين بتركه هنا؟».

ردت: «كلا! أعني... هذا لا يعني أنني لا أثق بك، لكنني...»

قالت إيفي: «بالطبع. إذاً، ما عليك سوى أن تحملي بطانية سميكة لتغطيه بها في السيارة، وستكون أموركما بخير».

عندها، شعرت بيتي بفيض مفاجئ من العواطف تجاه إيفي؛ إذ ثمة شيء يتعلق بهذه المرأة كان قد نما داخل بيتي وجعلها تحبها خلال فترة قصيرة من الزمن.

وهكذا، تقدّمت بيتي للأمام وطبعت قبلة على وجنة إيفي.

فسألتها إيفي: «ولمَ هذه؟».

ردت بيتي: «لأنك على ما أنت عليه».

***

شعرت بيتي بالامتنان لأن ويليام نام بتلك السرعة؛ إذ بدا لها أن حركة السيارة قد جعلته يغفو. كان مندساً بأمه، وبدأ جسمه الصغير يعلو ويهبط وهو يتنفس أثناء نومه.

وبالرغم من أن لوكا بقي صامتاً إلّا أن صحبته كانت جميلة. لكن بيتي لم تكن تدري ما الذي يمكنها أن تحدثه به، أو كيف تفتح حديثاً معه. إذ حتى بعد مرور كل ذلك الوقت، كان الوضع يبدو لها غريباً؛ لعدم تواجد شارلي معها.

أخذت بيتي تنظر من النافذة، وذلك حينما بدأت المناظر تتغير عند الخروج من المدينة وبدء منطقة الريف. كان الريف جميلاً في هذه البلاد، إلاّ أنه كان مختلفاً عن الريف في بلادها. فقد كبرت وترعرعت في المدينة، لذا كان يسعدها أن ترى كل تلك المساحات الخضراء الشاسعة، وأن تشاهد الماشية والخيول وهي ترعى.

«هل تزوّجت الكثيرات من صديقاتك من جنود؟».

فاجأتها نبرة صوته، فأدارت وجهها إليه بينما كان هو ينظر إليها بطرف عينه.

ردت عليه: «بعض صديقاتي واعدن جنوداً أمريكان، لكنني الوحيدة التي تزوجت أحدهم».

فهز برأسه، بينما ركز عينيه بثبات على الطريق.

ثم قال: «أخبرني شارلي أنكما التقيتما في حفلة راقصة».

فأغمضت عينيها للحظة، وأخذت تتذكر شارلي وهو يراقبها حينما كان في القاعة، ثم يتجه

نحوها، ثم ردت: «أجل، هذا ما حدث».

قال لها: «كما أخبرني في إحدى رسائله أنه عرف منذ اللحظة التي رآك فيها أنه سيتزوجك».

كان ما أعجبها في الأمر أن لوكا كان يبتسم وهو يتحدث إليها؛ مما سهل عليها أمر الحديث إليه، فقد كانت تعرف أن شارلي كان يطلعه على مشاعره الحقيقية.

ثم تابع قائلاً: «خلت أن ذلك كان مجرد إعجاب بفتاة جميلة، لكنه كان قد عزم أمره حينما أصبح الاهتمام متبادلاً».

بعد ذلك، خيّم عليهما الصمت من جديد، إلاّ أن الصمت هذه المرة كان مريحاً، لذا لم تعبأ بيتي بالسكون الذي ساد؛ لأن ذلك منحها وقتاً لتفكر بشارلي، كما أنها شعرت بالسعادة لأنها تمكنت من التحدث إلى لوكا بشأنه؛ بالرغم من أنها كانت تحس بوجود غصة في حلقها كانت تمنعها من الكلام. أجل، لقد كانت إيفي رائعة، إلاّ أن بيتي قد سعت جاهدة لتنال رضى لوكا، ولتجعله يشعر بالمحبة تجاهها، لا أن يحس بأنها مجرد عبء عليه أن يتحمله بعد رحيل أخيه.

سألها: «لم تخبريني يا بيتي كيف كانت رحلتك».

إلا أن سبب ذلك كان بسيطاً؛ فهو لم يسألها عن رحلتها، كما أنهما لم يتحدثا كما يجب خلال الفترة السابقة، باستثناء تلك المرات القليلة والغريبة التي تبادلا فيها بعض عبارات المجاملة، لذا لم تخبره بكل تأكيد.

ردت عليه: «آه، لقد كانت رحلة ممتعة».

فاختلس نظرة إليها مرة أخرى وقال: «كيف كانت؟».

ردت عليه: «حسناً، كان إخفائي أمر حملي كي أتمكن من ركوب السفينة– والذي انتهى بولادة ويليام خلال الرحلة– هو ما جعلها رحلة رائعة بحق».

فضحك لوكا وقال: «أنا متأكد من أنها كانت كذلك».

ردت عليه: «لكنني التقيت بعض الفتيات الرائعات، واستمتعنا كثيراً معاً».

كانت بيتي تراقبه، فرأت كيف اختفت ابتسامته لتحل محلها تعابير توحي بالضيق والتوتر، وخاصة حينما سألها: «هل كنت ستأتين إن وصلتك رسالتي؟».

عندها، أخذت بيتي تحدق من النافذة، لأنها كانت قد سألت نفسها السؤال ذاته مرات ومرات، غير أن الحقيقة تتلخص في أنها لم تتوصل إلى جواب.

ردت عليه: «بصراحة، لست أدري يا لوكا؛ إذ لم يعد لدي أي شيء في لندن، فحتى عائلتي خسرتها. لكنني لم أكن لأطلب منك أن تستقبلني، ولم أكن لأقبل إحسانك».

قال لها: «هذا لا يعني أنني لا أريدك بيننا يا بيتي، أرجو ألا تشعري بأنك عبء عليّ على الإطلاق».

فهزت بيتي برأسها؛ لأن هذا الأمر كان يقلقها في بعض الأحيان، بل في كثير من الأحيان، لذا كان من الصعب عليها ألا تفكر بتلك الطريقة.

قال لها: «لقد كان شارلي مقرباً مني. صحيح أننا كنا نتجادل ونتشاجر، لكنني كنت أحب أخي، ثم إنك تعنين له الكثير، وأنا على علم بذلك. لكنني لم أعرف حينما وصلت إلى هنا إن كان الأمر

**بينكما قد تم من أجل المال أو...»**

**عندها، لم تستطع بيتي أن تسكت عن الحقيقة، وخاصة في ما يتعلق بهذا الموضوع، فردت عليه قائلة: «لم أكن أعرف أن شارلي ينحدر من أسرة ثرية. وبالرغم من أن غيري من الفتيات أتين إلى هنا وهن يبنين أحلاماً كبيرة، لكنني أتيت إلى هذه البلاد من أجل شارلي، وليس من أجل أي شيء آخر. لقد أحببت أخاك يا لوكا؛ حتى لو كان من الصعب عليك أن تستوعب هذا الأمر».**

**عندها، رأت أنه قد أطبق فكيه، ولاح الغضب في نظراته، ثم خفف السرعة، وانعطف بالسيارة عند حافة الطريق، ثم أوقفها تماماً.**

**لكنه أبقى يديه على عجلة القيادة؛ بالرغم من أنه كان ينظر إليها.**

**وأخيراً قال: «اعتقدت أن شارلي قد أغرم بفتاة أجنبية، وهذا كل ما في الأمر؛ فأحبها حباً جماً بينما بقيت هي تمثل عليه أنها تحبه».**

**عند ذلك، أحست بيتي بالغضب يكاد يتفجر في عروقها، وبقيت كذلك إلى أن سمعت صوت لوكا وقد أصبح أكثر نعومة وهو يقول:**

**«لكن بعد الليلة الأولى التي رأيتك فيها مع ويليام، عرفت أن الأمر لم يكن كذلك. والآن، حينما أعود إلى البيت كل يوم، تحدثني إيفي عن مدى سعادتها واستمتاعها بصحبتك، وهكذا رأيت فيك ما رآه شارلي، وعرفت أنك لم تأتي طمعاً بحياة كريمة أو بمال، كما تأكدت من أنك أحببت أخي، وأنه كان يحبك».**

**عندها، سرت موجة من الارتياح في جسدها، وبلغت أعماقها.**

**ورغم أن الانزعاج كان بادياً عليه هو، غير أنها كانت تحس بالراحة لأقصى الحدود لأنهما تحدثا حول هذا الأمر.**

**وهنا قال لها: «أريد منك يا بيتي أن تعرفي أنني أرحب بوجودكما أنت وابنك في بيتي دوماً».**

**فردت عليه: «وأنا شاكرة لفضلك يا لوكا بحق».**

**عندها، قام بتشغيل محرك السيارة مرة أخرى، ثم تنحنح، ومن ثم خرج إلى الشارع، وبذلك انتهى ذلك الحوار بينهما.**

**سألها: «إذاً، أخبريني عن أولئك الصديقات اللواتي تعرفت عليهن على ظهر السفينة».**

**فابتسمت بيتي، إذ كان رائعاً بتغيير الموضوع كشقيقه شارلي.**

**قالت له: «جميل منك أن تسألني لأنني قد أحتاج لمساعدتك».**

**سألها: «مساعدتي؟!».**

**عندها، شعرت بالارتياح لأنها تمكنت من التحدث إليه بتلك الطريقة، وخاصة بعدما عالجا الموضوع المهم الذي كان عليهما أن يناقشاه. وهكذا، أصبح بوسعهما أن يسعيا لتكوين علاقة صداقة بينهما.**

**بدأت حديثها بالقول: «كنا أربع فتيات ركبن البحر ليصلن إلى نيويورك أو ما حولها، لكنني أعتقد أن مادلين كان سينتهي بها المطاف في مزرعة. تعرفنا على بعضنا في اليوم الأول من الرحلة، ولم نفترق بعدها، فكنا بمثابة شقيقات وأكثر».**

سألها: «من هما الفتاتان الأخريان؟».

ردت: «جون وأليس».

سألها: «هل تخططين للقائهن مجدداً؟».

كانت بيتي على استعداد للقيام بأي شيء مقابل لقاء الفتيات مرة أخرى. إذ بالرغم من أنها أمضت كل تلك الشهور التي مضت بمفردها، وهي تعيش داخل قوقعتها الصغيرة، إلاّ أن مجرد الحديث عنهن جعلها تشتاق إليهن كثيراً.

ردت عليه: «لقد أعطاني زوج جون بطاقة، لكنني لا أعرف مكان الفتاتين الباقيتين بالضبط، بل أعرف أين تعيشان تقريباً من الناحية الجغرافية، كما أعرف اسمَي عائلتَي زوجيهما، ولا أعتقد أن أياً منا قد توقعت أن تكون نيويورك، وما يحيط بها من مناطق، كبيرة لهذه الدرجة».

سألها لوكا: «أتريدين مني أن أساعدك في البحث عنهن؟».

أخذت بيتي تتلوى فوق مقعدها، وبدأت عيناها تلتمعان وهي تقلب الفكرة في رأسها، لكنها لم تكن مستعدة لتخبر أياً منهن عما جرى لشارلي، ولا أن تبدأ الحديث معهن حول هذا الأمر، لكنها تمنت في هذه اللحظة لو أنها اتصلت بجون منذ البداية بدلاً من أن تدع كل تلك الشهور تمضي حتى تتصالح مع ذاتها وتتقبل الواقع.

ردت عليه: «إن كان بوسعك أن تساعدني بأي شيء أو أي طريقة يمكننا من خلالها أن نجدهن، فسأكون لك شاكرة».

عندها، ابتسم لوكا لها.

تابعت بالقول: «لقد اتفقنا على أن نبقى على تواصل، وألا ننسى الوقت الذي أمضيناه معاً، لكن لم يخطر ببالي قبل ذلك كيف ستكون الطريقة التي سنتواصل من خلالها».

فقال لها: «ما رأيك بأن تزوري مكتبي صباح يوم الاثنين؟ إذ يمكن لأمينة السر لدي أن تمضي فترة ما بعد الظهر في مساعدتك في البحث عن أماكنهن. وبوسعك أن تبدئي بالاتصال بالرجل الذي تحتفظين ببطاقته».

ردت عليه: «أوه، أشكرك يا لوكا! شكراً جزيلاً لك».

فقال لها: «عليك أن تشكري أمينة السر لديّ حينما تجدينهن. فلو بذلت ما بوسعها لتجدهن، فلن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى نكسب تلك الجولة. كما أنني على يقين من أنها ستصل إليهن وستدلك عليهن».

غاصت بيتي في مقعدها، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام؛ وذلك لأن رؤية جون ومادلين وأليس مرة أخرى كانت أشبه بحلم يوشك أن يتحقق. كما أنهن لن يصدقنها إن أخبرتهن بما حدث لشارلي. ولكن، هل واجهن المصاعب هن أيضاً؟ أم أنهن يعشن الأحلام التي كن يحلمن بها؟ كان ذلك ما تتمناه لهن.

إلا أن لوكا خاطبها متجهماً: «لا تبتسمي كثيراً، لأنه يتعين علينا أن نقوم بالزيارة أولاً».

إلا أن هذه الزيارة لم تكن بالنسبة لها مزعجة لتلك الدرجة لسبب ما، وذلك مع احتمال عثورها على صديقاتها بعد يومين.

***

لعلها قد تحدثت عن الموضوع في وقت مبكر وقبل الأوان، إلاّ أن لقاءها والدَي زوجها لم يكن سهلاً كما كانت تتمنى أن يكون، كما لم يفلح وجود ويليام في إلهاء الموجودين وإدخال السعادة على قلوبهم؛ وذلك لأنه شرع بالبكاء حالما غرست جدته أحد أظافرها الطويلة فيه، في محاولة منها لجعله يبتسم. وهكذا، بقيت تلك النظرة المقطبة على وجهه طيلة الوقت.

عندها سألتها حماتها: «هل أنادي الخادمة لتأخذه؟».

وهنا، أحست بيتي بأن السيدة أوليفر قد بدأت تتبرم من زعيقه. كانت حماتها امرأة ضخمة، ومن الواضح أن الحرارة كانت تزعجها لأنها كانت تحرك مروحتها أمام وجهها، كما أن الصخب الذي أثاره ويليام لم يساعد على تهدئة أعصابها على ما يبدو.

أخذت توجه كلامها للوكا ثم لبيتي حينما قالت: «كنت أعتمد على مربية لكل من ولدَيّ، وهكذا لن تحتاج الأم للقيام بتسلية ابنها طيلة النهار».

عندها، عضت بيتي على لسانها لتمنعه من النطق؛ إذ إن لم يكن ذلك من واجب الأم، فواجب من سيكون؟ وهكذا سينتهي الأمر بتكوين علاقة متينة بين الخادمة والطفل، حيث تكون أقوى من علاقته بوالدَيه! وهذا ما لم يكن ليحدث في بلادها.

هل هذا هو السبب وراء التقارب بين لوكا وإيفي؟

صاح لوكا: «كنت نادراً ما أسمع بكاء ويليام منذ أن وصلا يا أماه. من الواضح أن الأجواء هنا لم تعجبه».

عندها، حاولت بيتي ألا تضحك حينما سمعت اللهجة الجافة التي تحدث بها لوكا.

قالت بيتي: «بوسعي أن أحمله للداخل إن أحببت، لكنني لست أدري ما حل به اليوم».

فما كان من السيدة أوليفر إلاّ أن تجاهلتها تماماً، وعادت لترتشف من كأسها. وكانت تلك هي الكأس الثانية التي تتجرعها منذ وصولهم.

ثم خاطبتها السيدة أوليفر وهي تلوح بيدها: «لعله يريد أن يأكل شيئاً ليبقى مشغولاً. ثم إن الغداء سيكون جاهزاً خلال دقائق».

هل هذه المرأة لا تعرف شيئاً عن الأطفال؟ ردت بيتي: «لقد بدأ لتوه بتناول الأطعمة الصلبة مثل الخضار المهروسة يا سيدتي، لذا لا أستطيع أن أعطيه إلا الحليب أثناء مكوثنا هنا».

فردت السيدة أوليفر وهي تكشر بطريقة متعالية: «ليست لدي أية فكرة عما يحتاج إليه الأطفال، لكن هذا هو الهدف من وجود الخادمة، أليس كذلك يا عزيزتي؟».

وهكذا، بات من الواضح أن أمر تربية ولديها لم يكن يعنيها بشيء.

تابعت تلك المرأة بالقول: «أخبريني، هل تفيدك إيفي العجوز أم ترين أنه قد حان الوقت للتخلص منها لنأتي بخادمة أصغر سناً؟ أفكر بخادمة يمكنها أن تحمل هذا الصبي عنك حيث لا تضطرين للعناية به».

عندها، تيبست أطراف بيتي؛ إذ إن مجرد فكرة الحياة دون إيفي كان وقعها أشبه بسكين تقطع أمعاءها، لكنها رغم ذلك ابتسمت ابتسامة مصطنعة وقالت: «إن إيفي تستحق أن تحصل على وزنها ذهباً». ثم أكدت ذلك بالقول: «لا يمكنني أن أتخيل البيت بدونها».

عندها، زمت السيدة أوليفر شفتيها، وتابعت تحريك المروحة أمام وجهها.

وهنا سألها لوكا في محاولة منه لتغيير الموضوع، ولإبعاد بيتي عن ذلك الحوار: «ما أخبارك يا أمي؟ وكيف تسير الأمور معك؟».

فردت أمه بالقول: «أفضل أن أعرف أخبارك أنت. هل ثمة نساء مميزات في حياتك؟».

وهنا، لاحظت بيتي كيف تمكن الغضب منه وظهر من خلال التعابير التي ارتسمت على وجهه، حيث ظهرت خطوط تشي بالعبوس والتجهم حول عينيه وهو يقول:

«أنصحك يا أمي بأن تجدي مواضيع أفضل لتفكري فيها بدلاً من التفكير بقصص الحب في حياتي».

فما كان من أمه سوى أن هزت كتفيها بلا مبالاة، ثم التفتت لتحدق بخادمتين شابتين حينما أسرعتا وبيدَي كل واحدة منهما أطباق الطعام.

وفجأة، سألت الأم مستغربة: «أين أبوك؟».

فهز لوكا كتفيه بلا مبالاة. عندها، وقفت ومشت نحو البيت، وأرسلت الخادمتين ليسرعن بوضع الطعام على المائدة. كانت الأجواء رائعة، حيث تم إبعاد الطاولة الموجودة خارج البيت عن أشعة الشمس الساطعة، لتطل على الحديقة الغناء التي قلمت أشجارها بأناقة.

غير أن بيتي قفزت حينما أمسك لوكا بمعصمها، وأطبق بأصابعه على جلدها.

كانت هذه أول مرة يلمسها فيها؛ باستثناء تلك المصافحة التي تمت بينهما في الليلة التي وصلت فيها، ثم اصطدامها به في صبيحة اليوم التالي.

قال لها: «حالما نفرغ من تناول الغداء، وحتى لو بالغت بالموضوع، أريد منك أن تتظاهري بأنك تعانين من صداع، أو تشعرين بالغثيان أو ما شابه». كان ينطق كلماته على عجل بصوت خفيض أشبه بالهمس، ثم تابع قائلاً: «سآخذ ويليام، أما أنت فأمسكي بذراعي وبعدها سنتدبر أمر الهرب».

ردت عليه وهي تحاول أن تخفي الابتسامة عن وجهها وذلك حينما تذكرت توقعات إيفي: «ظننت أنك تريد أن تقضي النهار هنا!».

فقال لها: «مثّلي عليهما، وإن لم تفعلي فسأتركك هنا».

وبسرعة حرر لوكا معصمها من يده حينما ظهر والداه، فهزت برأسها وهي تحاول ألا تضحك.

سألته أمه: «عمَّ تتهامسان؟».

لم يكن أي شيء ليفوت والدته. غير أن بيتي لم تكن قد أحبت هذه المرأة، وكانت سعيدة لأن لوكا أصبح صديقاً لها، أو على الأقل شريكها في المؤامرة.

ردت بيتي: «كان لوكا يخبرني عن مدى السعادة التي كان يحس بها حينما كان صبياً يعيش في هذا البيت».

وهنا تهلل وجه السيدة أوليفر، ومدت يدها لتربت على يد ابنها وكأنه لا يزال صبياً صغيراً.

ثم قالت: «كان سعيداً بكل تأكيد، ولهذا استغربنا حينما قرر أن يتركنا».

وهنا، ابتسمت بيتي بعذوبة للوكا الذي أخذ يحملق فيها مشدوهاً. عندها، استطاعت بيتي أن تفهم وبدقة السبب الذي جعله يفضل العيش في المدرسة الداخلية، وكذلك سبب تركه بيت أسرته في

سن مبكرة. أجل، كان بوسعها أن تقطع ميلاً هرولة، وأن تهرب دون أن يهمّها جمال ما كان يحيط بها في ذلك البيت.

وقف لوكا حينما اقترب أبوه ومد يده، ثم قال:

«سعدت برؤيتك يا أبي».

فبدا على والده عدم الاكتراث، بل بدا خالياً من أي مشاعر حينما قال: «وأنا كذلك».

خاطبه لوكا بالقول: «إنها بيتي».

فما كان منه إلاّ أن هزّ رأسه وابتسم لها بكل أدب، ولعله لم يكن يعرف حتى من تكون.

أخذت بيتي تلاعب ويليام فوق ركبتيها وذلك لتبقيه هادئاً.

ثم بذلت كل ما بوسعها لتفتح حواراً معه بالرغم من أن التحدث إلى الغرباء لم يكن سهلاً عليها، وهكذا قالت للأب: «حسناً يا سيد أوليفر، لقد أخبرني لوكا أنك قد تقاعدت مؤخراً».

كان وجه الأب لطيفاً للغاية، ولكنه بدا كجسد بلا روح؛ إذ كانت عيناه خاليتين من المعاني. وهكذا، خمّنت بيتي أن زوجته هي التي تتولى الحديث في معظم الأمور، بينما يبقى هو صامتاً ليحافظ على الهدوء.

إلا أن حماها لم يجب على سؤالها، بل اكتفى بالابتسام. ثم إنها كانت على وشك أن تطرح عليه سؤالاً آخر، لكن ركلة قوية من لوكا أسكتتها وجعلتها تلهث.

وهنا، أصبحت ملامح وجه لوكا تنم عن اهتمام وقلق كبيرين وهو يقول: «هل أنت بخير يا بيتي؟».

فقالت: «أوه يا سيدة أوليفر، أعتذر بشدة، لكنني شعرت بالتوعك فجأة».

وهنا بدا على حماتها الذعر وقالت:

«سأستدعي أحدهم. هل أنت بحاجة للتمدد؟».

ردت بيتي: «إنني... إنني...» ثم وضعت يدها على جبينها وهي تحاول أن تمثل الدور.

فهتف لوكا: «أمي، أعتقد أنه من الأفضل أن آخذ بيتي إلى البيت».

ردت الأم: «ماذا تقول؟!!! إن أنسب شيء لها هو أن تبقى هنا لفترة».

وهنا حاولت بيتي أن تمسح تعابير الدهشة عن وجهها، إذ أحست بأنها قد فغرت فمها من الرعب والدهشة.

رد لوكا: «كلا، فقد استقرت بيتي في بيتي، ثم إنها لم تحمل معها أغراض الطفل».

صاحت الأم: «ريتشارد... ريتشارد».

عندها، استيقظ والد زوجها مذعوراً، إذ كان قد غفا على كرسيه.

ثم تمتم: «ماذا؟».

صاحت الأم: «إن لوكا يريد أن يعيد بيتي إلى المدينة؛ بالرغم من أنها تحس بتوعك».

فبدا على الأب أنه لا يكترث بكل ما يجري حوله.

قالت بيتي: «سيدة أوليفر أرجوك، أعتقد أنه من الأفضل لنا أن...»

عندها، وقفت تلك المرأة ووضعت يديها على وركيها، فأقلقت بوقفتها تلك بيتي؛ إذ بدت مصممة بعدما حزمت أمرها.

ويبدو أن لوكا قد شعر بذلك أيضاً فقال:

«سنذهب يا أمي. إذ عليّ أن أعود للمدينة، كما أن بيتي قد استقرت هناك».

وهنا، كان من الواضح أن السيدة أوليفر لم توافقه على كلامه.

فصاحت به: «لا تحاول أن تتسلط عليّ يا لوكا، لأن الخيار بيد بيتي».

إلا أن بيتي لم تكن تريد أن تختار؛ فهذه عائلة شارلي. ثم إنها لم تكن تريد أن تعقّد الأمور، أو أن تسبب أي نوع من الشقاق. وعندها، بدأت تحس بالندم لأنها وافقت على الاجتماع بهما. ثم إنها ولوكا لم يتناولا شيئاً من طعام الغداء، والآن أصبح يتعين عليهما أن يغادرا.

نهض لوكا عن كرسيه، واتجه نحوها وانتزع ويليام منها، وحمله على زنده وهو يهتف بها:

«هيا، يا بيتي».

ثم مد يده ليمسك بيدها، فما كان منها إلاّ أن وضعت يدها على مرفقه وقالت له:

«أوه يا إلهي! أجل! إنني أشعر بالغثيان مرة أخرى». لكنها لم تكن تكذب هذه المرة، إذ لعلها ستتقيأ لو بقيت في هذا البيت.

هتف لوكا: «سأنقل بيتي إلى السيارة. ماذا قلت يا أمي؟ أيزعجك أن نغادر؟».

فبدا عليها أنها لم تتأثر بكلامه، لكنها تبعتهما وهي تطقطق بأصابعها ليستيقظ زوجها.

تبعت بيتي لوكا وهي تحاول أن تلحق بخطواته الواسعة، فشعرت بأنها أصبحت فتاة شريرة لأنها ادعت المرض، ولكنها باتت تحس بإحساس غريب في تلك اللحظة. إذ إن لقاء والدَي زوجها دون وجود شارلي معها كان أمراً مقلقاً بالنسبة لها، لكنه قرّبها من لوكا على الأقل.

بقي ويليام صامتاً، وهنا أحست بيتي بأنها تحب منظره بين ذراعَي عمه.

قادها لوكا للسير في طريق فرعي إلى جانب البيت بدلاً من المرور به، فأحست بالارتياح. إذ قد تقوم معركة أخرى حول وجوب بقائها إن مرت بالبيت، غير أن السيدة أوليفر كان تسير إلى جانبهما بسرعة، وفجأة هتفت:

«بصراحة، لا أعتقد أنه من اللائق يا لوكا أن تقيم بيتي في بيت رجل غير متزوج».

فردّ لوكا بكلمات خرجت من بين أسنانه: «لديها إيفي لتعتني بها. ثم إنني شقيق زوجها، لذا ليس ثمة ما هو غير لائق بالنسبة لهذا الموضوع».

ثم فتح باب السيارة لبيتي بيده التي لم يكن يحمل بها أي شيء، وبعدها أعطاها ويليام حالما جلست في الداخل.

هتفت بيتي: «أشكركما على الغداء الرائع، وأعتذر لأننا أفسدناه عليكما».

ابتسمت السيدة أوليفر ابتسامة متكلفة، لكن زوجها لوّح لها بحماسة أكبر.

عندها، استدار لوكا وطبع قبلة على خد أمه، ثم صافح أباه.

سأل لوكا بيتي: «هل أحضرت شيئاً معك يا بيتي؟».

فردت: «أوه، حقيبتي! لقد تركتها في غرفة الجلوس».

عندها، التفت ليحضرها لها، فتبعته أمه على الفور، لكن ذلك لم يمنع بيتي من سماع ما قالته له أثناء سيرهما.

إذ قالت له: «إنها فتاة رائعة يا لوكا، وقد عرفت السبب الذي جعل شارلي يغرم بها، لكن لا تترك العنان لشطحات الخيال». ثم أصبحت لهجتها صارمة وهي تقول: «لأن كل ما نعرفه عنها هو أنها طماعة وفقيرة تعرفت على أخيك لتبتزه. لذا، من الأفضل لك أن تبتعد عنها، وسنسعى لتأمين الرعاية للطفل، من أجل شارلي، وهذا كل ما لدي».

عند ذلك، لم تعد بيتي قادرة على التنفس؛ إذ صار الهواء يتحول إلى فقاعات في حلقها ولا يدخل إلى رئتيها سوى ما يمنعها من الاختناق. كيف أمكنها أن تتفوه بذلك؟! إذ لم يكن جثمان شارلي قد برد في قبره بعد، ثم إنها كانت تحبه. أجل، كانت تحبه أكثر من أي كان في هذه الدنيا، ولم تكن لديها أدنى فكرة حول انتمائه لعائلة ثرية!

أخذ لوكا يحدق في أمه، فأتت كلماته بصوت خفيض حينما أجابها بالقول: «لن أفكر ببيتي بهذه الطريقة يا أمي. وكل ما يمكنني أن أخبرك به الآن هو أنها ليست طماعة تسعى لكسب المال دون تعب».

ثم اندفع لوكا إلى داخل البيت، ليخرج بعد دقائق وبيده حقيبتها، ثم قفز خلف المقود، ورفع يده ملوحاً لوالديه، وبعدها داس على دواسة الوقود. حينها، كان قلب بيتي يخفق بشدة، وذلك لأن كلام السيدة أوليفر كان جارحاً، والأهم من ذلك أنها أحست بخيبة أمل من نوع غريب حينما صرح لوكا وبكل وضوح أنه لن يفكر بها سوى كأخت له؛ بالرغم من أنه وقف إلى جانبها حينما كانت بحاجة إليه، إلاّ أن ذلك كان كل ما يهمها في ذلك الحين.

غير أن لوكا لم يوجّه إليها أي نظرة خلال رحلة العودة إلى البيت، كما أنهما لم يتحدثا مطلقاً.

أخذت الأفكار تدور برأس بيتي، إذ لم تكن تريد أن تفكر بأي شخص آخر على الإطلاق، وخاصة إن كان شقيق شارلي. ولكن، هل تضايق هو من الفكرة لهذه الدرجة؟ وهل كانت بنظره غير جذابة أو غير مناسبة له؟

كان عليها ألا تقلق بشأن هذه الفكرة، لكنها كانت قلقة بالفعل. ففي طريقهما إلى ذلك البيت بدا لها أنهما قد أقاما علاقة صداقة في ما بينهما، أما الآن فقد عاد كل شيء إلى حاله حينما التقيا لأول مرة. إلاّ أن هذا لم يكن يعجبها في شيء؛ لأنها بدأت تفكر بلوكا بطريقة لم تخطر لها على بال من قبل، وهذا ما أشعرها بأنها كانت تخون ذكرى شارلي حتى بمجرد التفكير بتلك الطريقة.

***

«حسناً، كيف كان الوضع؟».

جلست بيتي فجأة على الكرسي وهي تحمل ويليام وتقربه من إيفي لتأخذه، لأنها أحست بأن هذه المرأة كانت تتحرق شوقاً لتحمل الطفل.

ردت بيتي: «كان مريعاً، لذا أريد فنجاناً من الشاي».

«من المضحك أن تطلبي فنجاناً من الشاي».

عندها، أخذت بيتي تحدق بإيفي؛ إذ لم تكن في مزاج يساعدها على تحمل مضايقاتها ومزاحها الثقيل.

ردت إيفي: «كفاك لؤماً يا سيدتي. من المدهش أنني قد قمت أخيراً بتخصيص علبة من الشاي لأجلك. إذ ذهبت إلى المتجر في غيابك، وها قد وصلتني العلبة».

قالت بيتي وهي تحس بالطاقة تتدفق لتصل إلى عظامها: «حقاً؟! أتقصدين شاياً إنكليزياً فاخراً؟».

فردت إيفي: «تعالي وشاهدي بنفسك».

عند ذلك، قفزت بيتي من مكانها واندفعت نحو المطبخ. كانت العلبة تقف بكل زهو على طاولة المطبخ وقد كتب عليها: شاي إنكليزي للفطور، أوه، أجل! إذ كان ذلك ما تريده بالضبط بعد هذا اليوم التعيس الذي أمضته.

هتفت بيتي: «نحتاج لإبريق شاي».

فأشارت إيفي للخزانة البعيدة وقالت: «ابحثي هناك».

وحين فتحت بيتي الخزانة، وجدت أجمل إبريق شاي رأته في حياتها؛ إذ كان قد صنع في الصين، وكان لونه سكرياً فاتحاً، وله فوهة دقيقة، وكأنه قد صنع ليستخدم مع وجبات ساعة العصر.

هتفت بيتي: «إنه رائع يا إيفي!».

فردت إيفي: «إنه مجرد شيء تافه أحببت أن أقدمه لك».

فما كان من بيتي إلاّ أن اندفعت لتعانق إيفي وتطبع قبلة على وجنتها، ثم وضعت الإناء ليغلي على النار، وبعد ذلك خاطبت إيفي قائلة:

«والآن، ستشربين معي فنجان شاي حقيقياً يا إيفي. وهكذا، بوسعنا أن نتخيل أننا أصبحنا في لندن».

سألتها إيفي: «ماذا حدث اليوم يا بيتي؟ إذ بدا على لوكا النزق إلى حد بعيد حينما دخل، وكنت أنت على وشك أن تغضبي أيضاً».

كانت إيفي قد أسندت ظهرها، وبقي ويليام ممدداً بين ذراعيها وهو ينطق بكلمات غير مفهومة مخاطباً إياها ويده في فمه.

وضعت بيتي الشاي في الإبريق، وملأته بالماء، ثم وضعته على الطاولة، وبعد ذلك وجدت فنجانين وصحنين فدفعت بها جميعاً إلى الطاولة أيضاً، وذلك قبل أن تجلس إليها.

خاطبتها إيفي: «بيتي؟».

ردت بيتي: «ينقصنا بعض الكعك المحلى بالمربى، أو شطائر الخبز الأبيض والزبدة وشرائح الخيار».

هتفت إيفي: «ثمة شيء يا بيتي لم تطلعيني عليه».

عندها، تنهدت بيتي وصبت الشاي، ثم دفعت أحد الفنجانين إلى إيفي، ثم قالت: «إنها امرأة مريعة».

فرفعت إيفي حاجبيها متسائلة.

فخاطبتها بيتي بالقول: «تنقصك ملعقة من السكر».

ففعلت إيفي ما طلبته منها بيتي، وأخذت تحرك السكر في فنجانها.

ثم سألت: «كيف كان الوضع؟».

ردت بيتي: «حسناً، في البداية، لم تستوعب سبب عدم سماحي لأي شخص آخر بالاعتناء بابني، أو لماذا لا يتناول من الوجبة ذاتها التي نأكل منها. ثم طلبت مني أن أبقى، وحاولت إقناع لوكا بذلك، لكن أباه لم يتفوه بأي كلمة، ثم بعد ذلك...»

سألت إيفي: «ماذا حدث؟».

فاعترفت بيتي: «لا يمكنني أن أصدق أنها سمحت لشخص آخر بتربية ولديها».

ردت إيفي: «لكنني أصدق ذلك».

سألتها بيتي: «أو تصدقين ذلك؟». وأخذت تسأل نفسها: هل تتقبل إيفي أيضاً نظرية العناية بالأطفال بهذه الطريقة؟ قطعاً لا.

ردت إيفي: «إنني أصدق ذلك لأنني من قام بتربية الطفلين. إذ كانا يطلبان مساعدتي حينما يصاب أي منهما بجرح أو بخدش، أو إن شعرا بأي ضيق. فقد تربيا في كنفي منذ أن كانا طفلين صغيرين إلى أن أصبحا شابين وبدآ يرتادان الكلية. أما هي فلم تكن تهتم بأمرهما إلى أن أصبحا قادرين على حضور حفلاتها وخوض أحاديث تخص الكبار فقط».

كان كل ما بدر من بيتي حينها هو مجرد التحديق بإيفي، بينما بقي فنجانها بيدها التي جمدت في منتصف الطريق إلى فمها.

وسألتها: «هل كنت أنت من اعتنى بهما طيلة تلك السنين؟».

فردت: «ولمن غيري كان شارلي يكتب رسائله برأيك؟ لقد عرفت بأمر زواجه منك قبل أن يطلع والداه على الموضوع. هذا هو السبب الذي دفع لوكا للاحتفاظ بي هنا؛ إذ إنني أحب هذين الشابين كما أحب ابنتي التي من لحمي ودمي».

أكملت بيتي تناول فنجان الشاي الخاص بها.

إلا أن إيفي سألتها: «إذاً، ما الذي كنت تريدين قوله قبل أن أحدثك عن ذلك؟».

سألت بيتي: «متى؟».

فنظرت إيفي إليها نظرة اعتبرتها بيتي في غاية الجدية؛ إذ كانت من ذلك النوع من النظرات التي كانت تحذرها من خلالها وكأنها تقول: لا تحاولي أن تخدعيني، فأنا على علم بما حدث.

عند ذلك، تنهدت بيتي وقالت: «حينما كنا على وشك المغادرة، لم تفكر أنه بوسعي أن أسمع...»

ردت إيفي: «أتقصدين السيدة أوليفر؟».

فهزت بيتي برأسها إيجاباً وقالت: «لقد قالت عني إنني تزوجت شارلي من أجل ماله فقط، ولعلي أرغب بلوكا للسبب ذاته، وطلبت منه أن يبتعد عني». وهنا، حاولت بيتي أن تبتلع كلماتها وهي تقول: «لم تكن تعرف أنني كنت أسمعها، لكنني سمعتها بالفعل. ثم لم يعد لوكا يتحدث إليّ طيلة رحلة العودة إلى البيت». وهنا، صمتت وأخذت تعبث بحافة قميصها، ثم تابعت: «رغم أنه تحدث عني بالخير أمامها، إلاّ أنه لم ينطق بكلمة واحدة بعد ذلك».

وهنا تنحنحت إيفي ولم تنبس بأي كلمة، وبعدها شربت فنجانها كاملاً، ثم قالت:

«لم يكن الوضع سيئاً. أتعرفين؟ لقد اعتدت على ذلك».

هتفت بيتي: «إيفي؟».

وهنا حان وقت إيفي لتتهرب، وجاء دور بيتي لتلح في السؤال عن السبب، لكن إيفي وضعت فنجان الشاي ثم تنهدت وقالت:

«ثمة شيء يجب أن تعرفيه يا بيتي عن لوكا، وهو أنه من ذلك النوع الحساس. إذ قد تجدينه شجاعاً وقوياً، إلاّ أنه بوسع أمه أن تثير قلقه وشكوكه، وخاصة حيال النساء». ثم أمسكت عن الكلام، ولكنها عادت لتقول: «إذ بوسعه أن يختار امرأة تناسبه، ولكننا كنا نعرف منذ البداية أن شارلي هو من سيتزوج، وذلك لأن أمه لم تكن تؤثر عليه كما كانت تؤثر على أخيه لوكا. أما هي، فلا يمكن أن توصف إلا بالعجوز الشمطاء في أحسن أحوالها. لذا، من الأفضل لك ألا تستمعي لأي كلمة مما تقوله».

سألتها بيتي: «إذاً، أتعتقدين أنه سيكلمني بعد ذلك؟».

ردت إيفي: «بالطبع سيفعل، لا تكوني غبية! فكل ما هنالك هو أنه تضايق من أمه. ولعله أحس بالإحراج لأنه فكر بك بتلك الطريقة وكشفته أمه منذ البداية».

هتفت بيتي: «إيفي!».

وهنا أحست بأن خديها كادا يحترقان بعدما تسربت إليهما حمرة ذات لون داكن.

فردت إيفي: «إنك فتاة جميلة يا بيتي، ثم إن موضوع زواجك من أخيه لا يعني أنه لا يمكنه أن ينظر إليك بتلك الطريقة؛ فهو رجل في النهاية، ثم إنه لم يرَكما كزوجين».

صبت بيتي لنفسها فنجاناً آخر من الشاي، وهي تتمنى من كل قلبها أن تغير الموضوع، ولهذا قالت:

«لقد أخبرني أنه بوسعه مساعدتي في البحث عن صديقاتي، أي أولئك الفتيات اللواتي تعرفت عليهن على ظهر السفينة كما أخبرتك. فهل تعتقدين أنه سيغير كلامه؟ إنني أتحرق شوقاً للقائهن».

ردت إيفي: «ما يقول لوكا إنه سيفعله فلا بد له أن يفعله. والآن، كفي عن الحديث عنه واستمتعي بشرب الشاي. ثم إن كل هذه الجلسة والحديث يعنيان أنني قد تأخرت، فهل ترغبين في مساعدتي بإعداد العشاء؟».

ردت بيتي: «يسعدني ذلك».

فقالت إيفي: «لكنني أرغب بشرب فنجان آخر قبل ذلك».

هتفت بيتي: «كنت أعرف أنك ستحبينه. فمن الذي لا يحب أن يتناول فنجاناً من الشاي؟ ها؟».

عندها ضحكتا معاً.

إلا أن المشاعر كانت قد اختلطت في صدر بيتي؛ إذ كانت تشعر بالحماسة والقلق والحزن والتوتر والسعادة معاً. حيث إنها كانت تنتقل من إحساس لآخر بسرعة، لدرجة باتت معها غير قادرة على تحديد إحساسها بالضبط. لكنها بصحبة إيفي كانت تحس بذلك الإحساس الأخير فقط، ألا وهو

**السعادة بكل بساطة.**

**وهنا اقترحت إيفي: «ما رأيك بأن نضع هذا الفتى على بطنه كي يتعلم الزحف، فقد أصبح وزنه ثقيلاً علينا لنحمله طيلة الوقت، ولعله بحاجة ليتمدد على بطنه لبعض الوقت وأن نقوم بتشجيعه على الحركة أثناء ذلك».**

# الفصل الثالث

# والعشرون

كان إحساس أليس الغريب بوجود شخص يراقبها لا يفارقها. إذ كانت تحس بعينين تحرقان جلدها؛ بالرغم من أنها لم تكن قد فتحت عينيها بعد.

إذ كانت قد أغمضتهما، وأخذت تصغي.

كان هذا أول صباح لها منذ قدومها إلى هذه البلاد لم تسمع فيه شخيراً كتحية صباح، بل كان الصمت وحده يخيم على المكان، ثم أحست بشيء يلامس وجهها؛ كان شيئاً دافئاً وخفيف الوزن كالريشة.

وهذا ما جعلها تفتح عينيها.

فرأت رالف يحدق بها ويراقبها.

كان أول شيء لاحظته هو أنه لم يكن ثملاً، بل كانت عيناه متيقظتين وتركزان عليها. أما يده فقد كانت ترفرف فوق وجهها بتردد، وكأنه لم يكن متأكداً إن كان يمكنه أن يلمسها أم لا.

عندها، لم تعرف أليس إلى أين توجه بصرها.

قال لها: «صباح الخير».

فابتلعت ريقها وأخذت تحدق فيه.

هتف: «أليس». كان ينطق اسمها ببطء؛ وكأنه لم يكن يدري ما الذي عليه أن يقوله بعد اسمها، ولكنه قال أخيراً: «أنا آسف يا أليس».

عندها، أحست أنها كادت تموت. إذ كان ما ينقصها هو أن تغمض عينيها وألا تفتحهما بعد ذلك. أخذت تسأل نفسها: هل اعتذر؟ لمَ قام بذلك الآن؟ ولمَ لم يعتذر قبل أن ترتكب أبشع خطيئة على وجه الأرض؟ ظلت تبكي لساعات طويلة، ثم استحمت مرات ومرات، في محاولة منها للتخلص من رائحة ماثيو التي بقيت على جلدها وشعرها. كانت رائحته أشبه بسم لم تستطع إزالته عن جسمها، ولم تتمكن من التخلص منها على الرغم من محاولاتها الجاهدة للقيام بذلك.

الخيانة... كان ذلك كل ما بوسعها أن تفكر به وهي تنظر إليه.

لقد خانته... وارتكبت خطيئة.

قال لها وهو يضع يده على وجهها ويمسك بخدها بنعومة: «أسمعت يا أليس؟ أنا آسف... آسف جداً جداً».

عندها، نفرت الدموع من عينيها، أجل تلك الدموع التي اعتقدت أنها لم تعد قادرة على ذرفها حينما تكون بصحبة زوجها؛ تلك الدموع التي كانت ممزوجة بالألم، وبجرح لم يلتئم، وبخيبة أمل وإحساس بالذنب. أجل، كانت تحس بكل ذلك في آن واحد.

قال لها: «لا تبكي يا حبيبتي. أرجوك، لا تبكي».

ثم شدها نحوه، فلم تستطع مقاومته، بل تركته يعانق جسدها كما بقيت تشتهي طيلة تلك

الشهور.

قال لها: «أحبك يا أليس، وإنك تستحقين من هو أفضل مني».

لكنها لم تكن تستحق ذلك. أجل، لم تكن تستحق من هو أفضل منه، وخاصة بعد الخطيئة التي ارتكبتها في الليلة الماضية.

صاح متسائلاً: «أليس؟».

فهزت رأسها ببطء وهي تقول: «وأنا أيضاً آسفة يا رالف».

فردّ عليها: «أنت لم ترتكبي ما يستحق أن تعتذري من أجله».

كان كلامه جازماً، حيث قاله بلهجة آمرة؛ تماماً مثلما كان يتحدث حينما كان في إنكلترا، حينما كان رجلاً مهماً، وحينما أغرمت به.

هتفت: «رالف، إنني...»

فما كان منه إلاّ أن وضع أصابعه على شفتيها وقال:

«صه!».

وعندها، انتابها إحساس عميق بأنه قد عرف ما الذي فعلته، أو لعله لم يعرف كل شيء عن الموضوع، ولكنه عرف أنها خرجت مع رجل آخر، وأنها أصبحت تبتعد عنه أكثر فأكثر.

قال لها: «لم أكن زوجاً لك يا أليس، بل كنت مجرد شخص أحمق. لكنني لم أستطع منع نفسي من ذلك. والآن، يبدو الأمر بمنتهى الغباء، لكنني...» وهنا توقف عن الكلام ثم تابع قائلا: «لم أستطع منع نفسي من ذلك».

وهنا حاولت أليس أن تبتسم له، لكن ثغرها لم يتجاوب معها.

فقالت له: «لقد قمت بأمور علي أن أعتذر من أجلها يا رالف».

فهز رأسه نافياً، ثم نظر إليها نظرة لم ترها منه طيلة الفترة التي قضتها معه. إذ كانت نظرة عرفت من خلالها أن الرجل الذي كانت تعرفه لم يستسلم. وبالرغم من أنها قد ارتكبت شيئاً فظيعاً، إلاّ أنها أصبحت ترى فيه أخيراً رالف الذي أغرمت به.

وهنا خاطبها بكل قوة وإخلاص: «مهما فعلت أو اعتقدت أنك فعلت يا أليس، فأنا سأغفر لك وأسامحك. وإن أعطيتني فرصة أخرى فقط لأثبت لك من أكون، فعندها سأسامحك على أي شيء ارتكبته».

أي شي؟! لم تكن أليس تعرف إن كان سيصر على مسامحتها لو عرف بحقيقة الأمر. وهل كان بوسعها أن تحتفظ بالسر لنفسها؟ أو أن تتابع حياتها بكل بساطة وتتظاهر بعدم حدوث أي شيء حيث تبقى هكذا للأبد؟

صاح متسائلاً: «أليس؟».

عندها، نظرت في عينيه، فبدا لها أنه قد عاد لسابق عهده من جديد. إذ بالرغم من أن شعره كان أشعث عند فوديه، إلاّ أنه لم يعد يبدو كذلك الرجل الفارغ ذي العينين الزائغتين الذي قابلته عند وصولها إلى هذه البلاد.

وأخيراً، خرج كلامها همساً وهي تسأله: «ماذا دهاك يا رالف؟ أين كنت؟ ولماذا عدت إلى

سابق عهدك الآن؟».

فابتعد عنها، ثم مسح الدموع من عينيه.

أجل، فقد كان يبكي. كان زوجها يبكي بالفعل.

رد عليها: «لست أدري يا أليس». وتهدج صوته وهو ينطق باسمها، ثم تابع: «لست أدري كيف جرت الأمور على تلك الشاكلة، لكنني بحاجة للمساعدة». ثم سمعت صوته وهو يحبس أنفاسه ليبكي بصمت، وبعدها قال: «كان كل ما أريده هو أن يقوم شخص بمساعدتي لاستبعاد ذلك الشعور».

عندها بقيت أليس صامتة، وذلك لأن رؤيته على تلك الحال، وبذلك الضعف والهشاشة كادت تفطر قلبها.

سألها: «هل ستساعدينني؟».

فردت عليه: «سأساعدك يا رالف، لكن عليك أن تضعني بالصورة».

فأمسك بيديها وشد عليهما بين يديه ثم قال:

«عليك أن تبلغيهم في العمل أنك مريضة». ثم أخذ نفساً عميقاً، دون أن يسمح لها بالتحرك من مكانها، ليتابع قائلاً: «إنني بحاجة إليك اليوم، إننا بحاجة لنكون معاً».

لم تكن أليس بحاجة لمن يقنعها بذلك. إذ لم تكن تدري كيف يمكنها أن تواجه ماثيو مرة أخرى في هذا اليوم، كما أن مجرد التفكير بتعليقاته التي رددها خلال الغداء جعلت بشرتها تتشرب بالحمرة، ومن ثم تصبح باردة.

سألته: «وهل سنمضي يومنا وحدنا بهذا الشكل؟».

فابتسم لها تلك الابتسامة الحقيقية التي انتظرتها طويلاً، تلك الابتسامة التي أشعرتها أنه ثمة فرصة، مجرد فرصة واحدة، ليعود لها رالف الذي عرفته، ليرجع لسابق عهده معها.

قال لها: «أريد منك أن تساعديني عبر التحدث إليّ. فقد كنت أراقبك منذ الصباح وأنا أقاوم حاجتي للشرب، وللاستسلام لذلك الأمر مرة أخرى، لكنني لم أرد ذلك لنفسي، ولم أعد أريد أن أتجرع الشراب بعد اليوم».

عند ذلك، أحست أليس بانفعالاتها تتصاعد لتصل إلى حلقها وتكاد تخنقها من جديد، كما شعرت بالدموع تحرق عينيها.

قالت له: «إنني هنا من أجلك يا رالف، وسأبقى هنا».

ولكم تمنّت لو أنها بقيت في البيت من أجله في الليلة الماضية، ولكن لعل خروجها في المساء أجبره على أن يلاحظ ما آلت إليه حاله.

قال لها: «إنني بحاجة لأن أخبرك بما حدث لي».

كانت أليس بحاجة لبعض الوقت لتلملم شتات نفسها، بحاجة لفرصة تتيح لها أن تتنفس، ولتطمئنها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

هتفت: «رالف، هل بوسعك أن تذهب إلى بيت الجيران وتطلب منهم استعمال الهاتف، ثم تتصل بعملي لتخبرهم بأنني أشعر بتوعك اليوم، وبأنني سأبقى هنا؟».

فابتسم وطبع قبلة على جبينها، وقال:

**«لن أتأخر عليك».**

**أخذت تراقبه وهو يرتدي ثيابه، وتحاول ألا تقارن إحساسها الآن بالإحساس الذي انتابها حينما كانت تراقب ماثيو وهو يلبس.**

**كان على أليس أن تتخلص من ذلك المعطف، وأن تنسى ما اقترفته يداها في ذلك اليوم، وأن تثق بزوجها من جديد.**

**عليها أن تحاول إعادة زواجها لجادة الصواب اليوم.**

**فلو كان لما فعلته ليلة البارحة أية فائدة، لكانت تتمثل في جعلها تدرك كم كانت تواقة لمستقبلها مع رالف.**

**ولو سمح لها بمساعدته، فعندها ستنتهي معاناتها. فإن عاد لها رالف، عندها سيكون كل ما بذلته يستحق ذلك العناء. إذ كل ما كانت بحاجة إليه هو أن تكتشف ما حدث له، وأن تقوم بكل ما بوسعها القيام به لمساعدته ومساعدة نفسها على البدء من جديد.**

# الفصل الرابع

# والعشرون

لم يعد هنالك أي شيء في روي يعجب مادلين. إذ لم تعد تجد فيه ما يجعلها راغبة بحبه.

امتدت أصابعها إلى بطنها لتتلمس استدارته، ولتحس بحركة الطفل الخفيفة. كانت تتمنى قبل زواجها أن يقوم زوجها حين تحمل بوضع يده على جلد بطنها المشدود؛ رغبة منه بتلمس جنينهما وهو ينمو داخلها. إلاّ أن مجرد فكرة قيام روي بلمسها الآن، أو وضع جلده على جلدها كانت تشعرها بالغثيان.

كان من الأفضل لهما خلال مرحلة من المراحل أن يعيشا في بيتهما الخاص، حتى لو كان صغيراً بحجم علبة وكان الهواء البارد الذي يتسرب إليه يخترق العظام. إذ لو بقيا فيه لكان من الممكن أن تبقى الأمور بخير. فبالرغم من أنهما لم يكونا يعيشان ذلك الحب والعواطف الجامحة التي يعيشها غيرهما من الأزواج، إلاّ أنه كان بوسعهما في بيتهما أن يطورا علاقتهما، حيث يصبح مستقبلهما مشرقاً.

كان لديهما القليل، لكنه كان ملكاً لهما على الأقل.

إلا أن هذه الفترة لم تدم طويلاً.

سمعت مادلين صوت وقع خطوات على الأرضية الخشبية، ثم سمعت صرير الباب، فعادت لتحريك الطعام، وأخذت تفرك بإحدى يديها ظهرها، وذلك لتخفف من ذلك الألم الطفيف الذي أخذ ينتابها مساءً.

«مرحباً».

رفعت مادلين بصرها لترى روي الذي كان يقف عند عتبة الباب. كانت تشعر بالرهبة حينما تراه على هذه الشاكلة؛ إذ لم يكن كذلك في لندن، ولكنها على الأرجح لم تدخل أعماقه حينها، وذلك لأن الأمور تمت بسرعة كبيرة. حيث إنها أقنعت نفسها بالزواج منه وتصديق كل ما قاله لها، ثم قررت أن تترك أسرتها؛ وذلك بعدما فكرت بذلك واقتنعت أنه بوسعها أن تخوض تلك التجربة، في الوقت الذي كانت فيه الشكوك تحيط بكل شيء متعلق به. وها هي الآن تدفع ثمناً غالياً لقاء ذلك.

قالت له: «لن يتأخر العشاء».

فهز برأسه، واتجه نحو الصالة ليغير ملابسه.

كانت تمر عليها أوقات تحس فيها أنها لا ترغب بالحديث إليه، لأن كل ما كانت تريد أن تفكر به هو الطفل، أو كيف تنسى نفسها في العمل، أو أن تقضي وقتها بأحلام اليقظة وهي تتمنى أن ترى أبويْها مرة أخرى. كانت وفاة والدها بمثابة ضربة قاضية بالنسبة لها، ولهذا ظلت تشعر بالخدر وفقدان الإحساس بفعل الصدمة. إذ كانت القصة تبدو لها في بعض الأحيان غير حقيقية، وخاصة بعدما احتفظت بذلك السر لنفسها. كانت قد أخبرت لورين بالأمر، وطلبت منها أن تتكتم على الموضوع؛ لأنها لم تكن تريد أن يعرف عنه روي أي شيء، أي بقيت تعاني لوحدها. ولكن، كان يتعين عليها أن تخبره بأمر التلغراف في أقرب فرصة، ولكنه حينها سيتأكد من أنه لا مفر لها من البقاء هنا. وكانت هذه الفكرة تجعل الدم يتجمد في عروقها.

لكنها كانت تقول لنفسها إنه لا بد قد عرف بالنبأ بطريقة ما. فهل كان هذا ما ساعده على التمسك برأيه حيال موضوع انتقالهما إلى بيت أهله؟ ألهذا لم يتراجع عن رأيه قيد أنملة؟ كانت الفكرة سخيفة، لكنها كانت تراودها باستمرار.

لكنها لم تكن لتسمح لنفسها بالبقاء على هذه الحال في هذه البلاد؛ إذ قد يتعين عليها أن تعود للمزرعة، لكن الأمر لن يطول.

لم يكن أمام مادلين سوى يومَي دوام في العمل قبل أن تضطر لتقديم استقالتها. لكنها كانت قد ادخرت بعض المال، كان مجرد مبلغ بسيط منه. وحينما يضطران للعيش على راتب واحد عندما يعودان إلى المزرعة، ستقتصد كالسنجاب. كانت قد أخفت ذلك المبلغ، ولم تتفوه بأي كلمة حول المال الذي ادخرته.

كانت قد اقتصدت ووفرت حتى في الإنفاق، بل حتى في لوازم الطفل، لذا كان يتعين عليها أن تحذر من أعين أهل زوجها الفضوليين، لكنها كانت تعرف أنه بوسعها القيام بذلك؛ إذ كانت بارعة وضليعة في ترتيب دفاتر موازنة الحسابات.

كانت قد قررت أن تدخر ما يكفي من المال لتعود إلى لندن؛ حتى لو استغرقت عملية التوفير والادخار سنوات. إذ كان من المستحيل بالنسبة لها أن تترك ابنها يعيش هناك، وخاصة بوجود جديه اللذين كانا سيحاولان أن يسمما أفكاره حيال أمه، ولا سيما أنه بوسعها أن توفر لطفلها حياة جميلة في لندن بصحبة أبناء خالاته وبناتهن الذين سيحبونه بلا ريب؛ حتى لو كان ذلك يعني أنها ستجلب العار لنفسها عندما تترك زوجها.

إلا أن هذا لم يعد يهمها.

كانت قد قررت أن تغادر بأي طريقة، بل كانت ستهرب من ذلك المكان ولن تعود إليه مطلقاً.

ولكن، عندها ما الذي سيقوله روي؟ قد تظن أمه أنها المسيطرة، إلاّ أن مادلين لم تكن تريد أن تقف مكتوفة اليدين وتسمح لهم بالسيطرة عليها؛ وخاصة بوجود طفل كان عليها أن تضع احتياجاته في المقام الأول على سلم الأولويات.

وهنا أخذت تشعر بالأسى على زوجها، أجل كانت تحس بذلك إلى حد ما.

لكنها في قرارة نفسها كان تعلم أنها لن تندم على تركه.

أبداً...

# الفصل الخامس

# والعشرون

تنحنحت بيتي ثم قالت:

«لوكا... إنني... آسفة لإزعاجك».

فرفع بصره إليها، ثم وضع فنجانه وأخذ يحدق فيها، فأحست أنها على وشك أن تفقد ثقتها بنفسها، هكذا بهذه السرعة.

هتفت دونما تفكير: «هل عادت أمينة السر في مكتبك؟».

فنظر إليها وقال: «أوه، أجل. فقد كانت مشغولة للغاية منذ أن عادت، كما أنني نسيت الأمر برمته».

ردت عليه: «إذاً، أما زال العرض قائماً؟ أعني في ما يخص مساعدتها لي».

وهنا وقف لوكا، وطوى الجريدة، ثم تجرع ما تبقى من قهوته، وأخذ يحدق فيها لوهلة، بينما بقي فنجانه في يده.

وأخيراً قال لها: «إنها طوع أمرك. لذا، بإمكانك أن تزوري المكتب بعد الدوام اليوم».

سألته: «هل بمقدوري أن آتي معك الآن بدلاً من ذلك».

فهز رأسه، ورفع كتفيه، وأخذ السترة التي كانت معلقة على ظهر كرسيه، ثم قال:

«لا داعي لذلك. اطلبي من إيفي أن تأتي بك إلى المكتب بعد الدوام اليوم».

هزت بيتي رأسها، ثم أخذت تلوي يديها في محاولة منها لتخفي توترها، فما كان منه إلاّ أن سار نحوها، وابتسم لها ابتسامة مقتضبة، ثم توجه مباشرة نحو الباب الذي خرج منه.

عندها تنفست الصعداء، وذلك لأن طرح هذا السؤال عليه كان أصعب مما توقعت، بل أصعب بكثير من كل توقعاتها. إذ كانت الأجواء التي ضمتهما في غاية الغرابة، وهذا ما جعلها تشعر بالإحراج الذي أحست به يوم زارت أبويه.

ثم ذهبت فوراً إلى المطبخ.

وهناك سألتها إيفي: «هل سألته؟».

ردت: «أجل».

سألتها: «حسناً؟ وبماذا أجابك؟».

أمسكت بيتي بتفاحة وتركتها تدور في راحتها، ثم قالت: «طلب مني أن آتي بعد الدوام».

رفعت إيفي يديها مستسلمة، ونظرت للأعلى مبدية نوعاً من التذمر ثم سألت:

«ولمَ أنت متضايقة؟».

ردت بيتي: «لم يكن ودوداً معي». ثم تهاوت على كرسي عند الطاولة، وتركت رأسها

**يسقط بلطف فوق السطح الخشبي البارد.**

**وهنا أحست بإيفي تقف خلفها.**

**ثم سمعتها تقول: «قد يظن من يسمع كلامك بأنك كنت تتمنين أن يعشقك».**

**هتفت إيفي بذلك الكلام بلطف، إلاّ أن مجرد التفكير في ذلك الموضوع جعل بيتي تشعر بالغثيان، كما جعل أحشاءها تنقبض.**

**فأصرت بالقول: «إنك مخطئة».**

**ثم شدت ظهرها.**

**فهتفت إيفي قائلة: «كل ما قلته هو أنك تبدين قلقاً كبيراً إزاء نظراته، وما يقوله، وما شابه ذلك من أمور. إلاّ أن لوكا يحتاج إلى فترة من الزمن حتى يثق بالناس، فما عليك إلاّ أن تمنحيه بعض الوقت».**

**كانت إيفي محقة بذلك، إذ كان يتوجب على بيتي أن تمنحه بعض الوقت.**

**ولكن، هل كانت إيفي محقة في ما يخص مشاعرها تجاهه؟ كانت لا تزال تحب شارلي، أليس كذلك؟ لقد كان شارلي أفضل رجل قابلته في حياتها، فلقد أضاء القاعة بنوره في تلك الليلة التي قابلته فيها لأول مرة، وجعلها يومها تقع بغرامه.**

**لكن شارلي رحل...**

**قذفت بيتي برأسها نحو الطاولة ليسقط بين يديها.**

**فوبختها إيفي بالقول: «كفّي عن ذلك ولا تتصرفي بحماقة. والآن، أحضري ذلك الصغير إلى هنا لآخذه معي إلى منزل ابنتي ليلعب مع طفلها الصغير، وبوسعك أنت أن تنزلي إلى المكتب لتشرعي بالبحث عن صديقاتك دون أن يسبب لك ويليام المشاكل ويتعبك».**

*******

**كانت بيتي تشعر بحماسة كبيرة، كتلك الحماسة التي أحست بها في ذلك اليوم الذي سبق وصولها مع صاحباتها إلى أمريكا. أجل، أحست بذلك الأدرينالين الذي ارتفعت نسبته في جسمها، وصاحبته حالة من الترقب، إذ كانت ستجد صديقاتها اليوم.**

**سألت بيتي: «أهذا هو؟».**

**فهز السائق برأسه وقال: «ذلك البناء الرمادي الضخم على اليسار».**

**وفجأة، أدركت بيتي أنها لم تكن تعرف ما هو العمل الذي يزاوله لوكا، وكيف قام بجمع ثروته، لأنها كانت تظن أن ذلك قد تم عبر المشاريع التجارية التي تديرها الأسرة. كما أن شارلي لم يخبرها أي شيء عن عمل أخيه، ثم إن لوكا قد جعل من أخيه يبدو كفرد منبوذ من قبل العائلة.**

**ولهذا سألت بيتي السائق: «ما نمط العمل الذي يزاوله السيد أوليفر؟».**

**وهنا تباطأت سرعة السيارة، ثم توقفت ضمن مساحة فارغة، والتفت السائق لينظر إليها ويجيب بالقول:**

**«إن السيد أوليفر عضو في مجلس الشيوخ يا سيدتي».**

**أوه... وهنا أحست بيتي وكأن كومة من الحجارة قد استقرت فجأة فوق كتفيها... وأخذت**

تفكر: أهو عضو في مجلس الشيوخ؟ هذا يعني أنه صاحب منصب مهم، أليس كذلك؟ لكنه لا يزال صغيراً على شغل منصب كهذا، أليس كذلك؟ ثم إن هذا يفسر سبب عدم ذهابه للخدمة العسكرية أيضاً. فعلى ما يبدو، منصبه مهم، وهذا ما استدعى بقاءه في بلاده. لكن أن يكون عضواً في مجلس الشيوخ؟!!!

قالت بيتي للسائق: «إذاً، علي أن أتجه لذلك البناء».

فردّ عليها بالقول: «ستجدين المدخل بسهولة، حيث سترين الرايات وهي ترفرف فوقه هناك».

ابتسمت بيتي ونزلت إلى الرصيف.

صاح بها السائق: «سأنتظرك هنا».

ردت: «أشكرك».

أمسكت بيتي قبعتها بإحدى يديها وذلك حينما هبت ريح قوية، كما أمسكت تنورتها بيدها الأخرى. وهنا تبدلت مشاعرها، فاختفت حماستها للمهمة التي كانت بصدد القيام بها ليحل محلها فجأة إحساس بالذعر من مجرد أن تخطو بقدمها نحو ذلك المكتب.

أحست بانقباض حينما بلغت ذلك المبنى، إذ طالعها بابان كبيران، فأحست أنه من الصعب عليها دفع أحدهما نظراً لثقله البالغ.

أيجدر بها أن تعود أدراجها إلى السيارة؟

إلا أن يداً لامست أسفل ظهرها وأوقفتها، فاستدارت للخلف ورأت لوكا.

تلعثمت وهي تقول: «أوه! آسفة! كل ما كنت أريده أن...»

أبعد يده عنها، لكنه بقي واقفاً بالقرب منها: «أتذكر أول يوم لي في الدوام هنا، لذا فأنا أعرف ذلك الشعور الذي يجعلك تتهيبين تجاوز هذين البابين».

لم تتمكن بيتي من النظر إليه، إذ كان يبدو في غاية الوسامة والأناقة ببزته الرسمية التي حيكت على مقاسه، لذا... لكنه لم يكن حبيبها شارلي، وهذا ما جعلها توبخ نفسها على تلك الأفكار.

أومأ إليها لتتبعه، ثم فتح لها أحد البابين لتدخل.

وبعدها سألها: «أبقي ويليام مع إيفي؟».

ردت: «أجل».

فقال: «أشعر بالسعادة حينما أرى أنه بوسعها مساعدتك. كما أنني لا أشغلها طيلة الوقت، لذا تواجدك هنا لا بد أن يكون هدية ونعمة كبيرة».

فردت عليه: «لست أدري ما هي تلك النعمة، ولكنني سعيدة بوجودها معي».

تبعت بيتي لوكا وهو يسير بخطى واسعة عبر الممر، فأحست بأن للمكان رائحة تعكس أهميته.

قال لها: «تعالي لتقابلي مساعدتي جين، وأنا على يقين من أنها ستجد صديقاتك».

ردت بيتي وهي تحاول ألا تطيل التحديق بما حولها: «أتمنى ذلك». كانت ألواح السنديان التي تغطي الأرضية كبيرة، وبدا لها المكتب أثرياً، كما شاهدت لوحتين كبيرتين معلقتين على الجدار

المقابل.

سألها: «ما رأيك بأن نخرج لتناول العشاء الليلة؟».

كان لوكا قد توقف عند عتبة الباب واتكأ على الجدار وأخذ يراقبها، ولهذا لم تدرِ ماذا ينبغي أن تقول. فهل كان يعني بذلك عشاءً رومانسياً أم يقصد بذلك شيئاً أكثر مثالية؟ وهنا عاد قلبها للخفقان بسرعة؛ إذ كانت متوترة ولكنها متحمسة في الوقت ذاته.

ردت عليه: «لكنني لا أستطيع أن أترك ويليام كل تلك الفترة الطويلة». لم تكن بيتي تدري حينها إن كان بوسعها أن تنظر إليه مجدداً، وذلك بسبب تدافع الأفكار واختلاطها في ذهنها حوله.

قال لها: «سأتصل بإيفي وأعلمها بذلك، وليكن عشاؤنا مبكراً وفي مكان قريب».

هزت له بيتي برأسها موافقة، فما الذي كان بوسعها أن تفعله بعد ذلك؟

قال لها: «أريد أن أعرف أكثر عن عائلتك وكيف التقيت شارلي. كما أتمنى أن تعرفي أين تقيم صديقاتك قبل موعد العشاء».

وبعد ذلك اختفى وراء الباب، وبقيت هي تنتظر جين.

***

تمكنت إيفي من الوصول إليها، أجل لقد وجدت جون.

أو بالأصح، تمكّنت من الوصول إلى زوج جون، إذ اتصلت وهي متوترة بمكتبه وتحدثت إليه، وأحست بالارتياح عندما تذكرها. كانت مجرد مكالمة قصيرة لأنه كان مشغولاً، ولكنها أعطته عنوان لوكا ورقم الهاتف وذلك ليعطيه بدوره لجون، وتمكنت من أن تكتم صيحة فرح بعدما أنهت المكالمة.

سألها: «أهناك أخبار سارة؟».

لقد كان لوكا في الغرفة، لكنها لم تره عندما دخل.

ردت عليه: «إنها البطاقة التي بقيت بحوزتي، بطاقة زوج صديقتي... حسناً، لقد تمكنت من الوصول إليها».

قال: «جيد».

صاحت: «لكنني لم أصل للأخريات بعد، إلاّ أن جين قالت لي إنها ستحاول مرة أخرى في الصباح، وذلك لتصل إلى عنوان أليس».

سألها: «ما رأيك بأن ننطلق؟».

كانت قد نسيت أمر العشاء، كما أحست بالاشتياق لويليام، وبألم يجعلها ترغب في إرضاعه، لكنها لم تكن تريد أن تتصرف معه بقلة تهذيب.

ولهذا أكّد لها لوكا بالقول: «لن أبعدك عن الفتى الصغير لفترة طويلة».

فتساءلت في سرها عما إذا كان اشتياقها لصغيرها واضحاً لتلك الدرجة.

قال لها: «هيّا بنا».

أمسك بمعطفها فاستدارت لترتديه، وللحظة أخذ يحدق بها وتحدق به.

وبعدها التفتت إليه، فمد لها ذراعه، وأمسكتها.

لم يكن يشبه شارلي في ذلك؛ إذ لو كان حبيبها موجوداً لكان قد شبك يده بيدها، كما أنه لا بد أن يكون جريئاً ويضع ذراعه حول خصرها، وكان سيضمها أكثر، كما فعل خلال موعدهما الأول.

إلا أن تصرفات لوكا كانت مختلفة، إذ لم يكن ليقوم بتلك الأمور لأنه كان أكثر انضباطاً وتحفظاً من أخيه.

ولكنها تمنّت في هذه الأثناء أن يمسك بيدها، بالرغم من أنها كرهت نفسها لمجرد التفكير بهذه الفكرة.

عبّر لوكا عن ملاحظته لما تمرّ به من مشاعر بالقول: «أراك متوترة».

فجعلت بيتي يدها تتراخى وهي تمسك بالزجاج وترد:

«آسفة».

قال لها: «أتفهم أنك تريدين أن تعودي لويليام».

أعجبت بيتي بأدبه الجم حيال الموضوع. ولكن، هل كان يتفهم ذلك بالفعل؟ وخاصة بوجود أم كأمه التي كبر في حضنها! لأن لعب دور الأب الحاني لم يكن أمراً مألوفاً بالنسبة له.

قال لها: «فهمت. لقد ملأت إيفي مكان أمي حسبما أخبرتك، أو لنقل الفراغ الذي خلفته أمي».

ما الذي جرى له؟ وكيف كان يقرأ أفكارها؟

ردت عليه بالقول: «بدأت أشعر أنه بإمكانك أن تقرأ أفكاري بسهولة؛ وكأنني كتاب مفتوح لطفل صغير».

فضحك لوكا وقال: «إنك صادقة يا بيتي، فما في قلبك على لسانك كما يُقال، ويعجبني ذلك فيك».

وهل كان يظن أنها بخلاف ذلك؟ وأنها لن تكون صادقة معه؟

أشار للنادل وطلب: «نريد شريحتَي لحم غير مطبوختين بشكل كامل».

فهز النادل برأسه.

قال لها: «أتمنى ألا تتضايقي لأنني طلبت وجبتين لكلينا، وذلك لأن شرائح اللحم التي يقدمونها في هذا المطعم لذيذة، وهكذا يمكننا أن نتناول طعامنا ونعود للبيت مباشرة».

كانت سنوات طويلة قد مرت عليها دون أن تتناول شريحة لحم في مطعم؛ وذلك لأن الحرب كانت قد اختصرت كل شيء في عالمها ليتحول إلى مؤونة تصرف عبر قسائم. وهكذا، أصبح الطعام متعة بالنسبة لها منذ أن وصلت إلى أمريكا، لكنه لم يكن يتمتع بتلك الخصوصية.

قال لها لوكا: «أردت أن نخرج معاً على العشاء يا بيتي لأعتذر لك».

ارتشفت رشفة من شرابها بتوتر وسألته: «علام؟».

فردّ عليها: «لا بد أنك قد سمعت ما قالته أمي في ذلك اليوم. كما كان يتعين عليّ أن أتطرق لذلك الموضوع قبل الآن».

فابتلعت بيتي ريقها، وأخذت تصدر صوتاً وهي تتناول اللقمة التي كانت في فمها، أما

بشرتها فقد أصبحت حمراء من شدة ارتباكها.

قالت له: «إنني... آها...».

فقال: «لا أريد أن أزعجك. ولكن، كان لا بد من قول ذلك».

فجمدت في مكانها كالتمثال.

تابع قائلاً: «لا أستمتع بصحبة أمي في أفضل الأحوال، إلاّ أن شارلي كانٍ يبدي صبراً أكبر عليها، وهذا ما دفعني لأخذك لمقابلتهما. ثم إنهما كانا سيزورانا عاجلاً أم آجلاً. لقد ابتعدت عن الموضوع».

أخذت تحدق بالأسفل، ثم ارتشفت رشفة صغيرة أخرى من شرابها.

لم تكن قد جربت تناول الشراب من قبل، وهكذا بدأت تحس بدوار خفيف، إلاّ أن هذا كان أفضل من تبادل النظرات مع لوكا.

تابع كلامه: «ما كنت أحاول قوله هو أن أمي تتمنى وتتوق بشدة أن أتخذ لنفسي زوجة، إلاّ أنني وبكل صراحة أفضّل أن أقضي حياتي وحيداً على أن ينتهي بي الأمر مع امرأة على شاكلتها. لا أريد أن أبدو وقحاً حينما أعبّر عن ذلك، ولكنها كذلك بالفعل. حسناً، لست أدري كيف أصف لك ذلك. ولكن، يمكنني أن أقول إنها بخلاف كل الصفات التي تحملها امرأة مثلك».

لم تستطع بيتي أن تميّز إن كان ما قاله مدحاً أم ذماً.

إلا أنها استغربت حين وجدت لسانها أخيراً، وردت عليه بالقول: «لست أدري إن كنت تمتدحني بذلك أم لا».

فردّ عليها: «أوه، إنه مديح. بالطبع كان مديحاً!».

وعندها، عاودها الشعور بالارتباك من جديد، وأحست باضطراب وحيرة.

قال لها: «أعني طريقتك بالتعامل مع ويليام، وصبرك عليه، وطريقتك بالاستمتاع بصحبة إيفي، وكل تلك الأمور التي كان شارلي يحب أن يراها فيك. إنك أم رائعة يا بيتي. لذا، كل ما أريده هو ألا تستدرجك أمي لبيتها الريفي لتحاول تغييرك وتحويلك إلى امرأة أخرى. والأسوأ من ذلك أن تحاول أن تتولى أمر تربية ويليام بنفسها. هذا ما دفعني للاحتفاظ بك في بيتي، أنت وويليام. فقد تعلقت بكما منذ وصولكما، وتعلقي بكما أكبر مما يمكنك تصوره».

وهنا دمعت عينا بيتي؛ إذ لم يكن بوسعها أن تطلب منه أن يصارحها بأكثر مما فعل. كان ذلك يعني لها الكثير، وخاصة أنها كانت تعرف أن حديثه بهذه الطريقة لم يكن شيئاً اعتاد عليه.

ردت: «لا أريد أن أقيم مع والدتك يا لوكا. ولا أقصد بذلك أي نوع من قلة الاحترام، لكنني لم أشعر بأي ارتياح تجاهها».

عند ذلك، كفّ عن الكلام، وتجرّع جرعة كبيرة من شرابه، ثم عاد للوراء حينما وُضع أمامهما طبقان من الطعام. أخذت بيتي تنظر لشريحة اللحم في طبقها بسرور، إذ كانت شريحة كبيرة من اللحم البقري وبجانبها قطع صغيرة من البطاطا والفطر، فضلاً عن الصلصة التي سكبت فوق محتويات الطبق.

هتفت: «لا أصدق ما أراه!».

فأشار لوكا لها بأن تبدأ بتناول وجبتها.

ثم اعترف بالقول: «قبل أن تقيم إيفي في بيتي، كنت أتناول طعامي في هذا المطعم كل مساء تقريباً».

ابتسمت له بيتي قبل أن تضع أول لقمة في فمها، وبعدها تذوقت اللحم الذي كان طرياً فوق لسانها.

هتفت: «إن ما تطبخه إيفي من وجبات لذيذ بالفعل، إلاّ أن هذا الطعام شهي أيضاً».

استند لوكا إلى كرسيه للحظة، ثم قال لها: «أتعرفين؟ لقد تعاملتِ مع وفاة شارلي بطريقة مناسبة لأقصى حد».

فترددت بيتي، وأخذت تسأل نفسها: أهو سؤال ملغوم؟

ثم قالت: «لست متأكدة من ذلك».

فرفع أحد حاجبيه، وذلك قبل أن يقطع من شريحته قطعة أخرى.

فأخذت تقول: «إن كنت تقصد ذلك الوجه الشجاع الذي أرتديه كل يوم، فأعتقد أنك أصبت في ذلك. ولكن، ماذا عن شخصيتي الحقيقية؟ إنني تلك المرأة التي تقضي كل ليلة وهي تبكي فوق وسادتها، وتضم ابنها وتهمس له باسم أبيه كي لا ينساه».

فابتسم لوكا بحزن. ولكن، هل كان هذا ما ينتظر سماعه منها؟

قال لها: «إنني معجب بك يا بيتي، وأرجو منك ألا تفهمي كلامي بشكل خاطئ؛ وذلك لأنني ذلك الشخص الذي يتفوه بكلام غير مناسب حينما يتحدث إلى النساء».

أحست بأنها تركب موجة بصحبة هذا الرجل؛ إذ كانت تحس بأنها معجبة به في لحظة ما وبأنها تعشق صحبته، وفي اللحظة التي تليها، تحس بأنه يشك بنواياها، ولذلك يقوم باستجوابها بدهاء.

ردت عليه: «لقد أحببت شارلي كثيراً يا لوكا، ولكنه رحل. لذا، لم يتبقَّ أمامي سوى خيارين؛ فإما أن أعيش في الماضي وأندب حظي، أو أن أمضي وأتابع حياتي». ثم أخذت تحدق به كما كان يحدق بها، وبعدها قالت: «وبصراحة، أقول لك إنني اخترت المستقبل».

فتصرف هو وكأنهما لم يتبادلا الحديث حول أمر في وقت غير مناسب ثم قال: «جيد». وبعدها هتف: «بصحة الصداقة». ورفع كأسه، فما كان منها إلاّ أن ابتلعت اللقمة التي في فمها، ثم رفعت كأسها هي أيضاً.

وقالت: «بصحة العائلة».

ثم طرقا كأسيهما ببعضهما، وثبّت كل منهما نظراته على الآخر.

قال لها: «إنني مسرور لأنك هنا يا بيتي. بالفعل أنا سعيد بذلك».

غير أن بيتي لم تكن متأكدة من مشاعرها الحقيقية. فقد كانت تشعر تجاهه بالامتنان الذي يخالطه إحساس بالسرور لأنها لم تكن وحيدة.

كان الألم الذي تشعر به في معدتها كلما اقتربت من لوكا قد بدأ يعاودها، ولكنها تجاهلته؛ إذ لم يكن مهتماً بها بتلك الطريقة، وهي كذلك أيضاً، وذلك لأن كل ما كان يجمع بينهما هو العائلة والصداقة ليس إلا.

قال لها: «إذاً، أخبريني عن خطتك للتعرف على عناوين بقية صديقاتك».

**فابتسمت حينما سمعت كلامه؛ لأنه طرح أخيراً موضوعاً آمناً.**

**قالت له: «حسناً، أتمنى أن أرى جون في غضون بضعة أسابيع؛ فحينها ستكون العطلة التي سافرت فيها برفقة زوجها قد انتهت. وأعتقد أن البحث لا يزال جارياً في ما يتعلق بالصديقتين الباقيتين».**

**أنهى لوكا وجبته، ومسح فمه بمنديل، ثم اعتدل على كرسيه وبيده كأس الشراب.**

**قال لها: «كم أتمنى أن ألتقي جون هذه. وقد ندعوها إلى العشاء يوماً ما مع زوجها، ما رأيك؟ طبعاً بعد أن تلتقيا أنتما الاثنتان».**

**هزت بيتي رأسها إيجاباً؛ إذ لعل كل ما تريده في هذا الحين هو أن ترى جون مرة ثانية، وأن تتحدث إليها وتخبرها بما حدث، وأن تستودعها أسرارها، ثم تسمع منها كيف كان شكل حياتها في أمريكا.**

**كانت صداقتها مع الفتيات الأخريات ما كانت تتوق إليه، بقدر ما كان الألم يعتصرها.**

# الفصل السادس

# والعشرون

أحست أليس فجأة وكأنها قد خرجت من كابوس مظلم ومرير؛ إذ كلما رفعت رأسها ونظرت إلى زوجها، أو دخلت بيتها، كانت تحس بأن حياتها لم تعد تشبه حياتها خلال الشهور الماضية التي أعقبت وصولها إلى البلاد. فقد تحوّل هذا المكان الذي كانت تحس بأنه صغير ويفتقر إلى الحب إلى مكان يعج بالحيوية التي كانت تبهج روحها.

نهضت أليس مبكرة لتفتح الستائر، ولتسمح للشمس بأن تملأ الغرف بالدفء. كانت قد جمعت الأزهار من حديقة البيت الصغيرة وزينت بها المنضدة، وأخذت تخبز وتستمتع برائحة الكعك التي كانت تملأ البيت. كانت سعيدة لأنها تمضي عطلة نهاية الأسبوع في بيتها؛ وذلك لأنها لن تشعر بالذنب لتهربها من العمل لتمضي وقتها بصحبة زوجها.

ثم إن رالف... آه يا رالف! لقد عاد زوجها إليها، فأحبته أكثر وذاب قلبها به عشقاً. لم يكن الأمر سهلاً عليها، إلاّ أنها أخذت تمضي معظم وقتها بالاهتمام به وهي تحاول أن تستوعب ذلك الضغط الذي تحمله، لكنه كان يسعى بكل ما أوتي من قوة ليحافظ على زواجهما، كما فعلت هي، وكان ذلك كل ما يهمها. بل جعلها ذلك تحبه أكثر؛ لأنهما أخيراً التقيا وتوحّدت رغباتهما ليصبحا زوجاً وزوجة حقيقيين. وبعد مرور كل ذلك الوقت، أحست أليس بالسعادة لأنها حصلت على فرصة ثانية لإصلاح ما كان بينهما، وأدركت أنها لم تكن بحاجة للدلال بقدر ما كانت بحاجة للحب.

كانت هنالك الكثير من الأمور التي لا بد من التطرق إليها، والكثير من الأشياء التي لا بد من القيام بها لوضع الأمور في نصابها الصحيح؛ إذ لا بد لهما من القيام بذلك، وهي تعرف أنهما سيقومان بذلك. ثم إن رالف سيصل إلى البيت بعد قليل، ولهذا تفقّدت الفرن، وضبطت المؤقت لينبهها بعد مرور بضع دقائق. كانت تُعِد فطيرة شهية، محشوة بالدجاج والخضار، كتلك التي كان رالف يحب أن يتناولها في لندن، لكنها كانت غير معروفة في أمريكا.

«هل عدت للبيت يا حبيبتي؟».

أحست أليس بقلبها يخفق بقوة حينما سمعت صوت رالف. فقد تغيرت خلال أسبوع، وأصبحت تتوق لقربه بعدما كانت تتضايق من كل حركة يقوم بها.

ردت عليه: «إنني في المطبخ».

ثم أوقفت المؤقت، وأخرجت الفطيرة من الفرن؛ لأنها إن لم تخرجها في هذا الوقت فسيتوجب عليها أن تقاطع زوجها وهو يتحدث. وهي تريد أن تسمع منه كل شيء حول ما حدث معه في ذلك اليوم.

لم يكن قد اقترب من الشراب منذ ذلك الصباح الذي استلقيا فيه على سريرهما معاً وأخذا يتحدثان. إلاّ أن الأمر كان صعباً، بل بغاية الصعوبة عليه. وقد عاشت أليس لحظات الصراع التي كان يعاني منها خلال الأيام العشرة الأخيرة، كما لاحظت أعراض انسحاب ذلك الإدمان من جسده. كان يستمد قوته خلال تلك المعركة الشرسة من رغبتها في منحه كل الحب والاهتمام المتواصل لمساعدته في التغلب على إدمانه. ولم يكن يهمها في ذلك الحين سوى سعادتهما، فقد ضحّت طواعية بالكثير من الأمور التي كانت تظن أنها مهمة مقابل رؤية رالف في تلك الصورة.

«مرحباً يا حبيبي».

اقترب رالف من وجهها وقبّل شفتيها، فأغمضت عينيها، وأخذت تستنشق رائحته. وحينما تركها، أخذ كل منهما يراقب الآخر، وذلك قبل أن تبتعد عنه خطوة بعدما احمر وجهها.

سألته: «كيف كان يومك؟».

فابتسم وذلك قبل أن يقلب أحد الكراسي التي كانت موضوعة فوق طاولة المطبخ الصغيرة.

ورد عليها: «سيخبرني بنهاية الأسبوع».

فهزت أليس برأسها وقالت: «حسناً، إذاً ثمة أمل، أليس كذلك؟».

فابتسم رالف لها، وقال: «إنه يعرف أبي، وأعتقد أن ذلك سيساعدني».

لم تنبس أليس بأية كلمة، لأنها لم تكن تعرف ما الذي حدث داخل أسرة رالف، كما كانت تخشى أن تزعجه بمجرد طرح أسئلة أكثر حول ذلك الموضوع.

قال لها: «أعرف أنه سبق لي أن قلت إنني أريد أن أقوم بذلك الأمر بنفسي، ولكن إن كان اسم عائلتي سيساعدني في تأمين موطئ قدم لي فسأكون أحمق إن رفضت ذلك». ثم فك ربطة عنقه، ورفع قدميه على الكرسي الآخر، وتابع قائلاً: «كانت لابنه رتبة مشابهة لرتبتي في أوروبا خلال الحرب. إذاً، من يدري؟ قد يساعدني ذلك أكثر من أي شيء آخر».

لم تنطق أليس بحرف، إذ لاحظت أنه يحاول أن يُبدي شجاعة، ولكنه قلق في الوقت ذاته. ثم إنهما كانا بحاجة ماسة للمال، لكنه كان يبذل كل ما بوسعه، لذا كانت تعرف أنه سينجح في النهاية، بل لا بد له أن ينجح.

قالت له: «لست أدري يا حبيبي إن كنت سأنقل لك خبراً ساراً، ولكن وصلتني رسالة عن طريق الجيران أخبروني فيها أن والدتك قد اتصلت وأخبرتهم بأنها ستأتي لتقيم معنا لمدة شهر».

كان من الصعب عليها أن تقرأ التعابير التي ارتسمت على وجه رالف الذي قال: «أوه».

فما كان من أليس إلاّ أن دارت حول الطاولة لتصل إليه وتضع يدها على كتفه وتقول: «آسفة، إذ لم أقصد أن...»

فجذبها من خصرها وجعلها تسقط في حضنه.

وعندها، تنفست الصعداء، وأحست بالسعادة حينما رأت ابتسامة على وجهه.

قال لها: «أعرف أنك تريدين أن يكون كل شيء على ما يرام، وأنك قلقة عليّ، لكنني بخير يا أليس، ويجب عليك ألا تتعاملي معي وكأنني قد هزمت بعد اليوم. وأعتقد أنني يجب أن أشعر بالسرور لأنها ستراني على ما أنا عليه الآن بدلاً من أن تراني على ما كنت عليه قبل أسبوعين».

عند ذلك، استطاعت أن تنظر في عينيه، فرأت فيهما ما كان يخيفها؛ إذ لا بد أن يحس بالهزيمة إن تفوهت بكلمة في غير محلها، وتلك الفقاعة الصغيرة الرائعة التي أحاط نفسه بها كان من الممكن أن تختفي بسرعة كما ظهرت بسرعة.

قال لها: «لن أعود لذلك يا أليس؛ فقد كنت في المكان الخطأ، ولا يمكنني أن أعود إلى هناك».

ردت عليه: «أعرف يا رالف، أعرف، إنها مجرد...»

سألها: «ماذا يا أليس؟».

فردت: «أعرف أنك عانيت خلال تلك الفترة، لكنني لا أستوعب كيف يمكن لرجل مثلك، لرجل هو أنت الذي أعرفه، أن يهزم بهذا الشكل. أعني، لا أستطيع أن أفهم ذلك».

وبمجرد قولها ذلك، أحست بأن ما يشبه الزفرة قد خرج من رئتيها، وأحست بارتياح كبير بعد إفصاحها عما كانت تكبته داخلها كل تلك الفترة.

نظر إليها، ثم أخذ نفسها عميقاً، وبعدها قبّل جبهتها، وقال:

«ما رأيك بأن تحضّري العشاء بينما أقوم بتغيير ملابسي، ثم سأشرح لك كل ذلك؟».

وهنا أحست أليس بأن حواسها قد تبلدت، فهزت رأسها ثم نهضت، وسارت بساقين متصلبتين لتقوم بتقطيع الفطيرة.

حينما نظرت إلى الخلف كان قد اختفى لتوه، وبدا لها صادقاً في كل ما قاله، وكأنه لم يكن ليتبرم مما يمكنها أن تقوله. إلاّ أن فكرة الزجاج راودتها من جديد، فهل ضغطت عليه كثيراً إلى أن انكسر؟

قال لها: «إنها لفطيرة رائعة يا حبيبتي».

ابتسمت أليس لرالف ووضعت شوكتها التي غرزت فيها لقمة داخل فمها. لقد كانت الفطيرة طيبة، لكنها لم تكن تريد أن تتناقش معه بأمر الفطيرة.

لعله ينبغي عليها أن تفتح هي الموضوع، وأن تتحدث عما توصّلت إليه من قرارات في ذلك اليوم؛ إذ يمكن أن يساعده ذلك ويشجعه على أن يفتح لها قلبه. وبالإضافة إلى ذلك، إن لم تتطرق للحقيقة وتخبره بأنها كانت تتصل كل يوم بعملها وتخبرهم بأنها مريضة طيلة الأسبوع الفائت فلا بد له حينها أن يستغرب من أمرها.

قالت له: «رالف، لقد فكرت كثيراً خلال الأيام القليلة الماضية و...»

فما كان منه إلاّ أن رمى بشوكته التي أصدرت ضجيجاً، وقال: «كلا! أعرف أنني عقدت الأمور بالنسبة لك يا أليس، لكنني سأحصل على عمل قريباً، وستكون أمورنا بخير. لذا، أرجو منك ألا تعودي بعد كل هذا الوقت».

فتساءلت في سرها: ماذا؟ ثم سألته: «أعود إلى أين؟ للعمل؟».

وهنا بدا عليه الارتباك وقال: «لوطنك يا أليس، لا أريدك أن تتركيني وتعودي إلى بلادك».

فابتسمت ابتسامة تهلل بها وجهها وقالت: «رالف، أيها الأحمق، لن أتركك ما حييت».

فبدا الارتياح جلياً في عينيه وسألها: «ألن تفعلي ذلك؟».

أمسكت بشوكته ووضعتها في يده وهي تضحك، ثم قالت له: «كل ما كنت أريد قوله هو أنني أرغب بتقديم استقالتي من عملي. إذ حالما يقبلون بك في الوظيفة التي قدمت عليها اليوم سأترك عملي».

فهز برأسه موافقاً، إذ كان سيوافق على أي شيء حينها طالما أنها لم تطلب إذنه للرحيل إلى بلادها.

قال لها: «أعرف أنك لم تتوقعي أن تعملي هنا أصلاً يا أليس. أنا آسف، أنا آسف بحق. وحالما أجد لنفسي عملاً أعتقد أنه لا حاجة لكي تستمري في عملك».

فما كان منها إلاّ أن لطمته بيدها وقالت: «إن هذا لا يعني أنني لا أريد أن أعمل يا رالف، بل إنني أريد أن أستمتع بالعمل الذي أزاوله».

بدا عليه الارتباك مجدداً وسألها: «إذاً، هل تريدين أن تستمري بالعمل؟».

فابتسمت أليس باستحياء وردت: «أريد أن أعود لمزاولة مهنة التمريض من جديد. أعرف أن ذلك سيتطلب مني أن أتدرب مجدداً في هذه البلاد، لكنني أريد أن أساعد الناس، وأرغب بأن أفعل شيئاً له قيمة».

عندها، ابتلع اللقمة التي كانت في فمه، ثم وضع السكين والشوكة، ولكن بلطف هذه المرة وقال لها: «إنها فكرة عظيمة».

وهنا، كان بوسعها أن تدرك من تعابير وجهه أنه كان يعني ما يقوله.

قال لها: «لو لم تعملي بالتمريض في لندن لما كنت قد التقيتك. وقد كنت رائعة هناك، لذا أنا على يقين من أنك ستكونين ممرضة عظيمة هنا أيضاً».

فسألته وهي تطلب منه الدعم: «هل أنت واثق من ذلك؟».

فأمسك بيدها وضغط عليها وهو يقول: «ستكونين ممرضة رائعة هنا يا أليس، وسأكون فخوراً جداً بك». عند ذلك، أحست أليس بالاعتزاز لمجرد سماعها كلامه، إلاّ أن عقلها خانها في تلك اللحظات، إذ أخذت ترى ماثيو وهو يسخر منها، بل كانت ترى وجهه مع كل فكرة تخطر ببالها. إلاّ أن مجرد تذكر ما جرى بينهما كان يشعرها بالقرف والغثيان.

كانت ترغب بمزاولة مهنة التمريض من جديد، لكنها كانت تريد أن تهرب من مديرها إلى أبعد مكان، وهذا يعتمد على تقديم استقالتها، حيث يمكنها أن تختلق أي مبرر، وألا تنظر للماضي من جديد. كان عليها أن تترك ذلك العالم، وأن تتخلى عن تلك العلاقة، وأن تخلف كل ذلك وراء ظهرها. كان عليها أن تحرق معطف الفرو أو تعيده إليه سراً، حيث تتحرر من أي دين تجاهه، ولو كان بقرش واحد.

«أليس؟».

رفعت أليس بصرها لترى رالف يراقبها.

سألها: «هل سبق لي أن أخبرتك عن دار النشر التي تمتلكها عائلتي قبل زواجنا؟».

لم تستطع أن تتذكر ما قاله لها بالضبط، لكنها كانت تتذكر أنه أخبرها بأمور متفرقة حول هذا الموضوع، ولهذا اقترحت عليه قائلة: «ولمَ لا تبدأ من البداية؟».

فضغط على يدها من جديد، ثم اعتدل فوق كرسيه وقال:

«كنا ننعم بالمال طيلة حياتنا، أي كنا أغنياء».

وضعت أليس أدوات المائدة الخاصة بها على الطاولة، وعدلت كرسيها لتصغي إليه؛ إذ انتظرت فترة طويلة لتسمع تلك الحكاية، لذا لم تكن تريد أن تفوت أي كلمة منها.

قال لها: «كان جدي قد أسس داراً للنشر هنا في نيويورك، إلاّ أن أبي لم يكن يريد أن ينضم إلى مشروع العائلة. ولأختصر عليك القصة، تم تعيين مدير للمشروع، وعاشت عائلتي على ما يصلها من موارد مالية».

ثم مال بكرسيه للوراء أكثر، فأصبح الكرسي على قائمتين فقط بدلاً من أربع، ولكنه كان قد

ثبت نظره على الطاولة. كانت أليس تتمنى أن ينظر إليها، ولكن بدا لها أنه من الأسهل عليه أن يتجنب نظراتها وهو يتكلم.

تابع قائلاً: «لم أكن مثل أبي، ولهذا كانت أمي تقول لي دوماً إنني أشبه جدي، وذلك لأنه توفي حينما كنت صغيراً». وهنا أخذ نفساً عميقاً وأكمل: «وهكذا، أمضيت كل حياتي منذ أيام المدرسة وأنا أحلم بالانضمام إلى مشروع العائلة؛ إذ لم أكن أريد أن أعيش على ما يأتينا من موارد مالية، بل كنت أريد أن أدير المشروع، وأن أتابع ما شرع به جدي. كنت أعشق الكتب، وأحب أن أعمل في مجال النشر أيضاً».

سألته: «إذاً، ما الذي حدث؟».

أكمل قائلاً: «كنت أمضي كل فترة الصيف وأنا أعمل في تلك الدار، حيث كنت أقوم بأي شيء وبكل شيء، وأتعلم أي شيء بوسعي تعلمه. وحينما قدّم المدير استقالته، تم عقد اجتماع، وترشحت لمنصب المدير ولكن لفترة تجريبية». وهنا صمت قليلاً ثم تابع: «أعرف ما تفكرين به الآن. أجل، لقد كنت صغيراً على ذلك المنصب، لكنني أبليت بلاء حسناً، وازدهرت الدار في عهدي».

عندها، لم تعرف أليس ما الذي يمكنها أن تقوله، إذ متى ساءت الأمور إذاً؟

أكمل قائلاً: «حينما تم إعلان الحرب، اعتقدت أنني سأظل بأمان. حسناً، أعني أن عملي لا يحتم علي أن أستدعى للاحتياط، إلاّ أن أبي لم يوافق على ذلك، وأخبرني أنه يجب عليّ أن أنخرط في القتال، وأن تفضيلي لعملي على التطوع يعني أنني أوليت ظهري لبلادي».

كانت أليس قد سمعت هذه القصة من قبل، حيث رواها لها شبان كانت تقوم بتمريضهم، كما سمعتها من صديقات أمها، فكانت تلك الحكاية تنتهي عادة بزوجة أو أم مجروحة وحزينة، وشاب استشهد في ساحة الوغى.

قال لها: «وهكذا، عارضت في البداية، لكنني استسلمت لرغبته أخيراً. وهكذا، قام مجلس الأمناء بتعيين مدير جديد، وذهبت أنا للحرب».

قالت له: «لكنك كنت تبدو واثقاً جداً بنفسك حينما كنت في منصبك ذاك، وكأنك قد خلقت لتكون عنصراً ناجحاً في الجيش». إذ حينما التقته بدا لها الشخص المناسب في المكان المناسب.

وافقها رالف بالقول: «كنت ناجحاً، إذ تابعت الطريق مع باقي الرجال وأثبتُّ جدارتي، فكنت أول شاب في ذلك العمر الصغير يترقى ليصل إلى تلك الرتبة».

وهنا ابتسمت أليس له، فقال لها:

«ثم التقيتك. إذاً، من الذي يشتكي ويتذمر الآن؟».

إلا أنّ الألم الذي بدا على وجهه جعلها تتأكد بأن الوضع كان مختلفاً. إذ كان قد فقد بسبب الحرب شيئاً كان يتمنى أن يستمر معه طيلة حياته؛ أي حدث في حياته أمر مفجع، مفجع للغاية، لأنها لم تسمعه يتحدث عن تلك الدار منذ وصولها إلى هذه البلاد. وبالتأكيد، لم تعد لدى عائلته أي موارد مالية لتعيش منها في تلك الأيام.

تابع بالقول: «لقد نجوت من الحرب يا أليس ووجدتك، إلاّ أن ما دفعني للاستمرار في ما كنت فيه هو أنني كنت أعرف أنني سأعود لبلادي من أجل شيء واحد. كما أنني لم أوجِّه أي لوم لأبي؛ إذ لم يختلف تصرفه عن تصرف الكثير من الآباء هنا».

سألته: «ولكن؟».

فرد: «ولكن حينما عدت للبلاد، اكتشفت أن الحياة التي أعرفها، تلك الحياة التي دفعتني لأواصل ما خضته طيلة ذلك الوقت، وعلى مدار سنوات، قد اختفت».

بقيا جالسين في صمت، إلاّ أن أليس كانت تتوق لسماع المزيد، لكن رالف كان قد بدأ يحدق في الفراغ، وكأن كل ما تحدث عنه أخذ يتجلى أمامه من جديد.

سألته: «ما الذي حدث للمشروع يا رالف؟».

فضحك ضحكة باردة وحزينة أصابتها بالقشعريرة.

ثم ردّ عليها بالقول: «أتيت للبلاد لأجد صندوق الائتمان وقد فرغ من المدخرات والموارد، كما قد فشل المشروع وأفلس بسبب سوء الإدارة، ووجدت أبي على سرير الاحتضار».

ظلت أليس مغمضة عينيها وأخذت تبلع ريقها؛ إذ أحست بأن القصة لم تنتهِ عند ذلك الحد، وقد تبيّن لها ذلك من نبرة صوته.

تابع بالقول: «فعلت كل ما بوسعي، لكن لم يفلح أي شيء في إنقاذ المشروع، ثم عدت للبيت في إحدى المرات لأجد إنذاراً معلقاً على الباب، وقد أعلن فيه عن الحجز الاحتياطي. إذ كانت هنالك ديون كثيرة، لذا كان لا بد من بيع المبنى لنقوم بسداد المال للدائنين؛ حيث لم نحقّق أي ربح خلال سنة، ولم يتبقَّ أي شيء في حساباتنا وأرصدتنا.

أما أسوأ شيء فكان حينما عرفت أنه كان بوسعي أن أمنع حصول كل ذلك. لقد كان أبي رجلاً طيباً، فهو لم يؤذِني طيلة حياته، ولكنه لم يكن رجل أعمال، بل كان جدي كذلك. وحينما عدت إلى البلاد، اكتشفت أن كل ما فعله أبي هو أنه أخذ يهز برأسه ويلعن حالة الركود، ولكنه كان مخطئاً. وأنا أعلم أنه كان بوسعي أن أجعل الأمور تسير على ما يرام، وأنه كان بإمكاني أن أحافظ على المكان وعلى المشروع فيه ليرثه أبنائي من بعدي، لكن الفرصة لم تتح لي». وهنا زفر زفرة طويلة، ومن بعدها عاد ليقول:

«كنت طيلة الوقت الذي قضيته بعيداً عن البلاد أتعلق بذكرى العودة للوطن، وبأن لدي عملاً وحياة خارج إطار الجيش. لكنني لم أتخيل كيف يمكن أن يكون شعوري، ومعنى أن أفقد الكثير، وأن أعتاد على الأمور التي رأيتها حينما كنت أحارب خارج البلاد. ربّما لو كنت معي منذ بداية الأمور لكان الوضع أفضل مما صار إليه، ولكنت قد تأقلمت واعتدت على الوضع من أجلك. ولكن، مع كل شهر كانت حالتي تزداد سوءاً، لذا أصبحت أحتسي الشراب لأنسى كل ما كنت أقاسيه من عذاب».

«ثم ساءت الأمور أكثر». كان صوت أليس ناعماً ومنخفضاً حينما هتفت بذلك، إذ لم تكن تدري إن كان لديها شيء آخر يمكنها أن تتفوه به.

تابع قائلاً: «توفي والدي خلال الأسبوع ذاته الذي أغلق فيه المشروع، وبعد الجنازة غادرت أمي لتعيش مع شقيقتها. وهنا أحسست بأنني خسرت مستقبلي وعائلتي وحظي وقدري؛ خسرت كل ذلك خلال الأسبوع الأول من عودتي إلى حضن الوطن». ثم تنهد وأكمل: «كان عليّ أن أشعر بالامتنان لأنني تمكنت من الوصول إلى بلادي، ولأنني لم أفقد أحد أطرافي؛ إلاّ أن فكرة بقائي على قيد الحياة لوحدها لم تكن كافية لتساعدني في التغلب على كل ذلك الظلام الذي كان يحيط بروحي».

وهنا كوّر قبضته وضرب الطاولة ضربة جعلتها تهتز، إلاّ أنها كانت مكبوتة لدرجة أنها لم تُشعِر أليس بأي خوف.

تابع قائلاً: «لم أكن أعرف متى سيحين موعد قدومك، وأين كنا سنسكن، وكيف كنت سأصرف عليك. واعتقدت أنك ستكوّنين عني فكرة سيئة؛ وهي أنني قد خسرت كل شيء باستثناء

اسمي، ثم لا بد أن تتركيني وتعودي من حيث أتيت، دون أن أراك مرة أخرى بعد ذلك. كنت أظن أنك ستظنين أنني قد كذبت عليك، وأنني كنت أمثل حينما كنت معك في لندن».

لم تعرف حينها ما تقوله، إذ كان كل ما تعرفه في ذلك الحين هو أنها لم تستطع أن تدير ظهرها له بشكل كامل، حتى حينما تمنت لو كان باستطاعتها فعل ذلك.

همس لها: «لكنك لم تتركيني. أعرف أنك كنت ترغبين بذلك، وأعرف أنني قد خذلتك، لكنك لم تتركيني».

مدت يدها إليه عبر الطاولة، وابتسمت حينما أطبق بيديه الكبيرتين على معصميها.

ثم قالت له: «كل ما كنت أتمناه هو أن تخبرني بكل ذلك منذ البداية، فلو فعلت لكنت قد تفهمت وضعك يا رالف، كما كنت سأحاول أن أساعدك».

رد عليها: «لو لم أبدأ باحتساء الشراب، ولو واصلت محاولاتي للحصول على عمل، مع محاولتي لتحقيق شيء خاص بي، لكان من الممكن ألا يكون الأمر صعباً عليك لتلك الدرجة».

قالت له: «ما يهمّني هو ما نقوم به الآن؛ إذ بوسعنا أن نغيّر الوضع».

فردّ عليها: «أعرف أنه بوسعنا القيام بذلك يا أليس، وذلك لأنني أحبك، ولن أخذلك بعد اليوم».

عند ذلك، أغمضت أليس عينيها لوهلة، ثم ابتسمت، واعترفت له بالقول:

«أعتقد أن نصف مشكلتي سببها عدم وجود أي شخص أنتمي إليه هنا. أعني، ليس لدي أحد يمكنني التحدث إليه؛ إذ ليست لدي أية صديقات».

فردّ عليها: «أعرف هذا الإحساس؛ فقد فقدت التواصل مع سائر أصدقائي في المدرسة حينما تطوعت، كما أن نصف أصدقائي من الجنود لم يعودوا إلى الوطن، وبعضهم يعيشون في ولايات أخرى». ثم هز رأسه وقال: «لم أكن أريد لك أن تشعري بالوحدة هنا، كما لم أكن أريد أن أصبح مدمناً على الشراب، فأنا...»، وهنا سكت عن الكلام هنيهة، ثم أكمل: «أنا آسف جداً يا حبيبتي. إذ لم أسألك عن وضعك بعد الاستقرار هنا، اللعنة! كما لم أساعدك في ذلك على الإطلاق. حتى إنني لم أسألك إن كنت قد اتخذت لنفسك أي صديقات هنا أم لا».

فردت عليه بالقول: «دعنا من الحديث عما كان بوسعنا القيام به يا رالف، ولنفكر فقط بالمستقبل، ما رأيك؟ لقد التقيت فتيات رائعات على ظهر السفينة أثناء قدومي إلى هنا، وكل ما عليّ فعله الآن هو أن أجدهن».

قال لها: «ستكونين ممرضة رائعة يا أليس، أتعرفين هذا؟».

فقالت له: «وأنت ستجعل جدك فخوراً بك، وستؤسس داراً للنشر بمفردك يوماً ما. عدني بذلك يا رالف جونز».

وهنا غمزها غمزة لطيفة كلها ثقة ومحبة؛ إذ لم تكن كتلك الغمزة الوضيعة والعارفة التي كان مديرها– ذلك العاشق الذي استمرت علاقتها به لليلة واحدة– يصيدها بشباكه من خلالها. وذلك لأن غمزة زوجها كانت تشعرها بالحب؛ بما أنهما في المركب ذاته.

قال لها: «ما حدث في الماضي يجب أن يبقى في الماضي لأن المستقبل أمامنا لنعيشه معاً. أجل، أمامنا مستقبل وعائلة نطمح إلى تكوينها يوماً ما».

وهنا ابتسمت له، ثم سألته:

**«وهل سنبدأ من جديد؟».**

**فردّ عليها: «لنقل إننا سنبذل أقصى ما بوسعنا لننسى الأشهر القليلة الماضية، لكنني لن أنسى الوقت الذي أمضيناه معاً في لندن ما حييت».**

**وهنا سحبها ليقبّلها من فوق الطاولة، وعندها لامست إصبعه العقد قبل أن يقوم بذلك.**

**فقال لها: «أصبحت تضعين العقد من جديد».**

**فابتسمت.**

**سألها: «أتذكرين ذلك اليوم الذي قدمته لك فيه؟».**

**بالطبع كانت تتذكره، وهذا ما دفعها لارتدائه مرة أخرى هذا الصباح.**

**فردّت عليه: «لا يمكنني أن أنسى ذلك اليوم يا رالف. لا يمكنني أن أنساه طالما بقيت على قيد الحياة».**

# الفصل السابع

# والعشرون

كانت الرحلة إلى المزرعة أسوأ من كل ما تخيلته مادلين؛ حتى بوجود طفلتها الصغيرة التي كانت تضمها إلى صدرها.

كانت الطفلة قد ولدت قبل أسبوعين من الموعد المحدد لولادتها، وهكذا أمضت مادلين ثلاثة أيام في بيتهما القديم لتختبر إحساس الأمومة، وذلك قبل أن يحزما ما تبقى من أشيائهما وينطلقا. كانت مادلين قد بقيت في المستشفى حيث أحاط بها الغرباء، وعندها كانت أقصى أمنياتها تتلخص في أنها كانت تفضّل أن تضع مولودتها ضمن الظروف ذاتها التي وضعت بيتي مولودها فيها، حيث كان يحيط بها أشخاص يرعونها حق رعايتها ويحبونها بحق. كانت عملية الولادة مؤلمة كما تخيلتها، ولكنها كانت تعرف من خلال تجارب شقيقاتها أن الإحساس العارم بالحب– الذي أحست به حينما حملت صغيرتها للمرة الأولى بين ذراعيها– يستحق كل ذلك العناء.

غير أن قلبها ظل محطماً، وبقيت تحسّ بالتمزق والأسى كلّما فكرت بوالدها، وبجنازته التي لم تحضرها، وظلت تتحسر كلما تذكرت أنها لم تودّعه مع بقية أفراد العائلة والأصدقاء، وأنها قد تأخرت في طلب مساعدته.

أما أكثر شيء كانت قد ندمت عليه فهو قدومها إلى هذه البلاد؛ إذ كيف توقعت أن تعيش بسعادة في بلاد غريبة دون أن يكون فيها أحد من عائلتها أو أهلها؟

إلا أن انكسار قلبها كان يُجبر كلما نظرت إلى طفلتها.

كانت يدا شارلوت الصغيرتان، وعيناها الزرقاوان، وخصلات شعرها القليلة، وقسماتها المنمنمة تجعل أمها تهيم بها حباً أكثر فأكثر كل يوم، وذلك مع كل نظرة وكل ابتسامة منها.

لكن قلبها كان ينكسر مرة أخرى حينما تفكر بوالد الطفلة، أي بزوجها.

كان الوضع أشبه بحلقة مفرغة تزداد سوءاً مع ازدياد كرهها له يوماً بعد يوم وذلك في كل مرة تفكر بها فيه، وبكل ما فعله بها من وراء ظهرها، وبالحياة التي كان يفرضها عليها. ثم بعد ولادة الطفلة، كانت تتألم بسبب الطريقة التي كان يعامل بها ابنته؛ وكأنه لم يكن يبالي بأمرها.

«هل بوسعك أن تجعليها تكف عن هذا الصراخ؟». وهنا قطع عليها صوت روي الغاضب حبل أفكارها، ثم تابع بالقول: «إنني أحاول أن أقود السيارة».

لم ترد مادلين عليه، بل أخذت تربت على ظهر شارلوت لتهدّئها، ثم طبعت قبلة على جبينها.

وفجأة ضحك روي وقال: «أتعرفين؟ كنت أتمنى أن يصبح لدينا ولد طيلة تلك الفترة، ولكنها ستزيد من الأيدي العاملة التي ستساعدنا في العمل حينما تكبر».

وهنا أخذت مادلين ترتعد، وسرت في كامل بدنها قشعريرة لمجرد التفكير بأن ابنتها حبيبتها ستعمل في المزرعة.

ولهذا كانت تكرهه.

لم تعد في قلبها مساحة للشفقة ولمحاولة تفهم السبب الذي دفعه للقيام بذلك. كما لم يعد قلبها يتسع حتى للحزن، بل للغضب فقط الذي كان يتفاقم ساعة إثر ساعة، والذي كان يشعرها بالمرارة لدرجة أصبحت معها تتمنى أن تصرخ من قسوة وهول كل ذلك.

***

«حسناً، انظروا من أتانا!».

حاولت مادلين أن تتجاهل تلك السخرية اللاذعة، إذ ثمة نبرة مقرفة ومتشفية في صوت حماتها كانت مادلين تتمنى ألا تقابلها بها على الإطلاق، وخاصة حينما كانت لا تزال تحاول أن تتمسك بالحياة التي تخلت عنها، وأن تحافظ على روح معنوية عالية لتخطط للخروج من هذا المكان.

ثم سمعتها تقول: «لم تعودي تلك المتكبرة الجبارة بعد الآن، أليس كذلك؟».

عند ذلك ابتلعت مادلين ريقها، وأخذت تسأل نفسها: لماذا هي قاسية لهذه الدرجة معي؟ وكيف تستطيع ذلك؟ وما الذي يجعل امرأة بلا رحمة لهذه الدرجة؟ إلاّ أن مادلين أبقت رأسها مرفوعاً، وكان من الواضح من خلال صمت روي أنه لم يكن يريد أن يقف إلى صفها؛ إذ ظل بارداً ولا مبالياً منذ ولادة الطفلة، وبذلك فقدت مادلين ذلك الأمل الضعيف بأن الأبوة قد تغير حاله.

ضمّت شارلوت إليها بقوة دون أن تسمح لأسرة روي بالنظر إليها، إذ لم يروا حفيدتهم من قبل، وكانت مادلين تتمنى ألا تسنح لهم فرصة رؤيتها على الإطلاق.

إلا أن حماتها نادتها: «أتسمعينني يا فتاة؟ لن تكوني أفضل منا بعد اليوم، وخاصة بعد وفاة والدك؛ إذ لن تتمكني من العودة إلى ظهر تلك السفينة، أتسمعينني؟».

وهنا جمدت قدماها في مكانهما، وغرق حذاؤها وكأنه قد ثبت بالغراء فوق العشب البني الذابل. إذ كيف عرفت بذلك؟ وذلك لأن مادلين لم تخبر أحداً بأمر والدها، وقد أبقت الأمر سراً متعمدة كيلا تتسلط عليها أسرة روي. وبالرغم من شكوكها التي دفعتها للظن بأن روي قد علم بالأمر، إلاّ أنه لم يكن لديها أي دليل مادي على ذلك، كما أنه لم يلمح لذلك أصلاً.

وأخيراً، التفتت مادلين وهي تحمل شارلوت بثبات بين ذراعيها، وكأنها كانت تستمد القوة منها، وقالت:

«عمّ تتحدثين؟». إلاّ أن صوتها تهدج، وأحست بارتجاف شفتها السفلى، لكن كان يتعين عليها أن تحاول ألا تظهر لتلك المرأة الشريرة أن خدعتها قد انطلت عليها.

ظل روي واقفاً وهو يراقب ما يحدث. عندها، حملقت حماتها بها، وأخذ الشرر يتطاير من عينيها وهي تستمتع بكل ما يجري على الساحة. أما شقيقة زوجها فقد اكتفت بابتسامة مصطنعة، ثم هتفت: «آها، وهل استرعى هذا اهتمامك؟».

وهنا، ركزت مادلين على الزفرة التي خرجت باردة من أحشائها، ثم أخذت تراقب شهيقها وزفيرها أثناء عمل رئتيها، وأخذت تقول لنفسها: كل ما عليك القيام به الآن هو أن تواصلي التنفس، وأن تبقي هادئة؛ إذ لا يمكن أن يصل الخبر إلى هذه العجوز السخيفة. ثم إن كل ما كانت تحاول القيام به هو أن تسخر منها، وأن تتلاعب بمشاعرها بكل قسوة.

عندها، صاحت حماتها: «لقد قرأت كل حرف، كل حرف... ثم إن رسالة شقيقتك الأخيرة قد وصلت إلى هنا أيضاً».

عند ذلك، أحست مادلين بأن أحداً قد سحبها تحت الماء، فأخذت تغرق ببطء، ثم أخذ السواد يلفها. ولكن، لا يمكن لذلك أن يحدث... صاحت في أعماقها: أرجوك يا الله، لا تفعل ذلك بي.

أغمضت مادلين عينيها، وأخذت تحاول السيطرة على خوفها، وعلى غضبها أيضاً، وذلك لأن شقيقتها قد أرسلت لها رسالة على هذا العنوان، ولأنها كانت تريد أن تطلعها على كل ما جرى، وأن تشاركها حزنها، إلاّ أن هذه المرأة سمحت لنفسها بأن تنتهك خصوصيتها أيضاً.

كررت على مسمعيها: «قلت إنني لست أدري عما تتحدثين».

وفي هذه المرة بالذات، تمكنت من سماع نبرة الضعف في صوتها، وتلك الهمسة الخشنة التي كانت أشبه بحشرجة صوت إنسان وهم يقومون بجره فوق الحصباء.

ردت عليها حماتها بالقول: «لقد كتبوا لك رسالة، وقد عرفت أنه كان مريضاً أيضاً، لكن الفرصة قد فاتتك طالما أنه رحل الآن». وهكذا، نطقت سارة بتلك الجملة الأخيرة وهي تبتسم ابتسامة ماكرة.

عندها، أسلمت مادلين ساقيها للريح؛ إذ لم يكن باستطاعتها القيام بأي شيء آخر سوى الجري. وهكذا ركضت نحو البيت، وعبرت المطبخ، لتصل إلى غرفة نومها القديمة؛ لأنها لم تكن تدري إلى أين تهرب، لذا لم يكن أمامها سوى تلك الغرفة.

بقيت أصوات الضحك تصلها من الخارج، فكانت أشبه بإشارة النصر التي رسمتها حماتها وهي تعلم تمام العلم بأنها نجحت في حبس مادلين في هذا المكان.

وهنا أخذت تنظر إلى شارلوت وإلى وجهها البريء الجميل.

ثم بدأت تفكر في أنها لو لم تحمل لكان أفراد عائلة روي قد سروا أيما سرور إن غادرتهم. إذ كانوا قد عبروا لها عن مشاعرهم إزاء أي شخص أجنبي. ولكن الآن، لم يعد لديها أي شك إزاء ما كانوا يريدونه منها، إذ كان كل ما يريدونه هو ابنهم وحفيدتهم.

حسناً، بوسعهم الاحتفاظ بروي، ولكنها لن تسمح لأيديهم بأن تطال ابنتها الصغيرة طالما بقي في صدرها هواء تتنفسه، وفي بدنها قوة تساعدها على محاربتهم. وهكذا، لن تسمح لهم بأن يلمسوا ابنتها.

ولكن، كان عليها أن تجد الرسائل، ولا بد لها أن تجدها إن لم تقم تلك العجوز الشمطاء بحرقها، وذلك لتنكب على قراءتها، ولتذكر نفسها بمن كان ينتظرها في بلادها. ومن ثم كان عليها أن تفكر في كيفية تمكنها من العودة إلى هناك.

لأنه يتعين عليها ذلك، ولن يتمكن أحد سواء أكان زوجها، وطبعاً حماتها، من الوقوف في طريقها.

لقد كانت طيلة تلك الفترة تعتقد أن أهلها لا يرغبون بأن تتواصل معهم عبر الرسائل؛ إما لانشغالهم، أو لأنهم انزعجوا منها لأنها تركتهم. وهنا أخذت تسأل نفسها: ترى، هل ضلت الرسالة التي كتبت لهم فيها أن يراسلوها على عنوانها في العمل الطريق إليهم، أم تأخرت إلى أن فات الأوان؟ لم يخطر ببالها أن يكون والدها مريضاً أصلاً؛ فقد كان رمزاً للصحة والحيوية عندما تركت البلاد.

كما أنها لم تفكر إلى أي مدى يمكن لتلك العجوز الشمطاء الشريرة أن تسعى لتدمير حياة كنتها.

# الفصل الثامن

# والعشرون

لم تتوقع أن تجد الكثير حينما عرضت عليها سارة وبكل حقارة ذلك الكنز الدفين الذي اعترضته واحتفظت به. إذ وجدت رسالة وضعت فوق رسالة، وكانت جميعها موجهة إليها، وقد كتبت إما بخط والدها السيئ، أو بخط والدتها الجميل، بل حتى شقيقتها كانت قد أرسلت إليها رسالة.

كانوا يسألونها عن سبب عدم ردها على أسئلتهم، ويتساءلون عن السبب الذي دعاها للتصرف بتلك الطريقة وعدم استلامها للبريد الذي يصلها منهم حينما كانوا يكتبون لها أسبوعاً عقب أسبوع.

وهذا ما جعل البرودة تسري في أطرافها، وكأنها أصبحت ميتة.

بدأت شارلوت تصدر أصواتاً ثم بكت بضعف، إلاّ أن مادلين لم تنهض من مكانها، إذ كيف يمكنها أن تقوم بأي شيء بعدما عرفت أن والدها قد توفي دون أن يتأكد من أن ابنته الحبيبة كانت تحس بالأمان والسعادة؟

ولعل الأسوأ من كل هذا هو حينما أخبرها بأنه يرغب بأن يأتي بها إلى البلاد قبل وفاته؛ في حال لم تسر أمورها على ما يرام ورغبت بالعودة، أو لأي سبب آخر. إذ كان والدها على استعداد لاتخاذ تلك الخطوة. أما بعد وفاته، فقد خسرت عائلتها مصدر الدخل الذي كان والدها يؤمنه، لذا لم يعد بوسعها أن تطلب من أمها أن تنفق كل هذا المبلغ لتعيدها إلى بلادها، وخاصة بعدما شح مورد دخل الأسرة فجأة. ثم إن والدتها لم تعرض عليها الأمر أصلاً، بل كان والدها هو من قال لها إنه سيقطع البحار والجبال والوديان ليحضرها إن لزم الأمر، وهكذا كان عليها أن تتأقلم مع الوضع بمفردها.

كان أهل زوجها يعرفون أن أباها كان يحتضر، وأنه كان يعاني من وعكة صحية منذ أشهر، ولكنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء إخبارها بذلك، وأخفوا الموضوع عنها عمداً.

قاموا بإعطائها تلك الرسالة الغريبة قبل كل شيء، وذلك فقط ليضعوا حداً لشكوكها، ولكنها أدركت حينها كم كانت غبية. فما بين عملها، وحملها، وضغط الانتقال إلى بيت آخر، ومن ثم حياة الأمومة، كانت قد أرهقت نفسها، ولم تفكر بوضعها كما يجب.

وهكذا أدركت بعد فوات الأوان أنه كان يجب عليها أن تعرف.

ويا له من إحساس مؤلم أن تتمنى شيئاً قد فات أوانه.

أسرعت لتحمل شارلوت بذراعها، وهي لا تزال تحمل إحدى الرسائل بيدها الأخرى.

إلا أن ذلك لم يزدها إلا إصراراً على الرحيل، وعلى مغادرة هذا المكان التعيس. ولكنها لم تكن تملك ما يكفيها من المال للقيام بذلك، إذ كان كل ما لديها في ذلك الحين أقل بكثير مما تحتاج إليه، وخاصة بعدما قامت مع زوجها بشراء كل الأغراض اللازمة للطفلة.

ثم إن الوقت لم يكن مناسباً لتخرج ولتجد لنفسها عملاً في مكان ما، بعيداً عن الحياة في ذلك البيت؛ إذ كان من الصعب عليها القيام بذلك، وخاصة بوجود رضيعة ولدت حديثاً ولا تزال في قماطها.

وربما كان من بين الأسباب التي دفعتهم لجعلها تعود إليهم رغبتَهم بحبسها عن العالم؛ لتبقى تحت سيطرتهم.

وهذا يفسر السبب الذي دفع روي ليصبح بارداً معها.

يبدو أنهم قد انتظروا إلى أن حان الوقت المناسب؛ إلى أن تأكدوا من عدم قدرتها على القيام بأي شيء حيال ذلك. أجل، لقد تأكدوا من أنها وقعت في الفخ، وتأكدوا من أنهم حينما يخبرون ابنهم بأن عودة زوجته باتت خياراً، فإن ذلك سيجرحه كثيراً. لذا، وافق على تلك الخطة، ولا بد أن هذا هو السبب الكامن وراء الثقة الكبيرة التي تحدث بها حينما أخبرها أنها لن تتركه؛ لأنه كان يعرف منذ أسابيع قبل تلك اللحظة بأن مسار حياتها المتعلق بالعودة إلى إنكلترا كان قد تبخر.

استندت إلى ظهر الكرسي الهزاز القديم الموجود في غرفتها لترضع شارلوت، فسقطت الرسالة من يدها على الأرض، لكنها لم تكلف نفسها عناء التقاطها من جديد، بل أخذت تتابعها بنظرها وهي تفكر، وتدرك أنه بوسعها القيام بشيء ما.

بيتي...

قد يكون بمقدور بيتي مساعدتها.

فبيتي لديها طفل، وهي تعرف كيف تغيّر الأمومة حياة المرأة، وكيف يصبح كل ما يهمها فجأة هو ذلك المخلوق الصغير الذي تعتمد حياته عليها. لا بد أنه بوسع بيتي مساعدتها، أليس كذلك؟

كان بإمكانها أن تذهب إلى المدينة في اليوم التالي، وأن تستخدم الهاتف الموجود في مكتب البريد لتجد بيتي.

لا بد أن مادلين قد فاتتها الاجتماعات الأخرى التي تمت بين الفتيات، ولكن إن تمكنت من تعقب بيتي، فإن ذلك سيكون بمثابة طوق النجاة بالنسبة لها.

وقد تجتمع سائر الفتيات من أجلها، ولا بد أنهن سيتفهمن سبب إصرارها على الرحيل، ولكنهن سيسألنها عن السبب الذي ثناها عن مجرد محاولة البحث عنهن منذ البداية. ولكنها بدلاً من أن تكون لديها تلك الرغبة التي تدفعها للقائهن، والتفكير بصديقاتها، والقيام بأي شيء بخصوص ذلك، وجدت في لورين صديقة رائعة حينما كانت بحاجة إلى شخص يقف إلى جانبها. إلاّ أن عروساً أخرى من عرائس الحرب، وإحدى الفتيات اللواتي سافرن إلى هذه البلاد وعشن ما عاشته لا بد أن تكون أكثر قدرة على تفهم ما تعانيه بحق.

يمكنها أن تكتشف ما إذا كان بوسع بيتي أن تساعدها في ترتيب أمور سفرها، وإن كان بوسعها أن تقيم معها إن أمكن، أو أن تحاول تدبر خطة بخصوص ذلك. كان كل ما تحتاج إليه هو أن تجد العذر المناسب للذهاب إلى المدينة في رحلة قصيرة؛ حيث يمكنها أن تتذرع برغبتها في شراء شيء ضروري لشارلوت، ومن ثم لن تجد أية صعوبات في ما تبقى.

ثم إنهم يجب ألا يعرفوا أنها ستقيم مع بيتي؛ إلى أن ترحل، وبوسعها أن تترك لهم رسالة، ثم تغادر بغيابهم، وتمضي الوقت الكافي لتريح رأسها من الأفكار السوداء. وحينما يعرف روي بمكان تواجدها، عندها لن يكون باستطاعته القيام بأي شيء حيال كل ما حدث.

هذا إن كانت بيتي على استعداد لمساعدتها.

***

كانت عملية تنفيذ مادلين لخطتها أسهل بكثير مما توقعت. فبعيداً عن سخرية حماتها، تمكنت مادلين من أن تنسل خارج البيت، وكانت قد تعلمت قيادة السيارة أثناء مساعدتها زوجها في

المتجر. وهكذا، مضت مبتعدة بالسيارة العتيقة التي كانت تصدر ضجة أثناء سيرها باتجاه المدينة.

لم تكن قد فكرت بركوب السيارة وقيادتها للذهاب بها إلى منزل بيتي مباشرة، وذلك لأن كل ما كان بوسعها القيام به في ذلك الحين هو أن تختفي عن الأنظار مع شارلوت؛ حيث تبدو كأم تمضي عطلتها مع صديقتها. ولكنّ أخذها السيارة كان بمثابة سرقة.

وأخيراً، توقفت بالسيارة واتجهت نحو مكتب البريد وهي تحمل شارلوت. كانت السيدة التي تقف خلف الطاولة ودودة، وساعدتها في إيجاد رقم الهاتف الصحيح لعائلة أوليفر التي كانت تعيش في المدينة. وبالرغم من أن الحروف الأولى لاسم الرجل كانت مختلفة، إلاّ أن اسم عائلته كان الاسم الوحيد الذي كتب بلامين.

وإن لم يكن هذا رقم بيتي، وإن لم تتمكن من الوصول إلى صديقتها من خلاله، عندها لن يكون بوسعها القيام بأي شيء آخر، أي ستفقد الأمل، وسيصبح الطريق مسدوداً أمامها.

رن جرس الهاتف خمس مرات، فكانت خمس رنات بطيئة وممزوجة بالألم؛ إذ تيقنت مادلين من أن أحداً لن يرد عليها، وذلك بعد أن قطعت بالسيارة كل تلك المسافة وهي تتحرق شوقاً للحديث مع بيتي. وأخيراً، بدا لها أنه لم يكن هنالك أحد في ذلك المكان، كما أنها لم تكن تدري إن كان ذلك هو الرقم الصحيح؛ إذ لم يجبها أحد عليه.

ومع الرنة الثامنة فقدت مادلين كل أمل، ومع رنة أخرى همست لنفسها وقالت: سأنتظر لرنة أخرى أيضاً...

«منزل أوليفر».

أتاها عبر الخط صوت أمريكي لاهث، ولكنه كان واضح النبرات وعالياً.

إلا أنها لم تكن بيتي.

عندها، شرعت مادلين بالبكاء؛ إذ لم تستطع منع نفسها من ذلك.

أتاها الصوت متسائلاً: «مرحباً؟ من المتكلم؟».

ردت بعد جهد جهيد: «مادلين، اسمي مادلين ووكر».

أتاها الرد: «مادلين! أوه مادلين، لقد سمعت عنك الكثير، ما بك؟».

غير أن إدراكها أن الصوت لطيف لم يمنعها من البكاء، إذ بقيت تكتم مشاعرها طيلة أشهر طويلة، ولهذا أخذت في تلك اللحظة تجهش بالبكاء كطفل صغير أمام شخص غريب عنها وعبر الهاتف أيضاً.

أتاها صوت تلك المرأة وهي تقول: «عزيزتي، معك إيفي مدبرة المنزل».

فتابعت مادلين بكاءها وهي تقول: «أريد أن أتحدث إلى بيتي، أرجوك يا إيفي».

سألتها: «هل أنت متأكدة من أنك بخير؟».

فهمست مادلين: «إنني بحاجة إلى بيتي».

ثم أخذت تصغي لإيفي وهي تنادي بيتي.

وبعدها قالت لها: «إنها آتية يا عزيزتي».

كانت نبرة صوت إيفي تنم عن محبة أم ورقتها؛ مما جعل مادلين ترغب بالبكاء أكثر.

وأخيراَ، أتاها صوت بيتي وقد تقطعت أنفاسها عبر الخط: «مادز؟ أهذه أنت يا مادلين؟ ما بك؟».

وهذا ما جعلها تبكي من جديد.

هتفت بيتي: «مادلين، قولي لي...»

ردت مادلين وقد تحوّل صوتها إلى الهمس فقط: «إنني بحاجة إلى أن آتي إليك وأقيم عندك، أرجوك. إنني أحتاج إلى مساعدتك يا بيتي».

فردت بيتي: «بالطبع، ولكن متى؟ وما الذي حدث؟».

هتفت مادلين: «كل ما أحتاج إليه هو أن أخرج من هذا المكان وأن أبتعد عن روي، وعنهم جميعاً». ثم أخذت نفساً عميقاً وقالت: «لقد توفي والدي، فعدت للإقامة في بيت أهله. أرجوك يا بيتي، إنني بحاجة لمساعدتك، فقد أصبحت عندي طفلة الآن، وأنا بحاجة لك».

صاحت بيتي: «طفلة! أوه يا مادلين، أصبحت لديك طفلة؟!».

كانت مادلين تضم ابنتها إلى صدرها بقوة، لكنها لم تكن تريد أن تتحدث عنها في ذلك المكان والزمان.

قالت مادلين: «أحتاج لمساعدتك لأخرج من هذا المكان، أرجوك!».

سألتها بيتي: «هل بإمكانك أن تأتي إلى هنا؟».

فهزت مادلين برأسها نافية، وذلك قبل أن تتذكر أنه لا يمكن لبيتي أن تراها، ثم ردت: «كلا».

قالت بيتي: «سأرسل لك سيارة. ولكن، متى ستصبحين مستعدة للقدوم؟».

تمتمت مادلين: «في أي يوم. لكن يجب أن يتم ذلك سريعاً، لأنني لم أعد أطيق أن أحتمل ما أعانيه أكثر».

سألتها بيتي: «ما رأيك بأن تأتي بعد غد؟».

فردت مادلين: «يجب أن يتم ذلك في ساعة مبكرة من الصباح، أو في وقت متأخر من الليل. إذ علي أن أخرج دون أن يعرفوا بذلك».

قالت بيتي: «سيتم الأمر كما تريدين يا مادلين، أعدك بذلك. سيكون كل شيء على ما يرام حالما تصلين إلى هنا، إذ بوسعي أن أساعدك في ذلك. والآن، ما عليك سوى أن تعطيني عنوانك وأعدك بأنني لن أخذلك».

أخذت أمينة الصندوق تلوح لمادلين؛ إذ شارف وقت مكالمتها على الانتهاء، فقالت لبيتي: «عليّ أن أذهب يا بيتي، لكنني لا أعرف ما الذي كان بوسعي فعله لو لم أتصل بك».

وهكذا، دفعتها نبرة صوت بيتي للبكاء من جديد، وخاصة حين قالت لها:

«إنني أعرف هذا الشعور يا مادز، صدقيني، فأنا هنا من أجلك. وسأرسل سيارة لتنتظرك في ساعة مبكرة من الصباح بعد غد. لذا، أعطيني العنوان بسرعة».

ردت مادلين: «حسناً». وهكذا، شعرت بالارتياح فاسترخت كتفاها، فبدت وكأنها بالكاد تقدر على رفعهما، ثم قامت بإعطاء بيتي كامل المعلومات.

**هتفت بيتي بعد ذلك: «أوه يا مادلين...»**

**فبقيت تصغي إليها.**

**تابعت بيتي بالقول: «لقد وجدت جون، وقد تصل لعندي قبلك». وبعدها انقطع الاتصال، إلاّ أنها لم تكترث لذلك؛ إذ كانت ستلتقي صديقتيها من جديد، ولا بد لهما من مساعدتها، أي مساعدتها على الهرب.**

**كانت قد قررت أن تأخذ معها كل الأموال التي ادخرتها كي تكون بحوزتها إن احتاجت إليها، كما قررت أن تقوم بحزم حقيبتها في مساء الغد، ومن ثم عزمت على إخفائها تحت السرير. لم يكن بوسعها أن تأخذ معها الكثير من الأغراض، إذ لم يكن لديهما الكثير من الحقائب الكبيرة، لكن ذلك كان آخر ما يهمها.**

**وإن كان باستطاعة بيتي مساعدتها، فعندها يمكنها أن تساعدها في التوصل إلى قرار بشأن ما يتعين عليها القيام به، ومن ثم يمكنها ألا تعود إلى ذلك البيت أبداً.**

**أجل، كانت تتمنى ألا تعود لذلك البيت.**

**لكنها حينها لا بد أن تعاني من مشكلة عدم توفر المال الكافي.**

**غير أن بيتي قد تتوصل إلى خطة تساعدها في التغلب على هذه المشكلة.**

**وهذا ما كانت تتمناه.**

# الفصل التاسع

# والعشرون

كان ذلك لا يطاق، كان البؤس بذاته؛ إذ لا يمكن أن يوصف بغير ذلك.

إلا أن هذا الوضع قد شارف على نهايته.

لم تكن شارلوت سعيدة. ومن بكائها، كانت مادلين تدرك أن الصغيرة لم تكن مرتاحة. إلاّ أن الوقت لم يعد مناسباً لتقلق حيال بعض النكد.

إذ كان عليها في ذلك الحين أن تدبر أمر الهرب.

:

:

.

.

.

إن عبارة لبضعة أيام لوحدها، فضلاً عن الحب الذي عبرت عنه كانا كفيلين بجعلها كاذبة، لكنها لم تكن تريد أن تقلق راحته. فبالرغم من أنه لا بد أن يتضايق لمجرد رحيلها، إلاّ أنه لم يكن هناك من مفر؛ لأنها لو طلبت إذنه لكان قد رفض على الفور.

ولعلها قد تمضي أشهراً هناك، إن لم يطل بها الأمر أكثر من ذلك، وذلك قبل أن تتمكن من توفير ممر آمن للعودة إلى بلادها. كان كل ما تريده وتحتاج إليه هو مساحة تتنفس فيها بصفاء، لتحاول أن تقرر ما ستفعله؛ في مكان لا يمكن لروي ولا لعائلته أن يجدوها فيه.

غمرت المصابيح الأمامية للسيارة الباحة الأمامية بالنور.

لقد أتت السيارة باكراً.

أمسكت مادلين بحقيبتها الوحيدة، وعلقتها على كتفها، وحملت شارلوت بذراعها الأخرى، ثم أسرعت بأقصى سرعة ممكنة للخارج.

رمت بالرسالة فوق طاولة المطبخ، ثم انسلت بسرعة من الباب لتصل إلى الشرفة.

فتح لها السائق باب السيارة، وسارع بأخذ الحقيبة منها.

فهتفت مادلين على عجل: «بسرعة! ما عليك إلاّ أن ترميها داخل السيارة إلى جانبي».

كان بوسعها أن ترى ضوءاً ينبعث من خلفها من المنزل في ذلك الحين؛ إذ يبدو أن أحدهم قد استيقظ.

نظر إليها السائق نظرة استغراب، ولكنه لم يجادلها، بل دفع بالحقيبة على المقعد بجانبها،

**ثم أغلق الباب وجلس بعد ذلك خلف المقود.**

**صاحت به وهي تشعر بالخوف يتصاعد داخلها: «آسفة، لكن علينا أن نخرج من هنا بسرعة».**

**فما كان منه سوى أن هز برأسه وجعل محرك السيارة يدور.**

**نظرت مادلين إلى الخلف، فرأت أحدهم يظهر على الشرفة، وقد أظهر الضوء المعلق معالم ذلك الشخص الذي كان امرأة.**

**اندفعت السيارة عبر الممر، فخرجت نأمة من جوفها عبرت عن ارتياحها، وبدأت تحس بأن دموعها أخذت تتساقط فوق وجنتيها.**

**إذ لم تكن تريد قط أن تعود إلى ذلك المكان.**

**ثم أغمضت عينيها، وضمت طفلتها إليها، وأخذت تدعو، وتتضرع إلى الله قائلة:**

.

# الفصل الثلاثون

كان من الممكن أن تصل في أية لحظة.

لذا، لم تستطع بيتي أن تمنع نفسها من مواصلة السير جيئة وذهاباً، كما بقيت عيناها معلقتين على النافذة.

إذ يمكن لصديقتيها أن تصلا في أية لحظة.

لم تكن قد تحدثت إلى جون عبر الهاتف كما فعلت مع مادلين، ولكن وصلتها رسالة من زوج جون أخبرها فيها أن سعادة زوجته كانت غامرة حينما علمت بأنها قد اتصلت به، وبأنها ستأتي لزيارتها قبل عصر ذلك اليوم.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة والنصف. إذاً، كان من المفترض أن تصل مادلين أولاً، ثم تتبعها جون.

كانت تسعة أشهر قد مرت منذ آخر مرة رأتهما فيها... تسعة أشهر! كيف مضى كل ذلك الوقت منذ أن التقتهن؟

ثم سمعت ضجة.

وبعدها، لاحت سيارة في نهاية الممر، وأخذت تدور ببطء باتجاه البيت. ولم تكن تلك هي السيارة نفسها التي أرسلتها لتحضر مادلين إليها. إذاً، لا يمكن لتلك السيارة أن تحمل سوى شخص واحد.

أجل، لقد وصلت جون!

صاحت بيتي: «إيفي... يا إيفي! لقد وصلت!».

فردت إيفي وهي تبتسم لأنها شعرت بالسعادة لفرط الحماسة التي أبدتها بيتي: «حسناً إذاً، ماذا تنتظرين؟ اخرجي إليها!».

ركضت بيتي داخل القاعة إلى أن وصلت للباب الأمامي، ففتحته بقوة وهي تتحرق شوقاً لترى صديقتها من جديد.

وهنا ركضت جون نحوها غير عابئة بالحصى، حيث ركضت بأقصى سرعة كان بإمكانها أن تركض بها وهي تنتعل ذلك الحذاء ذا الكعبين العاليين وهي تهتف: «بيتي! أوه يا بيتي!».

ثم تعانقتا، فأحست بيتي بدفء جون، وبأنها أصبحت أكثر سمنة من ذي قبل.

هتفت بيتي وهي تبتعد وتمسك بوجه صديقتها المتورد: «ماذا حل بك؟ ها؟».

فضحكت جون، وأمسكت بذراع صديقتها؛ إذ كان من الرائع أن تسير جنباً إلى جنب مع إحدى الصديقات اللواتي تعرفت عليهن على ظهر السفينة.

ثم قالت لها: «إنه لمكان جميل. لكنك لم تخبريني بأن شارلي ثري لهذه الدرجة».

غير أن بيتي استدارت عند ذلك مع صديقتها لتقفا قبالة الباب، ثم دعت صديقتها للدخول. إذ لم تكن هي أيضاً تعرف شيئاً عن ثروة شارلي ومدى غناه، بل كانت على استعداد للتنازل عن كل تلك الأموال مقابل عودته إليها. أحست بيتي بغصة في حلقها، لأن نقل الخبر لا بد أن يكون أصعب مما

توقعته.

ولهذا سألت جون في محاولة منها لتغيير الموضوع: «ما رأيك بفنجان من الشاي؟».

فلكزتها جون بلطف وهي ترد: «بالطبع أرغب بذلك. وأريد فنجاناً من الشاي الأصلي الذي كنا نشربه في بلادنا».

نادت بيتي: «إيفي!».

فخرجت إيفي من المطبخ، وهي تحمل منشفة بإحدى يديها، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة واسعة، ثم قالت:

«الشاااي جاهز أيتها الفتاتان».

فضحكت بيتي عند ذلك وضمت جون إليها.

عندها، حاولت جون أن تمازحها بالقول: «كيف تمكنت من تعليم أمريكية أن تتحدث بلهجتنا؟».

صاحت بيتي: «إيفي، إليك صديقتي جون».

فابتسمت إيفي لكل منهما ثم قالت: «يسعدني أن ألتقيك أخيراً».

فشبكت بيتي ذراعها بذراع جون من جديد، ثم قالت:

«سنشرب الشاي في الحديقة من بعد إذنك يا إيفي».

فما كان من إيفي إلاّ أن غمزتهما وتوارت في المطبخ مرة أخرى.

قالت جون وهي تحتضنها بقوة: «لقد ضحكت الدنيا لك يا فتاة».

لم تكن بيتي تريد أن تفجر تلك الفقاعة وتخبر جون بالحقيقة، لكنها كانت بحاجة لأن تستودعها أسرارها، وأن تتحدث إليها حول ما جرى، ثم إنها كانت تريد أن تعرف منها ما حدث معها قبل وصول مادلين، وخاصة أنه كان أمامهما بعض الوقت لتقضياه معاً.

ولذلك سألتها: «كيف حال زوجك يا جون؟ أحسست بأنه لطيف عندما كلمته عبر الهاتف، بل بغاية اللطف. كما أنني لن أنسى ذلك اليوم عندما وصلنا وعرض علي المساعدة...»

ردت جون وقد بدأت عيناها تشرقان: «أوه يا بيتي، إنه رائع، رائع. ثم إنني أحببت هذه البلاد، لكنني أشتاق لبلادي. ولكنه رائع معي، وكذلك جميع أفراد أسرته».

قادتها بيتي إلى الطاولة الموجودة في الحديقة، ثم أتت بكرسيين. كانت تدرك أن هذه اللحظة شاعرية للغاية، لذا كان من العيب أن تفسد روعتها وشاعريتها.

سألتها جون: «وكيف حالك أنت؟ هل تشعرين بالسعادة أكثر مني؟ ثم أين حبيبك شارلي؟ ولمَ لم يظهر في ذلك اليوم؟ يا له من فتى شقي! إذ تركك تنتظرينه كل ذلك الوقت».

عندها، أخذت بيتي تحدق بالأرض؛ إذ لم تكن تدري كيف يمكنها أن تخبرها بالنبأ، وما الذي يمكن أن تقوله لصديقتها.

لكنها قالت أخيراً: «في ذلك اليوم يا جون، عندما كنت أنتظر شارلي ليأتي...»

وهنا أتت إيفي حاملة معها الشاي والكعك، وقالت:

«إليكما الشاي والكعك أيتها الفتاتان، إلى جانب الكعكات الرقيقة». ثم ضحكت وهي تقول: «هل نطقت بذلك بشكل سليم؟».

عندها، أمسكت جون بيد إيفي، وأطبقت عليها وكأنها لم ترد أن تتركها مطلقاً ثم قالت: «أووه، هل بإمكاني أن آخذها معي إلى البيت؟».

وهكذا، لكزت إيفي كلاً منهما بنعومة، ثم تركتهما وهي تضحك في سرها أثناء ابتعادها عنهما.

وعندها قالت بيتي لجون: «لقد كانت إيفي هي من أنقذني، إذ لست أدري بحق ما الذي كان بوسعي فعله بدونها».

قضمت جون قطعة من الكعكة الرقيقة ثم أغمضت عينيها وقالت: «إنها لذيذة جداً. إياك أن تتركيها؛ إذ لا يمكنني أن أصدق أن هنالك من يقيم معك ويساعدك على الدوام!».

عند ذلك، تأكدت بيتي أنه عليها أن تخبرها بالموضوع بسرعة؛ بالرغم من أنه كان من الصعب عليها أن تعكر صفو الأجواء السعيدة حينها، ولكنها قالت لها: «لقد بلغتني أخبار سيئة يومها يا جون».

فابتلعت جون اللقمة التي كانت في فمها، ثم مالت نحو مادلين وقالت: «أتقصدين في اليوم الذي وصلنا فيه وتأخر شارلي بالمجيء إليك واستقبالك؟ لا تقولي لي إنك ما زلت غاضبة منه بسبب ذلك!».

وهنا دمعت عينا بيتي، وغص حلقها بمشاعر لم تختبرها منذ اليوم الذي رست فيه سفينتهما في الميناء. وهكذا، تعكر مزاجها، وبدأت الأفكار السوداء تراودها، وأخذت تسأل نفسها: لمَ كان صعباً عليها أن تتفوه بذلك، وأن تعترف برحيل شارلي حتى بعد مرور كل ذلك الوقت؟

لكنها حاولت أن تمنع صوتها من التهدج وقالت: «لم يتأخر يا جون».

فأمسكت جون بيدها وقالت: «ماذا حصل إذاً يا حبيبتي؟ وهل حدث مكروه لويليام؟ أين ذلك الصغير الآن؟».

عندها، تحول صوت بيتي إلى همس وهي تقول: «كلا، إنه شارلي. لقد مات شارلي يا جون. مات قبل أن أصل إلى هنا».

وهنا قفزت جون عن كرسيها، وهرعت نحو الجانب الآخر من الطاولة حيث كانت بيتي، ثم عانقتها، وبعد ذلك انفجرت بالبكاء، وقالت:

«لا يمكن لذلك أن يحدث. كلا يا بيتي!».

إلا أن بيتي أخذت تهز لها برأسها إيجاباً، بينما بدأت جون تبتلع ريقها وتشهق وهي تبكي. غير أن رؤيتها للجزع الذي حل بصديقتها جعلها أقوى وأكثر هدوءاً، فتابعت قائلة:

«لقد توفي حتى قبل أن أغادر لندن، وقد حاولت عائلته أن ترسل لي رسالة لإبلاغي بذلك، لكنني كنت قد سافرت».

ثم أمسكت بيتي بصديقتها إلى أن بدأت دموعها تنحسر، ثم اعتدلت جون في جلستها وسألتها:

«إذاً، أهذا بيت أهله؟».

فهزت بيتي برأسها نافية وقالت: «بل بيت أخيه لوكا».

قالت جون: «حسناً، إنه بيت جميل، أليس كذلك؟ أعني أنه ليس جميلاً فقط بل إنه رائع، ولكن... لقد فهمت قصدي».

ردت عليها وهي تجهش بالبكاء: «أعتقد أنني مغرمة به». وهكذا نطقت بيتي بتلك الكلمات لتعترف للمرة الأولى بمشاعرها تجاه لوكا.

وعندها، بدأت الرجفة تسري في كامل بدنها. أجل، لقد نطقت بذلك، إذ لم تكن معجبة بلوكا وحسب، ولم تشعر بالانجذاب إليه فقط، بل كانت واقعة بغرامه.

ردت عليها جون: «أوه يا حبيبتي. لا بد أنك مشوشة التفكير فحسب. وخاصة بعد رحيل شارلي ووجود الصغير ويليام الذي يتعين عليك أن تعتني به...»

عندها، أغمضت بيتي عينيها بشدة، وغرقت في حضن جون وهي تقول: «آسفة، إذ كنت أعتقد أنني سأصبح أفضل لو أخبرتك. وأعتقد أنني قد غرقت في أحزاني، وكان الأجدر بي ألا أتفوه بذلك».

فما كان من جون إلاّ أن وقفت وأخذت تربت على ظهر بيتي، ثم عادت إلى كرسيها وقالت:

«كنت أظن دوماً أنك ستكونين الأكثر سعادة بيننا. فقد كنت قلقة جداً في ما يتعلق بأمور زواجي، وكيف ستكون عائلتي الجديدة. ولكن من خلال ما قصصته لنا من حكايات، اعتقدت أنك ستكونين سعيدة بالفعل مع شارلي. أنا آسفة يا بيتي، آسفة للغاية».

حينما كن على ظهر السفينة، كانت بيتي تقول الكلام ذاته، إذ كانت واثقة جداً ومتأكدة من أن أمور زواجها ستكون بخير. ولو قدر لإحداهن أن تعيش حالة حب طيلة حياتها، لكانت تلك الحالة من نصيبها مع شارلي. لكنها أصبحت أرملة، إلاّ أن قلبها بدأ ينبض بالحب تجاه شقيق زوجها المتوفى.

كانت بيتي بحاجة لأن تصرف ذهنها عن لوكا وتستمع لأخبار جون. إذ لم تكن قادرة على خوض اليوم الذي كان بانتظارها وهي تحس بأنها مشحونة بمشاعر دفينة، لذا كانت بحاجة للقوة لكي تتحمل ما ستحكيه لها مادلين عن معاناتها هي أيضاً.

وهكذا قالت لجون: «طالما أنك سعيدة يا جون فسأكون سعيدة. لذا، أخبريني بأن إيدي كان رائعاً معك وبأنه لم يخيب ظنك به».

وعندها، اكتسى وجه جون بتعابير حالمة؛ وكأنها مهما حاولت أن تخفي ذلك، فلا بد لعينيها أن تشعا فرحاً لمجرد ذكر اسم زوجها، ولهذا قالت: «إن إيدي خير الرجال، بل إنه أفضل مما حلمت به، وقد كنت محظوظة جداً لزواجي منه».

هتفت بيتي: «إنني سعيدة من أجلك يا جون، سعيدة بحق». لكنها لم تستطع كبح الدموع التي تساقطت من عينيها.

فهمست لها جون: «هل كنت تعنين فعلاً ما سبق لك أن قلته حول شقيق زوجك؟».

فهزت بيتي رأسها إيجاباً؛ لأنها كانت تعرف أن ما قالته هو الصدق.

قالت لها جون: «يمكن لأسوأ الأمور أن تحدث. لذا، لا تشعري بالذنب حيال ذلك يا بيتي، وذلك لأنك تستحقين السعادة، ولن يعيرك أحد إن فعلت».

وفجأة، أحست بيتي بأنها لم تعد تريد أن تتحدث عن هذا الموضوع، فقالت في محاولة منها

**لتغييره:**

**«لا أصدق أنني نسيت أن أخبرك».**

**فمالت جون نحوها وسألتها: «إذاً، أخبريني».**

**هتفت بيتي: «لقد وجدت مادلين». وأخذت تراقب الابتسامة التي ارتسمت على وجه جون، ثم تابعت بالقول: «لكن وضعها سيئ. إلاّ أنها أصبحت أماً، هل تصدقين ذلك؟».**

**وفجأة، تحول وجه جون إلى وجه حزين؛ مما جعل بيتي تشك في أنها أخطأت في تفسير تعابير وجهها.**

**سألتها جون: «أأصبح لديها طفل بهذه السرعة؟».**

**ردت بيتي: «وسنراها مع طفلتها اليوم! إذ من المفترض أن تصل بعدك».**

**عندها، صفّقت جون بيديها فرحاً وقالت: «وماذا عن أليس؟ هل تعتقدين أنها نسيت أمرنا تماماً؟».**

**فتنهدت بيتي وقالت: «أتمنى ألا تكون قد فعلت ذلك. لكن، لا بد أنها ترتدي ثياباً مزينة بالفراء وتعيش في منزل فخم. كما لا بد أنها ترتاد الحفلات طيلة الوقت، وأصبحت لديها صديقات رائعات».**

**وهنا أتاهما صوت إيفي وهي تنادي من داخل المنزل: «بيتي، أعتقد أن صديقتك الأخرى قد وصلت».**

**عندها، قفزت بيتي من مكانها، فيما هرعت إليها مدبرة المنزل وهي تحمل ويليام فوق خصرها.**

**سألت بيتي جون: «أترغبين بالمجيء معي؟».**

**فهزت جون رأسها نافية وقالت: «أعتقد أنني سأبقى هنا مع ويليام». وعندها، وضعت إيفي الطفل على البساط، فتابعت جون قائلة: «إنه طفل عزيز على قلبي، لذا أريد أن أمضي كل الوقت بصحبته».**

**أخذت بيتي تراقب طفلها وهو يزحف بسرعة، حيث نزل فوق المرج، ثم حاول أن يرفع جسده ليقف؛ إذ كان قد اقترب من مرحلة التدرب على المشي في ذلك الحين.**

**فقالت لجون: «سأعود بعد قليل». ثم انطلقت لترحب بمادلين.**

*******

**لم تكن بيتي مستعدة للقاء الفتاتين مجدداً. ولكن، بعدما واجهت تلك الحقيقة ورأت جون، ثم كانت على علم بأنها سترى مادلين... لم تكن حينها تدرك كم كانت مشتاقة إليهما.**

**صاحت بيتي وهي ترفع تنورتها لتركض نحو السيارة: «مادز! مادلين!».**

**فاستدارت مادلين ببطء، ثم تقوس جسدها باتجاه بيتي. غير أن ذلك المشهد جعل بيتي تجمد في مكانها، وجعل حذاءها يغوص في الحصى، وذلك قبل أن تجبر نفسها على المضي للأمام من جديد.**

**أجل، لقد كانت تلك مادلين التي تعرفها.**

ولكن، لم تعد مادلين تلك الفتاة المتسلطة ذات الشخصية القوية التي صادقتها قبل مرور كل تلك الشهور حينما التقتا على ظهر السفينة، لم تعد تلك الشابة المتكلمة والواثقة بنفسها التي جعلت بيتي تحس بأنها أفضل صديقة في العالم حينما كانت حاملاً، ثم حينما ساعدتها أثناء ولادتها بويليام؛ إذ كانت الشخصية الأساسية ضمن الصداقات التي تكونت بينهن. ربما كانت أليس تمثل روح تلك المجموعة، غير أن قوة مادلين هي الشيء الذي كانت بيتي تعول عليه.

لقد أصبحت مادلين مجرد صورة للشخصية التي كانت عليها في السابق. أجل، مجرد صورة هشة وهزيلة للمرأة التي كانت عليها في السابق. إذ غار خداها، وظهرت هالتان قاتمتان وعميقتان حول عينيها؛ بما لا يدع أي مجال للشك بأنها قد قاست الكثير. إذ يبدو أن شيئاً مريعاً قد حدث لها، ولهذا كانت تتحرق شوقاً للهرب منه.

كانت الطفلة الهادئة والوادعة التي كانت مادلين تحملها بين ذراعيها نائمة، وهذا ما جعل بيتي تتساءل إن كان بوسع مادلين أن تقف مستقيمة الظهر لو لم تكن تحمل تلك الطفلة وإن كان بوسعها أن تضمها إلى صدرها بقوة؛ إذ كانت أشبه ببالون أخلي من الهواء الذي كان يساعده على الطيران.

سألتها: «أوه يا حبيبتي، ما الذي حل بك؟».

ثم أخذت بيتي الطفلة من بين ذراعَي صديقتها، وضمتها إليها بقوة. كان جسد مادلين هزيلاً، ولكنها تمسكت بها، وأخذت تشدها نحوها وتبكي على كتفها، وهذا ما جعل بيتي تتأكد من أن أمراً بغاية السوء قد وقع لها، لكنها لم تتخيل يوماً أن ترى مادلين بهذه الصورة.

همست بيتي: «حسناً، حسناً، لا بأس عليك، لقد أصبحت بأمان هنا».

غير أن مادلين لم تتركها إلى أن ابتعدت بيتي عنها، حيث أصبح بإمكانها معاينة الطفلة؛ إذ خشيت أن تنسحق بينهما أثناء عناقهما.

سألتها: «أخبريني، من هذه التي معك؟ من تكون هذه الفتاة الصغيرة الجميلة؟».

كانت قد لفت طفلتها بغطاء ذي زغب عليه مربعات بلون زهري وأبيض.

ردت مادلين عليها وهي تشهق: «شار... شارلوت. إنها ابنتي شارلوت».

هتفت بيتي: «حسناً يا شارلوت، لنمضي مع أمك إلى الداخل، حيث يمكنك أن تلتقي ويليام وخالتك جون».

عندها، سألت مادلين بصوت منخفض وكأنها خائفة: «هل وصلت جون؟».

فهزت بيتي برأسها وهي تحمل الطفلة بإحدى ذراعيها، بينما لفت ذراعها الأخرى حول مادلين. فالتصقت بها صديقتها كطفل يحتاج إلى الراحة والاطمئنان.

قالت بيتي: «إنها هنا. لكن لم يصلني أي شيء من أليس. إلاّ أن جون بخير، وهي تتوق لرؤيتك أيضاً».

وهنا، أخذت مادلين تنظر إليها بعينين متوسلتين وتقول: «وماذا عن شارلي؟ أرجوك حدثيني عن زوجك وقولي لي إنه ظل رائعاً كما كان في بلادك. أليس كذلك؟ أما روي فقد... فقد...»

غير أن دموعها منعتها من النطق بأية كلمة أخرى.

هتفت بيتي: «صه! إنك بخير الآن، ولن نتحدث عن أي شيء لا ترغبين بالحديث عنه، فأنت بأمان هنا».

رفعت مادلين بصرها لبيتي، وهي لا تزال تنتظر إجابة منها بخصوص شارلي، غير أن بيتي لم تكن تريد أن تثقل عليها بإطلاعها على ذلك النبأ السيئ، وخاصة الآن بعدما أخرجته من مخبئه في صدرها وأطلعت عليه جون. وذلك لأنها أصبحت تركز الآن على مساعدة مادلين؛ بالرغم من أنها لم تكن تعرف بعد ما الذي بوسعها أن تصلحه من أحوالها.

ولهذا قالت لها: «عندي قصة سأحكيها لك في ما بعد يا مادلين. أما الآن، فدعينا ندخل، ولتشربي فنجاناً من الشاي أولاً. ما رأيك؟».

بدت مادلين ممتنة لها، حيث ارتسمت تدريجياً ابتسامة على وجهها بعدما استرخت.

بادرتها بيتي بالقول: «لقد ناقشت ظروفك مع... مممم... السيد أوليفر، وهو يرحب بك هنا لتقضي المدة التي أنت بحاجة إليها بعيداً عن بيتك. لذا، اعتبري البيت بيتك إن لزم الأمر».

وهنا بدا على مادلين التشوش والارتباك، فسألتها: «السيد أوليفر؟ يبدو هذا رسمياً بعض الشيء، أليس كذلك؟ أعتقد أن اسمه كان شارلي».

عندها، رفعت بيتي الطفلة إليها، وأخذت تدغدغها من ذقنها لتبتسم الصغيرة لها.

# الفصل الحادي

# والثلاثون

قاومت أليس تلك الرجفة التي اعترتها بدلاً من الاستسلام لها.

إذ لم تكن هنالك أية فائدة في التصرف كطفلة، غير أن الانكفاء بعد كل ذلك كان سيجعلها تشك في نفسها من جديد. كانت قد اختارت بيتي لأنه من السهل عليها أن تجدها، ولأنها قد تكون أكثر الفتيات تعاطفاً معها. إذ كانت أليس بحاجة لشخص تستودعه أسرارها، ولتظهر أمامه بشخصيتها الحقيقية. ثم إن ذلك لا يعني أن الفتاتين الأخريين لن تقفا إلى جانبها، بل كل ما في الأمر أن قلب بيتي كان يتسع للجميع، إذ كانت أكثرهن حناناً. كانت الأمور قد تحسنت كثيراً مع رالف، ولكن الشهور الماضية كانت قاسية للغاية، هذا باختصار. وكانت أليس تعرف أنها إن استقرت في هذا المكان، فإن رالف لا بد أن يتعافى. ولهذا، كان عليها أن تقيم علاقات مع صديقات لها، كما يمكن لذلك أن يساعدها في إعالة نفسها.

لم يكن هنالك سوى منزل واحد باسم أوليفر قد تم إدراجه في سجل الهواتف العمومي، ولكنها كانت على يقين من أنه البيت المقصود. فقد بقيت تتذكر أن بيتي أخبرتها أن اسم عائلة زوجها يكتب بحرفي لام في وسط الكلمة، ولعلهن جميعاً كن يتذكرن ما قالته لهن عن ذلك.

كانت أليس تتدرب على ما يجب عليها قوله مع كل خطوة خطتها في الطريق، إلى أن وصلت إلى ممر السيارات الطويل، واتجهت نحو الباب، ثم وقفت ضمن الشرفة الواسعة.

كان المنزل فخماً، ولهذا لم تسمح أليس للأفكار السلبية بالتسلل إلى رأسها، إلاّ أن ذلك كان صعباً عليها. إذ كان نمط هذا المنزل يشبه ما توقعته عنه؛ حيث كانت قد توقعت أن تصل إلى هذه البلاد لتجد هذا النمط من مداخل البيوت. وهذا هو النمط من المنازل التي كانت تتوق للعيش في مثلها من أعماق قلبها.

غير أن التفكير بهذه الطريقة لم يكن يفضي إلى أية نتيجة. إذ لم يكن ليفيدها في شيء أن تغرق في التفكير في ما يجب أن يكون وما يمكن أن يتوفر. إذ كانت هي ورالف يسعيان لتأمين كل ذلك، ثم إنهما لا بد أن ينجحا في الوصول إلى ما يصبوَان إليه؛ وذلك عبر تأسيس مشروع خاص بهما. وهكذا، سيصبح لديهما بيت مثل هذا البيت في يوم من الأيام. أما في هذا الحين، فينبغي عليها أن تذكّر نفسها بأن أموراً مثل البيت الكبير والسيارات اللامعة يجب ألا تعني لها شيئاً؛ إذ كل ما يجب أن تهتم به الآن هو أن يكون رالف إلى جانبها.

كانت تسعى مع رالف لتصحيح مسار زواجهما. لذا، يجب أن يكون هذا أهم شيء بالنسبة لها في هذا الوقت. كما أن أليس تعرف كم كانت محظوظة لأن أحداً لم يكتشف خيانتها ويعيرها بذلك؛ لأن ذلك لو حدث لكانت قد طردت وتمّت إعادتها إلى لندن.

ولهذا، كان الشيء الوحيد الذي يهمها هو أن تجد صديقاتها؛ وهو شيء كان عليها أن تقوم به منذ شهور. ولكن، ما الذي حدث للعهود القاطعة التي قطعنها على أنفسهن بأن يتواصلن مع بعضهن للأبد؟ إلاّ أنها لم تكن لتسمح لشعور غبي كالغرور بأن يمنعها من التواصل مع صديقاتها.

رفعت أليس يدها، وطرقت ببراجم أصابعها على الباب، إذ لم يكن أمامها سوى أن تفعل هذا الآن، وإلا ضاعت عليها الفرصة للأبد.

**غير أن أحداً لم يفتح الباب.**

**فوقفت، وأخذت تنتظر لبعض الوقت، ثم قرعت الباب بشكل أقوى، في محاولة منها لإحداث ضجة أكبر وأعلى.**

**وفجأة، فتح الباب بقوة.**

**فهوت يد أليس لأن من فتح الباب لم يكن بيتي.**

**«هل بوسعي مساعدتك؟».**

**وقفت قبالتها امرأة عجوز، وأخذت تتأملها بعينيها من رأسها وحتى أخمص قدميها وهي تبتسم.**

**ردت أليس: «حسناً، أجل، أتمنى ذلك. كنت أود أن أجد السيدة بيتي أوليفر، ولست أدري إن كنت قد وصلت إلى البيت الصحيح».**

**فاتسعت ابتسامة المرأة وهي تقول:**

**«لقد وصلت إلى البيت الصحيح يا عزيزتي. ألست من صديقاتها اللواتي تعرفت عليهن على ظهر السفينة؟».**

**فهزت أليس برأسها إيجاباً وردت: «أجل، كيف عرفت؟».**

**هتفت العجوز: «أوه يا عزيزتي، ستسر بيتي أيما سرور برؤيتك. تعالي معي!».**

**تبعت أليس المرأة وأغلقت الباب خلفها. لم تكن السيدة قد أجابت على سؤالها، إلاّ أنها لم تكن لتنتظر جواباً منها لو لم تكن بيتي موجودة هناك.**

**هتفت أليس: «إذاً فهي في البيت، أليس كذلك؟».**

**ردت السيدة التي التمعت عيناها هذه المرة بالقول: «أوه أجل، إنها في البيت، وصديقتاك معها أيضاً. إذاً، هذا يوم السعد بالنسبة لك».**

# الفصل الثاني

# والثلاثون

سقط فنجان جون من يدها وكأنه قد فعل ذلك من تلقاء نفسه، كما كادت أذناها تسقطان عن رأسها، وذلك بفعل صرخة بيتي التي كانت عالية جداً.

«بيتي، ما الذي...»

وهنا التفتت لتنظر إلى الجهة التي كانت بيتي تنظر إليها، وعندها فغرت فاها دهشة. أوه، يا إلهي!!! لا يمكن لذلك أن يحدث، وخاصة اليوم!!

كانت بيتي تصرخ: «أليس! أليس! إنها أليس!».

أخذت جون تراقب أليس وهي تعبر المرج على رؤوس أصابعها لتمنع حذاءها ذا الكعبين العاليين من الغوص بين الأعشاب. لم يختلف شكل أليس عن السابق، إذ كان شعرها لا يزال أشقر، وقد قامت بطلي كامل أظافرها بعناية، كما وضعت أحمر شفاه، إلاّ أنها بدت لهن أكبر سناً وأكثر نضجاً، أو لعلها كانت منهكة، إذ من يدري ما قاسته خلال تلك الأيام؟

صاحت بيتي: «أليس جونز! ما الذي تفعلينه هنا بحق الله؟».

دهشت جون حينما رأت أليس تحمر خجلاً لمجرد سؤال بيتي، ثم قفزت لتحيّي صديقتها، بالرغم من أنها لاحظت أن مادلين بقيت جالسة وكأنها قد عدمت كل طاقة تساعدها على الحركة.

هتفت أليس: «أتمنى ألا أكون قد قاطعتكن». وبدت غير واثقة من نفسها حينما قالت ذلك، إذ لم تعد تلك الفتاة الجريئة التي تعرفها جون حينما كن على ظهر السفينة. تابعت أليس قائلة: «لم أكن أتوقع أن أجدكن جميعاً هنا».

أخذت جون تراقب كيف جذبت بيتي أليس، ثم ضمتها إليها وهي تقفز من فرط حماستها، وتقول:

«إنه أفضل وقت بالنسبة لنا يا أليس، فقد وصلت كل من جون ومادلين لتوهما».

سارت جون نحو أليس ثم عانقتها هي أيضاً، وحينما ابتعدت عنها رأت الارتباك في عينَي أليس، فقالت لها:

«أوه يا أليس، لا تظني أننا كنا نلتقي بدونك».

لم يبدُ على بيتي أنها فهمت ما قالته جون، ولكن سرعان ما أدركت كل ما كان يجري. وهكذا، أمسكت بيتي بيد أليس، وقادتها نحو الطاولة وهي تقول: «أوه يا إلهي، كلا! لقد عدنا لتونا لنتواصل مع بعضنا، وهذه أول مرة نلتقي فيها منذ أن تركنا بعضنا هناك. أتصدقين أن تسعة أشهر قد مضت على فراقنا».

وهنا بدا على أليس الارتياح؛ لأنها اعتقدت أنها حرمت من كل المتع التي كن ينعمن بها.

ثم صاحت أليس بنعومة: «مرحباً مادلين!». وأخذت تنظر إلى المكان الذي بقيت صديقتها جالسة فيه.

رفعت مادلين بصرها إليها، فلاحت نظرة فارغة على وجهها، وذلك قبل أن تقوم بتسجيل

كل ما يجري من حولها.

وأخيراً، هتفت بصوت خافت مع ابتسامة: «أليس! كيف حالك؟ أعتذر لأنني لم أنهض لاستقبالك».

عندها، أخذت أليس تتبادل النظرات مع جون، فلم يكن من الأخيرة إلاّ أن ابتسمت لها. إذ كانت تعرف القليل عن الموضوع، شأنها في ذلك شأن أليس. فلو كانت مادلين قد أسرت لبيتي بما حدث لها، فإن بيتي لم تكن لتفضح سرها.

سألت بيتي: «إذاً، ما الذي حدث لك يا أليس؟ وكيف وجدتني؟».

عندها، رفعت أليس حاجبيها وهي تنظر للشاي الذي تم صبه من إبريق بديع المنظر، ثم قالت: «من خلال حرف اللام المكرر».

عند ذلك، ضحكن جميعهن، بل حتى مادلين ضحكت قليلاً لدى سماعها ما قالته أليس.

ولهذا أخذت بيتي تمازح أليس بالقول: «إذاً، لعل تعليمك كيف يكتب اسم عائلة زوجي بشكل صحيح لم يكن أمراً كريهاً للغاية».

عندها، هزت كل واحدة منهن برأسها إيجاباً.

سألتها جون: «كيف حال زوجك رالف؟».

فنظرت أليس إلى جون وقالت: «لنقل إن الانتقال إلى هنا لم يكن بالسهولة التي توقعتها».

وهنا، لم تعرف جون ماذا تقول رداً على ذلك. فهل كانت الوحيدة التي وجدت سعادة حقيقية تنتظرها في هذه البلاد؟ وهل من العيب أن تخبرهن كم كان إيدي رائعاً معها؟

وهنا طلبت أليس من جون: «أرجوك، قولي لي إن زوجك جذاب ورائع».

فأجابت بيتي عنها: «آه، أجل. فقد التقيته في الميناء، إنه رائع».

وهنا وافقتها جون بالقول: «إنه رجل رائع، وأنا محظوظة به».

ولكن، بالرغم من أنها قالت ذلك بلسانها، وبالرغم من أنها كانت تحس أنها محظوظة جداً، إلاّ أنها كانت تحس بالغيرة لوجود هذين الطفلين بينهن. فما الذي فعلته حتى تحرم من أن يكون لديها ابن من لحمها ودمها؟

هتفت أليس: «وماذا عنك يا بيتي؟ هل سيخرج حبيبك شارلي لينضم إلينا؟ أم أنه يخاف من مجموعة كلها نساء؟».

كانت أليس تضحك وهي تقول ذلك، وهذا ما جعل جون تبتسم لها قليلاً، لكنها لم تكن تريد أن تتفوه بكلمة، إذ حان دور بيتي لتخبرهن جميعاً.

وهنا، أبعدت بيتي نظرها عن مادلين، وانتقلت بنظراتها إلى أليس ومن ثم إلى جون.

هتفت أليس: «هل أخطأت في شيء؟». وأخذت تنقل بصرها بينهن بعدما أحست بتغير الأجواء بعد سؤالها.

قالت بيتي: «لا أريد أن أفسد عليكن سعادتكن، لكن بوسعي أن أخبركن بما حصل بما أننا جميعاً هنا».

في تلك اللحظة، لم تكن جون لتسمح لنفسها بالبكاء؛ إذ كان عليها أن تتحلى بالقوة من أجل

بيتي، فقد كانت تبكي وتنتحب قبل مجيئهما، ولكنها لن تكرر فعلتها تلك أمامهما.

بدأت بيتي الحديث بالقول: «لقد حصل شارلي على عقد بعد الحرب، فسافر إلى شركة المقاولات والتوريدات، إلاّ أن طائرته سقطت خلال رحلة العودة فلم يتمكن من الرجوع إلى بلاده».

وهنا سمعت جون أليس وهي تشهق، بل حتى مادلين استفاقت من الغشية التي حلت بها، وأخذت ترمش بعينيها بقوة.

سألتها أليس: «أتقولين إن شارلي قد مات؟».

فهزت بيتي برأسها إيجاباً، وضمّت يديها ووضعتهما في حضنها، ثم قالت: «وقد اكتشفت ذلك عقب وصولي، حيث استقبلني شقيقه لوكا في بيته هذا». ثم صمتت قليلاً، وبعد ذلك تابعت قائلة: «إنه رجل رائع، وأنا محظوظة جداً».

ظلت جون تنظر إلى الأسفل؛ لأنها ظنت أن بيتي لم تكن تريد أن تحكي لهما كل شيء.

عند ذلك، سحبت أليس كرسيها وقرّبته من بيتي لتحيط كتفيها بذراعها، وأخذت تقول لها: «آه يا حبيبتي، إنني آسفة جداً من أجلك».

إلا أنهن جمدن في مكانهن حينما بدأت مادلين تشهق وتنتحب وهي تقول:

«أنا آسفة يا بيتي... آسفة. إذ لا ينقصك وجودي هنا مع كل مشاكلي أيضاً».

ثم وقفت مادلين وهي تحمل شارلوت بين ذراعيها، وأخذت تنظر بعينين مستسلمتين وقد امتلأتا رعباً.

كانت جون هي الأولى التي قفزت من مكانها، وهتفت: «مادز! ما الذي تقولينه؟ لا تكوني حمقاء، فنحن هنا لنساعد بعضنا».

بدت مادلين وكأنها كانت على وشك أن تهرب، وأن تسلم ساقيها للريح لتصل إلى أبعد نقطة يمكن أن تبلغها، فأحست الفتيات بأن شيئاً قد حدث لصديقتهن، وكان ذلك الأمر جدياً، لذا كانت بحاجة لتزيح ثقله عن صدرها.

توجهت جون ببطء نحوها، حيث أمسكت بذراعها، وسارت بها حتى أعادتها إلى مقعدها؛ إذ كانت جون تتمنى أن تساعد لمستها في تهدئة روع صديقتها، وفي إشعارها بأنه لا حاجة للهرب، أو لإخفاء مشاكلها والتكتم عليها كالمرض الذي يتفشى في جسم صاحبه دون أن يعرف عنه شيئاً. وأخيراً، سألتها جون: «أخبرينا بما حل بك يا مادلين. ما هي مشكلتك؟».

بدا على جميع الفتيات أنهن كن يحبسن أنفاسهن بانتظار سماع ما ستقوله مادلين. إذ كن يردن أن يعرفن ما سبب لها تلك الصدمة الكبيرة، وإن كان بوسعهن تقديم المساعدة لها، وما الذي يمكنهن القيام به من أجلها.

صاحت مادلين: «لقد كرهت هذه البلاد، كرهتها. وأريد العودة إلى بلادي».

أتت كلمات مادلين بصوت خفيض وناعم للغاية، لدرجة أن بقية الفتيات بالكاد سمعن ما قالته. إلاّ أن جون كانت قد سمعت كل ما قالته مادلين، وفهمت ما كانت تعنيه بكل كلمة. إذ لم يكن كلامها يعبّر عن حالة عدم تقبل لهذا المكان أو التعلق بالوطن والاشتياق للعائلة فحسب، بل كانت مادلين محبطة ويائسة أيضاً.

وهذا ما جعل جون تسألها بصوت خفيض أيضاً: «هل جرحك؟ هل قام زوجك بشيء أزعجك؟ بإمكانك أن تبوحي لنا بذلك يا مادلين، فقد أصبحت هنا بمأمن، ولن نسمح لأي أحد بإيذائك

أو إيذاء طفلتك».

عندها، اكتفت مادلين بإغماض عينيها بقوة، وكأنها كانت تحاول أن تجبر ذكرياتها على الخروج من سجنها.

ولذلك، جلست بيتي وأليس على ركبهما أمامها، ومالتا نحوها لتمسكا بيديها، أما جون فقد حملت الطفلة بين ذراعيها.

حاولت جون أن تتجاهل ذلك الإحساس الذي انتابها عندما حملت الطفلة الصغيرة الناعمة بين ذراعيها؛ إذ أحست بانقباض في صدرها، وفكرت في أن هذا ليس عدلاً. لكن، يجب عليها أن تساعد مادلين، لذا لن يهمها أي شيء آخر في هذا الحين.

ولهذا سألتها: «ما الذي فعله؟ وهل زوجك بخير؟».

رفعت مادلين بصرها، فبدت عيناها جامدتين كالزجاج، وكأن الروح الكامنة خلفهما قد ماتت، وكأنها لم تعد موجودة نهائياً، ثم نطقت فقالت: «لقد توفي أبي، وقامت عائلة زوجي بإخفاء كل رسالة وردتني من أهلي عني، وهم يريدون مني الآن أن أعيش أسيرة في بيتهم مجدداً. لذا، علي أن أعود إلى بلادي، أرجوكن، إنني بحاجة لمساعدتكن لأعود إلى وطني، لأنني لم أعد أطيق العيش معهم ولو ليوم واحد بعد كل هذا. فكيف سيكون حالي إن عشت معهم عمراً؟».

وهنا، أخذت جميع الفتيات ينظرن إلى مادلين، ثم بدأت كل واحدة منهن تنظر إلى الأخرى.

عند ذلك، أجهشت مادلين بالبكاء وأخذت تقول: «أرجوك يا بيتي، أرجوك يا جون، أرجوك يا أليس! يجب أن أعود إلى بلادي، وها أنا أطلب مساعدتكن في العودة إلى وطني».

***

أحست مادلين بأنها حمقاء، ولم يكن ذلك لأنها كان تود أن تحتفظ بالسر لنفسها، بل لأنها باتت تشعر بأنها كانت غبية لأنها تحملت أسرتها الجديدة كل تلك الفترة.

كانت في السابق تعتقد أنها لم تكن قوية بما فيه الكفاية، وأنه كان يجب عليها أن تحاول أن تكون صلبة وتصمد أكثر، كما كانت تشك في أنها قد أخطأت في شيء ما. إلاّ أن النظرة التي رأتها في عيون صديقاتها أشعرتها بأنها كانت على حق، وأنه كان عليها أن تثق بإحساسها منذ اليوم الأول.

ولهذا سألتهن: «لماذا أمضينا كل تلك الفترة دون أي تواصل بيننا؟».

كان صوت مادلين قد بح من كثرة البكاء، كما كانت عيناها محمرتين، إلاّ أنها أحست بسعادة غامرة لأنها أخبرتهن بكل معاناتها بعد كل تلك المدة.

وهنا ردت أليس بالقول: «لقد كنا جميعاً غبيات».

فضحكت جميع الفتيات قليلاً على تعليق أليس الذي ألقته بطريقة مسرحية درامية.

سألت مادلين: «إذاً، هل كان زواجي هو أفشل زواج بينكن؟».

عندها ابتسمت بيتي، فأحست مادلين بالأسف وقالت:

«أوه يا بيتي، أنا آسفة! لم أكن أقصد أن...»

فما كان من بيتي إلاّ أن رفعت يدها وقالت: «لا تعتذري، فأنت لم تخطئي بحقي، ولست بحاجة للتكلف في حديثك أمامي».

عند ذلك، عضت مادلين على لسانها لئلا تنبس بكلمة بعد ذلك.

التزمن جميعهن الصمت بعد ذلك وهن يجلسن فوق بطانية كانت قد فرشت فوق العشب. كانت شارلوت نائمة بين ذراعي جون، أما ويليام فقد تكور فوق وسادة كجرو منهك، إذ بقي يزحف لبعض الوقت ثم غط في النوم بعد ذلك.

هتفت أليس: «برأيي، تمر على المرء خلال زواجه حالات عسر ويسر».

عند ذلك، نظرت مادلين إلى أليس وهي تتحدث، فرأت علامات التعب على وجهها وهي تحدق في السماء الزرقاء، ثم سألتها:

«كيف عرفت ذلك؟».

فتنهدت أليس وقالت:

«لم يكن رالف الشخص الذي عرفته بالضبط، إلاّ أننا نقوم بمعالجة الموضوع حالياً».

عند ذلك، لم تقم أي منهن بطرح أي سؤال، وذلك لأن أليس لا بد أن تتكلم حينما تصبح مستعدة لذلك، فهذا ما يعرفنه جميعاً عنها.

أما مادلين فقد بدت سعيدة لأنها تحدثت عن مشاكلها التي كانت ترهق تفكيرها؛ على الأقل خلال تلك اللحظة؛ إذ قد يبدأ القلق بمساورتها من جديد في تلك الليلة. غير أن كل ما كانت تحتاج إليه في هذه الأثناء هو أن تنفض عنها غبار التعب لتستمتع بصحبة صديقاتها. وهكذا، أحست بأن وقتاً طويلاً قد مر عليها منذ أن استرخت وبدأت تحس بطعم السعادة.

تابعت أليس كلامها بالقول: «كنت أحلم بالنجاح والمجد، وقد كان رالف قوياً وواثقاً من نفسه للغاية، وقد منحني كل شيء كنت قد حلمت به حينما كنا في لندن. ولكن، حينما عاد إلى بلاده خسر كل شيء، ولهذا لم أستطع أن أتأقلم بسهولة مع الحال الذي صار إليه». ثم تنحنحت وتابعت: «كان يعاني من نوع من التوتر الذي تسببه الحرب، إلاّ أنني بذلت كل ما بوسعي لتمريضه ليخرج من أزمته، وها هو يتعافى من مشكلته».

سألتها جون: «وهل أنتما بخير الآن؟».

عندها، كفت أليس عن اللعب بحافة البطانية، ورفعت عينيها وقالت: «سنكون بخير، إذ إنني في قرارة نفسي أعلم أننا سنكون كذلك».

عندها، أخذت مادلين تراقب جون، وكان بوسعها أن تحس بأن صديقتها تتكتم على شيء ما، ولذلك سألتها:

«وماذا عنك يا جون؟ أخبرينا كيف كان إيدي معك».

غير أن الابتسامة التي ارتسمت على وجه صديقتها أفشت كل شيء قبل أن تنطق جون بكلمة واحدة، ولكنها قالت أخيراً:

«إيدي رائع، وأنا محظوظة جداً به».

وهذا ما جعلهن جميعاً ينظرن إليها.

وهنا هتفت بيتي: «إذاً، أخبرينا!». فبدت وكأن الحماسة قد عادت إليها كما كانت حينما جلسن مع بعضهن في البداية، ثم تابعت تشجيعها بالقول: «لا تقفي عند هذا الحد، وخاصة إن كان ما ستخبريننا به يحمل أخباراً سارة».

عندها، بدا على جون التوتر، وهذا ما جعل بيتي تكزها بمرفقها.

إلا أن وجه جون احمر خجلاً وقالت: «لست أدري ماذا أقول».

فألحت أليس عليها بعدما نفد صبرها بالقول: «فقط أخبرينا كيف كان معك».

وهكذا، لم تستطع جون أن تحتفظ بمشاعرها لنفسها.

فبدأت تلقي بفيض مشاعرها أخيراً عبر القول: «إيدي مذهل، إذ كان فارس أحلامي بالضبط. وهو شخص بغاية اللطف معي، وكذلك عائلته، ثم إنه بنى لي بيتاً. أجل، لقد بنى لي بيتاً حقيقياً بيديه».

عند ذلك، رجعت مادلين إلى الوراء وقد وضعت يديها على جانبيها لتحملا ثقل جسمها، وأخذت تقول في سرها: كم كانت جون محظوظة! والحمد لله لأن إحداهن تعيش الحياة التي حلمت بها بعد زواجها.

وهنا همزت بيتي بالقول من جديد: «إنك غارقة بالحب، أليس كذلك؟».

فردت: «إنك تبخسينني حقي إن قلت عني إنني مغرمة فقط، فأنا أكثر من مغرمة».

وهنا أصبح وجه جون في غاية الاحمرار، وأخذت تلك الحمرة تمتد إلى أسفل رقبتها.

سألت أليس: «أما من شيء ينغص عليك حياتك؟». فبدت وكأنها تمزح، إلاّ أن مادلين شعرت بالإحراج من أجل جون.

ردت جون: «لم أقل إن حياتي مثالية، لكنني سعيدة مع زوجي إن كان هذا ما تسألينني عنه. ثم إن الحياة هنا أفضل من كل ما تخيلته عنها».

سألت بيتي: «أترغبن بالمزيد من الشاي؟». ثم نهضت واقفة وهي تسأل: «هل تشعر أي منكن بالجوع؟».

هزت مادلين برأسها نفياً، ثم تمنت لو أنها أجابتها بنعم، فقد كانت بيتي تحاول أن تغير الموضوع، ولم تدرك مادلين ذلك إلا بعد وقت طويل. إذ لم يكن من العدل في شيء أن يتم استجواب جون بتلك الطريقة، وخاصة أنهن كلهن كن يعانين من الصدمات. لذا، لا يحق لهن أن يشعرنها بعدم الارتياح فقط لأن كل الأمور قد سارت معها على ما يرام.

هتفت أليس ويدها ترتفع نحو فمها: «أوه، يا إلهي!».

فالتفتت مادلين وهي تسأل نفسها: ما الذي حدث؟ إذ بدا وكأن أليس قد رأت شبحاً.

أوه، حسناً، لقد كان شبحاً جذاباً.

سألت جون: «أعتقد أن هذا شقيق زوجك، أليس كذلك؟».

سمعت مادلين ما قالته جون، إلاّ أنها لم تستطع أن تبعد ناظريها عن الشخص الذي كان يسير نحوهن. إذ كان شعره أسود وقد غطى جزء منه جبينه، كما كان طويل القامة، وقوي البنية، وواثقاً بنفسه أثناء سيره نحوهن. أي أنه ذلك النوع من الرجال الذي تحلم أي امرأة عازبة بالوقوع في حبه.

عندها همست جون: «لا عجب في أن تغرمي به».

فصاحت أليس: «ماذا!؟».

همست بيتي: «اسكتي يا جون!».

عند ذلك، أرغمت مادلين نفسها على الالتفات بعيداً عنهن؛ إذ كانت صديقاتها أقل رزانة منها، وأقرب للسيدات الأمريكيات بالرغم من أنهن ادعين أنهن يختلفن عنهن تمام الاختلاف.

صاح الرجل: «مرحباً أيتها السيدات».

حتى صوته كان رائعاً، وانساب بهدوء إلى أسماعهن. كما كان يتحدث بلهجة آمرة في آن معاً.

وهنا استعادت بيتي رباطة جأشها وقالت: «أريد أن أعرفك على صديقاتي يا لوكا: هذه أليس جونز، وتلك جون ويست، وهذه مادلين باركر. آه، وهذه شارلوت الصغيرة أيضاً».

فهز برأسه، وصالب ذراعيه حينما وقف أمامهن، ثم انتقلت عيناه إلى ويليام الذي كان نائماً، غير أن مادلين رأت في عينيه شيئاً آخر، ألا وهو الحب ولا شيء سواه؛ إذ كان يبدو كأب يبحث عن ابنه.

وأخيراً، قال لوكا: «حسناً، يسرني التعرف عليكن جميعاً».

فابتسمت له الفتيات اللواتي كن أشبه بقطعة عاشقة؛ باستثناء مادلين التي رأت في صديقاتها نساء يعجبن بأي رجل، وخاصة وهي تراقب شقيق زوج بيتي الوسيم.

«مادلين؟».

رفعت مادلين بصرها حينما سمعت أحدهم يناديها باسمها، ثم أدركت أن لوكا كان يتحدث إليها، إذ كان يقول:

«مادلين، لقد أخبرتني بيتي بأنك قد تحتاجين للإقامة في مكان ما».

عند ذلك، ابتلعت مادلين ريقها. ما الذي أخبرته به بيتي عنها؟ وكيف سينظر إليها؟ وهل كان يريد أن يعرف السبب الذي جعلها بحاجة لذلك؟

تابع لوكا بالقول: «بوسعك أن تقيمي هنا مع بيتي لأي فترة تريدينها. وأنا متأكد من أنها ستستمتع بصحبتك. البيت بيتك».

وهنا أصبح بوسع مادلين أن تكتشف السبب الذي جعل بيتي تحب هذا الرجل. إذ دعاها للإقامة في بيته دون أن يطرح عليها أي سؤال، وهذا يعني أنه كان يثق بزوجة أخيه تمام الثقة.

فما كان منها إلاّ أن ردت عليه بهدوء: «أشكرك يا لوكا، أشكرك من أعماق قلبي».

فرد: «لا حاجة لشكري. والآن، استمتعن بوقتكن».

ثم ابتسم لهن جميعاً، إلاّ أن مادلين كانت قد انتبهت إليه حينما تعلقت عيناه ببيتي، وكأنه كان هنالك رابط بينهما أكبر من مجرد ما يربط بين شاب أعزب وأرملة في عز شبابها.

كان كل ما تريده مادلين هو أن تعود إلى بلادها؛ أن ترجع إلى لندن، لكنها كانت تأمل أن تجد بيتي السعادة مع لوكا؛ حيث يمكنها أن تقيم في هذا البيت، وأن تؤسس لحياتها فيه. فرغم أن خسارتها لشارلي كانت صعبة عليها بحق، إلاّ أن أمامها فرصة للحياة في هذا البيت مع رجل آخر، وكانت تستحق هذه الفرصة؛ إذ كانت قد فقدت أسرتها قبل الحرب، أليس كذلك؟ لذا، فالسعادة التي قد تجدها في هذه البلاد كانت أقل ما طلبته لنفسها.

خاطبت بيتي لوكا بالقول: «سآتي معك يا لوكا، إذ أعتقد أننا بحاجة للمزيد من الطعام هنا».

**وهذا ما جعل مادلين تضحك؛ إذ إن بيتي هي التي كانت دوماً بحاجة للطعام عندما كانت على ظهر السفينة، وكانت تدّعي دوماً بأنها تأكل عن شخصين، وأنّ هذا ما يجعلها نهمة إلى تلك الدرجة، ولكن يبدو أنها قد عشقت الطعام هنا.**

**أخذت مادلين تراقب بيتي ولوكا وهما يسيران معاً ويتقاربان أثناء سيرهما دون أن يمس أحدهما الآخر، ولكن كان رأس كل منهما مائلاً نحو الآخر، وكأنهما لم يكونا مدركين أنهما يقومان بذلك بالفعل.**

**هتفت جون وهي تتنهد: «سيكونان زوجين رائعين».**

**فسألتها أليس: «أتحبه حقاً؟».**

**وهذا ما جعل مادلين تتبرم منها وتقول لها: «وهل أنت بحاجة للسؤال عن ذلك؟ يكفيك أن تنظري إليهما».**

# الفصل الثالث

# والثلاثون

«شكراً لتفهمك يا لوكا».

أخذت بيتي تنظر إلى الطريق أمامها. وبما أنها اعترفت بذلك لجون، فكان ذلك كل ما يشغل تفكيرها في ذلك الحين. إذ إن رؤيته، والسير معه، وسماع صوته، ومراقبة الطريقة العفوية التي تحدث بها مع صديقاتها، كل ذلك جعلها تحبه أكثر في تلك اللحظات.

وهكذا، لم يعد بوسعها السيطرة على تلك المشاعر التي أصبحت جامحة وأخذت تتملكها وتسيطر عليها من تلقاء نفسها، حيث كانت تعتريها ولا تسمح لها بالتفكير بأي شيء آخر.

قال لها: «لا أريد أن أتدخل بمشكلات شخصية يا بيتي. ولكن، إن كانت صديقتك تعاني من مشكلة ما فعندها عليك القيام بما يلزم لمساعدتها».

عندها تنهدت بيتي، وقالت:

«إن الأمر بغاية السوء بالنسبة لها، فهي تريد أن تعود إلى بلادها».

عند ذلك، أبطأ من خطواته الواسعة، فعرفت بيتي أن جبينه قد تقطب حتى دون أن تنظر إليه. فقد كانت تراقب وجهه، وتتمعن بتعابيره، وقد فعلت ذلك مرات كثيرة إلى أن أصبحت تعرف معنى كل تنهيدة أو حركة يقوم بها.

سألها: «هل تقصدين أنها تريد أن تهرب مع طفلتها وتعود إلى لندن؟».

فما كان من بيتي سوى أن عضت على شفتها من الداخل، إذ هل كان يعني بذلك السؤال أنه لن يوافق على تصرف كهذا؟

لكنها قالت له أخيراً: «سأطلعك على كل التفاصيل حينما أتحدث إليها على انفراد لاحقاً». ولم تكذب في ذلك، إذ كان عليها أن تطلع لوكا على كل ما كانت مادلين ستقوله لها بما أنه سيساعدها، ثم تابعت: «أعدك أن أطلعك على كل شيء».

فاستراح لذلك، وكان بوسعها أن تحس بجسده وهو يسترخي بعد توتره، وقال لها: «أعرف أنك ستفعلين».

عند ذلك، حاولت بيتي أن ترفع بصرها لتنظر إليه، إلاّ أن عينيها جمدتا في مكانهما، وذلك لأن يده لامست يدها بكل لطف، فأحست بجلده فوق جلدها، ثم أحست بأصابعه تضغط على راحة يدها.

وهنا حبست بيتي أنفاسها، ثم سمحت لعينيها بأن تنتقلا ببطء لتنظرا إليه أخيراً.

كان يراقبها وينتظر ردة فعلها، فشبكت يدها ببطء حول أصابعه، وذلك للحظة قبل أن تترك يده.

واصلا السير، دون أن ينبسا بكلمة، إلاّ أن قلب بيتي كان يغرد كعصفور فتح له باب القفص، فأخذ يزقزق بجنون وحماسة لدرجة باتت معها بيتي متأكدة من أنه كان بوسع لوكا أن يسمع تغريده لو كف عن السير.

**قال لها: «تعالي لرؤيتي في ما بعد؛ طبعاً بعدما تستقر مادلين».**

**فأحبت النعومة التي غمرت صوته وهو يتحدث إليها هذه المرة.**

**ثم قال: «أراك بعد قليل».**

**وحينما استدار ليذهب إلى مكتبه، كادت بيتي تصرخ، لكنها لم تفعل، بل هرعت إلى المطبخ واتجهت مباشرة نحو إيفي التي بادرتها بالسؤال:**

**«بيتي، ما الذي تفعلينه هنا بحق الله؟!».**

**فهزت بيتي كتفيها في محاولة منها لتبدي أنها غير مكترثة وقالت: «أبحث عن المزيد من الكعك».**

**سألتها إيفي: «وما الذي يجعلك تبتسمين هذه الابتسامة البلهاء؟».**

**عندها، أعادت بيتي شفتيها إلى وضعهما الطبيعي في محاولة منها لإعادة فمها لاستقامته، ثم ردت:**

**«لا شيء. كل ما هنالك أنني سعيدة بوجود صديقاتي هنا، هذا كل ما في الأمر».**

**إلا أن إيفي بدا عليها الشك في أمرها، ولكنها لم تسألها أي سؤال بعد ذلك، بل قالت لها:**

**«لقد صنعت لكنّ فطيرة بالكرز أيتها الفتيات، لذا ما عليك سوى أن تحملي القشدة والأطباق، أما أنا فسأكون عندك ومعي الفطيرة خلال دقائق معدودة».**

**عندها، كانت بيتي بحاجة لكل الهدوء ورباطة الجأش اللذين تتمتع بهما لتسير برزانة واتزان وتخرج من المطبخ؛ وذلك لأن قلبها كان لا يزال يرفرف ويخفق داخل صدرها وكأنه على وشك أن يقفز منه.**

**كانت قد أحبت شارلي، ولا تزال تحبه، وستبقى كذلك، إلاّ أن إحساسها هذه المرة كان مختلفاً.**

**فقد رحل شارلي، كما أن مشاعرها تجاه لوكا كانت حقيقية، إذ لم تغرق بحبه، ولم تغرم به منذ النظرة الأولى كما حدث مع شارلي، لكن مشاعرها كانت في أوجها كما كانت مع شارلي. كانت تثق بلوكا، كما كانت معجبة به، وتحترمه.**

**قد يكون انجذابها إليه قد طبخ على نار هادئة، إلاّ أن مشاعرها نحوه في تلك اللحظات كانت أقرب إلى الحب الذي لم تكن تتخيل أنها قد تحس به مرة أخرى على الإطلاق.**

*******

**أصبحت مادلين هادئة، إذ بدأت تحس أنها بأمان، ولذلك استرخت بعد طول توتر.**

**لقد ظلت تشعر بالتعاسة والضيق لفترة طويلة، لدرجة أنها لم تعد تتذكر متى كانت تحس أنها بخير. غير أنها كانت تعرف أن ذلك لم يمضِ عليه فترة طويلة أيضاً؛ إذ لم يكن قد مضى على إبحارهن إلى هذه البلاد سوى أقل من سنة، وذلك حينما كانت كل واحدة منهن تتأمل الخير وتحلم بذلك.**

**أخذت تنظر إلى النسوة الثلاث اللواتي جلسن ضمن نصف دائرة حولها، وأحست بأن وجودها معهن أمر في غاية الروعة؛ لأنه بات بوسعها أن تكون على طبيعتها، وأن تتخلى عن القلق حيال ما يجب عليها القيام به، وكيفية حكم الآخرين عليها؛ مع التفكير بعمق في ما يمكنها فعله**

لتهرب مما كانت تقاسيه.

غير أن مادلين لم تكن تعرف بالضبط كيف يمكنها أن تعود لبلادها، ولكن كان عليها أن تجد طريقة للقيام بذلك، وخاصة بعد أن أصبح ذلك ممكناً.

وفجأة، صاحت جون: «أعتقد أنه من الأفضل أن أكون في طريقي إلى بيتي الآن».

فنظرت مادلين إليها، إذ لم تكن تريد أن تودع صديقاتها، غير أن الجو أصبح بارداً بعدما غابت الشمس وأخذت غيوم الليل تلوح من بعيد.

وقفت أليس وعانقت جون عناقاً شديداً، ثم سألتها:

«كيف ستعودين إلى بيتك؟».

فضحكت جون وقالت: «أتصدقين أن إيدي قد علمني قيادة السيارة؟ لقد تركت سيارته أمام المدخل الأمامي للبيت. وإن كنت تثقين بي فبوسعي أن أوصلك إلى بيتك بأمان».

فنفضت أليس رأسها وقالت: «أنت! تقودين سيارة!».

حاولت مادلين أن تتجاهل الدموع التي تجمعت في عينيها بينما كانت صديقتاها تثرثران، كما كانت بيتي تنظر إليهما أيضاً، لكن السعادة كانت بادية عليها، أي أن وضعها كان مختلفاً عن وضع مادلين.

وهكذا، أحست مادلين بأن هذه المرة ستكون الأخيرة التي ترى فيها جون وأليس، أي أنها آخر مرة تنعم فيها بصحبة الفتيات.

وإن كانت بيتي على استعداد لمساعدتها، فعندها يمكنها أن تعود لبلادها قبل أن تتسنى لها فرصة لقائهما مرة أخرى.

«مادلين؟».

هتفت جون التي كانت واقفة أمامها.

فاعترفت مادلين بالقول: «إنها مجرد أحلام يقظة. آسفة، ما الذي فاتني؟».

ردت جون: «كنت أقول إنني أتمنى منكن أن تأتين جميعاً لزيارتي، ويمكننا أن نتناول طعام الغداء معاً، ما رأيكن؟ إن إيدي يتحرق شوقاً للقائكن، وعندها يمكنكنّ أن تشاهدن بيتي».

فابتسمت مادلين لأن هذا كل ما كان بوسعها فعله؛ إذ لم تكن تريد أن تقطع على نفسها وعوداً طالما أنها لن تبقى في هذه البلاد، ثم إنها لم تكن تدري كم سيتطلب منها الأمر من وقت، ولكنها كانت تريد أن تغادر بأقصى سرعة ممكنة. ولهذا قالت بعدما دمعت عيناها مرة أخرى: «سأشتاق إليكنّ يا فتيات. ولكم كنت أتمنى أن أرى بيتك يا جون لو كان بوسعي ذلك، لذا ما علينا إلاّ أن ننتظر، وسنرى ما الذي سيحدث».

فما كان من أليس إلاّ أن تقدمت نحوها وعانقتها، ثم أخذت تحدق بعينيها مباشرة وهي تمسك بها بعدما أصبحت بين ذراعيها: «هل أنت جادة في ما تقولينه؟ هل تريدين أن تعودي للوطن فعلاً؟».

عندها، أغمضت مادلين عينيها وتنفست بعمق ثم قالت: «لقد كرهت هذه البلاد يا أليس، كرهتها. ولهذا إن استطعت أن أعود، فسأعود».

عند ذلك، بدت على وجه أليس أمارات التفهم وقالت: «أتمنى لو كان باستطاعتي

مساعدتك، لكننا بالكاد نستطيع أن نتدبر أمورنا، إذ كانت الظروف... حسناً، قاسية علينا».

كانت أليس لا تزال تتكتم على سر معين. وبالرغم من أن تكتمها كان واضحاً، إلاّ أن مادلين لم تكن تود أن تسألها، أو أن تتطفل على حياتها، إذ كانت لكل واحدة أسرارها، ولهذا قالت لها:

«سأتدبر أمري يا أليس، ولهذا ما عليك سوى أن تركزي على سعادتك، أليس كذلك؟».

عند ذلك، ابتعدت أليس عنها لتفسح المجال لجون التي أتت لتعانقها هي أيضاً.

ثم تنهدت أليس وقالت: «أعرف أن ما سأقوله سيكون سخيفاً، لا سيما بعد غيابنا عن بعضنا كل تلك الفترة، لكنني سأشتاق إليك يا مادلين، سأشتاق إليك جداً. يبدو وكأننا قد وجدنا بعضنا أخيراً، ولكن بعد فوات الأوان. إذ كان من الممكن أن نقدِّم لك المساعدة قبل وصولك إلى هذه النتيجة لو عرفنا بأمرك. ولعله كان باستطاعتنا أن نتجاوز تلك المرحلة بشكل أسهل لو تواصلنا مع بعضنا».

كانت مادلين تشك في أنهن كن سيتمكنّ من تقديم المساعدة لها، ولكنها أحست بالمشاعر ذاتها فقالت: «كيف يمكنك أن تشتاقي لإنسانة عاشرتها لمدة أسبوعين لا أكثر، ولم تريها منذ بضعة أشهر؟».

فلكزتها بيتي وقالت: «يبدو ذلك شبيهاً بحالة الزواج».

فضحكن جميعاً.

ثم قالت جون: «وصلت الفكرة. إذاً، هذا يعني أنني لم أكن متعاطفة معكن في هذه الحالة، أليس كذلك؟».

فهزت مادلين رأسها نافية، وكذلك فعلت صديقتاها الأخريان.

ثم حملت ابنتها من المهد الصغير وأخذت تداعب خدها وتقول: «علي أن أحمل شارلوت إلى البيت بعد إذنكن، فأنا لا أكون بخير خلال لحظات الوداع».

عندها، لمست جون كتف مادلين ثم سارت متجاوزة إياها، أما أليس فاكتفت بابتسامة، وأشارت بيتي لها نحو البيت وهي تقول:

«ما عليك سوى أن تنادي إيفي وستأخذك إلى غرفتك، كما ستساعدك في ترتيب أغراضك فيها».

ردت مادلين وهي تحبس أنفاسها لتمنع نفسها من البكاء أثناء ذهابهما: «وداعاً».

فهتفت جون: «لن ننساك يا مادلين».

عندها، التفتت مادلين ثم أسرعت نحو البيت بعدما ضمت شارلوت إلى صدرها، ثم أخذت الدموع تتساقط على وجنتيها. أما أنفاسها فخرجت كشهقات نحيب ممزقة، ومع ذلك أرغمت نفسها على السير.

وأخذت تفكر في سرها وتقول: سأشتاق لكنّ أنا أيضاً.

فقد كنّ خير صديقات، وأفضل صديقات تعرفت عليهن في حياتها. إذ لو لم تكن تعرفهن، لكانت قد استسلمت وتقبلت حالة الشقاء التي كانت ستعيشها مع عائلة روي. بيد أن مقارعة الظروف تحتاج لقوة كبيرة.

إلا أن حملها ابنتها وثقلها على ذراعيها جعلها تفكر بطريقة مختلفة؛ إذ لعل بيتي هي الإنسانة الوحيدة التي يمكنها أن تساعدها على الهروب، لكن مادلين كانت ستقدم على ذلك من أجلها

**ومن أجل طفلتها.**

**إذاً، حان وقت العودة إلى حضن الوطن.**

# الفصل الرابع

# والثلاثون

طرقت بيتي على الباب بكل نعومة، فجاءها الرد: «إنه مفتوح».

فدفعت الباب حتى انفتح أمامها، ثم دخلت. فحتى بعد مرور كل تلك المدة التي عاشت فيها في هذا البيت، كانت هذه هي المرة الأولى التي تطأ فيها مكتب لوكا. وهناك رأت مكتباً قديماً ضخماً كان قد وضع فوق الأرضية، بينما رصت رفوف تغص بالكتب على حائطين من جدران الغرفة الأربعة.

هتفت بيتي: «لم أشأ أن أزعجك».

غير أن لوكا واصل الكتابة، إذ كانت يده تتحرك بسرعة وهو يعد أوراقه وملاحظاته، وذلك قبل أن يضع القلم جانباً، ثم يضغط براحتيه على المكتب ليقف منتصباً.

قال لها وهو يبتعد عن مكتبه ويخطو باتجاهها خطوتين، وذلك قبل أن يتكئ على حافة المكتب: «إنك لا تزعجينني. ثم إنه من الممتع أن يقوم أحد بإلهائي».

عندها، لم تجد بيتي جواباً؛ إذ لم تكن الأجواء بينهما محرجة في السابق كما أصبحت عليه اليوم، إلاّ أن هذا الإحراج كان من نوع آخر، فقد كان مشحوناً بالرغبة والقوة، وهذا ما جعلها غير واثقة بنفسها، كما أصبحت متوترة حيال ما يجب عليها القيام به والطريقة التي يجب أن تتصرف بها. أجل، لم تكن واثقة من مشاعرها، أو لعلها لم تكن تريد أن تعترف بمشاعرها بصراحة.

هتفت: «لقد كنت... آه، كنت أريد أن أخبرك بأن مادلين قد استقرت في إحدى الغرف المخصصة للضيوف، وستقيم هنا إلى أن نعرف ما بوسعنا فعله بالضبط بخصوص موضوعها».

أخذ لوكا يحدق بها برزانة ثم سألها: «وما الذي تريد أن تفعله؟».

ردت بيتي دون أي تفكير: «تريد أن تعود إلى لندن بالتأكيد. تريد أن تأخذ شارلوت معها وتعود إلى أهلها».

فاستند لوكا إلى مكتبه مجدداً وهو يقول: «فهمت. ولكن، ما الذي سيقوله زوجها إن حدث ذلك؟».

عندها، أصبح من واجبها أن تطلعه على الحقيقة؛ إذ كانت فاشلة في الكذب طيلة حياتها، ولم تكن هذه هي الفرصة المناسبة لتجرب حظها مع الكذب، فقالت:

«لقد عاملها زوجها وأهله معاملة سيئة. إنها حكاية طويلة. وباختصار، يمكنني أن أقول لك إنهم لم يسمحوا لها حتى بأن تعرف أن والدها كان يحتضر، ولهذا فهي تريد أن تهرب، فقد طالها الظلم من النواحي كافة».

توقعت بيتي من لوكا أن يقوم بزجرها إن قالت له ذلك، كما توقعت منه أن يقول لها إن مادلين مسؤولة أمام زوجها، وإنه ليس باستطاعتها هجره والهروب بالطفلة. ولكنه لم يفعل كل هذا، بل سألها:

«وما رأيك؟».

فردت: «بماذا؟».

فقال: «ما رأيك حيال ما يتعين عليها القيام به؟ وهل تعتقدين أنه من واجبنا مساعدتها في عودتها إلى لندن؟».

عندها، أحست بيتي بالارتباك، ولكنها ردت بالقول:

«يمكنك أن تساعدها بالعودة إلى عائلتها، أليس كذلك؟».

فهز لوكا رأسه نافياً وقال: «أسألك عن رأيك أنت».

أخذت تتبعه بنظراتها عندما توجّه نحو خزانة جانبية وأخرج منها كأسين صغيرتين، ثم صب كمية قليلة من الشراب في إحداهما، وكمية أكبر في الكأس الأخرى.

بعد ذلك سار نحوها، فالتقت عيناه عينيها دون أن يعطيها أي مجال لتبعد نظراتها عنه، ثم قدّم لها الكأس التي تحتوي على كمية صغيرة. ودّت حينها أن ترفض، ولكنّ أسلوبه في تقديمها لها ونظرة الوعد التي كشفت عنها ابتسامته منعاها من النطق بأي كلمة.

قال لها: «لو كنت مكانك، ترى ما الذي كنت سأفعله؟». فبدا صوته أكثر نعومة هذه المرة، وكأنه كان يسألها عن شيء شخصي وغاية في الخصوصية.

تناولت منه الكأس فملأت رائحة الشراب أنفها، ثم قالت له:

«لو سمعتَ منها ما فعله بها يا لوكا لما فكرت بها بطريقة سيئة». ثم أخذت تراقبه وهو يفرغ ثلث الكأس على الأقل في معدته، وبعدها تابعت قائلة: «لو كنت مكانها، لكنت قد هربت أنا أيضاً».

فما كان منه إلاّ أن رفع كأسه ثم مال نحوها لتقوم بالمثل، فجعلت الكأس تلامس فمها، ثم سمحت لقطرة من الشراب أن تسقط على لسانها، ولكن حتى الكمية القليلة منه أحرقت حلقها أثناء تجرعها. لم تستطع أن تميز نوعه، إلاّ أن تمييزها له لم يكن ليساعدها على تجرعه؛ إذ كانت رائحته كافية كي تشعر بالدوار.

اقترب منها أكثر، حيث أصبح جسده قريباً منها للغاية ليريحها وهو يقول: «وكيف تشعرين الآن؟ هل ترغبين بالرحيل؟».

كلا، لم تكن تريد أن تتركه، لكنها لم تكن تستطيع أن تعبر له عن ذلك، ولهذا هزت رأسها نافية.

سألها: «هل أنت متأكدة؟».

ثم أمسك بذقنها ورفع وجهها نحوه، فأجبرها على النظر إليه.

فهمست بالكلام همساً حينما قالت: «أجل، أنا متأكدة من ذلك».

كانت بيتي تريد منه أن يقبلها، وكانت واثقة من أنه كان على وشك تقبيلها، ولكنه امتنع عن ذلك حال ملامسته لها، ثم أبعد يده عنها، وقال:

«أخبري مادلين بأننا سنوفر لها كل المساعدة المالية التي تحتاج إليها». ثم أمسك كأسه وتجرع ما تبقى فيها من شراب، وبعدها قال لها: «ثم قومي بكل الترتيبات التي ترينها ضرورية لمساعدتها في السفر على متن أي سفينة عائدة إلى لندن. واتصلي بجين في بيتها، وأخبريها بأن تقوم بكل الترتيبات اللازمة بمجرد وصولها إلى المكتب في الصباح».

غير أن بيتي لم تستطع أن تصدق ذلك. أجل، لم تستطع أن تصدق أن شيئاً ما كان على وشك الحدوث بينهما، وأنه على استعداد لمساعدة إحدى صديقاتها، صديقة لم يسبق له أن التقاها في حياته قبل ذلك اليوم.

فردت عليه بالقول: «أشكرك يا لوكا، أشكرك من صميم قلبي».

عندها توقّف، ثم أخذ يراقبها وكأنه لا يزال يريد أن يقول لها شيئاً، أو يرغب في أن يخبرها بشيء ما.

لكنه قال لها أخيراً: «ليلة سعيدة يا بيتي».

ثم تقدّم منها خطوة، وانحنى نحوها، وطبع قبلة على وجنتها.

غير أن شفتيه تريثتا قليلاً، وتباطأتا فوق بشرتها، ولكنهما لم تبتعدا عن ذلك الموضع. أخذت الحرارة تلفح وجنتَي بيتي، ومع ذلك بقيت جامدة في مكانها، وهي تتمنى أن يقبلها، وأن يعترف كل منهما بمشاعره تجاه الآخر.

لكن لوكا انسحب.

فهمست: «ليلة سعيدة!».

ثم أخذ كل منهما يراقب الآخر، إلى أن ابتسم لها أخيراً ابتسامة حزينة؛ وذلك قبل أن يعود لمقعده خلف المكتب. أما بيتي فقد أخذت تسير بسرعة؛ لأنها كانت تريد أن تخرج من مكتبه بسرعة.

وهنا سمعته ينادي: «بيتي؟».

توقفت حينما سمعت اسمها، ثم أخذت تنظر إليه.

فقال لها: «سررت لأنك استمتعت في يومك هذا بصحبة صديقاتك».

فتريثت، وسمعته يقول:

«يمكنك دعوتهن لزيارتك متى شئت. وأريد منك أن تشعري أن هذا البيت بيتك أنت أيضاً».

ابتسمت له بيتي رداً على ذلك.

فقد كانت تحس بأنها في بيتها بالفعل، إلاّ أن كل ما كانت تتمناه في ذلك الحين هو أن يفهم مشاعرها تجاهه، كما كانت تتمنى أن تتحلى بالشجاعة الكافية لتعبّر له عن كل مشاعرها.

لكنها لم تكن تتحلى بتلك الشجاعة، ويبدو أنها لم تكن لتتحلى بها مطلقاً.

***

وبمنتهى الغرابة، شعرت بيتي بقلق أكبر عند محاولتها قرع باب غرفة مادلين، مقارنة بقلقها حينما طرقت باب لوكا؛ إذ لم تكن تريد أن تودّع صديقتها، وخاصة بعدما وجدت كل منهما الأخرى لتوها، لكنها كانت تريد مساعدتها.

كانت بيتي قد أمضت فترة طويلة في الشعور بالكمد والحزن بدون شارلي، ولهذا كانت تعرف ما يعنيه أن يفقد المرء الأمل. إلاّ أن لوكا وقف إلى جانبها؛ حتى قبل ارتباطهما عاطفياً ببعضهما، فقد كان سنداً وحامياً لها، والآن يسعى هذا الرجل لمساعدة صديقتها أيضاً.

ثمة إحساس داخلي لديها يقول لها إنه كان سيفعل هذا من أجلها؛ لأنه كان يعرف أن الأمر يعني لها الكثير. ولكنها كانت تعرف أيضاً أن الأمر يحتاج لنوع معين من الرجال ليوافق على القيام

بما كانتا ستقومان به؛ أي مساعدة امرأة على الهروب من زوجها. ولهذا كانت تشعر بالامتنان له؛ مهما اختلفت الأسباب التي دفعته للقيام بذلك.

هتفت عند الباب: «مادلين، هل أنت مستيقظة؟».

لم يكن الوقت متأخراً، ولكن يومهما كان حافلاً.

فأتاها صوت مادلين: «تفضلي بالدخول!».

فتحت بيتي الباب لتجد مادلين جالسة على السرير، إذ كانت ترضع صغيرتها.

عندها، ابتسمت لها مادلين وقالت: «إنه لأمر مميز للغاية، ألا تعتقدين ذلك؟ أعني تمضية الوقت بجانب الأطفال وهم يرضعون».

كانت السعادة والرضى باديين على وجهها بعدما استقرت في هذا المكان؛ إذ كانت قد انتقلت من حالة الاستسلام إلى الحزن، ومن ثم الخوف في صباح ذلك اليوم، لتعيش في هذه اللحظات حالة من السلام الداخلي.

هتفت مادلين: «أحبها كثيراً يا بيتي. أهذا ما تحسين به تجاه ويليام؟ أعني أنه ليس بوسعك أن تحبيه أكثر من ذلك مهما حاولت، أليس كذلك؟».

عند ذلك، جلست بيتي على حافة السرير وقالت: «وكأنك لم تتخيلي يوماً أن تحبي شيئاً ما أو شخصاً ما كما تحبين طفلك، أهذا ما تعنينه؟».

بدا على مادلين الارتياح لوجود إنسان يفهمها ويدرك مشاعرها.

وقالت: «أعرف أنني أريد أن أذهب وأهرب من هنا، ولكنني بمجرد أن أحمل طفلتي أحس بأنني أصبحت عازمة أكثر على ما قررت القيام به».

كانت بيتي تدرك تماماً ما يعنيه ذلك الشعور، ولكن بطريقة مختلفة.

ولهذا اعترفت لها بالقول: «لولا ويليام، لما تمكّنت من البقاء على قيد الحياة بعد فقداني شارلي، بل كان عليّ أن أنتقل وأبتعد. أي لولا ويليام لأحسست بأن شيئاً ما في داخلي قد مات وانكسر للأبد».

فما كان من مادلين إلاّ أن هتفت بصوت منخفض: «وماذا عن لوكا؟ حدث بينكما شيء للتو، أليس كذلك؟».

احتارت بيتي في ما ينبغي لها أن تجيبها به، ولكنها ردّت أخيراً: «لست أدري ما الذي حدث؛ هذا إن حدث شيء ما أصلاً، ولكنني أعتقد أن شيئاً ما سيحدث». ثم صمتت لفترة قصيرة؛ لأنها كانت تودّ أن تطلعها على الحقيقة، وبعد ذلك قالت لها: «أتمنى لذلك أن يحدث».

فردت عليها مادلين بالقول: «إن كنت تحبينه، فلا تكتمي مشاعرك يا بيتي. عديني بذلك، هيا». وهنا، كانت عينا مادلين تنتقلان بين صغيرتها التي ترضع وبين بيتي، إلاّ أن تعابير وجهها كانت جدية، ثم تابعت قائلة: «إن كان هذا سيسعدك أنت وويليام، وإن كان هذا هو الشيء الصحيح الذي ينبغي القيام به، إذاً يجب عليك ألا تشعري بالخزي تجاهه. بل عليك أن تشكري الله لأنه منحك فرصة أخرى للشعور بالحب، والسعادة».

كانت أشهر طويلة قد مرت على بيتي وهي تبحث في أعماق روحها عن جواب، وتحاول أن تقنع نفسها بأنها لن تنسى شارلي إن تابعت حياتها، إلاّ أنها كانت توافق مادلين الرأي في كل ما قالته؛ إذ لم يكن لوكا مجرد رجل كغيره من الرجال، بل كان شقيق شارلي وعمّ ويليام، وكانت لا تزال

باقية على عهد شارلي. ولو كان شارلي معها لكان قد تمنى لها السعادة، ثم إن لوكا يدرك مدى حبها لشقيقه، فهي لم تكذب عليه بخصوص ذلك الموضوع.

ولكن، حان الوقت للحديث عن وضع مادلين، وعمّا يمكنهما فعله لمساعدتها.

وهذا ما دفعها للقول: «لدي أنباء سارة لك يا مادز، لذا اعتبري أنك وجدت فرصتك الثانية هذه الليلة، ولست أنا من وجد تلك الفرصة».

ردت مادلين: «أتحاولين أن تغيري الموضوع؟».

كانت مادلين تحاول أن تمازحها، إلاّ أنه كان بوسع بيتي أن ترى بريق الأمل في عينيها، وهذا ما دفعها للقول:

«لقد فرغت للتو من الحديث مع أمينة السر التي تعمل في مكتب لوكا، وقد تمكنت من إيجاد سفينة ستبحر إلى إنكلترا في غضون خمسة أيام».

عندها، حبست مادلين أنفاسها، فأخذت بيتي تتكلم بسرعة قائلة:

«إن كنت قد عزمت على الرحيل، فعندها سنرسلك مع السائق إلى محطة القطار غداً، ثم عليك أن تجتازي مسافة قصيرة لتصلي إلى الميناء وتقيمي في مسكن هناك بينما تقوم جين بإعداد الترتيبات اللازمة من أجل سفرك. ثم إن جين تعتقد أنه من الأفضل لك أن تسافري في أسرع وقت ممكن؛ وذلك لأننا لم نتأكد بعد إن كان يجب علينا أن نقابل أشخاصاً معينين لتسهيل سفرك، كما لم نطّلع بعد على الشروط اللازمة للحصول على سمة الدخول. لذا، إن هذا الوقت يكفيك لترتبي أمورك ريثما يتم إنهاء المعاملة اللازمة قبل إبحار السفينة».

عند ذلك، أخذت بيتي تراقب وجه مادلين وهو يتجهم؛ لأنها لم تطلعها بالطبع على المساعدة المالية التي يعتزم لوكا منحها إياها، فبادرتها بالقول:

«لقد تحدثت إلى لوكا حول ذلك، وأخبرني أنه على استعداد لتغطية تكاليف عودتك إلى إنكلترا، وكذلك تكاليف سفرك هنا وإقامتك إلى حين السفر، لذا لا تقلقي بخصوص أي شيء».

عند ذلك، شرعت مادلين بالبكاء، وأخذ جسدها يهتز ويداها ترتجفان وهي تحمل صغيرتها التي نامت، فأبعدتها عن صدرها ووضعتها في سريرها.

تركتها بيتي تقوم بذلك لبعض الوقت قبل أن تتقدم نحوها وتحتضنها. لكنها بقيت صامتة وساكنة، حتى بعدما عانقت صديقتها. كان جسد مادلين هزيلاً ونحيلاً، إلاّ أن به قوة لا يمكن لجذوتها أن تنطفئ.

قطعت بيتي الصمت بقولها: «أعرف أنك تشعرين بالخزي لأن لوكا سيقدم لك المساعدة، ولكنه يقوم بذلك من أجلي أيضاً يا مادلين؛ إذ أعتقد أنه يحاول أن يظهر لي اهتمامه بي كي أثق به».

وهذا ما جعل مادلين تشدها إليها أكثر.

فتابعت بيتي قائلة: «لا تشعري بأنك مدينة لنا بأي شيء سوى الصداقة. فأنا أعلم أنك كنت ستقومين بالمثل تجاهي لو اضطررت لذلك، ولو كان بوسعك تقديم المساعدة».

عندها، تراجعت مادلين للوراء فظهرت عيناها الحمراوان، وبشرتها التي انتشرت فوقها بقع، ثم قالت:

«سأشتاق إليك كثيراً يا بيتي، فأنت صديقة حقيقية».

**فما كان من بيتي إلاّ أن ضمتها إليها من جديد، وأخذت تحدثها قائلة:**

**«لقد كنت شابة خائفة من الحمل، ثم التقيت ثلاث صديقات قمن برعايتي خلال الأوقات العصيبة، كما ساعدنني أثناء ولادة الطفل». ثم مسحت بيتي دموعها بإحدى يديها، إلاّ أن تلك الدموع لم تكن دموع حزن، بل كانت تعبيراً عن العرفان والامتنان بعد استعادتها تلك الذكرى التي لا يمكنها أن تنساها، وبعدها تابعت قائلة: «في تلك الرحلة تعلّمت كيف تكون الصديقة الحقيقية، وقد كنتِ أنت إحدى صديقاتي الصدوقات».**

**فسألتها مادلين: «وهل هذا يعني أنه من السهل عليّ أن أتركك بعد كل هذا؟».**

**فردت بيتي: «لا بد لكل منا أن تترك صديقتها لتعيش حياتها؛ إلاّ أن الصديقة الحقيقية تتفهم ذلك بكل سعة صدر».**

**وهكذا، أعربت ابتسامة مادلين الشجاعة عن تفهّمها كل ذلك.**

**فصاحت بيتي: «والآن، عليك أن تنامي جيداً هذه الليلة؛ إذ ستنطلقين غداً، وستكونين بحاجة لكامل قوتك كي تسافري مع طفلة صغيرة».**

**ردت مادلين: «أشكرك يا بيتي، أشكرك من أعماق قلبي».**

**قالت بيتي: «ليلة سعيدة وأحلاماً هانئة يا مادلين».**

**وبعد ذلك، غادرت الغرفة وأغلقت الباب ووقفت في الممر، ثم استندت إلى الجدار وأغمضت عينيها، وأخذت تقنع نفسها بأنها ومادلين ستكونان بخير.**

**ولو أراد لوكا أن يصبح جزءاً من مستقبلها، وكان راغباً بها كما يرغب أي رجل بامرأة، فعندها ستوافق على ذلك، وستقول له إنها تحس بالإحساس نفسه تجاهه؛ وذلك لأنها تستحق السعادة فعلاً. وبالرغم من أنها لا تزال تحب شارلي، إلاّ أن قلبها كان يتسع للوكا أيضاً.**

# الفصل الخامس

# والثلاثون

كانت قد استعدت للأسوأ، إلاّ أنّ هذا لم يرح أعصابها مطلقاً.

جلست جون بعدما وضعت ساقاً فوق أخرى تنتظر عودة الطبيب إلى الغرفة. إذ كانت قد أخبرت إيدي أنه لا داعي لحضوره لأن الموضوع يخص النساء فحسب، إلاّ أنه كان يجدر بها ألا تكون مغرورة إلى هذه الدرجة، أو لعله كان يتعين عليها أن تطلب من بيتي أن تأتي معها لتدعمها فقط؛ فبيتي أفضل شخص يمكنها أن تطلب منه هذه الخدمة.

هتف الطبيب: «سيدة ويست؟».

فنظرت إليه وهي تحسّ بانقباض في معدتها، إن كان يمكن لذلك أن يحدث أصلاً.

وردت: «نعم، هذه أنا».

فابتسم لها الطبيب، إلاّ أن ذلك لم يرح أعصابها إلا قليلاً. إذ كان الطبيب في منتصف العمر، وكان يضع نظارة، وقد غزا الشيب رأسه؛ أي أنه لم يكن ذلك الشخص الذي كانت تتمنى أن يفحصها، إن كان عليه أن يقوم بذلك.

ثم بدأت جون ترتعد. لعله كان يجدر بها ألا تأتي، وأن تحتفظ بالسر لنفسها، وتواصل المحاولة. ثم ألم يقل لها إيدي إنه عليها أن تصبر أكثر؟

سألها الطبيب: «ما الذي يمكنني أن أساعدك به اليوم؟».

فأخذت جون تتلوى فوق مقعدها، ثم قالت:

«إنها مسألة، آه... حساسة بعض الشيء». ثم رفعت بصرها، وحين رأت أن تعابير وجهه لم تتغير تابعت قائلة: «إنه... حسناً... أنا وزوجي نرغب بأن يكون لدينا أولاد، ولكننا لم نفلح في تحقيق ذلك».

عند ذلك، كان بوسع جون أن تحس بلهيب خديها اللذين تحول لونهما إلى الأحمر الداكن.

رد الطبيب: «يمكننا أن نجري فحصاً للدم وأن نتحقق من صحتك عموماً يا سيدة ويست، إلاّ أن المسألة قد تحتاج إلى وقت في بعض الأحيان».

فهزت بيتي رأسها وقالت:

«أتفهم ذلك. إن المسألة فقط... إنني لست متأكدة إن...»

فابتسم الطبيب واقترب بكرسيه منها ثم قال:

«تبدين مناسبة لذلك؛ فأنت صبية شابة وتتمتعين بصحة جيدة، وأنا على يقين من أنك لا تعانين من أي شيء كي تقلقي بشأنه. ولكن، كم مضى من الوقت وأنت تحلمين بالحمل؟».

ردت: «مرت عليّ عشرة شهور في هذه البلاد. فقد تزوجنا في إنكلترا خلال فترة الحرب».

فهز الطبيب برأسه وقال: «ما عليك سوى أن تعطي الموضوع حقه من الوقت يا عزيزتي. فإن بقيت بلا ولد لسنة أخرى أو أكثر، عندها سنبحث في ما يمكننا أن نقوم به حيال ذلك».

**لسنة أخرى! سنة أخرى أو أكثر؟ كانت تريد أن تكوّن أسرة على الفور؛ كانت تريد أطفالاً ليملأوا غرف النوم ويلعبوا في البيت، وليخرجوا إلى الحقول، ولينتظروا بلهفة في المطبخ حتى تخرج لهم الكعك من الفرن.**

**كانت تريد طفلاً في الحال!**

**لذا قالت للطبيب: «أشكرك على وقتك يا دكتور، وسأعمل بنصيحتك، وسأعود إليك إن بقينا نعاني من المشكلة ذاتها».**

**فردّ عليها بالقول: «لا تنسي اختبارات الدم يا سيدة ويست. إذ يمكننا أن نجري تلك الاختبارات الآن على الأقل».**

**فجاءه ردها: «كلا». ثم أخذت تهز برأسها وتجمع أغراضها وهي تقول: «إنني أشعر بأن صحتي على خير ما يرام، وكان يجدر بي ألا آتي إلى هنا أصلاً».**

**عندها، بدا على الطبيب الارتباك، غير أنه أرشدها إلى الباب لتخرج.**

**كانت جون تعرف ما الذي عليها فعله.**

**فإن كانت تريد أن تكوّن أسرة، عندها يجب عليها أن تتصرف على الفور؛ إذ إن الأمومة بالنسبة لها أهم شيء في العالم بأسره، لذا لم تكن تريد أن تجلس وتنتظر إلى أن يتم ذلك، وخاصة أنها تحس في أعماقها بأن ثمة مشكلة ما، وبأنها لن تحمل بسرعة.**

# الفصل السادس

# والثلاثون

أصبح الأمر روتينياً؛ حيث كانت بيتي تنزل من غرفتها حينما يكون لوكا قد وصل إلى منتصف وجبة فطوره. يومها قدم لها جزءاً من الجريدة، ولاحت آثار ابتسامة على وجهه حينما نظر إليها. ثم حملت لها إيفي شريحتين من الخبز المحمص مع فنجان من القهوة، فجلست، وأخذت تتظاهر بأنها كانت تقرأ الجريدة، في الوقت الذي كانت فيه تتفحص وجه لوكا خلسة.

كان بارداً خلال أول لقاء لهما، إذ كانت نظراته التي أخذ يحدق بها من خلالها تبدو وكأنها تصدر أحكاماً عليها، وتشكك بأمرها. أما الآن، فقد اختلف الأمر؛ إذ ظهر شيء آخر، شيء لم يقترب أي منهما من مجرد الاعتراف بوجوده.

إلا أنها كانت قد اعترفت بذلك لنفسها، ولجون أيضاً. ولكن، منذ أن رحلت صديقتها لم يحدث أي شيء بينهما، بل لم يحدث أي شيء على الإطلاق.

كانا يجلسان صامتين دوماً، إلاّ أن ذلك كان مريحاً بالنسبة لها؛ لأنها لم تكن تريد سماع أي ضجة تزعجها. وإن كان ويليام مستيقظاً، فإنها تحمله عادة ليلعب ضمن المساحة المخصصة لألعاب الأطفال ضمن القاعة التي كانت تجلس فيها صباحاً. وحينها، قد يقوم لوكا بمراقبة ابن أخيه الذي كان يبتسم له دوماً ويصفق بذراعيه ويرفعهما نحوه، كما كان يودعه حينما يذهب إلى عمله. وفي بعض الأحيان، كان لوكا يحمله أو يمسح على شعره، أو يعلّق بالقول إنه قد شارف على المشي، إلا أن الأمر لم يكن يتعدى تلك الحدود.

غير أنه نهض اليوم، ثم توقف ليطبع قبلة على جبهة ويليام بينما كان هذا الأخير يلعب بالمكعبات، ممّا أسعد بيتي. فقد رأت كم كان ويليام محبوباً، لا سيما من قبل عمّه؛ إذ كانت هنالك رابطة بينهما، وكانت تتمنى لتلك الرابطة أن تصبح أقوى وأكثر متانة، لذا لم تفكر مطلقاً بمغادرة أمريكا وحرمان ابنها من عمه الوحيد.

لكن لوكا فاجأها بالسؤال: «ما رأيك بأن نتناول طعام الغداء معاً اليوم يا بيتي؟».

فأمسكت بفنجانها قبل أن يسقط على الطاولة، وحاولت أن تبقي صوتها كالمعتاد حينما قالت:

«أوه بالطبع، أعتقد أن هذا سيكون رائعاً».

فوضع سترته على إحدى كتفيه، وأخذت عيناه تتفحصانها، ثم بدا وكأنه يبتسم لها، قبل أن يلتفت ويغادر وهو يقول:

«إذاً، نلتقي عند الساعة الثانية عشرة، ما رأيك؟».

فهزت بيتي برأسها موافقة، لأنها لم تستطع أن تحرك لسانها الذي أحست به وكأنه قد تضخم داخل فمها بعدما قامت نحلة بلسعه لسعات كثيرة.

أحقاً كان يريد أن يصطحبها لتناول الغداء في الخارج؟ هل كان هنالك شيء يود أن يقوله لها؟ أجل، فهنالك شيء ما يتعلق بالطريقة التي ينظر بها إليها، وبمدى شعوره بالاسترخاء عند ذلك. ولهذا، أحست بيتي بأن شيئاً ما قد تغير أو يوشك أن يتغير.

لم يسبق له أن تزوج، أليس كذلك؟ وهل كانت لديه حبيبة قد أخفى أمرها؟ وهل كان هذا هو السبب الذي منعه من التصريح عن مشاعره تجاهها؟ أو لعله قد ترقى في عمله؟ وهكذا، أخذت بيتي تعذب نفسها. فلو كان قد حصل على ترقية في عمله لكانت البلاد بأسرها قد علمت بذلك، إذ إنه ممثل الولاية في مجلس الشيوخ أصلاً.

وفجأة، سمعت بيتي أحداً ما يجرجر قدميه، فالتفتت لتجد إيفي وقد اتكأت على الباب المفتوح الذي يفضي إلى المطبخ، ثم قالت لها:

«لا بد لأي شخص أن يعتقد أنه كان يتغزل بك».

ردت: «إيفي!».

فما كان من تلك المرأة سوى أن هزت كتفيها بلا مبالاة وقالت: «كل ما أعرفه هو أنه قبل مجيئك كان يتناول فطوره بلمح البصر ثم يخرج من الباب مسرعاً». وهنا توقفت ورمت بيتي بنظرة العارف، ثم تابعت قائلة: «أما الآن، فقد أصبح يأخذ وقته، وينتظر إلى أن تنزلي، ثم يمكث لفترة أطول إلى أن ينهي قهوته؛ مقارنة بالفترة القصيرة التي كان يقضيها عادة لينهي وجبة كاملة».

عند ذلك، نهضت بيتي لتحمل ويليام الذي أصبح وزنه أثقل في ذلك الحين، ولكنها كانت لا تزال تحب أن تحمله وترفعه، ثم قالت له: «مرحباً يا حبيبي! لا تسمع كلام خالتك إيفي السخيفة».

فابتسم ويليام، ومد يده ليشد شعرها وهو يقول: «ماما... ماما».

فسألتها إيفي: «أسيكون الأمر مخزياً بالنسبة لك؟».

عندها، ضمّت بيتي ويليام إليها وأخذت تستنشق رائحة شعره العطرة، وذلك قبل أن تعيده إلى الأرض وتنظر إلى إيفي بحذر، ثم تقول:

«لست مستعدة لذلك يا إيفي، فأنا ما زلت أحب شارلي». ولكنها كانت تكذب على نفسها، إذ كانت لا تزال تحب شارلي، ولكنها مستعدة لذلك. أجل، كانت مستعدة لأي شيء يمكن أن يحدث مع لوكا.

ردت عليها إيفي بالقول: «لكن شارلي قد رحل يا حبيبتي، أما لوكا فما زال هنا. ثم إن الشيء الذي غاب عنكما ولم تتمكنا من رؤيته يمكنني أن أراه بأم عينيّ، فأنتما مناسبان لبعضكما».

عندها، حاولت بيتي أن تقاطعها، إلاّ أن إيفي منعتها من ذلك حينما رفعت يدها وتابعت:

«لقد فقدت زوجي منذ ثلاثين سنة، وكانت ابنتي حينها أكبر من ويليام بقليل، لكنني أعرف إحساس المرأة حينما تصبح وحيدة، وحين يتعين عليها أن تعيش في حزن بعد وفاة زوجها».

وهنا، التفتت بيتي لتقف أمامها وجهاً لوجه؛ إذ لمَ لم تقل لها إيفي هذا من قبل؟

سألتها: «كم دامت فترة زواجك؟».

ردت إيفي: «ست سنوات. لكن، اسمحي لي أن أقول لك شيئاً، إذ كان ثمة عدة رجال كان بوسعي أن أرتبط بأحدهم في ذلك الحين، وكانوا جميعاً سيشعرون بالفخر لمجرد ارتباطهم وزواجهم بي، إلا أنني سمحت للحزن بأن يحرمني من السعادة».

عند ذلك ابتلعت بيتي ريقها، إذ لم تكن تريد أن تسمع ذلك الكلام، ولكنها سمعته وانتهى الأمر، بل كانت بحاجة لسماعه.

تابعت إيفي قائلة: «وفي الوقت الذي أدركت فيه أنه من الأفضل لي ألا أبقى وحيدة، كنت قد

أصبحت عجوزاً، وضاعت زهرة شبابي».

وهكذا، بقيتا واقفتين، وأخذت كل منها تراقب الأخرى.

تابعت إيفي: «كل ما أود أن أقوله لك هو أنه إن كان لوكا يرغب بك وأنت ترغبين به، فلا تسمحي لذكرياتك مع شارلي بأن تمنعك من الشعور بالسعادة، ولا تكترثي بما يمكن أن يقوله الآخرون عنك؛ لأنكما شخصان طيبان، ولا بد لكما أن تكوِّنا معاً أسرة رائعة».

عند ذلك، اجتازت بيتي الغرفة لتعانق إيفي، فعانقتها هي أيضاً، وأحست بصدر إيفي وهو يضغط على صدرها كما كانت أمها تفعل بالضبط وهي تحاول أن تريحها. فخلال كل تلك السنوات التي مضت، وقبل أن يرحل والداها، كان العناق بهذه الطريقة يغنيها عن العالم بأسره.

لذا، لم يبعدها عن صدر إيفي سوى ابنها ويليام الذي بدأ يناديها ويقول:

«ماما... ماما».

فردت عليه: «تعال أيها الصغير، فقد حان موعد قيلولتك».

كان ويليام قد رفع ذراعيه نحوها، وكأنه كان على استعداد لتعانقه أمه وتقبله.

هتفت إيفي: «ما عليك يا بيتي سوى أن تستمتعي بحياتك، فهذا كل ما يجب عليك فعله. وإن حدث في حياتك شيء ما، فلا تقفي في طريقه؛ إذ من حقك أن تحلمي بالسعادة كما تعرفين».

وهنا، أخذت بيتي تهز برأسها ولكنها لم تنظر إلى إيفي؛ إذ لم تكن تريد لإيفي أن ترى الارتباك في عينيها، وذلك لأنها كانت تحب لوكا بالفعل، وكانت على استعداد للاعتراف بحبها له لو كان شيء ما على وشك أن يحدث بينهما في مكتبه الليلة، غير أنها كانت خائفة من الاعتراف بذلك في هذه اللحظات.

هل كان بوسعها أن تحب كليهما؟ هل كان بإمكانها أن تبقى على حبها لشارلي وأن تمنح لوكا قلبها في الوقت ذاته؟ وأن تضحي بقلبها مرة أخرى بعدما تعرضت لصدمة كسرت قلبها بشكل لا يمكن أن يجبر بعدها؟

وفجأة، وقعت عيناها على ابنها الذي أخذ ينظر إليها بكل براءة.

أجل، ويليام يستحق أن يكون لديه أب، ثم إن لوكا يحبه بجنون.

غير أنها لم تكن واثقة إن كان بوسعها أن تحب أحداً كما كانت تحب شارلي، وخاصة إن كان شقيقه، أو لعل ذلك ما كان يخيفها... ألا وهو أن تجرب الإحساس ذاته مع لوكا.

# الفصل السابع

# والثلاثون

جلست مادلين على ظهر السفينة وهي تحمل شارلوت بين ذراعيها، وسمحت لدفقة النسيم بأن تداعب بشرتها. كان الطقس بارداً، إلاّ أن الهواء الطلق كان رائعاً.

أخذت مادلين تهتف لابنتها وتقول: «لقد اقتربنا من هناك يا حبيبتي، وشارفنا على الوصول».

بدأت شارلوت تحدق بها، ولكنها لم تصدر أي صوت؛ باستثناء تلك الغرغرة الغريبة والصرخات الضعيفة التي كانت تطلقها، حتى حينما كانت وسط البحر.

كانت مادلين تأتي إلى هنا كل يوم، وتجلس على ظهر السفينة إن لم تكن السماء تمطر؛ إلاّ أن الأجواء لم تكن كما كانت في المرة السابقة. فحينها، كانت لديها صديقات تتحدث إليهن وتعتمد عليهن خلال الرحلة التي حملتها إلى تلك البلاد.

كان هنالك الكثير من الأشخاص على ظهر السفينة، ولكنها لم تكن تهتم بالتحدث إلى أي منهم أو إقامة علاقة صداقة مع أحدهم. إذ لم تكن تريد أن تشرح سبب عودتها إلى الوطن، كما لم تكن تريد أن تُصدِق أحداً القول عن رأيها بأمريكا، ولم تكن تريد أن تناقش سبب عدم وجودها بصحبة زوجها أثناء الرحلة. كانت مادلين راضية بالاكتفاء بحمل صغيرتها والغناء لها وهي قربها، والتفكير بعائلتها، وبما فعلته بيتي من أجلها، وكيف ساعدتها. وهكذا، بقيت الكلمات التي كتبتها في الرسالة التي وجهتها لروي وعائلته تدور في ذهنها، لتجعلها تفكر بكل ما قاسته وكم كانت شجاعة حينما قررت أن ترحل.

إلا أن صورة بيت أهلها– بردهته الصغيرة، وبحسيس ناره، وبرف الموقد الذي ملأته أمها بتماثيل صغيرة، وصخب بنات أخواتها– هي أكثر ما شغل تفكيرها وجعلها تبتسم. كانت تريد أن تبكي على فراق أبيها مع أسرتها، وأن يحيط بها أناس تحبهم.

أخرجت مادلين الرسالة من جيبها وأخذت تقرأ الكلام الذي كتبته فيها للمرة الأخيرة، إذ كانت قد قررت أن ترسلها فور وصولها إلى إنكلترا؛ أي بعد أن يتعذر على أي شخص أن يتّبع أي طريقة لثنيها عن تنفيذ ما خططت له. وبعد ذلك، قررت ألا تضيع أي لحظة أخرى في التفكير بزوجها.

عزيزي

.

.

.

**أخذت مادلين تمسح الدموع التي تجمعت فوق أهدابها، ثم أعادت الرسالة إلى جيبها، وضمت طفلتها بقوة إلى صدرها وهي تقول لها:**

**«إننا في طريقنا إلى بلادي يا شارلوت، لتري جدتك وخالاتك والبيت الذي ستشعرين فيه بالحب وبلمسات أفراد عائلة سيمنحونك الحب كل يوم».**

**أخذت شارلوت تحدق بأمها وهي تكلمها، وهذا ما جعل مادلين تحس بأن قلبها يكاد ينفطر لمجرد التحديق في ابنتها؛ إذ كان الحب الذي تكنه لها قوياً لدرجة جارحة.**

**لقد كان زواجها فاشلاً بالفعل، ولكنها أم عظيمة.**

**وقد عرفت أخيراً معنى الحب الحقيقي.**

# الفصل الثامن

# والثلاثون

كان ذلك اليوم هو اليوم الثالث الذي تلتقي فيه لوكا على الغداء. جلست بيتي على كرسي جلدي ضخم، وشبكت يديها فوق حضنها وهي تنتظر. كان ثمة جريدة على الحامل ولكنها لم تكن تريد أن تقرأ.

سألتها جين: «هل أنت متأكدة من أنك لا تريدين أن أطلب لك شيئاً لتشربيه؟».

فابتسمت بيتي لأمينة السر التي تعمل لدى لوكا وقالت لها: «سأكون بخير. أشكرك لسؤالك يا جين».

ردت جين: «لن يتأخر».

عادت بيتي للانتظار، إلاّ أنه كان من السخف أن تصبح عدوانية وترغب بالهروب من الباب في إحدى اللحظات، أو تقفز وتخرج من الباب الآخر بكل حماسة في لحظة أخرى، ولكنها لم تكن تدري ما هي الفكرة التي يجب أن تراودها في هذا الحين. فما معنى أن يطلب منها ملاقاته في مكتبه بهذه الطريقة ولمرات عديدة؟

هل كان فعله هذا مجرد لفتة فيها الكثير من المودة؟ أم كان يريد أن يشعرها بالارتياح تجاهه؟

لم يلمسها منذ تلك الليلة حينما كانا في مكتبه، إذ لم يكرر المحاولة ولا مرة بعد ذلك، ولهذا بدأت تشك في أن خيالها هو الذي رسم لها تلك القصة، أم كانت حقيقية؟

«آسف جداً يا بيتي».

رفعت بصرها لترى لوكا.

كان شعره أشعث. ولعل ذلك قد حصل بسبب أصابعه التي كان يخلل بها شعره مثلما يفعل عادة حينما يكون متوتراً. كان التعب بادياً عليه، كما كان قد حل ربطة عنقه بعض الشيء فبدت بعيدة عن نقطة المنتصف.

عندها، نهضت بيتي ومدت يدها لتعدّل وضع ربطة عنقه، حيث شدت العقدة أكثر ثم سحبتها إلى مكانها.

وبعدها هتفت بصوت خفيض؛ وكأنها كانت تهمس لنفسها وليس له: «هكذا أفضل».

ثم رفعت بصرها، ولكنها لم تكن تدرك حينها كم أصبحت قريبة منه وهي تقف قبالته، ولهذا سقطت يداها عن ربطة عنقه، كما أسبلت جفنيها وأخذت تنظر للأرضية؛ وكأنها قد تعثرت فرجعت خطوة للوراء.

غير أن لوكا أمسكها بيده من مرفقها.

وأخذ كل منهما يحدق بالآخر، فكانا بذلك أشبه بغزالين سُلِّطت عليهما أنوار المصابيح الأمامية للسيارة.

سألها بصوت منخفض: «ما رأيك بأن نذهب؟».

**أحست أنه لم يكن هنالك أحد في الغرفة، وكأنهما الشخصان الوحيدان في تلك الغرفة.**

**سألها: «بيتي؟».**

**فكان صوته أجشّ وخشناً هذه المرة ومختلفاً عما كان عليه عادة.**

**فتحررت من غفلتها وردت: «نعم، حان وقت الغداء. أجل، بالطبع».**

**ثم استدارت، إلاّ أن يده امتدت إلى أسفل ظهرها لترشدها، فأخذت تتساءل إن كان كل شيء قد تغير بينهما مرة أخرى وكأن القواعد قد تبدلت، أو أصبحا يلعبان لعبة أخرى مختلفة تمام الاختلاف عن سابقتها.**

**رافقها لوكا أثناء الخروج من البابِ ووصولاً إلى الشارع. وكان المطعم الذي ذهبا إليه هو المطعم ذاته الذي تناولا فيه طعام العشاء معاً للمرة الأولى، ولم يكن يبعد عن مكتبه كثيراً.**

**كانت بيتي تحس بأن ثمة شيئاً ما على وشك أن يتغير بينهما للأبد في هذا اليوم.**

**ولعلها قد تعرف اليوم ما الذي كان بينهما، ولعلهما يكتشفان ما كان بينهما معاً.**

# الفصل التاسع

# والثلاثون

كانت تحس بألم في قدميها، إذ كان ملمس الجوربين الصوفيين خشناً على بشرتها، ولكن أليس لم تتذكر أنها ابتسمت كثيراً خلال يوم واحد كما فعلت يومها؛ إذ كانت قد عادت أخيراً إلى مجال التمريض بعدما أنهت دورة تدريبية استمرت لمدة يومين، وكانت في طريق عودتها إلى البيت بعد فترة مناوبتها.

حينما وصلت أليس إلى هذه البلاد، كان كل ما حلمت به هو حياة عمادها الحفلات ودعوات الغداء والمال، أما الآن فقد كان كل ما تحلم به هو السعادة، وقد كتب لها ذلك.

كان هنالك سبب آخر لسعادتها، وهو أنها تعرف أن زوجها ينتظرها في البيت. ولعل القلق قد بدأ يساوره أثناء انتظاره لها؛ إذ كان يتحرق شوقاً ليريها المكاتب الجديدة.

انعطفت أليس عند زاوية الشارع، ثم أخذت تسير بنشاط أكبر، وأخذت تتعب عينيها بالنظر إلى أن استطاعت تمييز بيتها، ثم زوجها، فقد كان رالف واقفاً على الشرفة وهو يلوّح لها.

عندها، بدأت أليس بالجري لأنها كانت متلهفة لرؤيته، ولتتأكد من أن كل هذا كان حقيقياً، وأن تلهّفها لرؤيته طيلة النهار كان يقابله تلهف مماثل من قبله بالفعل.

صاح رالف: «مرحباً يا حبيبتي!».

ثم قفز نحوها مجتازاً ثلاث درجات، وبعدها فتح ذراعيه لاستقبالها، فارتمت بينهما، ورفعت وجهها كي تنال القبلة التي كانت تنتظرها.

ردت: «أهلاً!». ثم انحنت لتحمل حقيبتها التي سقطت على الرصيف بعدما تركها.

سألها: «ما رأيك بأن نذهب؟».

فصعدت الدرجات وصاحت به دون أن تنظر إليه: «دعني أبدل ملابسي، ولن أتأخر أكثر من دقيقتين».

ثم دخلت غرفة نومهما، وأخذت تستنشق رائحة عطر زوجها، وبعدها خلعت بزتها الرسمية، ثم أمسكت بسروال وقميص، وارتدتهما على عجل.

سمعته يقول لها: «هيّا يا حبيبتي، إذ علينا أن نكون هناك قبل أن يحل الظلام».

وهنا رشت على جسدها بعض العطر، ثم أسرعت خارجة من الغرفة وهي تقول:

«جاهزة».

عند ذلك، مدّ رالف ذراعه لها فتأبطتها، ثم سألته وهي تنظر إليه:

«إذاً، إن هذا يحدث بالفعل على أرض الواقع، أليس كذلك؟».

فردّ عليها: «أجل يا أليس، إن هذا يحدث فعلاً».

وبدا بغاية السعادة، وكانت مسرورة من أجله، كما كانت متحمسة من أجل مستقبلهما، ومن أجل ما كان سيتم من أجلهما.

سألته: «هل وقعت عقد استئجار المكتب اليوم؟».

فابتسم لها وقال: «إنه طوع بنانك».

فشدت على ذراعه.

قال لها: «لقد تمت الموافقة على الأموال اليوم أيضاً، فقد كان المصرف متعاوناً جداً معنا، وقد دعم مشروعنا بشكل كامل».

ابتسمت أليس، فتابع قائلاً:

«لا بد أن يوافقوا على ذلك دوماً. أتعرفين، لقد وافقوا بمجرد أن أعطيتهم العقد الذي حصلت عليه مع صحيفة نيويورك بوست ومع ناشر جديد للكتب».

وهنا، توقّفت أليس في منتصف الشارع، فدار رالف حولها ليصل إلى وجهها وهو يبتسم، وبادرته بالسؤال:

«ماذا؟!». وكانت تتساءل إن كانت قد سمعت ما قاله لها بشكل صحيح.

فما كان منه إلاّ أن حملها وأخذ يدور بها ويقول:

«إن هذا ما حدث يا أليس، وسننجح في مشروعنا. أنا واثق من ذلك».

لكنها لم تستطع أن تصدق ذلك، وأخذت تقول له: «هل حصلت على عقدين؟ أتعني تلك العقود التي أخبرتني أنك تحلم بالحصول عليها؟».

فوضعها على الأرض، ثم جعلها تتبعه أثناء سيره وهو يقول:

«ما عليك إلاّ أن تستمري بعملك في التمريض لفترة من الزمن؛ إلى أن يصبح المشروع مبنياً على أرضية ثابتة. ولكننا سننجح، أنا متيقن من ذلك».

ثم أخذا يسيران بصمت؛ إلاّ أن صمتهما لم يكن يعبر سوى عن السعادة. إذ لم تكن أليس تدري ما يمكنها قوله، ثم إن ما ستقوله لم يكن مهماً، إذ لم يكونا بحاجة للكلام لأنهما كانا سعيدين بعدما نجح زواجهما، وأصبح مستقبلهما مشرقاً.

قال لها: «ها قد شارفنا على الوصول».

سألته: «إلى أين؟».

فجذبها رالف إلى الخلف، ثم مال عليها وهو يشير إلى الرصيف المقابل من الشارع ويقول:

«ذلك البناء ذو المظلة المخططة التي تبرز عند جهته الأمامية».

عند ذلك، أخذ نبض أليس يتسارع؛ إذ كان البناء جميلاً رغم أنه بحاجة إلى طلاء جديد. وصحيح أنه كان آيلاً للسقوط من الداخل، إلاّ أنها أحبته على وضعه.

لأنه كان يمثل مستقبلهما، ونجاحهما.

عندها هتفت أليس، فخرجت كلماتها من فمها كلفحة ريح: «لقد أحببته».

إذ لم تكن تريد مكاناً أفضل منه على وجه الكرة الأرضية.

ثم إن مجرد التفكير بمكان آخر كان أشبه بصاعقة تخترق جلدها.

لقد كانت سعيدة، سعيدة بالفعل، وبشكل لا يصدق. كانت سعيدة بلا شك، ولعلها المرة الأولى

**التي تتذوق فيها طعم السعادة الحقيقية في حياتها.**

# الفصل الأربعون

وضعت بيتي شوكتها وسكينها معاً فوق الطبق، واستخدمت المنديل لتمسح زاويتَي فمها. كانا قد تناولا طعامهما بسرعة، ولم يتحدثا كثيراً؛ باستثناء ما يتعلق بالطقس، كما تحدّثا عن خطة مهمة كان لوكا يعمل على إعدادها.

لم تكن بيتي متأكدة تمام التأكد من الأمور التي يمكن أن تحصل بينهما. ولكن، لماذا طلب منها أن تتناول معه الغداء مرة أخرى؟

سألها: «أترغبين في تناول الحلويات؟».

فربتت بيتي على بطنها وقالت: «أوه كلا. لا يمكن أن يستوعب هذا صنفاً آخر».

ثم ابتسمت عندما أخذ يضحك؛ وكأن الجليد الذي كان يفصل بينهما قد بدأ يذوب أخيراً. إذ كان كل منهما يشعر بالحرج من الآخر منذ تلك اللحظة التي جمعت بينهما في مكتبه، إلاّ أن هذا الحاجز قد بدأ يتهاوى من جديد... أخيراً.

أخذ يقترح عليها بالقول وهو يبعد كرسيه عن الطاولة بعض الشيء: «يمكننا أن نشترك دوماً بشيء ما، ولعل ذلك قد يكون القهوة مثلاً، ما رأيك؟».

هزت بيتي رأسها مرة ثانية وقالت: «كان الغداء رائعاً، ولكنني لا أريد الحلوى، بل سأكتفي بالقهوة إن طلبت لنفسك فنجاناً منها».

فرفع يده ليشير للنادل ثم هتف: «نريد فنجانيْن من القهوة مع القشدة من فضلك!».

أخذت بيتي تتفحصه حينما أدار وجهه، حيث أخذت تعاين شكل فكه، وكثافة شعره، وكل شيء يخصه.

ثم أسبلت جفنيها حينما عاود النظر إليها، إذ كان يعرف أنها كانت تراقبه، بالتأكيد كان يعرف، ولكنها لم تعبأ بذلك؛ إذ أحست بأنها أصبحت شجاعة، أو أكثر شجاعة مما كانت عليه عادة على الأقل، فكان هذا الإحساس هو الذي يمنحها القوة.

قال لها: «بيتي، كنت أود أن أخبرك بأمر ما خلال الأيام القليلة الماضية، ولكننا كنا دوماً منشغلين ومحرومين من الحديث، لذا لم أجد الفرصة المناسبة لأقول لك ذلك».

وهنا، زمّت بيتي شفتيها. فما هو هذا الشيء الذي يريد أن يخبرها به؟ وما الذي كان عليه أن يقوله لها؟ كانت في المرة الأولى التي تناولا فيها طعام الغداء معاً تظن أن لديه دوافع خفية جعلته يقوم بذلك، ولكنه لم يقل لها أي شيء حيال ذلك، غير أنها كانت متأكدة هذه المرة من أنه يحس بالقلق بسبب شيء ما، وأنه قد جهّز الكلام المناسب ليبوح لها بمكنونات صدره.

قال لها: «إنني سعيد جداً بإقامتك أنت وويليام في بيتي، وسعيد بوجودك في حياتي».

أوه، كلا! هل هذه طريقته ليخبرها بأن موعد الرحيل قد حان؟ هل دعاها للغداء عدة مرات ليعلمها بذلك، لكنه لم يكن يدري كيف يقول لها ذلك؟

ردت عليه بالقول: «أرجوك يا لوكا، لا داعي لأن تكمل. فإن كنت تريد منا أن نغادر بيتك لتعيش فيه لوحدك من جديد، فسأجد لنفسي مكاناً آخر لأعيش فيه».

عندها، بدا عليه الارتباك ثم الغضب وقال:

«أتريدين أن ترحلي؟».

لم يكن هنالك أي داعٍ أو مبرّر لتخدع نفسها؛ فإذا كانت متأكدة من مشاعرها فهذا لا يعني أنه يبادلها المشاعر ذاتها.

ردت عليه بالقول:

«أليس هذا ما أردت أن تقوله لي؟».

بدا عليه الحزن، وفارقته ثقته بنفسه أيضاً وهو يقول: «كلا، كلا. لم أكن أريد أن أقول لك هذا».

أخذت تنتظره مرتبكة، فقال:

«من الصعب أن أقول لك ذلك، كما أنني في الحقيقة لست متأكداً تماماً مما سأقوله، ولكن...»

عندها، حبست بيتي أنفاسها، فتابع:

«أحسّ بأن هناك مشاعر في غير محلها قد تطوّرت بيننا. وهي مشاعر لم أسترح لها». ثم شد ربطة عنقه التي كانت بيتي قد عدلتها له بكل عناية، وبعد ذلك أرخاها قليلاً وكأنه لم يكن يستطيع أن يتنفس، وقال: «أريدك أن تحسي أنت وويليام أنكما في بيتكما. أما أن أغامر بعلاقتنا، فهذا سيكون... حسناً، سيكون تصرفاً أحمق وغير مسؤول من قبلي».

ما الذي يعنيه بذلك؟ وهل كان يحاول أن يخبرها بأنه يخفي مشاعر تجاهها؟ أم كان يحاول أن يحبط أملها ولكن بطريقة لبقة؟

عند ذلك، رفعت بيتي ذقنها للأعلى، وأخذت تنظر في عينيه مباشرة، إذ كان بوسعها أن تصارحه في تلك اللحظة هي أيضاً، وهكذا قالت له:

«إنني، آه... أحس بالمشاعر ذاتها. أعني... أعرف أنه لم يمضِ وقت طويل على وفاة شارلي، ولكن إحساسي تجاهك، حسناً...»

فما كان منه إلاّ أن أبعد كرسيه عن الطاولة بقوة فاهتزت، وهكذا قطع كلامها وزاد على ذلك بالقول:

«عليّ أن أذهب».

فرفعت بيتي نظرها إليه وهي تحس بالذل؛ إذ كانت التعابير التي ارتسمت على وجهه تفشي بكل ما دار بخلده، وبأنه كان يكرهها، وبأنه كان يجدر بها أن تحتفظ بما قالته لنفسها، وأنه كان يحس بما كانت تشعر به ولكنه لم يكن يبادلها المشاعر ذاتها.

مدت يدها إليه فابتعد عنها، فأخذت تناديه وتقول: «لوكا، لوكا أرجوك!». ثم أخذت تهمس له: «أنا آسفة. إذ اعتقدت أنك تبادلني المشاعر ذاتها».

لم تستطع أن تفهم تعابير وجهه حينها، إلاّ أن الشرر كان يتطاير من عينيه في تلك اللحظة.

رد عليها بالقول: «سأغيب في عمل طيلة الأسبوع القادم، وقد يستغرق ذلك وقتاً أطول. لذا، خذي السيارة وعودي إلى البيت، أما أنا فسأعود إلى المكتب».

كلا، كلا! ما الذي فعلته؟! وما الذي حدث أصلاً؟

**وأخيراَ، أتى النادل إلى طاولتهما ووضع قهوتها أمامها، ولكنها لم تكن قادرة على إجبارٍ نفسها على الاعتراف بوجودها، بل التفتت لتراقب لوكا وهو يسرع خارجاً من المطعم، ويتوقف قليلاً ليدفع الحساب.**

**وهكذا، لم يلقِ عليها أي نظرة وهو يغادر.**

**وبذلك كانت بيتي قد أفسدت كل الفرص لتطوير ما كان بينهما.**

**لقد انتهى كل شيء بينهما وللأبد.**

**ولعلها أيضاً قد خسرت بيتاً كانت تعيش فيه.**

**إذ ها هو قد رحل.**

**إلا أن بيتي وقفت وشدت كتفيها وتركت القهوة دون أن تمسها؛ فربما يكون قلبها قد كسر للمرة الثانية في تلك اللحظات، ولكنها ما زالت تحتفظ بكبريائها وكرامتها، إلى جانب حبها لصغيرها الذي كان بانتظارها. ألم يكن هذا كل ما يهمها؟ يبدو أنها قد قرأت إشاراته بطريقة مغلوطة، أو أنها لم تفهمها أصلاً. لذا، كان كل ما بوسعها القيام به في تلك الأثناء هو أن تتناسى مشاعرها تجاهه، إذ يبدو أنه من المستحيل أن يحدث شيء بينهما، لذا كانت تلك هي النهاية المحتومة لتلك المشاعر.**

# الفصل الحادي

# والأربعون

لم تعرف جون تلك البهجة التي عرفتها في ذلك اليوم، إذ أمضت أشهراً طويلة وهي تتعلم ركوب الخيل، وها هي الآن قد تعلمت كل شيء يتعلق بذلك. كانت جون تحب الحيوانات، جميع الحيوانات بلا استثناء، إلاّ أن ركوب ظهر أحدها لم يبدُ لها جذاباً في البداية، غير أن ركوب الخيل في أمريكا كان أمراً مختلفاً كلياً. وأخيراً، أتقنت فن تحريك الحصان ليمشي ثلاث خطوات سريعة، إلى جانب ركوب الخيل بصحبة إيدي، حيث كانت تصل به إلى الوادي، ثم تبدأ بصعود التلال.

كانت تنظر مع زوجها إلى المزرعة، حيث بدا بيتهما أشبه بنقطة بعيدة.

صاحت بصوت عالٍ: «إنه جميل».

إذ كان بالفعل كذلك، أجل لقد كان جميلاً لدرجة أنه ملك روحها.

رد عليها إيدي: «جميل مثلك».

ثم قاد حصانه إلى أن وصل إليها ليمسك بيدها. ولكن، وبالرغم من مرور كل ذلك الوقت بقيت جون تحمر خجلاً عند سماعها كلماته، إلاّ أنها لم تكن تصدقه، بل لم تصدقه بحياتها، وخاصة حينما كان يقول لها إنها تبدو جميلة أو حينما كان يعبِّر عن مقدار حبه لها، وذلك لأن الأمر بالرغم من روعته كان يبدو لها بعيداً عن الواقع؛ ولا سيما بعد كل المعاناة التي عاشتها صديقاتها. إذ لمَ كانت هي بالذات المحظوظة بينهن؟ ولمَ كانت الوحيدة التي اكتشفت أن حياتها في هذه البلاد رائعة؟

سألها إيدي: «هل أنت سعيدة هنا يا جون؟ أخبريني، هل أنت سعيدة حقاً؟».

فعدلت من جلستها على سرج الحصان لتستطيع أن ترى وجه زوجها، وردت:

«إنني أحب هذه البلاد يا إيدي، وأنت تعرف ذلك».

فرفع يدها ليقبلها وهو يقول: «جميل. فأنا أريدك أن تكوني سعيدة هنا يا حبيبتي».

وفي تلك اللحظة، ودت لو تفاتحه بموضوع الأطفال، وتشتكي له من عدم حملها؛ إلاّ أنها لم تكن تريد أن تفسد روعة تلك اللحظات. ثم إنه كان بغاية الصبر معها، فمع كل شهر كانت تتأكد فيه بأنها لم تحمل كان يقف إلى جانبها، لذا لم تكن تريد أن تفسد كل ذلك.

كما أنها لم تكن تريد أن تفتح موضوع التبني، إذ لم يكن الوقت قد حان لفتح موضوع كهذا، لأنه كان يجب عليها أن تتعرف على الأمر من جميع جوانبه قبل أن تتطرق إليه.

قال لها وهو ينظر إلى الأرض: «حينما كنت في الحرب، كنت أفكر بهذا المنظر. وعندما تزوجتك، لم أطق صبراً إلى أن أصبحت هنا لنتأمل هذا المشهد معاً».

ردت عليه: «تخيل أطفالنا وهم يكبرون في هذا المكان يا إيدي، ويمتطون الجياد ويسرعون بالجري فوق هذه الأرض، ويهرعون لزيارة جديهما كل يوم».

فما كان منه إلاّ أن أمسك بيدها مرة أخرى. أما ابتسامته فقد جعلت عينيه تتغضنان عند زاويتيهما، ثم قال:

«بمناسبة الحديث عن الأسرة، لدي مفاجأة لك».

**سألته: «وما هي؟».**

**فأخذ يتلاعب بتعابير وجهه ليضحكها وهو يقول: «كيف سيبقى الأمر سراً إن أخبرتك؟».**

**كانت تكره الأسرار، ثم ما هي الصلة التي تربط بين ذلك السر وبين تكوين أسرة؟**

**سألته: «ومتى سأكتشف السر إذاً؟».**

**فشد لجام الحصان الذي تراجع بضع خطوات للوراء حينها وذلك قبل أن يدور، ثم قال:**

**«إنه في انتظارك في البيت، لذا دعينا ننطلق».**

**كانت ساقا جون تؤلمانها؛ إذ بدأت ربلتا ساقيها توجعانها، وكذلك بدأ الخدر يتسلل إلى مؤخرتها، لكنها كانت تتوق لتعرف ما هي تلك المفاجأة.**

**سمعته يقول لها: «تمهلي!».**

**فالتفتت إلى الخلف، ورأت إيدي يجري خلفها، ثم دفعها إلى أحد الجانبين، وبعدها وقف أمام الباب، وقال:**

**«انتظري هنا دقيقة».**

**أخذت تدوس الأرض بقدمها، ولكن كان من الصعب عليها أن تتصرف بغضب.**

**وهنا طبع قبلة على شفتيها اللتين كانتا على وشك الاحتجاج، فقبلته هي الأخرى بلهفة، إلاّ أنه لم يكن يريد إغواءها في تلك اللحظة، ولذلك وضع يده على صدرها ثم دفعها للخلف بلطف وهو يقول:**

**«انتظري هنا».**

**فتمتمت قائلة: «حسناً».**

**أخذت جون تنتظر وتتمتم لنفسها في سرها.**

**ثم سمعت حركة أقدام وضجة، ولكنها لم تستطع تمييز مصدر الصوت، إذ كانت الضجة عالية، وبعدها سمعت شتيمة أطلقها إيدي.**

**فهتفت: «ما الذي يجري يا حبيبي؟».**

**فظهر لها إيدي وهو يحمل بطانية بين ذراعيه، ثم قال:**

**«ماذا لو... أوه يا إلهي!».**

**كانت ذراعا إيدي تتحركان، فسقط جزء من البطانية كاشفاً عمّا كان بين يديه، ورأت بين ذراعيه جرواً صغيراً كان يتلوى بكل ما أوتي من قوة، فكان أشبه بكرة من الفرو الذهبي وهو يتوق للهرب.**

**هتفت جون: «إيدي!».**

**فابتسم زوجها ابتسامة عريضة بلغت أذنيه، ثم قال:**

**«أعرف أنك تريدين أن تكوّني أسرة يا جون، لذا اعتقدت أن هذا الجرو سيكون بداية مثالية بالنسبة لك».**

**عند ذلك، اغرورقت عيناها بالدموع، ثم مدت يديها لتمسك بالجرو الذي أخذ يداعب خدها**

**بأنفه الرطب، كما أخذ يحرك لسانه بسرعة ليلعق ذقنها.**

**قالت له: «لقد أحببته. أوه، لقد أحببته!».**

**ثم احتضنت الجرو وشدته إلى صدرها بقوة، وبعدها مالت نحو إيدي لتقبله، فأخذ الجرو يتسلق المسافة الفاصلة بينهما وهو يحاول أن يعضهما، وذلك حينما لامست شفتاها شفتيه.**

**قال لها: «إنها أنثى، وهي كلبة صيد».**

**عند ذلك، حملت جون الجرو وقربته من وجهها مرة ثانية، وأخذت تستنشق رائحته الجميلة.**

**ثم صاحت بصوت عالٍ: «إنها فتاة، فتاة صغيرة تبلل سريرها». وكانت بذلك تخاطب الجرو أكثر من إيدي، فأحاط إيدي كتفيها بذراعه وقال:**

**«أفكر بأن نسميها روبي».**

**فكررت الإسم: «روبي»، وهي ترفع الجرو لتتمكن من تفحصه، ثم قالت: «أعتقد أن اسم روبي يناسبكِ تماماً».**

**إلا أنها ظلت راغبة بطفل وبشدة، غير أن الجرو كان يعتبر بداية جيدة بالنسبة لها، إذ كان بوسعها أن تتعامل مع الجراء.**

# الفصل الثاني

# والأربعون

أزاحت بيتي الستارة السميكة، وتركت أصابعها تمسك بالقماش، كان ضباب خفيف قد غطى الزجاج، لذا أخذت بيتي تفرك الزجاج بإحدى يديها بحركة دائرية لتتمكن من رؤية المنظر عبر الزجاج بشكل أفضل.

كانت تجربة إقامتها في هذا البيت تجربة فريدة وسوريالية، حيث أخذت تتذكر ذلك الرعب الذي تصاعد داخلها حينما عرفت بوفاة شارلي؛ إذ بقيت تلك الذكرى تصيب ظهرها ببعض التشنجات المؤلمة كلما خطرت ببالها، غير أن خفقة الألم كانت قد بدأت تخبو قليلاً ليحل محلها اشتياق لشيء لم تستطع أن تصفه بشكل واضح. كان شوقاً لم تحس به حينما أمضت أول ليلة مع زوجها، بل كان شوقاً لم تكن تريد أن تعترف به، ولكنه بقي موجوداً داخلها ليذكرها على الدوام بما فقدته.

كانت كلما فكرت بلوكا رغبت بأن تقترب منه أكثر، وأن تخبره بذلك، ليعترف لها هو أيضاً بأنه يبادلها المشاعر ذاتها.

لكن لوكا قد رحل، وكأنها هي المذنبة بسبب تطور المشاعر بينهما، وكأنه قرر ألا يعود إلى البيت نهائياً.

سمعت بيتي غرغرة قصيرة ثم بكاء، فالتفتت ورأت ويليام وهو يتلوى داخل سريره، فما كان منها إلاّ أن تركت الستارة لتنسدل من جديد، ثم شدت قميص نومها حول جسدها في محاولة منها لتدفئته والتخلص من قشعريرة كانت تعلم أن البرد لم يكن سببها؛ إذ كانت تحاول أن تتظاهر بأنها لم تكن تنتظره، إلاّ أنها في الحقيقة كانت قلقة عليه وتريد منه أن يعود. إذ لم تكن تفكر إلا بذلك منذ أن غادر، حيث كانت تسأل نفسها: إلى أين ذهب؟ لقد أخبرها أنه سافر من أجل عمله، وأخبر إيفي أنه قد يغيب أسبوعاً أو اثنين، ولكنها لم تكن متأكدة من ذلك، إذ بدا لها أنه رحل وأنه لن يعود أبداً.

ولعله كان ينتظر منها أن ترحل.

أخذ ويليام يبكي مرة أخرى ولكن بإلحاح أكبر هذه المرة.

هتفت بيتي بنعومة وهي تنظر إلى الطفل الصغير: «أنا آتية، ماما قادمة إليك».

كان قد جلس وابتعد عن السرير، وبدأ الغضب يظهر على قسماته، ولكنه ابتسم حالما رآها؛ حيث ارتسمت على ثغره ابتسامة كانت تغمر قلبها بالدفء كلما رأتها على وجهه.

حملته بيتي ثم ضمته إلى صدرها بالرغم من أن وزنه بات ثقيلاً، ثم قالت له: «مرحباً يا صغيري الذي لا يزال يبلل فراشه... مرحباً».

فابتسم لها، وعندها أحست بدفقة محبة أصبحت معهودة بالنسبة لها.

هتفت له: «ماما». فواصل ابتسامه لها، تابعت: «ما... ما»، فأمسك بأنفها وأخذ يضحك.

عند ذلك، ابتسمت له وقالت: «ما الذي تفعله بعدما استيقظت يا سيد؟». كانت البهجة التي يشعرها بها صغيرها لا يمكن أن توصف؛ إذ لا يمكن لأحد لم يرزقه الله أطفالاً أن يتخيلها، إلاّ أنها كانت تعيشها على أرض الواقع كل يوم.

فلولا ابنها، لما كانت قد سافرت إلى تلك البلاد، ولما كانت قد التقت لوكا أصلاً. وبالرغم من أنها بقيت تحس بوخزة من الذنب حينما تخطر ببالها هذه الأفكار والمشاعر التي تكنها له، إلاّ أنها كانت تحس أنه من المستحيل بالنسبة لها أن تنسى كل ذلك، أو أن تتجاهل أو تستبعد ذلك الشوق داخلها والذي كان يخفق بشكل متواصل، بالرغم من صده لها.

ثم سمعت بيتي صوت الحصي وهي تتكسر تحت وطأة أقدام في الخارج، ولكنها لم تجرؤ على أن تتمنى عودة لوكا إلى البيت. إلاّ أن طريقة إغلاق الباب بصفعة قوية جعلتها تتأكد من أنه قد عاد فعلاً. ولكن، هل عاد للبيت لينعم بصحبتها؟ وهل عاد مبكراً لأنه لم يطق صبراً على فراقها؟

أم تراه عاد ليطلب منها أن تغادر؟ وليخبرها بأن إقامتها لديه قد طالت أكثر من اللازم؟ أو لعله لم يستطع أن يغفر لها ما قالته على الغداء في ذلك اليوم.

غير أنّ إغلاق الباب الداخلي بقوة جعلها تقفز من مكانها، فنظرت إلى عينَي طفلها المذعورتين وضمته إليها أكثر.

وهكذا، تيقنت بيتي من كل ما سمعته حتى تلك اللحظة بأن الداخل كان لوكا بلا شك. إذ لم يكن هنالك أحد يتمتع بتلك السلطة التي تسمح له بصفع أي باب في ذلك البيت. كما أن إيفي لم تكن لتقوم بذلك، وكذلك بقية الخادمات.

ثم من كان سيأتيهم في تلك الساعة المتأخرة من الليل؟

وفجأة، سمعت بيتي صوت أقدام على الدرج، فنهضت بسرعة وأدارت المفتاح في الباب لتقفله.

وبعد ذلك، أخذت تقول لصغيرها: «صه يا صغيري! اسكت الآن». ثم وضعته على سريرها، وضمت إليه وسائدها، ورمت له دمية الأرنب المحشوة بالقطن التي أعطته إياها جون حينما زارتهم.

أخذ ويليام يرمي باللعبة وهو يبتسم، بينما هرعت هي إلى المرآة لأنها لم تكن بأفضل حالاتها، لذا كان من غير الممكن أن يراها لوكا وهي بهذا المنظر.

هذا إن كان القادم لوكا بالفعل، وليس أحد المتطفلين.

سمعت طرقة على بابها، أعقبتها طرقات أخرى، ثم أدار أحدهم المقبض.

غير أن القفل وقف حائلاً أمام فتح الباب.

«بيتي... بيتي... افتحي الباب فوراً».

كان ذلك لوكا، أوه يا إلهي!

كان يبدو من صوته أنه في عجلة من أمره.

ردت بيتي: «لحظة».

سرّحت بيتي شعرها، ورفعته بعيداً عن رقبتها، كما أبعدته عن وجهها قليلاً.

صاح بها: «بيتي!».

فتوترت، وبدأت يداها ترتجفان، كما أخذ العرق يتفصد من جبينها، ولكنها مسحته بمسحوق التجميل وهي تقول:

«دقيقة يا لوكا».

هتف: «بل الآن!».

وبدا وكأنه يزمجر حينما قال ذلك.

كانت تريد أن تبدل ثيابها أولاً، وأن تكون حسنة المظهر حينما تفتح له الباب، ولكنها إن لم تستجب له فوراً، فسيجعل كل من في البيت يستيقظ ويأتي ليرى ما الذي يحدث، أو لعله سيكسر الباب.

لذا، وقفت بعدما احمرت رقبتها من شدة التوتر، وأخذ ذلك الاحمرار يتصاعد نحو وجهها، ثم تركت المرآة واجتازت الغرفة بينما كان ويليام على وشك البكاء، إذ بدأت شفته السفلى ترتجف.

لكنها همست له: «لا بأس يا حبيبي».

وحينما فتحت الباب، فوجئت بأنه فتح بقوة كادت تسقطها أرضاً، فصاحت:

«لوكا!».

إلا أن عينيه منعتاها من الكلام؛ إذ كانتا جائعتين، وجامحتين، وبعيدتين كل البعد عن هدوئه المعتاد. أما خداه فكان الشعر يغطيهما، إذ لم يكونا حليقين كما اعتادت أن تراهما.

صاحت به: «لو تركتني لأكمل ارتدائي لملابسي لكان بوسعنا أن نكون حضاريين أكثر». وهنا كانت تحاول أن تكون قوية، إلاّ أن كلامها وصوتها عكسا مدى ضعفها في تلك اللحظة.

فما كان من لوكا إلاّ أن سار خطوتين واسعتين نحوها، ولكنه كان يتحرك ببطء، إلى أن أصبح يقف على مسافة قريبة منها تسمح له بإبعادها بصدره. أجل، كان يقف على مقربة منها، حيث كان بوسعها أن ترتمي بين أحضانه لتتحسس جسده وهو يتلمس جسدها.

عندها، مدّ يده ليلمس رأسها من الخلف فتقطعت أنفاسها، وتوقّف تفكيرها، ثم كور يده حول شعرها، وانحنى ببطء، بل ببطء شديد، إلى أن لامست شفتاه شفتيها.

ودّت حينها أن تقاوم، وأن تبتعد عنه وترفضه بعدما تركها وصدها حينما حاولت أن تكون صادقة معه؛ إذ كان يجب عليه أن يشرح لها موقفه قبل ذلك، ولكنها لم تستطع منعه، بل تجاوبت معه بالطريقة الوحيدة التي كان بوسعها أن تتجاوب معه من خلالها؛ وهي أن تبادله قبلته أيضاً، حيث ارتمت في حضنه حينما شدها إليه أكثر.

وهنا أخذ ويليام يغرغر، لكنها أجبرت نفسها على تجاهل ما سمعته؛ لأن كل ما كانت تريده في تلك اللحظات هو أن تبقى هكذا، بين يدي لوكا، وأن تنسى نفسها وهي تحس بملمس شفتيه فوق شفتيها، وأن تدرك أنه يبادلها المشاعر ذاتها، وأنهما لن يتجاهلا هذه المشاعر بعد اليوم.

وأخيراً ابتعد عنها، فارتبكت، وبدأت تحس بالبرودة والاستياء، وبالوحدة أيضاً.

قال لها: «أنا آسف يا بيتي، آسف جداً».

أخذت بيتي تتفحص وجه لوكا بعدما غادره الغضب والهياج اللذان كانا قد ارتسما على ملامحه قبل القبلة. وهكذا، اختفى الرجل الجامح الذي كان يطرق على بابها بكل قوة ليحل محله لوكا الذي أحبته؛ ذلك الرجل اللطيف المعذب الذي كان يريد أن يقوم بكل ما هو صحيح ومناسب، والذي كان يريدها، ولكنه خائف من الاعتراف لها بذلك.

ثم إنه قد قبّلها! أجل، لقد قبّلها كما لم تتخيل أن يفعل يوماً.

عندها اعترفت له بالقول: «اعتقدت أنك أتيت لتطلب مني الرحيل».

**فخطا خطوة إلى جانبها، أتبعها بأخرى، وذلك قبل أن يرتمي على السرير، ثم انثنت ساقاه الطويلتان حينما جلس على حافته وقال:**

**«لم أكن أدري ما الذي يجب علي أن فعله... كان... كان يجب ألا أهجرك بتلك الطريقة».**

**فاقتربت منه، ثم تجاوزته لتحمل ويليام حينما أخذ يصفق لها.**

**فسألها: «هل تسمحين لي بحمله؟».**

**فدفعت به إلى لوكا الذي ضمه بذراعيه الممدودتين. عندها، أخذ الصغير يتلوى إلى أن جلس في حضن عمه، ووضع يديه على سترته، وأخذ يشد أزرارها.**

**فقال له لوكا: «لقد اشتقت إليك أيها الرجل الصغير».**

**فابتسم ويليام.**

**عندها خاطب بيتي بالقول: «لقد كنت أحمق يا بيتي، بل بغاية الحمق».**

**ثم نقل ويليام إلى إحدى ذراعيه، ليمد يده إلى جيب بنطاله.**

**في تلك الأثناء، جلست بيتي إلى جانبهما، وأخذت تنظر إلى ويليام لأنها كانت تخشى أن تلقي نظرة على لوكا، كما كانت تحس بقلق شديد بسبب ما قامت به مع لوكا، وبسبب تجاوبها معه، وما يعنيه كل ذلك.**

**إذ بعدما عرف مشاعرها بالضبط، لم يعد هنالك أي مجال للتراجع.**

**وهذا ما دفعها لتقول له: «لوكا، لقد اشتقنا إليك أيضاً، نحن الاثنان». فأتى صوتها هادئاً للغاية ومنخفضاً للغاية، لدرجة أحست معها بأنها بالكاد تميز أنه صوتها.**

**عندها، أخرج خاتماً من جيبه ورفعه نحوها، فأوشكت بيتي على السقوط من السرير. إذ بدأ رأسها ينتفض وكأنها قد اجتازت سلسلة من الأدراج دفعة واحدة وهي تهرول. إذ لمَ أتاها بخاتم؟ وما الذي يفعله؟**

**قال لها: «إليك خاتم جدتي يا بيتي. ولو كان شارلي لا يزال على قيد الحياة عند وصولك، لكان قد قدمه لك».**

**هتفت: «كلا». وذلك لأنها لم تستطع منع نفسها من قول ذلك، إذ خرجت الكلمة رغماً عنها، ثم كررت: «كلا... كلا... كلا».**

**«بل نعم». كان ذلك صوت لوكا الذي انخفض وهو يقول: «لم يعد شارلي موجوداً، وإنني أدرك ذلك، لكنني ما زلت أريد منك أن تقبليه».**

**لكنها لم تفهم ما كان يعنيه، فما الذي يتفوه به؟**

**فما كان منه إلاّ أن أعطاها ويليام، ثم ركع أمامها بجانب السرير وقال: «أتتزوجينني يا بيتي؟».**

# القسم الثالث

# الفصل الثالث

# والأربعون

**نيسان 1947**

أشرقت الشمس وبلغت كبد السماء دون أن تمنع أي غيمة أشعتها من الوصول إلى المرج الذي امتد على مسافة شاسعة. كان العشب قد جز بشكل مخطط، فأخذ يتمايل نحو الأزهار البيضاء التي تزين أشجار الماغنوليا.

لم تشعر بيتي يوماً بتلك السعادة التي أحست بها في ذلك اليوم؛ إذ كانت تحس بحنين كبير، ولكنها أصبحت تعيش بسلام في حياتها.

«هل أنت جاهزة يا حبيبتي؟».

تركت بيتي نافذة الطابق العلوي لترى لوكا، فوضع ذراعيه حول خصرها، وضمها إليه.

سألته: «أهو هنا؟».

فطبع لوكا قبلة على جبهتها، وتغضنت زاويتا عينيه حينما أخذ يبتسم لها ويقول:

«سيصل بعد قليل».

أخذت بيتي تراقبه وهو يبتعد، فأحست أنها تحب كل ما فيه. إذ لم يكن شارلي، لكن هذا ما أحبته فيه. وبالرغم من أنه كان مختلفاً عن أخيه تمام الاختلاف، إلاّ أنه كان رجلاً قوياً سمح لها أن تحب شارلي أيضاً؛ إذ لا يمكن لأي شخص أن ينتزع من قلبها ما كانت تحس به من مشاعر تجاه زوجها الأول– إذ كانت تراه متجسداً بابنها كل يوم– إلاّ أن لوكا كان بالنسبة لها كل شيء في الوقت ذاته.

سرقت نظرة أخيرة من النافذة، حيث أخذت تحدق بالورد الأبيض الذي كانوا قد زرعوه وسط الحديقة، وكان خلف تلك الورود شكل متصالب بسيط بلون أبيض، وذلك لتنمو فوقه تلك الأزهار وتعرش حوله، تخليداً لذكرى شارلي في نفوس كل من كان يقطن في هذا البيت.

إلا أن تلك الرقعة كانت المكان الذي سيعقد فيه قران لوكا على بيتي.

أخذت بيتي نفساً عميقاً ثم شدت كتفيها، وبعدها توقفت لتنظر إلى صورتها في المرآة التي كانت تعكس طولها بالكامل. كان ثوب عرسها بسيطاً، إذ كان مصنوعاً من قماش الشيفون ذي اللون الوردي الداكن، ولا يتجاوز طوله ربلتي ساقيها. كما كانت قد رفعت شعرها، وثبتت غرتها بزهرة وضعتها فوق جبينها.

كان هذا اليوم يوم زفافها، لذا كانت تحس بالسعادة، وبأنها جميلة وواثقة من نفسها وسعيدة، بل بغاية السعادة.

توقعت بيتي أن كل ما فيها سيرفرف حينما ستسير نحو لوكا، إلاّ أن مشكلتها الوحيدة كانت تتمثل في محاولة الكف عن الابتسام؛ إذ كان رجل الدين واقفاً بجانب الرجل الذي سيصبح زوجها، وقد أمسك بالكتاب المقدس وأخذ ينتظرها.

سألها لوكا: «هل أنت جاهزة؟».

**فهزت بيتي برأسها وقالت: «نعم».**

**أمسك لوكا يديها بيديه، إلاّ أنها أحست بوجود إيفي والبستاني وهما يقفان في مكان قريب، بما أنهما كانا الشاهدين الوحيدين على تلك المراسم، ولكنها لم تكن لتعير اهتماماً لأي شيء آخر عدا لوكا الذي كان أمامها.**

**لم يكن أي منهما يريد أن يقيم حفلة صاخبة، أو أن يدعو الضيوف إلى هذه المناسبة، وذلك لأنها مناسبة خاصة بهما، وهي تتعلق بقيام كل منهما بالتعهد بالحب تجاه الآخر أمام الله، على ألا تفارقهما ذكرى شارلي.**

**أجل، كانت هذه مناسبة تخص مستقبلهما.**

**قال لها: «أحبك يا بيتي».**

**فأخذت ترمش بعينيها لتزيل دموعها وهي تقول: «وأنا أحبك يا لوكا، أكثر مما تتخيل».**

# الفصل الرابع

# والأربعون

كان الشعور الوحيد الذي سيطر على جسد بيتي في تلك اللحظات هو الشعور بالسعادة، فأخذت تضغط على يد لوكا حينما وضعها فوق ركبتها تحت الطاولة. لم يكن هذا حقيقياً، إذ بعدما جعلها تعتقد أنهما سيخرجان لتناول عشاء بسيط، عمد لوكا إلى تحويل ليلة زفافهما إلى ليلة لا يمكنها أن تنساها بحياتها.

كانت مصابيح خفية قد عُلِّقت على أغصان الأشجار فوقهما، فأخذت الأضواء ترسم ظلالاً متشعبة فوق الطاولة، كما كانت القناديل الورقية تتأرجح بنعومة مع النسيم. كانا قد دعيا للحفلة بعض الضيوف، وبالرغم من ثرائهما الفاحش، إلاّ أن بيتي لم تجد سوى صديقتيها لتدعوهما إلى حفل زفافها.

ومع ذلك، ساد الضحك أجواء تلك الليلة.

«بيتي؟».

التفتت بيتي لترى جون التي جلست بجوار زوجها، أما إيفي فقد ترأست الطاولة، بينما جلست أليس ورالف في الجانب المقابل.

قالت لها جون: «أتتذكرين كم تناولتِ من طعام على ظهر السفينة؟ أجيبي على سؤالي بصدق! إذ لا أعتقد أنني تحدثت معك حديثاً لم ترد فيه كلمة شوكولا».

فأردفت أليس وهي تضحك: «أو رقائق، كما في: رقائق الشوكولا».

فما كان من بيتي إلاّ أن ضحكت معهما وقالت: «حسناً، كنت حينها أتناول الطعام عن شخصين، وهذا لا يعني أنني كنت مولعة بالطعام دون سبب وجيه».

عندها، لمس لوكا خدها، فاستدارت نحو راحة يده. وهنا أحست أن الأمور تتم على ما يرام وذلك لكونها معه وبصحبة صديقاتها. لذا، كان كل شيء مناسباً وفي مكانه الصحيح بالفعل.

وهنا أعلن لوكا وهو يبعد ناظريه عنها وينظر إلى الجالسين إلى الطاولة: «أقترح أن نشرب نخباً».

ثم وقف ومد يده التي كانت تحمل كأساً في الهواء، بينما أخذ يشد بيتي لتقف بجانبه بيده الأخرى، وبعدها قال:

«لا أحد يحس بالدهشة أكثر مني لأنني أقنعت بيتي بأن تصبح زوجتي أخيراً». فضحك الجميع، بمن فيهم بيتي.

ثم تابع بالقول: «لقد رأيت في بيتي شيئاً مميزاً منذ أول يوم دخلت فيه بيتي. وبالرغم من أنني لم أكن أريد أن أعترف بذلك، إلاّ أنني أحببتها منذ فترة طويلة؛ قبل أن أعلن لها عن ذلك بصراحة».

عندها، سكت الحاضرون وأخذوا يصغون إليه؛ إذ كانوا ينتظرون أن يسمعوا من لوكا ما كان يريد أن يقوله بعد ذلك.

قال لوكا: «لقد قطعتن أيتها الفتيات مسافة طويلة لتصلن إلى هنا، لأنكن وثقتن بمن أحببتن من الرجال، ورحّبتن بالحياة التي كانت تنتظركن». ثم صمت هنيهة، وشد على يد عروسه أكثر، وبعدها تابع قائلاً: «أعتقد أن ما أحاول قوله لكنّ هو أنني سررت لمجيء بيتي إلى هنا، وسررت لأنها تزوجت من أخي، ولأنه تمكن من جعل هذه المرأة الرائعة تظهر في حياتي. فلقد أصبحت اليوم زوجاً وأباً، لذا لا يمكنني أن أصف مدى سعادتي بذلك». وهنا تنحنح، وبعدها قال: «كما أحب أن أذكر فضل شارلي بشكل خاص هنا». ثم ابتسم إلى بيتي وتابع: «كم أتمنى أن أبذل أي شيء مقابل رجوعه إلينا، لكنني أعرف أنه لن يعود، وأتمنى أن يعرف أنني سأعتني ببيتي طيلة حياتي، ولن أدعها تنساه، وأعده بأنني سأخبر ابنه بكل شيء يتعلق بوالده الطيار الجسور». وهنا دمعت عينا لوكا، أما بيتي فأبعدت ناظريها عنه حينما كانت تمسح الدموع التي انهمرت على وجنتيها.

وفي تلك اللحظة، هتف رالف وهو يرفع كأسه في الهواء: «بصحة العروسين الجديدين».

صاحت بيتي وهي تحمل كأسها أمامها: «وبصحة مادلين تلك الصديقة التي تعرفنا عليها حينما كنا وسط البحر».

ثم قرعوا جميعاً كؤوسهم ببعضها، وتناول كل منهم رشفة من كأسه، ثم ظهر نادل من داخل البيت وهو يحمل الحلوى، فعاد كل منهم إلى مقعده، باستثناء بيتي التي كانت تتحين اللحظة المناسبة، لذا هتفت حينما أحست أن الوقت قد حان:

«قبل أن نتناول الحلويات، أحب أن أخبركم أن لدي رسالة من مادلين التي طلبت مني أن أقرأها لكم اليوم، وذكرت فيها أنها كانت تتمنى أن تحتفل معنا بهذه المناسبة».

وهنا نظرت إلى أليس ثم إلى جون، فوجدت كلاً منهما تهز برأسها وكلها شوق لتسمع أخبار مادلين.

مدت بيتي يدها تحت منديلها حيث كانت قد وضعت ورقة الرسالة المطوية، ثم رفعتها نحو أقرب ضوء إليها. كانت بيتي قد قرأت الرسالة لوحدها عدة مرات، لدرجة أنها حفظتها غيباً، لكنها لم تكن تريد أن تفوت أي كلمة منها.

ثم بدأت بيتي بقراءة الرسالة:

«إلى صديقتَيّ العزيزتين، وإلى بيتي في يوم زفافها. حسناً، لا يمكنني أن أتفوه بأي كلمة سيئة حول اختياركِ لزوجك يا بيتي، حتى إن حاولت؛ إذ لا يمكن لأي رجل أن يقدم المساعدة التي قدمها لي زوجك الطيب، بالرغم من أنني كنت أشك في أنه كان يحاول أن يؤثر عليك من خلال ذلك».

وهنا ابتسمت بيتي ونظرت إلى لوكا، فهز كتفيه بلا مبالاة وواصل الابتسام.

تابعت بيتي القراءة:

«إلا أن ما يمكنني أن أقوله من صميم قلبي هو أنني أريدك أن تكوني سعيدة، وكذلك ويليام الحبيب، بالرغم من أنه ليس بوسعي أن أتواجد معكم. ثم إنني بغاية السرور لأنني عدت إلى الوطن، إذ أحسست بأنني كنت قد دخلت في سبات لمدة سنة، ومن بعدها استيقظت لأجد صوت أمي، وأنعم برائحة الشاي وهو يغلي فوق المدفأة، وأنعم كذلك بالسير في شارعنا، وكل الأشياء التي افتقدتها حينما كنت في أمريكا. وبالرغم من أنني قد لا أتقبل بحياتي فكرة رحيل أبي، إلاّ أنني أحس بأنني قريبة منه هنا، وهذا كل ما يهمني.

لست أدري كيف فكرت في يوم من الأيام أنه بوسعي أن أعيش بعيداً عن وطني، لكنني حاولت على الأقل، لذا فالشيء الوحيد الذي لا أندم عليه هو تعرفي عليكن يا فتيات. كما كان من المحتمل أن أحس بالضياع ومرارة الفقد لولا وجود ابنتي الجميلة في حياتي. لذا، إنني أحدثها في

أغلب الأحيان عن خالاتها المميزات اللواتي يعشن في الجانب الآخر من هذا العالم، في بلد يقع تحت هذه السماء الواسعة».

وهنا بدأت بيتي تمسح عينيها، لكنها لم تجرؤ على النظر إلى صديقتيها لأنها خشيت أن تراهما تبكيان أيضاً. غير أنه كان من الصعب عليها أن تقرأ كلمات مادلين دون أن ترى ردة فعلهما.

ومع ذلك تابعت قائلة:

«أتمنى لكنّ يا عزيزاتي حفلة عرس رائعة، ولكم كنت أتمنى أن أكون معكن، لذا أريد منكن أن تعدنني بألا تنسينني، لأنني لن أنساكن ما حييت. مع حبي وقبلاتي لكنّ. مادلين».

وهنا، أحاط لوكا كتفي بيتي بذراعه عندما جلست في مكانها. حتى إن عينَي إيفي كانتا قد دمعتا؛ وذلك ما اكتشفته بيتي حينما تجرأت أخيراً على إلقاء نظرة على من كان موجوداً حول الطاولة.

«بصحة مادلين». صاحت أليس وهي تقف رافعة كأسها لتشرب نخب صديقتها مرة أخرى، ولكن بحماسة أكبر هذه المرة.

فأكدت جون فكرتها بالقول: «بصحة مادلين». وهذا ما لفت انتباه بيتي حينما وقفت وهي تبتسم.

ثم صاحت أليس: «بصحتنا نحن الفتيات بعد أن قطعنا تلك الرحلة المريعة التي حملتنا إلى هنا».

***

أخذت الموسيقى تصدح حولهم وكأنها تشدو من تلقاء نفسها. وهكذا، انشغل لوكا بالأصوات، بينما أخذ رالف يهز أليس أثناء الرقص ثم جعلها تدور. وأخيراً، خلع الجميع أحذيتهم ليرقصوا على المرج، فأخذت جون تنتظر إيدي ليفك رباط حذائه وينضم إليها.

إلا أنه أخذ يتذمر ويقول: «لست أفهم لماذا عليّ أن أخلع حذائي أنا أيضاً».

فدفعته جون مازحة وهي تقول: «لأنك قد تكسر أصابع قدمي الصغيرة بخفك الثقيل الذي يعلوه التراب».

سألها مستغرباً: «خفي؟!».

فهزت رأسها لتستبعد الفكرة وقالت له: «انسَ الموضوع، هيّا تعال!».

كانت جون تحب أن تغيظه مازحة، إلاّ أنها كانت تحب أن ترقص معه أكثر؛ حتى لو كانت تقف على عكازين، لأنها لم تكن تعشق أي شيء آخر بقدر ما كانت تحب أن تكون بين ذراعيه.

سألها إيدي: «ألم تخبريهم بعد؟».

فهزت كتفيها بلا مبالاة وهي تسأل: «عن ماذا؟».

فقال: «عن الطفل؟».

فشدته إليها وقالت: «اليوم يوم بيتي، لذا بوسعنا أن نخبرهم عن موضوع التبنّي في وقت آخر، كما أن الأمر لن يصبح واقعياً إلى أن يصبح الطفل بين يديّ».

كانا قد وقّعا وثائق التبنّي بالأمس، وكانت الشابة متحمسة جداً حينما عرضا عليها الفكرة،

وأخبراها بأنهما يمكن أن يوفرا البيت والأسرة لطفلها الذي لم يولد بعد؛ وهي أمور تحلم كل أم بتوفيرها لطفلها.

قال لها: «هل تصدقين أنه سيكون في بيتنا طفل خلال أقل من شهر؟».

فابتسمت جون، وعندها ضمها إليه فقالت له: «قد نحتاج لغرفتَي نوم للأطفال أيضاً».

وهنا توقّف إيدي، وثبّت قدميه بالأرض وبعدها قال: «أتعتقدين أنها قد تلد توأماً؟».

وهذا ما جعل جون تضحك؛ لأنها كانت تعرف أنه لن يستوعب ذلك، ولكنها لم تكن قد فكرت بذلك الاحتمال، ولهذا ردت عليه بالقول:

«لا أظن ذلك».

ثم حاولت أن تحافظ على تعابير وجهها الجدية.

سألها: «إذاً، ماذا؟».

فمالت جون نحو زوجها، ووضعت فمها فوق أذنه ثم همست:

«علينا أن نحضِّر غرفتَي أطفال لأنني حامل يا إيدي».

إلا أنه بقي ثابتاً بلا حراك.

فصاحت بصوت أعلى هذه المرة وهي تقول: «هل تسمعني؟».

سألها: «حامل؟».

فأخذت جون تدور معه وهي تضحك على التعابير التي ارتسمت على وجهه، ثم أكدت له بالقول:

«إنني حامل. وهكذا سيصبح لدينا طفلان يا إيدي. أجل، طفلان».

أخذ إيدي يهز رأسه غير مصدق، ولكنها رأت ابتسامة ترتسم على فمه حينما كان يراقبها، وأخيراً قالت له:

«ماذا؟».

فضحك إيدي وقال: «اعتقدت أنني من سيفاجئك الليلة».

عندها، أتى دورها لتجمد في مكانها وتكف عن الحركة، غير أنها قالت له:

«إدوارد ويست، عليك أن تخبرني الآن وفي هذه اللحظة بالذات بما تخفيه عني».

فردّ عليها بالقول: «سيصل والداك غداً. كان من المفترض أن يبقى هذا سراً، إلاّ أنني لا أفلح في إخفاء الأمور عنك».

صاحت جون: «غداً!».

فضحك وحملها بين ذراعيه وهو يقول:

«غداً، وسيكونان بانتظارنا في البيت حينما نعود».

***

وضعت أليس رأسها على كتف رالف حينما صعدا الأدراج معاً نحو بيت بيتي ولوكا، حيث

**كان من المفترض أن يبيتا هناك. وهكذا، أمضيا ليلة طويلة ولكنها ممتعة؛ إذ كانت تحس بالسعادة لمجرد وجودها مع بيتي وجون ولقائها بهما مرة أخرى، حيث تكوّنت بينهنّ رابطة لا يمكن لعراها أن تنفصم، فكانت أشبه بشيء أصبح يشدهن لبعضهن للأبد.**

**سألها رالف: «هل أنت سعيدة يا أليس؟».**

**فتوقفت وأمسكت بيدَي زوجها؛ إذ لم يكن بوسعها أن تجيب على سؤاله بأي كلمة أخرى سوى أجل، فلقد نالا نصيبهما من المصاعب، وتعبا في وقت اعتقدت فيه أليس أنه من المستحيل أن يتجاوزا ما مرا به. كما أنها ارتكبت خطيئة لا تغتفر، لكنهما تجاوزا كل المشاكل، ونجحا في ذلك، وهكذا أصبح أمامهما المستقبل ليعيشاه بسعادة.**

**قالت له: «لست أدري كيف أعبر لك عن مدى سعادتي يا رالف. لكنّ جوابي باختصار هو أجل، أنا سعيدة».**

**فما كان منه إلاّ أن انحنى ليقبلها وهو يقول:**

**«حتى بعدما قررت والدتي أن تقيم معنا أسبوعين آخرين؟».**

**عندها قبّلته هي أيضاً، وأخذت تتمتم دون أن تترك شفتاها شفتيه:**

**«مممممم... هممممم».**

**فقال لها: «سنرى. إذ يمكنها أن تعيدك إلى البيت بالسيارة فوق المحيط».**

**ردت أليس وهي تتأبط ذراع زوجها: «إطلاقاً. إذ لن أتركك يا رالف نهائياً، هذا وعد مني».**

# الفصل الخامس

# والأربعون

أخذت مادلين تتفحص القاعة، حيث بذلت كل ما بوسعها لتستنشق الهواء الذي ملأ رئتيها بكل هدوء، لكنها خشيت أن يخرج ذلك الهواء من فمها أشبه بلهاث.

لم تكن معتادة على كثرة الناس حولها، لا سيما تلك الحشود التي تجمعت لتراها.

كانت القاعة تعج بالناس، حيث اختلطت فيها الأصوات بشكل يصم الآذان، فكانت تخترق أذنيها وهي تحاول ما بوسعها لتصمّهما عن كل ذلك الضجيج. وعندها، تمنت أن تكون في بيتها، وأن تعود إلى أسرتها، لتتكور فوق كرسيها بالقرب من المدفأة، وتلف ذراعيها بشال، بدلاً من أن تستعد للكلام. غير أن بيتها كان يبعد عن هذا المكان مسافة رحلة بالقطار على الأقل، أي لم يعد هنالك محيط يفصل بينها وبين المكان الذي تحب أن تكون فيه.

وفجأة، أحست بأحدهم ينقر على كتفها ثم يقول:

«لقد حان الوقت يا سيدة باركر».

عندها، بدأ نبضها يتسارع من جديد، وأخذت الحرارة تجتاح وجهها، ليصل الاحمرار الملتهب إلى رقبتها.

قال لها: «سيدة باركر».

فهزت برأسها بقوة أكبر هذه المرة وهي تقول: «نعم، نعم بكل تأكيد».

فقال لها: «إذاً، تعالي من هذه الناحية».

وعندها تنحنحت، وحاولت أن تتجنب النظر في وجه شخص معين من بين الحاضرين، ثم ركزت على البقعة التي ظهرت على الجدار الخلفي، وهي تحاول أن تحتفظ برباطة جأشها.

غير أن وميض ضوء الكاميرا جعلها تغمض عينيها ثم تفتحهما بسرعة، إلاّ أنها حافظت على تركيزها، لأنه كان من المفترض أن تلقي الخطاب كما تدربت عليه بالضبط، وإن أخطأت فعندها يمكنها أن تكتفي بقراءة الملاحظات؛ وذلك في حال لم تسعفها راحتا يديها المبللتان بالعرق على قلب الصفحة أولاً.

كان الجميع بانتظارها لتبدأ الكلام.

فشرعت تقول: «لقد تعلمت الكثير خلال الفترة التي أمضيتها في أمريكا كعروس أجنبية». ثم أخذت مادلين نفساً عميقاً، وحاولت أن تحافظ على إيقاع معين وتابعت بالقول: «في البداية، أدركت أن الحياة دون عائلة وأهل في دولة أجنبية شيء أشبه بالمستحيل؛ على الأقل حينما تعاملك عائلتك الجديدة، تلك العائلة التي ضحيت بالكثير لتلتحقي بها، كغريبة وأجنبية».

وهنا حاولت مادلين أن تبطئ من سرعتها، إذ كانت بحاجة للهدوء، وذلك لتصور للحاضرين كيف كانت ظروف حياتها في تلك البلاد؛ لأنها كانت بحاجة إلى أن تتكلم من صميم قلبها.

بقي الجمهور صامتاً، حتى حينما شربت رشفة من الماء. ولكنها لم تقم بأي تواصل بصري مع جمهورها حتى تلك اللحظة، إذ لم يكن الوقت قد حان لذلك، نظراً إلى كونها لم تكن واثقة من

نفسها تمام الثقة للقيام بتلك الخطوة، فقد قفزت من مكانها حينما سمعت صوت سعال، إلاّ أنها أجبرت نفسها على مواصلة الكلام بالقول:

«لقد غادرت بلادي وقلبي مفعم بالحب، وكنت على استعداد للتخلي عن أي شيء من أجل زوجي، لكنني أجد نفسي الآن أسأل عن التضحية التي يتعين على المرأة أن تقدمها. إذ هل يتوجب على الزوجة الجديدة أن تتقبل فكرة أن زوجها قد خدعها؟ أم هل عليها أن تقبل ببيت خالٍ من المحبة، حيث يتم التعامل معها وكأنها أمة؟».

وهنا سمعت همهمة بين الجموع، لكن ذلك لم يوقفها، بل كفّت عن الكلام لفترة قصيرة فقط لتستعيد أنفاسها، ولتقوم عيناها بمتابعة الكلام المكتوب على الورقة، لأنها إن تلعثمت في هذه اللحظة فلن يكون بمقدورها أن تبدأ من جديد مرة أخرى.

تابعت قائلة: «قد تتساءل الكثيرات منكن عن مدى سلبية تلك التجربة، وكيف تركت زوجي ورحلت، إلاّ أن جوابي يتلخص في طلبي من كل من تتساءل أن تنظر إليّ وتضع نفسها في مكاني. فلقد تزوجت رجلاً قال لي إنه يحبني، ووعدني بأمور لم يكن هنالك أي داعٍ للشك في عدم وجودها. ولهذا أسألكم جميعاً: هل يستحق أي طفل من أطفالكم أن يعيش في بيت خالٍ من المحبة في الوقت الذي تنتظره فيه أسرة يمكنها أن تمنحه ذلك الحب في لندن؟ هل بإمكانكم أن تتخيلوا شعور الشخص الغريب عن وطنه، شعور الأجنبي، شعور الإنسان الوحيد في بلاد غريبة؟».

كانت مادلين تعرف أن ذلك قد يدفع بعض المتواجدين للمغادرة، إلاّ أن ذلك ما كانوا يريدونه؛ فالصحيفة كانت تسعى لإقامة مناظرة، ومادلين بحاجة للمال، إذاً لم لا تخوض تلك التجربة؟ ثم إنها كانت تود أن تحكي قصتها، لأن قصتها تعكس الحقيقة، وهي ليست كأي رواية تم تلفيق أحداثها، بل كانت أحداثها حقيقية، ولهذا كانت ترغب بأن تقصها على الناس.

أكملت: «لا أندم على الفترة التي أمضيتها في أمريكا، إذ بالرغم من المصاعب التي واجهتها أصبحت لدي ابنة جميلة سأظل أحبها وأقدر وجودها ما حييت، كما تعرفت على صديقات ستبقى مكانتهن في قلبي محفوظة إلى أن أموت، ولهذا كانت تلك الفترة بالنسبة لي بمثابة تجربة يستحيل علي أن أنساها، وهي فترة أقدرها وأعرف قيمتها من بين الفترات والمراحل التي عشتها في حياتي، ولا بد لذكرى تلك الفترة أن تراودني، إلاّ أنه لمن دواعي سروري أن أخبر الجميع بأنني تجاوزت تلك المرحلة».

وهنا أخذ صوتها يختنق بالعبرات، ولكنها أجبرت نفسها على مواصلة الكلام، بل كان يجب عليها أن تفعل ذلك، إذ كان بوسعها أن تبكي في ما بعد. أما في هذه اللحظة، فقد كان يتعين عليها أن تحكي الجزء الأخير من قصتها، إذ كانت تشعر بالغضب كلما تذكرت كيف رحلت، وما الذي جعلها تتخلى عن كل شيء أخيراً، غير أنها لم تستطع أن تتعايش مع فكرة خسارتها لوالدها، بل لم تستطع أن تنسى أنها فقدته أصلاً.

تابعت مادلين بالقول: «إن النساء اللواتي التقيتهن وأنا في طريقي إلى أمريكا أصبحن صديقاتي المقربات، غير أن قصصهن مختلفة عن قصتي. وبالرغم من أنهن لن نصيبهن من المصاعب أيضاً، إلاّ أنهن وقفن إلى جانبي خلال الأوقات العصيبة، وساعدنني في الكشف عن الطريق الذي يفضي لسعادتي. ولهذا، إنني أعبّر لهن من هذا المنبر عن عميق امتناني الذي سأبقى أدين لهن به إلى الأبد.

لو سنحت لي الفرصة لأعيش الحياة التي كنت أحلم بها، لما كنت قد ترددت حينما طلب زوجي يدي للزواج. وربما لو تزوجت الشخص الذي أستحقه، لما فشلت في تلك التجربة. إلاّ أن كل ما أعرفه الآن، وكل ما بوسعي أن أفكر فيه، هو أن أقول إن ابتعاد المرأة عن أهلها لتجد فرصة

للحب أشبه بفرصة تحيط بها مخاطر جمة؛ إن كان لا بد من المجازفة». وهنا توقفت لتقول أخيراَ: «أشكركم».

كانت مادلين في هذه اللحظات مشتاقة لصديقاتها أشد الاشتياق، وكانت على استعداد للقيام بأي شيء مقابل أن ترى بيتي وجون وأليس مرة أخرى، ولكنها تعرف أنها لن تراهن مجدداً؛ إلا إن قامت إحداهن بزيارة بلادها. لذا، كان عليها في هذه الفترة أن تقتنع وتحس بالرضى لأنها تراسلهن، ولأنها تقص حكايتها على الناس.

قطع الناشر أفكارها بقوله: «لمعرفة المزيد عن الفترة التي أمضتها السيدة باركر في أمريكا، يمكنكم شراء نسخة من مذكراتها والتي بوسعها أن توقعها لكم إن شئتم. كما أننا سنبدأ في نشر سلسلة من المقالات حول هذا الموضوع ابتداء من يوم الاثنين من الأسبوع المقبل في صحيفة ذا هيرالد».

ثم هتف أحدهم: «سيدة باركر!».

وصاح آخر: «مادلين!».

فردّ الناشر: «لن تجيب السيدة باركر على أي سؤال».

هتفت إحدى النساء: «ولكن، هل هذه القصة حقيقية؟ إذ ما الذي يقولونه عن فتياتنا الإنكليزيات وأحلامهن الوردية؟».

عند ذلك، توقفت مادلين وبدأ قلبها يخفق بسرعة.

وبالرغم من أنها لم تكن مضطرة للإجابة على الإطلاق، إلاّ أنها كانت راغبة في ذلك.

ولهذا التفتت وعادت إلى المنصة التي أعدت لها خصيصاً، وباتت على استعداد للتحدث إلى الجمهور مرة أخرى.

ثم قالت: «لقد اطلعت على العديد من التقارير التي ظهرت في صحف عدة هنا وفي أمريكا حول عرائس الحرب اللواتي خاب ظنهن». وهنا سمحت لنفسها بأن تضحك بعصبية، ثم تابعت بالقول: «لقد كانت أمي تمزق تلك المقالات، لكنني اطلعت عليها كلها منذ رجوعي».

وهنا صمت كل من في القاعة، فلم يُسمع حينها سوى صوت ضحكة غريبة.

تابعت مادلين: «إنني متأكدة بأن هنالك الكثير من العرائس اللواتي خاب ظنهن، أو لعله ليست هنالك أي عروس قد خاب ظنها. لكن، كل ما بوسعي أن أقوله وأنا على يقين منه هو أنني لم أكن واحدة منهن. إذ حينما أخبرني زوجي أنه يعيش في مزرعة وأن عائلته سوف تحبني صدقته بكل بساطة؛ إذ لم أكن أحلم بالمال أو بحياة راقية، لأن كل ما كنت أريده هو أن نقيم بيتاً وأن نعيش على الحب. أي أن ذلك لا يتعلق بالحقيقة التي لم تكن مطابقة لفكرة رومانسية فكرت بها يوماً، كما أنني لم أتمرد بسبب العمل الشاق الذي كان عليّ أن أقوم به لأجل زوجي، بل تمردت لأنني امرأة كانت بحاجة إلى زوج حقيقي، وأسرة حقيقية، وفرصة حقيقية لتحيا حياة سعيدة».

ثم ابتعدت مادلين قليلاً حينما احتل ناشر قصتها وسط المنصة، إلاّ أن عينيها بدأتا بالتنقل بين الوجوه الكثيرة، فرأت نتائج مختلفة؛ إذ شاهدت الحزن وقد خيم على البعض، بينما أبدى آخرون تفهمهم، أما الباقون فقد عبروا عن قرفهم واشمئزازهم، أو لعلهم بكل بساطة لم يستوعبوا ما قاسته.

غير أن كل ما كان يهمها في تلك الأثناء هو رأي عائلتها بالموضوع، وكذلك رأي ابنتها، ورأي صديقاتها اللواتي ساعدنها على الهروب؛ وذلك لأن الأشخاص الذين بوسعهم أن يتفهموا وضعها هم الذين كانوا يهمونها. لذا، إن كان سرد قصتها سيشجع فتاة واحدة فقط على التخلص من

**وضع مماثل، فهذا يعني أن الأمر يستحق التجربة.**

**قال الناشر: «ستستريح السيدة باركر لبعض الوقت ومن ثم ستلاقيكم في الردهة إن كنتم تودون أن تطرحوا عليها أي سؤال، أو إن أردتم منها أن توقع على نسخكم».**

**وهكذا ابتعدت مادلين عنهم جميعاً.**

**ولأول مرة منذ مغادرتها لأمريكا تمنت لو أنها تعود إلى هناك، لتقضي فترة ما بعد الظهيرة ليوم واحد فقط، حيث يمكنها أن تجلس تحت أشعة الشمس في بيتٍ بيتي مرة أخرى، وليلتم شمل الصديقات الأربع، وليتجاذبن أطراف الحديث، فيضحكن ويبكين معاً؛ وذلك لأنهن النساء الوحيدات في عالمها اللواتي سيتفهمن مشاعرها وما قاسته بحق، إلى جانب تفهمهن للسبب الذي دفعها للرحيل.**

**أجل، لم تكن لتنسى ذلك النادي الصغير المخصص لعرائس الحرب، وكانت متأكدة من أنهن لن ينسين ذلك أبداً.**

**نظرت مادلين إلى الخلف لترى الجموع وهي تسير على غير هدى، لكنها لم تكن متأكدة بعد من مشاعرها إزاء طريقتها بقص حكايتها. وبما أن ذلك كان يعني شيئاً من الأمان المادي لأسرتها الصغيرة المكونة من شخصين، إذاً كان الأمر يستحق ذلك العناء. ولكن... كانت تلك الـ لكن تتجلى لها دوماً مع كل أمر يتصل بإفشاء أي شيء عن حياتها الشخصية.**

**عند ذلك، أغمضت مادلين عينيها للحظة، وتخيلت صديقاتها جون وبيتي وأليس وهن يقفن جميعاً هناك بين الجمهور المحتشد في القاعة، ثم أخذت تتخيل نفسها وهي على وشك أن تتحدث إليهن بصراحة حول ما حدث معها بدلاً من مخاطبة جمهور من الغرباء.**

**وحينما فتحت عينيها، أدركت أن ابتسامة كانت قد ارتسمت على شفتيها في تلك الأثناء. إذ مهما كان ما مرت به من مصاعب، ومهما كانت تجربتها قاسية، كانت ترى أن تلك التجربة تستحق كل ذلك؛ فبفضلها رزقت بابنة، كما تعرفت على أفضل صديقات في حياتها.**

# شكر وتقدير

إنني أحس بأنني محظوظة للغاية لأنني أمارس مهنة أحبها بحق، إذ حتى حينما أكون متعبة وتصبح شاشة الحاسوب آخر شيء أود أن أحدق فيه، أذكّر نفسي دوماً بأنه من الرائع أن أكسب قوت يومي من كتابة القصص. غير أنه ليس بمقدوري القيام بما أحبه دون دعم الفريق المدهش الذي يساعدني، وذلك لأنني أم لطفلين صغيرين، ثم إن عملي أشبه بوظيفة بدوام كامل، لذا أتقدم بعميق شكري لأمي الرائعة التي تساعدني بشكل يومي، فلولا مساعدتها لكنت قد ضعت. ولهذا، أود أن أخصها بالشكر لكونها أفضل «جدة ومربية أطفال»، وذلك من أجل كل الحوارات التي أجريناها معاً حول مشروعي الأخير، ومن أجل كل الوجبات الرائعة التي أعدتها لنا، وخاصة حينما شارفت على الوصول إلى آخر موعد للتسليم. كما أود أن أعترف بفضل والدي العظيم، والذي سمح بقلبه العطوف لولدَيّ أن يطلقا عليه اسم: «غانج».

وأشعر بأنني محظوظة بزوجي الذي لا يستغرب حينما أحدق في الفراغ، وأفكر بملامح شخصيات رواياتي. أجل يا هيميش، لقد كنت بطلاً واقعياً بحق في حياتي، وإنني أقدر كل جلسات استنهاض الأفكار التي تحملتها معي، وكل الأوقات التي سهرت فيها معي لوقت متأخر من الليل لئلا أبقى أعمل طيلة الليل بمفردي، كما أقدر لك دعمك المتواصل وتشجيعك لي على عملي (حتى خلال تلك السنوات الطويلة قبل أن ينشر لي أي كتاب).

وهنا أحب أن أذكر بشكل خاص أصدقائي المؤلفين، وعلى رأسهم ناتالي التي أعتبرها الصخرة التي أعتمد عليها، والتي وقفت بجانبي لسنوات طويلة، ونيكولا الذي أحب أن أقول له: ترى أين كنت سأصبح لولا نصائحك ودعمك؟ وكذلك إيفان الذي أحب أن أقول له: أشكرك لأنك كنت أفضل «زميل يكتب بسرعة» في العالم. وإنني أكره أن أمضي في تلك الرحلة دونكم أنتم الثلاثة!

وأود أن أشكر أيضاً وكيلة دار النشر الاستثنائية لورا برادفورد، وأحب أن أقول لها إن دعمها ونصائحها ومساعدتها لي خلال السنتين الماضيتين كانت جميعها لا تقدر بثمن. ولهذا، إنني أعرف قيمتها أكثر مما قد تتوقع، وأشكرها من أعماق قلبي.

ولا بد لي أن أذكر هنا وبشكل خاص المحررة العظيمة صوفي ويلسون، وأن أقول لها إن تجربة العمل معها كانت مذهلة، وإن الكتاب يدين لها بفضل كبير ولما أضافته عليه.

وأخيراً، الشكر موصول لإميلي مارنيور التي تعمل كمحررة مهمتها استلام مخطوطات الكتب لدى مؤسسة أمازون للنشر. إذ أشكرها لقيامها بقراءة كتابي وتعبيرها عن حبها وإعجابها به! إذ ما زلت أبتسم كلما فكرت بكل تلك الكلمات الجميلة التي وصفت بها هذه القصة؛ هي وزملاؤها في العمل.

# لمحة عن المؤلفة

**كانت ثريا لين تحلم بأن تصبح كاتبة منذ أن كانت طفلة. وبعد مرور بضع سنوات، تمكنت ثريا من تحقيق حلمها! وهي تصف عملها في الكتابة والتأليف بأنه: «أفضل عمل في العالم». تعيش ثريا مع بطل حياتها الواقعي وطفليها الصغيرين في مزرعة صغيرة في نيوزيلندة، حيث تحيط بها الحيوانات، وتعمل في مكتب يطل على أرض يمكنها أن ترى فيها الخيول وهي ترعى.**

**للمزيد من المعلومات حول ثريا وكتبها وحياتها في مجال التأليف، يمكنكم زيارة موقعها الإلكتروني:**

**sorayalane . com**

**أو صفحتها على الفيسبوك عبر الرابط:**

**www . facebook . com / SorayaLaneAuthor ،**

**كما يمكنكم متابعتها عبر حسابها على التويتر من خلال الرابط:**

**Twitter. @ Soraya _ Lane**